

تاريخ  
المسلمين في بلاد الروم

تأليف  
جرجي زيدان

المجلد الثاني

منقورات دار مكتبة الحياة  
بيروت



فَاتَمَحُّمُ الْمَدِينَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

# تاريخ المجدد للإسلامي

تأليف  
عزجي زبدان

## الجزء الثالث

يبحث في ثروة الدولة الإسلامية و ثروة رجال حكومتها وخلفائها ،  
وأسباب تلك الثروة ، وأسباب اضمحلالها ، و ثروة المملكة ومدنها وقراها



منشورات دار مكتبة الحياة  
بيروت - لبنان





## مُقَدِّمَةٌ

العلم اعظم اركان الحضارة واقوى اسبابها ، والبحث في علوم الأمم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين ، وخصوصاً في الاسلام ، لعلاقة العلوم الاسلامية باحوال دوله وسياستها . ولذلك كانت أبحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي أهم ابحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله ، لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما أنتجته عقول البشر ، من أول عهد المدنية الى ايامهم ، في العقليات والنقليات ، فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الأمم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكان هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والأدب ، من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام ، فضلاً عن تاريخها فيه .

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتاب من الافرنج وغيرهم ، أن المسلمين او العرب قلما أفادوا العلم ، لأنهم نقلوه عن اليونان ولم يزيّدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون الى أن نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان ، بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وافسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب ، وتوالى وتنوّل الى اوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقه او نقده احد من العرب او المسلمين .

على ان المنصفين من مستشرقى الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي أفضلاً على العلم أشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجالي ، اذا قرأ العربي انشرح صدره ، فإذا اراد تحقيقه ذهب اكثر سعيه عبثاً . ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء ، لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج في هذه الموضوعات مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مآثر منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا بصحتها .. إذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في العصور الوسطى ، واكثرها يحتاج إلى

تحريض ، كرحلة بفيامين التطيلي اليهودي التي وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين في القرن الثاني عشر لميلاد ، فقد ضمنها من الحوادث والأخبار ما يخالف التاريخ ، فضلاً عما فيها من المبالغات والغرائب . . كتبها الرحالة المذكور باللغة العبرانية ، ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر ، والى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، والى الانجليزية في القرن التاسع عشر .

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية ، وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسرى في كلامنا عن تاريخ المدارس أنها لم تبصر إلا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا بنقلون هذه الأخبار على علانها فرحاً بتمداد مآثر العرب ، ولو نقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الثاني ، اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالمصادر التي ننقل عنها ، وقد أخذ باقتراحه . واصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من اخطاء المؤرخين في هذا السدد . لا نشق الا بما يؤيد بالاسناد الى اصول التاريخية او بقرينة لا تقل قوة عنه .

\* \* \*

على اننا لا نرى بداً من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بأاديبهم او تاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلاً ، وكقولهم ان عرب الأندلس علموهم صنع رقاص الساعة ، وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلاً ان العرب صنعوا المركب الفلاني ، او اكتشفوا المادة الفلانية . واما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والأدب والعلوم وهي كثيرة ، وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية ، التي لولاهم لضاعت او ظلت في زوايا الأهمال ، ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع ، نعني كتاب فهرست لابن النديم ، والفضل في نشره للمستشرق جوستاف فلوجل Gustav Flügel وقد علق عليه ملاحظات جريئة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلداً كاملاً .

فجعلنا معولنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا بحثنا عليها في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمهيد والنقد . واستيفاء لاسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن أفاضل الافرنج وغيرهم ، في الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية ( الاوردية ) للنعماني المشار اليه سماه « رسائل شبلي » ، ذكر فيه فصولا في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتباتهم وكتبهم ذيلها بالاسناد ، وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وباحثهم في هذا الموضوع ، رجعنا الى المصادر العربية وتصفحناها بامعان وتدقيق ، فعثرنا فيها على ما دهشنا من عظمة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب ، مما ستراه مفصلاً في هذا الجزء .

### موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى : علوم العرب قبل الاسلام ، وعلومهم بعده . . فذكرنا اولاً خلاصة ما كان عند الجاهلية من العلوم والآداب ، كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الادب والانساب والتاريخ ، وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسفياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : اولاً ، العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً ، العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً ، العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة .

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزم بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الأقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم ، وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في اسباب التمدن يظلمون العرب ، وانه يجب ان يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم ، وما السبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب من تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربي وتاريخه ، ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك .

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية ، وقسمناها الى .  
العلوم الشرعية الاسلامية اي الدينية ، والعلوم اللسانية او اللغوية ، والعلوم التاريخية .  
وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير أسلوبه  
في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصادره ، والفقهاء  
والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء ، وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض .  
ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبيننا انها مما اقتضاه الاسلام ، وفصلنا الاسباب التي دعت الى  
وضع النحو ، وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك  
بالسياسة . ونشرنا فصلاً في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها واسبابها الفلسفية . ثم اتينا  
الى التاريخ والجغرافية ، فبيننا الاسباب التي دعت الى وضعها ومزيتها في اللسان العربي  
عما في سائر اللسان .

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية ، وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير  
فيهما ، وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر  
وطبقاته واسلوبه ورواياته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء واشعارهم .

\* \* \*

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية . وتهيئداً لفهم الموضوع  
قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن السنتهم ، واهمهم اليونان  
والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا اولاً تاريخ آداب اللغة اليونانية ، منذ اقتبس  
اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم  
وغيرها الى زمن الاسلام ، وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار  
الى سقراط وافلاطون فارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية  
في عصرها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما  
كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبيننا نحو ذلك في آداب  
الهنود والسريان بأسباب متسلسلة مترابطة .

ثم انتقلنا الى الكلام عن العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها ، واول من  
اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل كتب النجوم والطب  
عن الهند والفرس ، والاسباب التي حملته على نقلها ، ثم المهدي والرشيد . واسهبنا الكلام  
في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلها . واتينا بفصل خاص عن نقل العلم

في العصر العباسي وملخص تراجهم ، وجلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والجوسي والسامري ، وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي او الهندي او النبطي . وفصل في السورين ونقل العلم بينا فيه ان السورين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم .

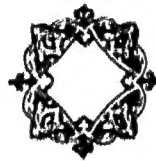
ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة ، باعتبار الموضوعات والمؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية ، وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأمة من الأمم ، فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والأطباء في الانحاء المتباعدة ، واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم بالعلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم ، وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل . ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها .

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم .. فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق ، وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية .. ومن جماتها جمعية اخوان الصفا ، وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ، ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني أو الفارسي أو الهندي ، وانه جامع بينها كلها ، واحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ الممارسات في الاسلام . ثم نظرنا فيما أدخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام ، وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ، ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام ، وما أحدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة ، وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، ثم تاريخ الفنون الجميلة وان المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتبات عندهم وعدد ما حوته من الكتب ، مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأي ، بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان .

ونعتم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكرها بما هم اهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في اوربا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور ، فقد

جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط ، وكتب بعضهم التقارير في  
المجلات الافرنجية . فاستحطنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة ، التي سبقونا الى  
احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فلستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة  
الينا أن ندون اسماءهم في صدر هذا الجزء اقراراً بفضلهم . وهذه اسمائهم بالترتيب  
الهجائي :

في ليدن	M. J. Goeje	الاستاذ دي جويه
في باريس	H. Derenbourg	الاستاذ ديرنبورج
في بطرسبرج	V. von Rosen	الاستاذ روزن
في بودابست	I. Goldziher	الاستاذ جولدتسيهر
في رومية	M. Guidi	الاستاذ جويدي
في اكسفورد	D. S. Margoliouth	الاستاذ مرجليوث



# علوم العرب قبل الإسلام

## تمهيد في جزيرة العرب واهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال ، فلم يشتغل اهلها بالزراعة لجذب الأرض . والانسان وليد الاقليم الذي ينشأ فيه ، وقد نشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجذبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى . فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، وانصرف اكثرهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها ، فنشأ بينهم التنازع عليها ، وجرم التنازع الى الغزو ، واضطروهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، ليلاً ونهاراً . وجوهم صافٍ وسماؤهم واضحة ، فعولوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا في مطاردة اعدائهم الى استنباط الأدلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الأثر ، وألجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والأعاصير ونحوها ، فعنوا بالتنبؤ عن حدوث الأمطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، ومو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح .

ودعاهم الغزو من الساحة الأخرى الى العصبية لتأليف الأحزاب ، فاهتموا بالانساب التي يترابطون بها . والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيول ، ولو كانوا اهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقاها ومعالجة امراضها .

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم . . فهم اهل ذكاء وتعقل ، لو سكنوا وادي الفرات او وادي النيل لكان منهم ما كلف من اولئك ، او ما كان من جيرانهم التبابعة ، ولكنهم اقاموا في بادية صفا جوها واشترقت سماؤها ، فصفت ادعائهم وانصرفت قرائحهم الى قرص الشعر ، يصفون به وقائهم او يبينون به أنسابهم او يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبرعوا فيلقاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، او يدعون الى الحرب او السلم او للمفاخرة او المنافرة . .

ولولا ما في فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم أكثر مما ظهر من جيرانهم سكان صحراء  
العدوة الغربية من البحر الأحمر ، فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه  
منذ قرون . وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصر هوميروس ،  
فلما تمدن العرب أتوا بثقل ما أتى به أولئك .

على ان العرب لم يسلخوا مما وقع فيه معاصروهم من الأمم العظمى ، من الاعتقاد في  
الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا ، مما ينجم عن جهل اسباب  
الحوادث مع رغبتهم في تعليل بواعثها ، ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون  
ونحوهم .

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك  
الاقليم وطبائع اهله . وقد سميها علوماً بالقياس الى ما يماثلها عند الأمم الأخرى في عصر  
العلم ، وإلا فالعرب الجاهليون لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوها في الصحف ولا ألفوا  
فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما هي معلومات تجمعت في  
محفوظهم بتوالي الأجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتوقفت في الأعقاب وما زالت تنمو  
وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علماً ، بعضها من قبيل الطبيعيات  
والبعض الآخر من قبيل الرياضيات او الادبيات او الكهانة او ما يتعلق بذلك ، ولو  
اردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار .

واذا امعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم ،  
والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الأمم الأخرى . فالعلوم العربية هي الانساب والشعر  
والخطابة ، والدخيلة هي النجوم والطب والانواء والحيل وهاب الرياح والميتولوجيا  
والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى فيما يلي :

## ١ — علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم ، وهم وضعوا أسسه ورفعوا اعمدته ، ساعدهم  
على ذلك صفاء سماءهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم ، فرصدوا الكواكب وعينوا  
اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات  
فلكية منذ بضعة واربعين قرناً ، وعنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من اهل  
التمدن القديم .



وما زال الكلدان او البابليون اهل دولة وسلطان الى اوائل القرن الثامن قبل الميلاد، فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في آدابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة وديناً، فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم وبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم، فثقل ذلك عليهم وضاعت الارض بهم، فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب، لانها كانت حى المهاجرين من العراق ومصر والشام، لامتناعها على الجنود بالصحارى الرمضاء ولسهوله الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم.

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم، فتعلم العرب منهم احكامها وأخذوا عنهم اسماءها، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس، وربما كان لهم علم بشيء من احكامها من عند انفسهم، او بما وصل اليهم من طريق الهند او غيرها. ولكن يقال بالاجمال ان العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان، وهم يسمونهم الصابئة - والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم<sup>(١)</sup> وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب، ولهم مثل منزلة النصارى او اليهود. فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائه، وان كان معظم اسماء السيارات لا يرد الى اصله الكلداني، فربما كان له اسباب عارضة ضاعت اخبارها.

على ان بعضها لا يزال اصله الكلداني ظاهراً فيه، كالمرخ مثلاً فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظاً ومعنى. ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية. فان « زحل » معناه في العربية الارتفَاع والعلو، وهي نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيار في الكلدانية. وأما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى - واليك اسماء الابراج عند كليهما :

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماسا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء او التوأمين	قامى	القوس او الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اربا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

أما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما أصاب السيارات. ولكن العبرة  
كثرت في قواعد هذا العلم ومصطلحاته ، فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً ،  
حتى لفظ « منازل القمر » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه  
المنازل ، وقد ابدلته الامم الاخرى التي اخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر ، الا  
العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة ، فقد رأيت انهم عرفوا السيارات والابراج ، وعرفوا  
عددًا كبيراً من الثوابت ، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم  
الاخرى (١) وفي قدم اسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها  
وبمواقعها ، مثل : بنات نعش الكبرى والصغرى ، والسها ، والظباء ، والربع ، والرباض ،  
والعوائد ، والذئبين ، والنثرة ، والفرقد ، والقدر ، والراعي ، وكلب الراعي ، والاغنام ،  
والرامح ، والسماك ، وعصا الضياع ، واولاد الضياع ، والسماك الرامح ، وحارس السماء ،  
والاظفار ، والفوارس ، والكف المخضب ، والحجاب ، والعيوق ، والعنق ، والجديين ، وغيرها .

أما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسماً ، خلافاً لما كان عند الهنود فانها  
٢٧ قسماً عندهم . وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك ، اذ كان مرادهم منها معرفة  
احوال الهواء في الازمنة ، وحوادث الجو في فصول السنة ، لانهم كانوا اميين فلم يكنهم  
معرفة الا بشيء يعين فاستعانوا عليها بالكواكب ، كما سترى في الكلام على الانواء .  
واليك اسماء منازل القمر في العربية ، وهي ٢٨ :

الثريا	الجيبة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الاخبية
الحقعة	الصرقة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعام	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الفقر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين ، لاسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم ، وفي جملة المتعصبين ابن قتيبة ، فقد قال في كتابه « تفضيل العرب على العجم » ان العرب اعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها<sup>(١)</sup> . ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة ، فاننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم .

ولا غرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها ، فانها كانت دليلهم في اسفارهم واحوالهم ، فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي الى البلد الفلاني قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير في جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك ايضاً بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن امثلة ذلك ان سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي ان يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه ، فتوافقا وتعاهدا الا يتكاذبا . فقال قيس بن المكشوح : « خذ بين مهب الجنوب والصبأ ، ثم سر حتى لا تدري اين ظل الشجرة » ، فاذا انقطعت المياه فسر اربعا ، حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق ، فانك ترد على قومي مراد وخشم » . فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من افق السماء ، فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة » . واشتهر في جاهلية العرب في اتقان النجوم جماعة ، منهم بنو مارية بن كلب ، وبنو مرة ابن همام الشيباني<sup>(٢)</sup> .

## ٢ — الانواء ومهاب الرياح

ويراد بالانواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا ، مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب او غروبها ، ولذلك كان علم الانواء فرعاً من علم النجوم . وكانوا يسمون طلوع المذلة نوءها اي نهوضها ، وسموا تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً ، ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التي تليها ثلاثة عشر يوماً ، سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يوماً . ومن اقوالهم في ذلك :

والدهر فاعلم كله أرباع  
وكل سبع لطلوع كوكب  
لكل ربع واحد أسباع  
ولو نجم ساقط في المغرب  
الى طلوع ما يليه أربع  
من الليالي ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها ، فزعم بعضهم ان كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى طلوع التي تتلوها فهو منسوب اليها . وزعم آخرون ان لطلوع كل واحدة وسقوطها مقداراً من الزمن ينسب اليها يكون فيه ، فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها . وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الازمنة قالوا : خوى النجم ، او خوت المنزلة - يعنون بذلك مضت مدة لوه ولم يكن فيه مطر او حر او برد او ريح<sup>(١)</sup> . ومن أمثالهم : « أخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها<sup>(٢)</sup> .

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت ، فيقولون مثلاً : مطرنا بنوء المجرة ، او هذا نوء الحريف ، مطرنا بالشمرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبته في الشرق مع النجم المنازل . ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءاً او نجماً ، كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفي اشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها ، وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا  
لثالثة فقد ذهب الشتاء  
وقول الآخر :

اذا ما البدر تم مع الثريا  
أذاك البرد أوله الشتاء  
وقول الآخر :

اذا ما قارن الدبران يوماً  
فقد حف الشتاء بكل أرض  
وحلّق في السماء البدر حق  
وذلك في انتصاف الليل شطراً  
لأربع عشرة قرّاً التمام  
فوارس مؤذّنات باحْتِدام  
يقلص ظل أعمدة الخيام  
وبصفو الجو من كدر الغمام

وقول الآخر :

إذا ما هلال الشهر أولَ ليلة      بدا لعيون الناس بين النعائم  
أنتك رياح القر من كل وجهة      وطاب قبيل الصبح كَوْر العائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التام بأهله      وأصبحت العواء للشمس منزلاً<sup>(١)</sup>

وكان عندهم لمطلع كل كوكب أو منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان<sup>(٢)</sup> على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضاً بألوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطراً عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ، ومن اقوالهم : « السحابة البيضاء جفل ، والحمراء عارض ، والسوداء هطلة »<sup>(٣)</sup> .

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ، ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء . ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها ، فحسبها بعضهم ستة ، والبعض الآخر اربعة . فأصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها اصحاب القول الاول : النكباء بجانب الشمال ، والمحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذي الرمة في ذلك :

أهاضيب أنواء وهيئانُ جرّتا      على الدار أعرافَ الجبال الأعافر  
وثالثة تهوي من الشام حرجف      لها سنن فوق الحصى بالأعاصر  
ورابعة من مطلع الشمس أجفلت      عليها بدقماء المعافقراقر  
تُحَنِّسُهَا النَّكْبُ السَّوَا فِي فَأَكْثَرَتْ      حنين اللقاح القاريات العواشر<sup>(٤)</sup>

### ٣ - الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه بالافرنج بالميثولوجيا ، وهي عبارة عما كانوا

١ - البيروني ٣٣٦ . ٢ - 425 Rawlinson's Ancient Monarchies, II

٣ - الميداني ١٠٩ ج ١ . ٤ - البيروني ٣٤٠ .

٢ - تاريخ التمدن الاسلامي

يزعمون وقوعه بين الكواكب — او هي الآلهة عندهم من الحروب او الزواج او نحو ذلك مما يجري على البشر على نحو ما ذكره عن آلهة اليونان . فالعرب ألهموا الأجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل اليها من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعري ، وكانوا يتناظرون في أفضلية بعضها على بعض ، قالوا : « وابو كبشة اول من عبد الشعري ، وكان يقول : الشعري تقطع السماء عرضاً ، ولا أرى في السماء شمساً ولا قرماً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » .

اما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا واراد القمر ان يزوجه منها ، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر : ما اصنع بهذا السبوت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه يتعمول بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه — يعنون القلاص . وان الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به ريسده . وان سهيلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرخته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وان الشعري اليانية كانت مع الشعري الشامية ففارقتهما وعبرت الحجر ، فسميت الشعري العبور .. فلما رأت الشعري اليانية فراقها اياها بكثت عليها حتى غمضت عينها ، فسميت الشعري الغمينصاء <sup>(١)</sup> .

ومن هذا القبيل تأليهم بعض المشاهير من الملوك او القواد او الاسلاف ، واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة او الجان . فعندهم مثلاً ان بلقيس كانت امهاجنية ، وان جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية وابوه من الملائكة <sup>(٢)</sup> ، واما اصل هذه الاعتقادات فاما هندي او يوناني او مصري ، أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك .

#### ٤ — الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد ، وفرق بعضهم بينها فقال ان الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية ،

والعرافة بالأمور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ، ويتقاضون اليه في خصوماتهم ، ويستطبونه في أمراضهم ، ويستفتونه فيما اشكل عليهم ، ويستفسرون منه رؤاهم ، ويستنبئون عنه مستقبلهم . وبالمجمل فالكهان عندهم هم اهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها .

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب ، جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم ، والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزاء » ، وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاق الناظر او الرائي او البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبى . واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على اثر ما اصابهم من النكبات في اورشليم ( بيت المقدس . ، وخصوصاً بعد خرابها على يد الامبراطور الروماني طيطس سنة ٧٠ للميلاد ، وقد اخذ عنهم العرب كثيراً من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا .

واما الكهانة فأصلها من عند الكلدان ، ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم ، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم . ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم <sup>(١)</sup> على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم .

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء ، وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح ، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن افواه الملائكة . واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد حلول الارواح في الاصنام وبوحها بأسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن ( اي الارواح ) وتخطب الكهان ، وان الكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم : « الاحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب » .

فكل ما كان يصنعه الكاهن إنما مصدره الغيب ، فاذا استطبه مريض من ريح او صداع عالج بالرقى ، واذا استشير في معضلة خط في الرمل او نفت في العقد ، واذا

حكاه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلع عن سرقة اخذ قمعة جعلها بين يديه ونفث فيها ، ونحو ذلك من الحركات الوهمية ، واذا استفسر عن رؤيا نتم وتظاهر باستطلاع الغيب .

قلنا ان الكهانة أتت العرب من بين النهرين ، فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين ( او صابئة في قولهم ) وكان العلم كله عندهم ، ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ، ثم ما لبث العرب انفسهم ان اخذوا ذلك عنهم ، فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر ، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط ، وبعضهم تعبير الرؤيا او القيافة او القضاء .

### الكهان :

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن ، اقدمهم شق وسطيح وحكايتها أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الاول كان شق انسان ( اي نصفه ) بيذ واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون ، الى غير ذلك من الاوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر ابن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي . وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من البلاد او القبائل ، كقولهم : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وكاهن حضرموت ، وغيرهم .

ويقال نحو ذلك في العرافين ، واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ، كعراف هذيل وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة ، شهره عروة بن حزام ببيت قال فيه — وكذلك الشعراء يشهرون بمدوحهم — وهو قوله :

اقول لعراف اليمامة داوئي فانك ان داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فإنهن عديدات ، منهن طريفة كاهنة اليمن وهي اقدمهن ، واليهما ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم ، وزبراء بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة . وغيرهن ينسبن الى القبيلة او المدينة ، ككاهنة بني سعد ، يزعمون انها اقدم عهداً من شق



وسطيح وانها استخلفتها<sup>(١)</sup> . وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو : « لا كهانة بعد النبوة »<sup>(٢)</sup> .

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة ، تمتاز بتسجيع معين يعرف بسجع الكهان ، مع تعقيد وغموض . ولعلمهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتل غير وجه ، كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الايام ، حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن . ومن امثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن ، حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر ، فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى اقول ، وما علمني ما اقول الا الحكم المحكم ، رب جميع الامم من عرب وعجم » . قالوا لها : « ما شأنك يا طريفة ؟ » . قالت : « خذوا البعير الشذقم ، فخذضوه بالدم ، تكن لكم ارض جرهم ، جيران بيته المحرم »<sup>(٣)</sup> .

#### القيافة :

ومن قبيل الكهانة ايضاً القيافة ، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان ، وهي قسمان : قيافة الأثر ، وقيافة البشر . والأولى تختص بتتبع آثار الاقدام او الحوافر او الأخفاف ، والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على اصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفار من الناس او الضال من الحيوان ، وقد اتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبعكر والشيب . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينها في النسب والولادة وسائر احوالهما ، وهي من قبيل الفراسة .

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر ، واشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ، ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بها ، حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره ، وربما نظر الى أثر بعير فقال : هذا بعير فلان ، وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني .

١ - السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ . ٢ - كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢ .

٣ - الاغاني ١١٠ ج ١٣ .

والفراسة كانت شائعة في العرب ، وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه ، وهي من قبيل الذكاء وسرعة الحاطر وسجية طبيعية .

ومن قبيل الكهانة تعبیر الرؤيا ، وكانت معروفاً عند العرب ، وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام ، على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها ، اشهرهم ابو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل ، وقد اغضنا عنهما لضيق المقام .

## ٥ - الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل ، وهم اول من بحث في علاج الامراض ، فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق ، حتى اذا مر بهم أحد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل ، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب ، وهو متشابه عند تلك الامم في مصر وفينيقية وأشور . ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا ابوابه ، وعندهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان ، والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاختبار ، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه « بالطب في الجاهلية » ولا يزال كثير منه باقياً الى اليوم في قبائل البادية . وكانت للتطبيب عندهم طريقتان : الاولى ، طريقة الكهان والعرافين ، والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرق والسحر كما تقدم ، او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها ، او بالتعازيم او نحو ذلك .

وكان التطبيب بالرق شائعاً في الامم القديمة كلها ، وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني صندوق العقاقير الطبية ،

وهم يعالجون بالاثنتين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقى الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع ، ولهم عبارات يقولونها عند صنع الأدوية وعند تناولها للمريض . فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونونها عند تناول الدواء : « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض ، فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم اصابه من اخيه ست حيناً قتل اباه اوزيريس ؟ فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة ، اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ، ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والحبيشة بأنواعها لتي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس . . » <sup>(١)</sup> وكان عندهم عزائم لاجراج الارواح لشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاجراج الجان والشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا نهقوا نهيق الحمار ، يزعمون ان ذلك ينمهم من الوباء ، وان دماء الملوك تشفي من الخبل .

وأما معالجتهم فشبیه بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة ، فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاثرية وخصوصاً العسل ، فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن - على ان اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالحجامة والكي ، ومن اقوالهم : « كل داء حسم بالكي آخر الأمر ، وآخر الطب الكي » . وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر ، والغالب ان يكون ذلك بالنار ، فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد ( المطهرات ) عندنا . فاذا ارادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها ، كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما تتأت قطعة من جوفه مثل الكبدة على اثر طعنة فأحموا له شفرة وقطعوها <sup>(٢)</sup> .

وكانوا يعالجون حول البصر بإدامة النظر الى حجر الرحي في دورانه ، ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعدّها اليوم خرافة أن المجروح اذا شرب الماء مات <sup>(٣)</sup> واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً <sup>(٤)</sup> .

١ - بغية الطالبين ٣٥٨ . ٢ - الاغانى ١٣٧ ج ١٣ .

٣ - الاغانى ١٣١ ج ١٤ . ٤ - الاغانى ٣٢ ج ١٠ .

## الأطباء :

وأما الأطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة ، ثم تعاطى الطب جماعة من العرب من خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة ، واكثرهم من اهل النهضة الأخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس للميلاد ، على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيراً ، وأقدم أطباء لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم ، وفي أصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ، ويضربون به مثل بالحدق في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك : أطب من ابن حذيم . وفيه يقول أوس بن حجر :

فهل لم فيها اليّ فاني بصير بما أعصى النطاسيّ حذيمًا

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة ، وهو من بني ثقيف من اهل الطائف ، رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور ، وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة واسعة ، وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه - ومنهم ابن ابي رومية التميمي ، والنضر بن الحرث بن كلدة .

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم ، وبعضهم اخذه عن الكهان او الأحبار من الاديان ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح ، واشهر جراحى الجاهلية ابن ابي رومية التميمي ، فقد كان جراحاً مزاولاً لأعمال اليد (١) .

ونظراً لعناية العرب بنحوهم وابلهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل (٢) .

## ٦ - الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون ، وهذا في الحقيقة تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر ، اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ،

وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر - وان كان النظم يريد الشعر طلاوة ووقعا في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر بأعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه ، لما ينطوي تحته من أساليب التعبير وتأثيره في النفس ، مما لا يستطيع ان يؤثر تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما اننا نعبز بالكلام المرسل عما نشاهده او نستنتجه من اعمال الحياة بالقياس او البرهان ، واما الشعر فنعتبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » ، والشعر « لغة النفس او القلب » . وقال بعضهم : « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » .

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه امة من امم العالم قديماً ولا حديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم وسجل عقائدهم . لأن الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل ان يرتقي عقله وتتهذب مداركه ، فتكلم بالشعر قبل ان تكلم في العلم ، ولذلك كان اقدم اخبار الناس من قبيل الخيال ، واقدم المحفوظ من مدونات الأمم كتب الشعر ، وقد دونوا فيها مشاعرهم الدينية والأدبية او الحماسية او غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالمهاجرات والرامايات عند الهنود ، والالياذة والأوديسية عند اليونان ، والانيادة عند الرومان ، وبعض أسفار التوراة عند اليهود ، والشهامة عند الفرس ، انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الأمم واخلاقهم واخبارهم ، وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة . وذلك طبيعي ، لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها ، لا تقدم على ذلك برهاناً ولا تطلب دليلاً . والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والايمان العاطفي القلبي .

### الشعر العبراني

والشعوب السامية اكثر الامم اغراقاً في عالم الخيال ، ولذلك كانوا اميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ، ولهذا السبب ايضاً كانوا اقرب الناس الى التصورات الشعرية ، وترى ذلك واضحاً فيما خلفوه من الآثار الشعرية . واقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة ، وقد وجدوا التصورات الشعرية في اقدم اسفارها . فما كلام « لامك » لامراتيه « عادة » و « صلة » في سفر التكوين ( ص ٢٣٥٤ ) إلا جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه إلا مطلع ، وفي اصله العبراني ما يدل على انه شعر موزون ومقفى . فهو اقدم منظومات العبرانيين ، بل اقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق .

وفي التوراة امثلة كثيرة من التصور الشعري ، كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه ( خروج ٣٢ : ١٧ ) : « صوت حرب في المحلة » فقال موسى : « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء انا سامع » . والمظنون ان هذه الفقرة بيت قديم تمثل به موسى في تلك الحال . وقس عليه .

وهناك أسفار كلها شعر ، كسفر ايوب ويقال ان اصله عربي ، وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرهما مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في ايام سليمان الحكيم ، لاستتباب الأمن وسعة الملك ورخاء العيش ، وهو العصر الذهبي عند اليهود مثل عصر المأمون عند العرب . وكان سليمان حكيماً وشاعراً كما كان المأمون ايضاً .

### الشعر العربي

والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال لأنهم ساميون مثلهم ، واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب اولى بالتصوير الشعري من اليهود ، نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في احكامهم وافكارهم وسائر احوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثره من قبيل الحماسة والفروسية ، واما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لأشعارهم .

على أن الغالب في الشعر ان يكون منظوماً ، وان اختلفت الامم في كيفية نظمهم ، فاكثرى بعضهم ان يكون موزوناً غير مقفى ، والبعض الآخر مقفى غير موزون ، او مقفى وموزوناً معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقافية والافهوليس من قبيل الشعر عندهم ، خلافاً لما هو عند اخوانهم السريان والعبرانيين . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية ، اي بلا التزام قافية واحدة ، كأفرايم السرياني واسحق الانطاكي وغيرهما<sup>(١)</sup> . والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك ، وربما اشترطوا القافية دون الوزن - ولذلك لما سمعوا آيات القرآن ، بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية ، قالوا : هذا شعر ، بالقياس على الشعر في لسانهم .

ولا ريب ان للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تأثيراً في النفس ، لا انها هي تجمله شعراً . فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف ، وكلامها غير موزون ولا مقفى ، وهي من قبيل التصورات الشعرية . وسيأتي الكلام عليها .

### كيف توصلوا للنظم :

فالتصورات الشعرية فطرية في العرب ، اما النظم فحدث عندهم . وربما صاغوا الشعر اولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال الحكيمة ونحوها . والظاهر انهم قضوا اجيالاً والنظم عندهم على سبيل الامثال ، حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد او مثلين متآلفين فرأى في ذلك رنة فترنم به وأخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدودهم وانشادهم وراء ابلهم - والغناء لسان طبيعي - فاعجبته رنة القافية والوزن ، فزادوا شطراً او شطرين او اكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في ابسط احواله . وظلوا دهرأ طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين او الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة او هجاء او منافرة ، وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة ادخل في النظم تحسيناً . وقد ذكروا من حسنوا نظم الرجز العجاج والاغلب العجلي (١) ولم يعينوا زمنه .

اما القصيد فأشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وخاله المهلهل من اهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون انه اول من قصد القصائد ، وامرؤ القيس اول من أطاها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف . وهو اول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء (٢) وأول من رقق النسيب وغير ذلك ، ولعله تذب هذا التفنن في اثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبه تنفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره فأدخل في الشعر ما أدخله . وكان الشعراء الجاهليون قلما يدخلون بلاد الروم ، وانما كانوا يقفون على الحدود في البلقاء عند بني غسان او في الحيرة عند بني لحم المناذرة الا قليلاً منهم .

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون أهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان شؤونهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتناظر والتفاخر مما يشحذ الازدهان ويستحث البدائه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم .

والعرب امة قديمة ولذلك فلا بد ان تكون قد نظمت الشعر من قديم الزمان، والحال أن اقدم ما وصل الينا من اشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة ، فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟

الغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ، ولا يبعد ان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم ، وقد حفظ في العبرانية وضاع اصله العربي . ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب ، لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الأمم التي كانت تعرفها في ذلك العهد .

### كثرة شعر العرب :

على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من اشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام ، فقد نظموا في قرن واحد او قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتعدن في عدة قرون ، وخصوصاً في العصر الجاهلي . فالباذة هوميروس وأوديسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابائهما على ٣٠٠٠ بيت ، وكذلك مهابارات الهنود ٢٠٠٠٠ بيت وراماياتهم ٤٨٠٠٠ بيت<sup>(١)</sup>. واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف ذلك . فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤٠٠٠ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع<sup>(٢)</sup> وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠٠ قصيدة<sup>(٣)</sup> على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ١٦٠٠٠ ارجوزة<sup>(٤)</sup> وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو<sup>(٥)</sup> ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا أن ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام إنما هو من بعض أشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الاشعار — قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »<sup>(٦)</sup> .

١ - Lit. Hist. of India. 213

٢ - ابن خلكان ١٢١ ج ١ .

٣ - النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١ . ٤ - ابن خلكان ٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١ .

٥ - الشعر والشعراء ٤ . ٦ - المزهرة ٢٣٧ ج ٢ .



وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه ، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان او الهنود او غيرهم على النظم وإنما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قراتهم ، كما حدث للرومانين فإن الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في أيام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية ( القرن الاول للميلاد ) ثم أخذ في التقهر . ويقال نحو ذلك في دول أوروبا الحالية ، فان الشعر لم ينضج عندهم إلا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والأدب .

### أقسام الشعر :

والشعر من حيث موضوعه ينقسم إلى قسمين كبيرين : الأول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه . والثاني ما يصف به احوال الآخرين . والأول هو الذي يسميه الافرنج Lyric أي الغنائي أو الموسيقي من Lyre أي العود ، ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . أو ما علمته بطول الاختبار والتعلل كالأمثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ، ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً ، والشعر الوصفي والتمثيلي Drama . فأشعار الأمم السامية أكثرها من النوع الأول ، وخصوصاً العبرانيون فانهم أرثى أهل الأرض وأبكاهم وأشكاهم . فالمازير والمرائي ونحوها من قبيل العواطف ، والأمثال الجامعة من قبيل الحكم . ويقال بالاجمال أن الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالتعبد والشكوى والاستسلام .

ويقال نحو ذلك في العرب ، غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه أحوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عدوا من أشعارهم بضعة عشر نوعاً معظمها من قبيل الشعر الغنائي ، الذي يعبر به عن العواطف ، كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمریات ، وبعضها من قبيل العظة كالأدب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته .

وأما الشعر الوصفي أو القصصي فلا نقول أنه معدوم في العربية ولكنّه قليل ، وخصوصاً في الجاهلية ، وأكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الأدوات أو الحيوانات أو بعض الوقائع الصغيرة . وأما الشعر القصصي - على نحو ما في الياذة هوميروس أو شاهنامه الفردوسي - فلا وجود له عندهم . ولا يدل ذلك على أنهم لم ينظموا مثلها ، بل يغلب على ظننا أنهم نظموا كثيراً من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظراً لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم إلا قطعاً بقيت إلى زمن تدوين الشعر في الاسلام ، تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب . والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث .

وكان الشعر فطرياً في العرب ، يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين والاصوص<sup>(١)</sup> ناهيك بالنساء فقد نبغ منهم جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العامة لسامعه أو تناشده . وكثيراً ما كانت النساء يعقدن المجالس لتناشد الأشعار وذكر الشعر ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض<sup>(٢)</sup> وكان أكثرهم ينظمون الشعراء وهم أطفال لم ينظروا في الأدب أو الشعر<sup>(٣)</sup> فمن شب ولم تنفتح قريحته عدوا ذلك نقصاً فيه وعيباً على أهله .

#### منزلة الشعر :

فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على انفسان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والوالدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكورهم<sup>(٤)</sup> وفي الواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم إنما هو منقول عن أشعارهم .

فمن شعرهم استخرج الناس أخبار أيامهم وحروبهم . ومنه الف السجستاني « كتاب المعمرين » . ومنه استخرجوا أحوال الشعراء المتقدمين والفوا الكتب كابن قتيبة وغيره .

١ - البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢  
٢ - الاغاني ١٥٠ ج ١  
٣ - ابن خلكان ٢٣ ج ٢  
٤ - المزهري ٢٣٦ ج ٢

ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والأودية والوهاد . ومنه الفوا ما الفوه في الحيوان والنبات ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، والنبات لأبي حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطلعوا اديانهم في ايام جاهليتهم ، وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والأعراس والمآتم وغيرها .

وقد ذكروا شعراء حوا اعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم ، كما حمى زياد الأعجم قبيلة عبد القيس مز، لسان الفرزدق ، وكما حمى عتبة بن ربيعة بني قصي وغيرها كثيرون<sup>(١)</sup> .

### المعلقات

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي ( التيل المصري ) بشكل الدرج المتلف وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقة ، ولذلك يقال لها المذهبات ايضاً ، كمذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير<sup>(٢)</sup> وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقة . ونخبة أشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة واربعين شاعراً تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقة ، والمجمرات ، والمنقليات ، والمذهبات ، والمراثي ، والمشوبات ، والملححات . وهي مجموعة في كتاب « جهرة اشعار العرب » لأبي زيد الانصاري .

### تأثير الشعر

أما تأثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما اقامهم البيت الواحد واقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم ، حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجالاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره<sup>(٣)</sup> وقد اشترى اعراض المسلمين من الخطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحججة عليه<sup>(٤)</sup> وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لثلا يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب انهم اذا اسروا

١ - بلوغ الارب ٩١ ج ٣ . ٢ - العقد الفريد ٩٣ ج ٣ .  
٣ - البيان والتبيين ٩٧ ج ١ . ٤ - فوات الوفيات ٩٩ ج ١ .

الشاعر اخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم ، كما صنعوا  
بعد يغوث بن وقاص الحاربي حين اسره بنو تميم يوم الكلاب . وهو الذي يقول :

اقول وقد شدوا لساني بنسعة      امعشر تيم اطلقوا من لساني  
وتضحك مني شيخة عبشمية      كأن لم تر قبلي اسيراً يمانياً<sup>(١)</sup>

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في ان يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته  
واذا كانت له بنات تزوجن ، كما فعل الأعشى الأكبر بالخلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة  
انشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انشاق الحمر  
السود بعد كسادهما ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار اسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود      ماذا اردت بناسك متعبدا  
قد كان شمر للصلاة ثيابا      حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس في لبس الحمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر<sup>(٢)</sup> وسيأتي  
باقي الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي .

#### القاب الشعراء

وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض اشعاره . فعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش .  
لقوله :

الدار قفر والرسوم كما      رقص في ظهر الأديم قلم  
وجرير بن عبد المسيح الضبعي لقب بالمتلمس لقوله :

فهذا اوان العرض حتى ذبابه      زنايره والازرق المتلمس  
وزياد بن معاوية الذبياني لقب بالنابغة لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر      وقد نبغت لنا منهم شؤون

---

١ - البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ . ٢ - ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

ويقال نحو ذلك في سائر القاهم ، كالخرق وافنون وتأبط شرا واعصر والمستوغر والاعسر وطرفة وذبي الرمة والمزرد وعويف وجران العود والمعجاج وموسى الشهوات وابن قيس الرقيات وصريع الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم <sup>(١)</sup> .

وكانت قبائل العرب تتفاوت في شاعريتها ، وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرفشان الأكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قبيصة والحارث بن حازة والمتلمس والأعشى والمسيب الضبي ، ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن ابي سلمى وربيعه وليبد والخطيئة والشماخ وغيرهم . ثم استقر الشعر في تميم ومنهم أوس بن حجر شاعر مضر ويلهم هذيل وغيرها . وكان في حير جماعة من الشعراء <sup>(٢)</sup> . ومن الغريب ان العرب كانت تقرر لقريش التقدم عليها في كل شيء إلا الشعر فقد كانت لا تقر لها به <sup>(٣)</sup> والظاهر ان اختلاط العرب بالأعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ، ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق ، وأشعرهم من اختلط بالفرس ، وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم .

وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب ، ولم تخلُ قبيلة من شاعر أو أكثر يحمي ذمارها ويصف عواطفها ، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار وخزانة الآداب والأخلاق ، ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الأمثال ، فإنها مرآة العادات والأخلاق والآداب وقد استخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من أمثالها .

## ٧ — الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ، ولذلك عددناها من قبيل الشعر ، أو هي شعر منشور وهو شعر منظوم وان كان لكل منها موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة ، ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية ، مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه ، لان كليهما اهل شعر وخطابة واهل اباة واستقلال . ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم ، فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم .

١ — لطائف المعارف ١٧ . ٢ — بلوغ الأرب ٩٣ ج ٣ . ٣ — الاغانى ٣٥ ج ١ .

٣ — تاريخ التمدن الاسلامي .

أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ، فالعبارة البليغة قد تقدمهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا ، فاحتاجوا الى الخطابة في الاقتناع وتأليف الأحزاب ، وان غلب في موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب في المجالس والأندية العامة والخاصة . وكانوا يخطبون وعليهم العمام وهم وقوف وفي أيديهم الخناصر ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا ، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم<sup>(١)</sup> . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب في الشعراء ان يخطبوا ، والخطباء ان ينظموا ، فيكون الواحد شاعراً وخطيباً ، فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً ، او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة<sup>(٢)</sup> . ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احتكاك الأفكار عند الاختلاط بالأعاجم ، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس ، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب .

### موضوعات الخطب

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة ، وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر ، وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم<sup>(٣)</sup> لاحتياجهم الى الخطباء في إيفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقتناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عيدها وزعيمها ، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة .

اما إيفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور ، فكانت دول الروم والهند والصين

١ - البيان والتبيين ٢٠ ج ٢ . ٢ - البيان والتبيين ٤٢ و ١٣٩ ج ١ .

٣ - البيان والتبيين ٥٨ و ٩٨ ج ١ .

والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلاقات او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ، ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة ، وخصوصاً كسرى انوشروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم ، فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم في الحقيقة حكاؤهم ووجهائهم ، ومنهم اكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم ، والحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود من قبيلة بكر ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد .

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك ، وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء ، كما فعل ابو سفيان والد معاوية .

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم ، كوفود حسان بن ثابت على النعمان ابن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة ، فقد وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي ( صلعم ) . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر ، فقد جاءه من كل قبيلة وجهاءها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة ، كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب ، ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه .

### الخطباء

وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشغراء ، والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل او وجهاءها او حكامها . وكان لكل قبيلة خطيب او اكثر كما كان لها شاعر او اكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني أباد ، ادركه

النبي فراه في سوق عكاظ على جبل احمر وهو يقول في خطابه : « ايها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » (١) .

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال : « هو اخطب من سحبان وائل » . وكان اذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير ، كدويد بن زيد ، وزهير بن خباب ، ومرثد الحخير ، وغيرهم من سائر القبائل ، كالحارث بن كعب المذحجي ، وقيس بن زهير العبسي ، والربيع بن ضبيع الفزاري ، وذو الاصبع العدواني ، وأكثم بن صيفي التميمي ، وعمر بن كلثوم التغلبي وكثيرين غيرهم .

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ المألوفة الرقيقة المعاني . وكانت خطبهم على ضربين : الطوال والقصار ، والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة ، كالعجوز اسم خطبة لآل رقية ، والعدراء خطبة قيس بن خارجة ، والشوواء خطبة سحبان وائل (٢) .

## ٨ — مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة او البحث في بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية ، ومنها فادي قريش ودار الندوة كانت يجوار الكعبة . على انهم كانوا حينما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة ، وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالأسواق .

### الاسواق

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد او القرى في اوقات معينة ، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال امثال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى او في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على ان في بعض المدن الكبرى — كالقاهرة مثلاً —

١ — البيان والتبيين ١١٩ ج ١ . ٢ — البيان والتبيين ١٣٣ ج ١ .



اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها ، كسوق السبت - او السبتية - وسوق الثلاثاء او الاربعاء ، فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء .

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ، ومنها ما لا ينعقد إلا مرة في الشهر ، او في السنة ، ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠٠٠٠ نفس . وقيمون في ذلك المكان حجاً مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحجاج اليه نحو مليون نفس ، وهو اكبر اسواق العالم . وكانت امثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العثمانية وفي المانيا وفرنسا والمجلترا وامريكا . فقد كانت في روسيا سوق تقام في مدينة نوفكروود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمنونها ١٢٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا ، ويقدرون قيمة ما يبيع من البضائع في اسواق روسيا نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠ روبل في العام . وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى .

وقد كان كثير من امثال هذه الاسواق في العالم القديم . لكن الاقدام لا تتزاحم فيها إلا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها ، فتقام الاسواق لهذه الغاية - كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية .

### اسواق العرب

كان للعرب في الجاهلية اسواقاً يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احدها الى الاخرى ، يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها ، فكانوا ينزلون دومة الجندل في اعالي نجد اول يوم من شهر ربيع الاول ، فيقيمون اسواقاً للبيع والشراء والاخذ والعطاء ، ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً ، ويرتحلون منها الى عُمّان فيقيمون سوقهم ، ثم يرتحلون الى حضرموت فعُدن ، وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم . وكانت لهم اسواق اخر في صحار والشحر والمجنة وجباشة والمشقر وغيرها (١) .

## سوق عكاظ

واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ ، وهي مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة ، ويبيعون ويشترون الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له اسير سمى في فدائه هناك ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في ايام المواسم وهم افاض من تميم . ومن كان له ثار على احد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم ، او اراد احد ان يعمل عملا تعرفه العرب او يستشهدا فيه عمله في عكاظ<sup>(١)</sup> او اراد ان يفاخر احداً على مشهد من الناس فاخبره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب — ذكروا ان الخنساء لما اصببت بمصايبها المشهور اعلنت انها اكبر العرب مصيبة ، فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها اكبر مصيبة منها ، فأمرت يهودجها فسوم برأية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : « اقرنوا جملي بحمل الخنساء » ففعلوا . فلما دنت منها قالت لها الخنساء : « من انت يا اخية ؟ » قالت : « انا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة . وقد بلغني انك تعاضمين العرب بمصيبتك ، فم تعاضمينهم ؟ » فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابني عمرو . فم تعاضمينهم أنت ؟ » قالت « بأبي عتبة بن ربيعة ، وعمي شيبة بن ربيعة ، واخي الوليد » قالت الخنساء : « او سواء هم عندك ؟ » . ثم أنشدت تقول :

قليل<sup>٢</sup> اذا نام الخلي مجودها  
له من سراة الحرثين وفودها  
بسلبية الابطال قبا يقودها ؟  
ونيران حرب حين شب وقودها

ابكي ابي عمرا بعين غزيرة  
وصنوى لا انسى معاوية الذي  
وصغرا ، ومن ذا مثل صغرا اذا غدا  
فذلك يا هند الرزية فاعلمي

فقالت هند تحيها :

وحاميا من كل باغ يريدها  
وشيبة ، والحامي الذمار وليدها  
وفي العز منها حين ينمى عديدها<sup>(٣)</sup>

أبكي عميد الأبطحين كليها  
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي  
أولئك آل المجد من آل غالب

فاذا كانت هذه حالهم في المفاخرة بالمصائب ، فكيف بالأنساب والأحساب والشجاعة والفضل ؟ ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا .

ولئنما يهمننا في هذا المقام أن العرب كانوا يفتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ، و يقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة ، فيقشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني إذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من آدم ، وتأتية الشعراء فتعرض عليه أشعارها <sup>(١)</sup> ليحكم فيها . ويقال أنهم كانوا إذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك أو في الكعبة ، ومنها المعلقات السبع .

وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجناسيوم ، وهي أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية ، وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يفتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان يفعل العرب في عكاظ . ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح ، فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها . فان قريشاً كانوا يسمعون لغات القبائل في اثناء تلك الاجتماعات ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبسح الألفاظ ، كالكشكشة والكسكسة والعنينة والفخفخة والوكم والوهم والعجمجة والاستنطاء والشنشنة ، وغير ذلك من العيوب في لغات الأمم الأخرى <sup>(٢)</sup> .

## ٩ — الأنساب في الجاهلية

### الأنساب

كان للأنساب في عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير ، وكان للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو التفاخر بالآباء . وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ، ثم نسبوا أنفسهم إليها ، فلم يكن في جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الأشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة

قرون . وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم ، فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة Patricii كانوا يدعون الانتساب الى آباء اعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الأولين والأنبياء واقتخارهم بذلك على سائر الأمم . وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان بأنهم يرجعون جميعاً الى أب واحد - وهذا أيضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الأمم السامية .

### نسب العرب

والعرب من حيث انسابهم فرع من العبرانيين ، لأن العدنانيين منهم يرجعون في اصل آبائهم الأولين الى اسماعيل بن ابراهيم ، والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر ، وقد زادت عناية العرب في الأنساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض . وقد رتبت أنساب العرب في ست مراتب او طبقات ، اولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ، ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس (١) .

وبالغ العرب في الرجوع الى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن الى أسماء بعض اجدادهم ، والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة ، فإذا سئل احدهم مثلاً عن الأندلس من بناها قال : « بناها اندلس بن يافث بن نوح » (٢) وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً ، فإذا عرض لهم رجل فقال : أنا من بني تميم مثلاً فانسبني ، فإنه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العماثر والبطون والأفخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ، ومنها الى والد السائل او اليه هو نفسه .

وكثر النسابون في الجاهلية ، ولم تخل قبيلة او عمارة او بطن من نسبة او اكثر ، ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تميم اللات ، وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة بن صوحان وعبدالله بن

عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم<sup>(١)</sup> وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام ، واشتهر كثير من النسابين ، فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم .

## ١٠ - التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ، ولكنهم كانوا يتناقلون اخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشرهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب ، وقصة سد مأرب ، واستيلاء ابي كرب تبارك اسعد على اليمن ، وبعض من خلفه ، وملك ذي نواس ، وقصة اصحاب الاخدود ، وفتح الحبشة لليمن ، وقصة اصحاب الفيل ، وقصودهم الكعبة ، وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن ، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب ، وحكاية جرحهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب ، وولاية الحليج وأمر عامر بن الظرب ، ثم ما كان من غلب قصي على امر مكة ، وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول ، وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة ، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة ، وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام .

### الخلاصة

وجملة القول ان ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علماً ، فلما جاء الاسلام اهل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة ، وبقي بعضها عند اهلهم ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة ، كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطب والحيل ، وارتقى الباقي ، واتسع عما كان في الجاهلية ، كالشعر والخطابة والبلاغة ، وكان الاسلام مساعداً على ارتقاءها بالقرآن الكريم .

# علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من اول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي ،  
وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام ، وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ،  
ونسئها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية .

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام ، وهي الشعر والخطابة ،  
ونسئها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية .

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى ، كالطب والهندسة والفلسفة  
والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، ونسئها العلوم الدخيلة أو الاجنبية .

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي ، عهد الكلام بمقدمات لا بد  
من تدبرها قبل الخوض في الموضوع .

مقدمات تمهيدية

## ١ — الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم اذ جاءهم القرآن فبفتوا لما  
وأوه من بلاغة اسلوبه على غير المؤلف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه  
من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليها . وهو منشور  
مقفى على مخرج الأشعار والأسجاع ، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع ، وفيه من البلاغة  
وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع  
والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح مهم تلاوته وتفهم احكامه ، لأنه قاعدة

الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم اشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى ما افر عن النبي ( صلعم ) من قول او فعل او استحسان او استهجان يستوضحون بها ذلك الاشكال ، فأصبح مهمهم جمع الأحاديث ممن سمعها او رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل ، فرأوا تبانياً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث ، فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها .

ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها او غنموها ، وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح ، بين ان يكون عنوة او صلحاً وأماناً او قوة ، فبحثوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الاحكام في ايام بني امية ، اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين .

والنظر في احكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من اصولها ، على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم اصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام .

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، اشكل على غير العرب اعرابها لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها ، ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم . وتعيين معاني الالفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن ، وقد رأيت ان مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال ، فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وامثالهم ، ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فرأوا مشقة في فهم معاني اشعارهم وامثالهم إلا بالاطلاع على انسابهم وآدابهم ، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا في فهم الأشعار ، ووجدوا في روايتها اختلافًا وفي بلاغتها تفاوتًا ، فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء واماكنهم واشعارهم واخبار قبائلهم .

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من افواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والانواء والحيل والانساب وغيرها ، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا ايضاً كثيراً من تلك العلوم ، ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة ، وعثروا ايضاً على الفاظ واشعار يندر ورودها فالقوا النوادر .

وجلة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن ، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية ، فضلاً عن الدينية ، ولذلك سميناها العلوم الاسلامية .

## ٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول أمره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب . وكان اللفظان مترادفين ، فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين ، وبالعكس . ولأجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب ، واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب .

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام او العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة ، لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس ، فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ، ولا يتلى غير القرآن ، وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في ايام بني امية ، وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الأمم عليهم .

أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله »<sup>(١)</sup> فرسخ في الازهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن ، لأنه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن ، لاتحاد الكلمة واجتماعها على الأخذ به . ومن الاحاديث الماثورة من هذا القبيل : « لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وأنزل اليكم ، والنا والهمك واحد » . ورأس النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال : « الم

١ - التفسير الزاهرة ٣٧ ج ١ وروى ايضاً : « الاسلام يجب ما قبله » .



آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حياً ما وسد به السباعي » (١) . ومن الأحاديث التي شاعت في ذلك العهد : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » (٢) .

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ، وبحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الفرس والروم ، كما حاولوا بعدئذ هدم أيوان كسرى وإهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة — فلا غرو إذا قيل إن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية أو غيرها من خزائن العلم القديم

### ٣ — أحرار مكتبة الإسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الإسكندرية جمعوا إليها كتب العلم من اقطار العالم المتمدن في ذلك الحين ، وسيأتي خبرها . وتولى على هذه المكتبة أحوال كثيرة في أيام الرومان إلى الفتح الإسلامي ، وقد ضاعت بين أحرار ونهب . والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها ، فمنهم من ينسب أحرارها إلى عمرو بن العاص بأمر عمر ابن الخطاب ، ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية ، وأشهرها أقوال أبي الفرج الملقب وعبد اللطيف البغدادي والمقرئ وحاجي خليفة . ومنهم من يحل العرب عن ذلك ويظعن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا من جاري هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ، ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الإسلام والتتمدن الإسلامي ترجيح الرأي الأول ، لأسباب نحن باسطوها فيما يلي اجلاء للحقيقة فنقول :

أولاً : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن ، بالاسناد إلى الأحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة .

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملقب عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه : « وعاش ( يحيى الفراماطيقي ) إلى أن فتح عمرو بن العاص

١ — ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وإيجد العلوم ١٠٩ .

٢ — المقعد الفريد ١٥٨ ج ١ .

مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو ، وسمع من الفاضل الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ، ففتن به . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بمواصل الاسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فما لك به انتفاع فلا نعارضك به ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » . فقال له عمرو : « ما الذي تحتاج اليه ؟ » . قال : « كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية » . فقال عمرو : « هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « . . . واما الكتب التي ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحرقها في مواقيدها ، فاستنفدت في مدة ستة اشهر ، فاسمع ما جرى واعجب « (١) » .

وليس في نص هذه العبارة التباس ، ولكن الذين يحلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني ، وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج ، وقد الفوا الرسائل والكتب في تجرييحها . وخلاصة اقوالهم : ان أبا الفرج المذكور هو اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ، وإنما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للإسلام ، وانه من اهل القرن السابع للهجرة ، وكان ابوه يهودياً وتنصر ، وشب ابو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس الى الأسقفية ، ثم ألف تاريخاً في السريانية واستخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية ، واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول — قالوا : « وهو اول كتاب ذكرت فيه هذه القصة ، وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » . وإن ما جاء في هذا الشأن من اقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة ، لأن المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرقاً ، وحاجي خليفة لم يذكر مدينة الاسكندرية وإنما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم ، حتى قال : « ويروى أنهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » . وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن

١ — كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك ( في أوكسفورد ) سنة ١٦٦٣ م . واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه .

عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الاسلام ، وانها لو احرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا ننكر ان بعض هذه المكتبة احترق قبل الاسلام ، ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . اما النصوص التي وزدت في هذا الشأن فليس ابو الفرج اول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدتها وآثارها ، وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل ان يولد ابو الفرج ببضع وعشرين سنة ، لأن ابا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م ( ٦٢٢ هـ ) وعبد اللطيف زار مصر في اواخر القرن السادس للهجرة ، وهاك نص عبارته : « ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة ، بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وارى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده ، وانه دار المعلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي احرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه » (١) .

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة ، وقد جاءت عرضاً ، ولكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها ، كأنه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر ، كالذي أخذ عنه ابو الفرج .

اما ابو الفرج فقد اتم كتابه « مختصر الدول » في العربية في اواخر حياته ( توفي سنة ٦٨٤ هـ ) . وهو ليس مختصر تاريخه السرياني إلا من حيث اخبار الفتح ، لانه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة ، عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . واما السرياني فهو عبارة عن اخبار الفتح فقط ، فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على انه دخيل في النسخة العربية ، او دسه فيها بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ، وانما ذكر في النسخة العربية لأنه يتعلق بآداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم .

\* \* \*

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب ان ابا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو اربعين سنة ، وهو جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي ، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم ، ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ هـ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ . والقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء ، عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ ، وقرأنا فيها في اثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام ابي الفرج واكثر تفصيلاً منه ، وفيه شيء عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها - واليك نص قوله :

« وعاش ( يحيى النحوي ) الى ان فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى ، فاكرمه عمرو ورأى له موضعاً ، وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه ، وسمع كلامه ايضاً في انقضاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاضلة الفلسفية التي لم يكن للعرب بها انسة ما هاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بمجاول الاسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فاما مالك به انتفاع فلا اعارضك فيه ، وأما ما لا نفع لكم به فنحن اولى به ، فأمر بالاخراج عنه » . فقال له عمرو : « وما الذي تحتاج اليه ؟ » قال : « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية ، وقد اوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » . فقال له : « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولوماس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبيب اليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر يجمعها وافرد لها الخزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلاً يعرف بابن مرة ( زميرة ) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في ائمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : اترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .. فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك الى ان مات . وهذه الكتب لم تزل محروسة بحفظة يراعياها كل من يلي الأمر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا » .

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكنني ان امر بأمر إلا

بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب « وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليه » . فتقدم بإعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدھا ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسيتها ، فذكروا انها استنفدت في مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب »<sup>(١)</sup> انتهى كلام ابن القفطي .

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام ابي الفرج يتضح لك ان ابا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان ابا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ، ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج<sup>(٢)</sup> فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً .

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي ، والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبد اللطيف البغدادى ، لأنهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه ، لأنه ولد سنة ٥٥٧ هـ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن اخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية ، يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحاق الراهب ، كان يبحث في اخبار اليونان والرومان وآدابهما .

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة ، وهاك نصه : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلاً يعرف بزميرة ، فجمع من ذلك على ما حكى اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً ، وقال له : ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم »<sup>(٣)</sup> وهي نفس عبارة ابن القفطي ، فالظاهر انه اخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور ، وأخذ حريقها عن سواه . ولولا

١ - تراجم الحكماء ( خط ) . ٢ - مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤٠ .

٣ - الفهرست ٢٣٩ .

ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من امر الفلاسفة لما علمنا بوجوده ، وظننا لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو .

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يخترلقها ابو الفرج لتعصب ديني ، ولا دسها احد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين ، عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرأ محتشماً جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب . وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة ، وفي جملتها « كتاب اخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين » في ستة مجلدات <sup>(١)</sup> وكتاب « تراجم الحكماء » الذي نحن بصده . وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذوا عن مصدر ضائع .

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب ، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، او لعل لذلك سبباً آخر . وعلى أي حال فقد ترجيح عندنا صدق رواية ابي الفرج .

ثالثاً : ورد في اماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكتبات فارس وغيرها على الاجمال ، وقد لحصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله : « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم ، كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر ابن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيتها للمسلمين ، فكتب اليه عمر ( رضه ) ان « اطرحوها في الماء ، فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وان يكن ضللاً فقد كفانا الله تعالى » فطرحوها في الماء أو في النار ، فذهبت علوم الفرس فيها » <sup>(٢)</sup> .

وجاء في اثناء كلامه عن اهل الاسلام وعلومهم : « أنهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد » <sup>(٣)</sup> ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله : « فأين علوم الفرس التي أمر عمر ( رضه ) بحرقها عند الفتح ؟ » <sup>(٤)</sup> .

١ - فوات الوفيات ٩٦ ج ٢ . ٢ - كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ .  
٣ - كشف الظنون ٢٥ ج ١ . ٤ - ابن خلدون ٣٢ ج ١ .

رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو او نكابة فيه ، فكان أهل كل شيعة او ملة يحرقون كتب غيرها ، كما فعل عبدالله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى ايامه ( سنة ٢١٣ هـ ) من مؤلفات المجوس ، وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالةائها في الماء ، وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه (١) .

ولما فتح هولاء التتري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة ، وكانت شيئاً لا يعبر عنه ، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم (٢) وقال آخرون انه بنى بتلك الكتب اسطوانات الخيول وطولات المعالف عوضاً عن اللبن (٣) والارجح انه اغرقها انتقاماً من أهل السنة .

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في اثناء الحروب الصليبية احرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل ، وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن ، فأمر بأحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد (٤) وفعل الاسبان نحو ذلك بمكتبات الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر .

خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة . فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكانت خلفاء المسلمين اذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجمعون سراً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ ، فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة (٥) .

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من أئمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقاء انفسهم ، منهم احمد بن ابي الحواري ، فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر

١ - Browne's Lit. Hist of Persia, 347

٢ - ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ . ٣ - ابن الساعي ١٢٧ .

٤ - Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢ .

٥ - ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤ .

من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال: « نعم الدليل كنت لي على ربي ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه . وذكروا عن سفيان الثوري انه أوصى بدفن كتبه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك وأحرقها (١) .

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييدا للاسلام ، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم اضعاف ما احرقوه ، كما سترى .

#### ٤ — الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « انهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم في العلم ، وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم ، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم ، فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم ، وقد وضعوا علوماً تناقلها الناس عنهم ، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم » .

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب ، والصواب ان يقابلوا بين الرومان والاسلام . لأن العرب أسسوا دولة الاسلام كما أسس اهل رومية دولة الرومان ، ودخل في دين الاسلام اسم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم امّة الاسلام ، كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها اهل رومية وصارت امّة واحدة تعرف بأمة الرومان .

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين اكثر اشتغالا بالعلم والأدب من اولئك ، لأن كليهما نقل العلم عن اليونان ، والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من اهل رومية ، كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من اهل جزيرة العرب . والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان ، وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ، ان العرب فتحوا بلاداً اهلها عريقون بالحضارة ، فلم يكن اندماجهم وضياع جنسياتهم ، وقد ساعد على ذلك تفريق المذاهب ، ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم .



اما اليونان فلا جدال في انهم وازعوا العلم والفلسفة ، لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك - وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس اخذوا بعضها من المصريين القدماء ، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم - لكنهم يعدون واضعين ، فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل . ولكنهم اضعف منهما في انشاء الحكومات وسن الشرائع ، لان اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة ، وانما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافسون .

ثم ان الرومان اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان ، وقاما زادوا فيها ، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان . فالرومان اهل فتح وسلطان ، واليونان اهل تصور وخيال . واما العرب فقد جمعوا الحسنتين ، لأنهم اهل فتح وسلطان واهل تصور وخيال . ولذلك فانهم انشأوا دولة بعيدة الاطراف ، ووضعوا الشرائع والنظم ( الفقه ) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله ، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم ، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم ، فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية ، وما تفردوا فيه من قريحة الشعر . وليس هنا محل الافاضة في ذلك .

## ٥ - حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان : العلوم الاسلامية ، والعلوم الدخيلة فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم اهل بادية أميون ، فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن ، ويدعون الناس به الى الاسلام ، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمس على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها ، والمسلمون ( العرب ) يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع ، فضلاً عن قتل منهم في الحرب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية اهلها وتبدير شؤونها . فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظراً لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال - وهي آدابهم

في جاهليتهم - وتحريض ابنائهم على اتقانها مع المثابرة على اسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيول ، مما اعانهم على الفتح ونشر الدين ، واصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم . وكان رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفي ، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب في الأمصار وتعرضوا لأخطار البحار ، كتب اليهم عمر ان يمارسوا السباحة ايضاً ؛ وهالك نص كتابه : « أما بعد فعملوا اولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » (١) .

ولما فسدت اللغة واختلقت القراءات ، وازمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه ، كان اكثر المتهاقين على حفظه من المسلمين غير العرب ، وهم الموالي واكثرهم من الفرس ، وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ، ومن الاحاديث النبوية : « لو تعلق العلم بأكناف السماء اناله قوم من اهل فارس » (٢) ، وكانت الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح ، فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام - وهو في اوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه - لذلك كان اكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم ، واذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه ان يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح ، كالأصمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالחסاسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب ، فوهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الأصل ، ونافع القاريء ديلي ، وقس على ذلك سائر العلماء ، فمن اكابر الفقهاء واقدمهم الحسن بن ابي الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وعطاء بن رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة ، وزيد بن اسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن ابي نجيح في المدينة ، وربيعه الرأي وابن ابي الزناد في قباء ، وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن ، ومكحول في الشام ، وغيرهم في اماكن اخرى ، وكلهم من الموالي اي المسلمين غير العرب (٣) .

١ - البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ . ٢ - ابن خلدون ٤٧٨ ج ١ .

٣ - المقد الفريد ٧٤ ج ٢ .

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع الفاظها كان العجم احوج الى ذلك من العرب ، لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الالفاظ ، فاشتغل لاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الأدب واللغة منهم ، كحماد الراوية وهو ديلمى ، الخليل وسيديويه والاخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس او من في معنهم .

اما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين ، لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية ، استخدموا عارفي هذه اللسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها ، واكثرهم من النصارى كما سيجيء .

فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التي قدمناها ، وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولى سياستها الى اوائل الدولة العباسية ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الأنفة من انتحال العلم لأنه صار من جملة الصناعات - واهل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن - وكانوا اذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا : « انه يشتغل بصناعات الموالي » ، ومن أقوالهم : « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم إلا علم الاخبار » ، وأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول . ومر رجل من قریش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيديويه فقال : « أف لكم .. علم المتأدبين وهمة المحتاجين »<sup>(٢)</sup> .

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على اننا لا نعد العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خالصاً لاختلاطهم بالموالي والماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة ، حتى الخلفاء فان اكثر امهاتهم من غير العرب ، وسنعود الى هذا البحث في جزء آخر .

## ٦ - تدوين العلم في الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب ، لئلا تذهب بنشاطهم وبداعاتهم . ولذلك منعهم من تدوين الكتب ، لأن علومهم في أوائل الإسلام

كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث ، ونظراً لقلة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين ، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة ، كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل بما روي عن أبي سعيد الخدري أنه لم يستأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له ، وروي عن أبي عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . وجاء رجل إلى ابن عباس فقال : « إني كتبت كتاباً أريد أن أعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذه منه ومحا بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ » فقال : « لأنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » <sup>(١)</sup> وإن الكتاب يزداد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره .

وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا إذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا - ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة إليهم رأساً . سأل رجل سعيد بن جبير وهو من أعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : « لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك » <sup>(٢)</sup> .

فقضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون إلى البدو ، لأن دولتهم كانت عربية بدوية ، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ، ويعتمدون على الحفظ ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتي بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ؟ » <sup>(٣)</sup> .

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم ، واكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون ، وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ ، كما كان شأنهم في الجاهلية : يشعرون ويخطبون ولا يقرأون .

فلما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء ، اضطروا إلى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن ، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا إلى التدوين

١ - كشف الظنون ٢٥ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ .

٣ - الفهرست ٢٤ .

ورجعوا الى حديث رواه أنس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » <sup>(١)</sup> وقوله : « العلم صيد والكتابة قيد » <sup>(٢)</sup> .

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم ، فكانوا يستكتبون الكتاب او يلقون دروسهم بطريق الإملاء . وذلك ان يتكلم المحدث او الفقيه والتلميذ يكتب على الرق او القرطاس او الكاغد ، فيبدأ المستمعي في أول القائمة بقوله : « مجلس املاء شيخنا فلان يجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المعلي بأسناده سواء كان حديثاً او خبراً ، و اذا كان فيه غريب يحتاج الى تفسير فسرّه ، وأورد اشعار العرب وغيرها بأسانيدھا ، او الفوائد اللغوية بأسناد او بغير اسناد على ما يختاره <sup>(٣)</sup> وهذا معنى قولهم « أمالي » المحدث فلان او اللغوي ، اي ما املاه من الفنون .

وظلوا - حتى بعد اشتغالهم بالتأليف - يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع ، وكان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط ، فلا تفرق في شعر الهذليين اذا انت قاته بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز امثالهما مما تتشابه صورته بدون اعجام . وقرىء يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب : « بأسفل ذات الدير أقرد جحشها » فقال اعرابي حضر مجلس القارىء : « ضل ضلالك ايها القارىء . . انما هي ذات الدير ( بالياء ) وهي ثنية عندنا » فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعذل في وصف الفرس :

من السح جوالا كأن غلامه يصرف سبدا في العنان عمردا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيدا » بالياء ، لانصراف الذم الى السبد وهو الذئب؟ وقد اخطأ في ذلك اكثر الذين قرأوا هذا البيت <sup>(٤)</sup> .

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته ، وانما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ، ولتدوين الحساب في دفاتر الحكومة بعد ان انتقلت الدواوين الى العربية . أما

١ - البيان والتبيين ١٦١ ج ١ . ٢ - كشف الظنون ٢٦ ج ١ .

٣ - المزهر ١٦٢ ج ٢ . ٤ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠ .

سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ في الصدور ، وربما دون بعضها في صحف غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفاً عندهم .

واختلف مؤرخو المسلمين في أول من صنف الكتب في الاسلام ، فقال بعضهم انه ابن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ هـ .<sup>(١)</sup> وقال غيرهم غير ذلك ، ولم يخرجوا على أي حال عن أواسط القرن الثاني للهجرة ، وان أول ما دون - بعد القرآن والتفسير الحديث . ولكننا رأينا من ألف قبل ذلك بنصف قرن ، وان أول ما دونه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم ما علمناه من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفي سنة ١٥٤ هـ .<sup>(٢)</sup> ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي ، وأقدم ما وصل إلينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفي سنة ١١٦ هـ وهو من أبناء الفرس المولدين باليمن . فألف كتاباً في الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم ، قال ابن خلكان انه شاهده بنفسه واثني عليه<sup>(٣)</sup> . ثم ألف كتاب المغازي لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٤١ هـ<sup>(٤)</sup> . ثم ألف المسلمون في الحديث والفقه في أواسط القرن الثاني للهجرة ، فصنف ابن جريج بمكة وسعيد ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . وألف أبو حنيفة في الفقه والرأي في الكوفة ، وصنف الأوزاعي في الشام ، ومالك جمع الموطأ بالمدينة ، وغيرهم<sup>(٥)</sup> ثم تكاثرت التأليف بعد ذلك كما سيأتي .

## ٧ - الخط العربي

تاريخه :

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام ، مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة . وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند ، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وآثارهم باقية الى الآن في ضواحي حوران والبلقاء . والسبب في ذلك ان الحجازيين أو عرب مصر كانت البداوة غالبية على طباعهم ، والكتابة من الصناعات الحضرية .

١ - ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ . ٢ - كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢ .

٣ - ابن خلكان ١٨٠ ج ٢ . ٤ - كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خلكان ٤٥٢ ج ١ .

٥ - النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١ .

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق او الشام قبيل الاسلام تخلقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة ، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي او العبراني او السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية ، فتحلف عن الاول الخط النسخي ( الدارج ) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بحوارها .

ومعنى ذلك ان السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة اقلام من الخط السرياني ، في جعلتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به اسفار الكتاب المقدس <sup>(١)</sup> فاقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام ، وكان من اسباب تلك النهضة عندهم ، وعنه تحلف الخط الكوفي وهما متشابهان الى الآن .

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر ان أهل الأنبار نقلوه - وذلك ان رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي اخو اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية اخت ابي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة فكثروا من يكتب بمكة من قریش <sup>(٢)</sup> عند ظهور الاسلام ، ولذلك توهم بعضهم ان اول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية .

والخلاصة على اي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في اثناء تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً : الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية. ومما يدل على تحلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي - فضلاً عن شكله - ان الألف اذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تحذف ، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية ، وكان ذلك شائعاً في أوائل الاسلام ، وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » ، و« الظالمين » بدل « الظالمين » .

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انساناً ، أكثرهم من كبار الصحابة وهم : علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان وابن ابي سعيد بن خالد بن حذيفة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبو سلمة ابن عبد الاشهل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان ابن حرب وولده معاوية ، وجهم بن الصلت بن مخزومة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بني أمية ، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة أقلام ، اشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره ، فبلغ عدد الاقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي : (١) قلم الجبال (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم أسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتاح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العمود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسي نسبة الى مختاره ذي الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع : قلم غبار الحلية (١) .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ، وكلها تعد من الكوفي . وأما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفي سنة ٣٢٨ هـ أدخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي ، والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام : لكوفي للمصاحف ونحوها ، والنسخي ( او النبطي ) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة إنما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب الخديوية ( دار الكتب المصرية الآن ) عقد سكاك مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في أعلاه



صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم ، وتحته خطوط الدرداء بالقلم النسخي بغاية الاختلال - فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وأدخله في كتابة المصاحف .

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين : الكوفي ، والنسخي . ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي : الثلث والنسخي والتعليق والريحاني والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كنبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها في أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك <sup>(١)</sup> وما زال الخط يتفرع الى اليوم ، ولن يزال الى ما شاء الله عملاً بسنة الارتقاء .

### الحركات

وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء ، لا خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه ، حتى دونوه وكثر اهل الاسلام ، فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول ما افتقروا اليه الحركات ، واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفي سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات او تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم انه وضع الأعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء والجيم من الحاء ، والأرجح انه اقتبس ذلك من الكلدان او السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقعة هو فيها اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : « كتب » ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً او مجهولاً ، وكان عندهم أيضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن <sup>(٢)</sup> وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : « اذا رأيتني قد فتحت في الحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، واذا ضمت في فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف » <sup>(٣)</sup> . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب

ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد اسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحت كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها أبو الأسود .

### الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط - ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم - فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيها ، والظاهر ان المسلمين بعد ان استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق في أيام عبد الملك بن مروان - قال ابن خلكان : « ففرع الحجاج الى كتابه ، وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقاط افراداً وازواجاً ، وخالف بين اماكنها ، فمهر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً . ولكن مع استعمال النقط أيضاً كانت يقع التصحيف ، فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام »<sup>(٣)</sup> وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس ، لا يفهم المراد بها ولا الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ، ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف ، اي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر ان النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصراً هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالاعجام .

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية كتابة عربية على صفحة من البردي (البابيروس) مؤرخة سنة ٨٩١ هـ وفيها اعجام ، لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء ، وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد - وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط

حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة وحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك .

فيؤخذ من ذلك ان العرب استخدموا الحركات والاعجام من اواسط القرن الاول ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونها إلا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . اما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط ، لا سيما اذا كان المكتوب اليه عالماً . وقد حكى أنه عرض على عبدالله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه (أي نقطه) » . ويقال : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . وقد يقع بالنقط ضرر ، كما حكى عن جعفر المتوكل انه كتب الى بعض عماله : « أن أحص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين <sup>(١)</sup> .

ولذلك ظل الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي بخيرين بين الأعجام وعدمه ، والغالب عدم الأعجام . وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال ، وخصوصاً في أسماء الأماكن الغربية او الألفاظ الغربية ونحوها <sup>(٢)</sup> . وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ، ويستهجنونها في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات ، لانهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويع ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيراً <sup>(٣)</sup> .

### أدوات الكتابة

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجاً ، فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الأمر الى العباسيين وقام أبو العباس السفاح بالامر

١ - كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ .

٢ - راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية

٣ - ادب الدنيا والدين ٥٢ .

واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب . فظلت اعمال الحكومة تدون في كتب من الجلد ، الى ان تصرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد ( الورق ) فتداوله الناس من بعده ، وظلوا مع ذلك اجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والحراساني <sup>(١)</sup> فضلاً عن الكاغد يصنعونه كراريس او دفاتر ، وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها ، كالفارابي مثلاً فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع <sup>(٢)</sup> .



## العلوم الشرعية الإسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامي على ما تقدم ، وتقسم الى ثلاثة اقسام : (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً ، فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث . (٣) التاريخ والجغرافيا .

### ١ - العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن - جمعه وتدوينه :

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه ، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجاً في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال ، من أول ظهور الدعوة الى وفاة النبي ، بعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما تلا آية أو سورة كتبها على صحف الكتابة في تلك الايام ، وهي الرقاع من الجلود ، والعريض من العظام كالأكثاف والاضلاع ، وعلى العصب وهي قحوف جريد النخل ، واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي ( صلعم ) سنة ١١ هـ والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف ، أو محفوظ في صدور الرجال ، وكانوا يسمون حفظته « القراء » .

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وثابت بن زيد ، وأبي بن كعب وغيرهم . فلما قام ابو بكر بالأمر وارتد بعض اهل جزيرة العرب عن الاسلام ، بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة ، وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيه ١٠

٥ - تاريخ التمدن الاسلامي

وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى اهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً ، وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين ، فأشار على ابي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت اهل ، فتوقف ابو بكر وقال : « كيف افعل امرأ لم يفعله رسول الله ولم يعهد اليها فيه عهداً ؟ » ، فما زال به عمر حتى اقنعه بجمعه . فأحضر ابو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحي ، فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة ، وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين او ثلاثة او اكثر ، وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة ، كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الانصاري (١) فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر ، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٣٣ هـ فانتقلت الى بيت ابنته حفصة من ازواج النبي « صلعم » .

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقية ، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن ، وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً ، فعول اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فأهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود ، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن ابي موسى الاشعري (٢) وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب - ومسع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو ارمينية وأذربيجان ، فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات ، وسمع بعضهم يقول لبعض : « قراءتي خير من قراءتك » . فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الأمر ، الى ان قال : « أدرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان : « ارسليني اليها بالصحف لنسخها في المصاحف ثم تردها اليك » فأرسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم ان ينسخوا القرآن ، ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء ، وقال لهم : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم » ففعلوا ذلك (٣) سنة ٣٠ هـ ،

ركتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الأربعة : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام <sup>(١)</sup> واثنين ابقاهما في المدينة : واحد لأهلها ، وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه « الامام » ، ثم أمر يجمع كل ما كان من قبل ذلك من المصاحف والمصحف <sup>(٢)</sup> وأمر باحراقه .

فأصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان ، واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف ، فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة . ذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية ، وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف : « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » <sup>(٣)</sup> وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد ، وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين .

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه ، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف اخرى أشهرها مصحف علي . ويعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي ، وتنوّل مصحفه في شيعته وبقي عند أهل ابنه جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن <sup>(٤)</sup> — ومنها مصحف عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سورة <sup>(٥)</sup> .

على ان الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه ، وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها في تصحيح ما بين ايديهم من المصاحف الخاصة . وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ، ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الامير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار ، فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال : « أبيعث الى جند اذا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد

١ - نفح الطيب ٣٨٧ ج ١ . ٢ - ابو الفدا ١٧٦ ج ١ .  
٣ - المسعودي ٢٠ ج ٢ . ٤ - الفهرست ٢٨ . ٥ - الفهرست ٢٦ .

فيه حرفاً خطأ فله رأس أحمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة « نجعة » بدل « نعمة » فنال الجائزة (١) .

### قراءة القرآن :

كان للقراءة شأن عظيم في اول الاسلام ، لقلة الذين يقرأون يومئذ ، فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا اميين . وقد تقدم أن السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمس على ارسال مصاحفه الى الامصار زمان قصير ، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته ، وتنوّل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها ، فصارت هذه القراءات السبع اصولاً للقراءة ، ويعدّها بعضهم عشرة .

واصحاب هذه القراءات هم : نافع بن أبي رؤيم ، ويزيد بن القعقاع في المدينة ، وعبدالله بن كثير في مكة ، وابو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي في البصرة . وعبدالله ابن عامر في الشام ، وعاصم بن ابي النجود ، وحزرة بن حبيب الزيات ، وعلي الكسائي ، وخلف البزاز في الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي ، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة ، وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه . والخلفاء يشددون في مقاصد اولئك الشاذين خوف التفرقة ، كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرن الأول للميلاد . ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله ، فلم يكن احد يتردد في ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ ، وتعددت مذاهب أصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء ، حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص ، والقائلون بذلك العجاردة (٢) وذهبت طائفة اخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية في السيد المسيح وانه هو الذي يحاسب الخلق (٣) وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية ، وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر (٤) .

١ - المعري ٢٥٤ ج ٢ .

٢ - الشهرستاني ٩٥ ج ١ .

٣ - الشهرستاني ٤٢ ج ١ .

٤ - طبقات الادباء ٣٦١ .



وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفي سنة ٣٢٨ هـ فإنه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله أياماً ، فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته ، فأمر بجلده واستتابه فتأب وقال أنه قد رجع عما يقرأه وأنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضراً بذلك<sup>(١)</sup> .

والقراءات العشر التي ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة أن الجميع على صواب ، فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر ، وقد تقرأ كل القراءات في اقليم واحد<sup>(٢)</sup> .

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل ، كقولهم : قرأ يعقوب ابن اسحق على سلام ، وقرأ سلام على عاصم ، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن ، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي على النبي<sup>(٣)</sup> .

### تأثير القرآن

إن قراءة القرآن وحفظه من اول واجبات المسلمين ، وخصوصاً في اوائل الاسلام ، فانطبعت اوامره ونواهيه في افئدتهم ، وارتسمت عباراته على السنة ادبائهم ، واصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم ، وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم ، وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم ، مع تباعد الأمم التي اعتنقت الاسلام في اصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية ، فضلاً عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن . واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة او الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن ، كما سترى في باب الخطابة في الاسلام ، وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات .

على انهم كانوا ، لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه ، لو ذكر الرجل حرفاً او كلمة انتبه السامع للآية كلها ، ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين .

٢ - المقدسي ٣٩ ونفع الطيب ١٠٤ ج ١ .

١ - ابن خلكان ٤٩٠ ج ١ .

٣ - ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .

ومما يحكى من هذا القبيل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير ، بعث إلى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ( أي ينقش اسمه على الدنانير والدراهم ) . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتاباً فيه تهديد ووعد ، وقال في جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » . فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفاً ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمدلة . فحار السلطان واهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : « عندي شرحه » فقال : « اذكر ولك ما تريد » فقال : « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة ، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى : (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى أحسن الاحوال من الرضى والأدب<sup>(١)</sup> .

ويحكى ايضاً ان المأمون غضب على عبدالله بن طاهر ، وشاور اصحابه في الايقاع به ، وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى » فلما فضه ووجد ذلك تعجب ، وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « يا موسى ان الملائكة يأمرون بك ليقتلوك » .

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وفي اعاتها هنا تكرار .

وقد عنى المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها عناية ، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة ، وعلى صفائح العاج ، وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ، ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد والوانها وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويخترنونها في المساجد او نحوها . وفي دار الكتب الخديوية ( المصرية ) بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الأشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما .

الصِّمَّةَ شيخ كبير ؛ ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً كبيراً مجرباً ؛ وفي ثقيف سيّدان لهم في الأحلاف : قارب بن الأسود ابن مسعود ، وفي بني مالك ذو الخِمار سُبَيْع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال ، وجماع أمير الناس إلى مالك بن عوف النصريّ .

فلما أجمع مالك المسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حطّ مع الناس ١٦٥٦/١ أموالهم ونساءهم وأبنائهم ؛ فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس ؛ وفيهم دُرَيْد بن الصِّمَّة في شِجَار<sup>(١)</sup> له يُقَادُّ به ؛ فلما نزل قال : بأيّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ! لا حزن ضبرس<sup>(٢)</sup> ، ولا سهّل دِهس<sup>(٣)</sup> ؛ مالى أسمع رُغَاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويعار الشاء<sup>(٤)</sup> ، وبكاء الصغير ! قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أبنائهم ونساءهم وأموالهم ، فقال : أين مالك ؟ فقليل : هذا مالك ، فدُعِيَ له ، فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحتَ رئيس قومك ؛ وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ؛ مالى أسمع رُغَاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويعار الشاء ، وبكاء الصغير ! قال : سَقْتُ مع الناس أبنائهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولِمَ ؟ قال : أردتُ أن أجعل خَلْفَ كلِّ رجلٍ أهله وماله ليقاتل عنهم ؛ قال : فأَنْقَضَ به<sup>(٥)</sup> ثم قال : راعى ضأن<sup>(٦)</sup> والله ! هل يردّ المنهزم شيء ! ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاّ رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِّحَتْ في أهلِكَ ومالك . ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهد منهم أحد ، قال : غاب الجُدُّ والجُدُّ ؛ لو كان يوم علاء ورفعة لم تَغِيب عنه كعب وكلاب ؛ ولو ددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ؛ فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ قال : ذاك الجُدعان<sup>(٧)</sup> من بني عامر ! لا ينفعان ولا

(١) الشجار : شبه الهودج ؛ إلا أنه مكشوف الأعلى .

(٢) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة .

(٣) الدهس : اللين الكثير التراب . (٤) الأغاني : « ثناء الشاء » .

(٥) أنقض به ، أى زجره . (٦) فى الأغاني : « أى أحق » .

(٧) الجُدع : الشاب الحدث .

ناهيك بمن كان هناك من اهل الأديان الأخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم ، وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة ، فكان المسلمون يسألونهم أيضاً وهم يجيبونهم بما عندهم . واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الأصل ، جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء اي ابناء الفرس ، ومنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير .

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس ( المجوسية او الزردشتية ) فلما اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم ، واختلطوا بالحبشة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية ، وكان وهب يعرف اليونانية <sup>(١)</sup> فاطلع على آداب اليونان وغيرهم ، فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في اخبار الأمم واحوال الأنبياء وقيام الدنيا وسير الملوك ، ومن اقواله انه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً ، فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شيء الا افاض في الجواب عليه مما يحفظه .

فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار ، وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب او حولها . كما اصاب النصرانية عند اول ظهورها ، اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم ، مع سهر الآباء الأولين على تخليصها من ذلك .

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة ، تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس ، فأعادوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها ومحصولها وسبروها بمسبار العقل . واشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشف وغيرهم .

وكتب التفسير كثيرة جداً ، ذكر منها صاحب كشف الظنون نيلاً وثلاثمائة تفسير ، وقال انه ذكر بعضها وكانت اكثر من ذلك كثيراً <sup>(٢)</sup> .

### الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها اقوال

النبي ( صلعم ) وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية، واقدم من سمعها الصحابة وحفظوها، فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكم من احكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض ، وعند كل منهم بعض الاحاديث ، وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه ، فأصبح طالب الحديث ، اذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه إلا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم في احد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى ، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ، ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة اسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها الى النواحي في تلك المصور ، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة . فكان المؤرخ او الجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى اقاصي البلاد، كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرها . ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث ايضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان ديانتهم<sup>(١)</sup> .

### وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ، واختلف المسلمون في الخلافة وادعاهها غير واحد ، فانصرفت عناية كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم ، فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولاً او يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم . وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى، فكان المهلب بن أبي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج<sup>(٢)</sup>، وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء ، مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث ، لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب . وامثال المهلب كثيرون ، كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة .

وتسابق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في اثناء البحث في شروط الخلافة، نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من اول عهدها. اذ مات النبي وانقسم اصحابه في طلب الخلافة الى قسمين : المهاجرين والانصار ، وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه ، واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة ، وعظمت الفوضى حتى روى ابو بكر الحديث « الائمة من

قريش<sup>(١)</sup> فكان في ذلك فصل الخطاب، فقس على ذلك حاجة اصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ، ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات الاحكام الشرعية الخاصة بالبلاذ المفتوحة واهلها وغير ذلك كأوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين ، وفي كل باب من ابواب الادارة والقضاء . ولما اراد المأمون تحليل زواج المتعة لم يرجعه عن عزمه إلا حديث روه له في تحريمه<sup>(٢)</sup> .

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب اهل المطامع في اختلاق الاحاديث ، وقد ذكروا من واضعي الحديث جماعة اشهرهم اربعة ، وهم : ابن ابي يحيى في المدينة ، والواقدي في بغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام<sup>(٣)</sup> . وكثيراً ما كان اولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه ، كما فعل ابن أبي العوجاء ، وكان يحدث في الكوفة فأمر اميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما ايقن انه مقتول قال : « والله لقد وضعت اربعة آلاف حديث حلت بها الحرام وحرمت الحلال .. والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم »<sup>(٤)</sup> . ومنهم احمد الجوبباري وابن عكاشة الكرمانى وابن تميم الفريابي ، فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند انفسهم نحو عشرة آلاف حديث<sup>(٥)</sup> ، ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين احاديث السنة والشيعة .

فلما هدأت الفتنة وعبد المسلمون الى التحقيق ، كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت ، فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح ، فألفوا كتباً كثيرة في الحديث ، وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلاحوا عليها لهذه المراتب كقولهم : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك من القاب المندولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض ، بقراءة او كتابة او مناولة او اجازة وتفاوت رتبها<sup>(٦)</sup> .

#### اسناد الحديث

وترتب على اهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت ، فاحتاج الى العناية في تحقيقه ، ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ ، والرجوع

١ - الشهرستاني ١٢ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ٢١٨ ج ٢ .  
٣ - ابن خلكان ٢١٣ ج ٢ . ٤ - ابن الاثير ٣ ج ٦ .  
٥ - تحذير المسلمين ٤ . ٦ - ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ .

بالمحفوظ الى المصدر الاصيل الذي اخذ عنه بالتسلسل وهو « الاسناد » ، كآب يقال : « حدثنا فلان ، او اخبرنا فلان ، او املئ علي فلان ما هو كذا وكذا » . فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا : « حدثنا فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا » . ورتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : ومنهم الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، فالعلماء الباقون الى رتبة الاجتهاد ، فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها ، فالناقدون للأحاديث ، فالشارحون وغيرهم <sup>(١)</sup> والفوا كتباً كثيرة في طبقات المحدثين والرواة .

وكان اهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم ، فطريقة اهل الحجاز اعلى مما لسواهم وامتد في الصحة ، لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفي سنة ١٧٩ هـ ثم اصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم . ومالك اول من دون الحديث في كتاب الموطأ ، رتب على ابواب الفقه ، وقيل ان ابن جريج اول من الف فيه . ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدھا ، وجاء محمد بن اسماعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج احاديث السنة على ابوابها والى كتابه « الصحيح » ، ثم الف مسلم بن الحجاج النيسابوري « المسند الصحيح » فسمي كتاباهما الصحيحين وصار مرجع الناس اليها . ثم جاءت طبقة اخرى من المحدثين جمعوا بين هذين او بينهما وبين الموطأ ، فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية اسمائهم : وهم البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م ، ومسلم المتوفي بنيسابور سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٥ م ، وابو داود المتوفي بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م ، والترمذي المتوفي بترمذ سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م ، والنسائي توفي سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م ، والدارقطني المتوفي ببغداد سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م <sup>(٢)</sup> .

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع ، اي تعلم تلك الكتب او بعضها ، كأن يقول احدهم : سمعت الحديث ( اي تعلمته ) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخاري او غيره . وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخاري ، قال : « سمعت صحيح البخاري بمدينة اربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين وستمائة ، على الشيخ الصالح ابي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي ، بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد ، من الشيخ ابي الوقت المذكور

في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، بحق سماعه من ابي الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة ، بحق سماعه من ابي محمد عبد الله بن احمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، بحق سماعه من ابي عبد الله محمد بن ابي يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة ، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، مرتين : احدهما سنة ثمان واربعين ومائتين ، والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين . رحمهم الله تعالى اجمعين « (١) » .

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والادب كما هو مشهور ، وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية ، مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى او الامم الاخرى . فهم اذا ذكروا عالماً في علم فيها ، اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضع ذلك العلم ، كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين بن الخطيب : انه اشتغل في الاصول على والده ضياء الدين ، ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصاري ، وهو على امام الحرمين ابي المعالي ، وهو على الاستاذ ابي اسحق الاسفرائيني ، وهو على الشيخ ابي الحسن الباهلي ، وهو على شيخ السنة ابي الحسن الاشعري ، وهو على ابي علي الجبائي اولاً ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب اهل السنة والجماعة .

#### عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للأسباب التي قدمناها اصححت تعد بمئات الالوف . فقد ذكروا ان احمد بن حنبل روى مليون حديث ، منها ١٥٠.٠٠٠ بالاسانيد والمتون (٢) . وان يحيى ابن معين المري قال : كتبت ٦٠٠.٠٠٠ حديث ، قال رازي هذا الخبر : واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠.٠٠٠ و ٦٠٠.٠٠٠ وخلف من الكتب مائة قطر (٣) وان مسلماً صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠.٠٠٠ حديث مسموعة (٤) وان الامام البخاري قال : صنفت كتابي الصحيح من ٦٠٠.٠٠٠ حديث (٥) وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة . اما الذي صح منها فانه اقل كثيراً ، وبعضهم بالغ في الاقلال ، وهم اصحاب

١ - ابن خلكان ٣٠٦ ج ١ .  
٢ - ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ .  
٣ - ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ .  
٤ - ابن الساعي ٦٦ .  
٥ - ابن خلكان ٩١ ج ١ .



الرأي ، وشيخهم ابو حنيفة فلم يصح عنده إلا ١٧ حديثاً ، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث ، والبخاري اشتمل صحيحه على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة ، واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠٠٠٠ حديث<sup>(١)</sup> وقس على ذلك .

### الفقه

#### مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امرؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منها شريعة نظموها بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعي في الدول الكبرى ، فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية ، لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى إلا زمناً قصيراً فانصرفت قرائعهم الى الفلسفة وفروعها . واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب ، وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع ، لكنها لم يتم نضجها عندهم إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد جستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٢٩ م ، وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب على الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما من دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد جستنيان المذكور .

واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث ، وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظهما ودروسهما من اول الاسلام ، ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم ، وهو من افضل شرائع العالم . وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم .

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي ، وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاهاً ، فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجع الصحابة الى القرآن والسنة ، فاصبح القراء اول فقهاء الاسلام او حاملي شريعتهم ، وكانوا يرجعون

اليهم في الافتاء والاحكام لقلة الذين يقرأون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب وكل الفقه واصبح صناعة ، يدلوها باسم الفقهاء العلماء .

### الفقهاء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون ، واولهم الخلفاء الراشدون ، ثم عبدالرحمن بن عوف وابي بن كعب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وسلمان الفارسي وابو الدرداء وابو موسى الاشعري<sup>(١)</sup> ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة ، وهم : سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبدالرحمن وقاسم وعبدالله وعروة وسليمان وخارجة ، وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين :

الا كل من لا يقتدي بأئمة      فقسمة ضيرى عن الحق خارجة  
فخدمهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم ،      سعيد ، سليمان ، أبو بكر ، خارجة<sup>(٢)</sup>

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء<sup>(٣)</sup> وعنهم انتقل الفقه والافتاء في العالم الاسلامي .

وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ، ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء ، فلما استقل الفقه سموا اصحابه الفقهاء كما تقدم ، وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الافتاء من الامور الهامة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو .

ففي أيام بني أمية كان المرجع في الفقه والافتاء الى اهل المدينة ، فكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم ، واهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني أمية كان الامويون يسمعون في ارضائهم واكرامهم ، وخصوصاً اهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع أمراً مهماً الا بعد مشورتهم . فلما افضى الامر الى بني العباس ، واراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام امر

١ - الديميري ٥١ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ٩٢ ج ١ .

٣ - ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ .

فمرس لانهم انصارهم واهل دولتهم ، كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين بن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، ورفقيه لمدينة يومئذ الامام مالك الشهير ، فاستفتاه اهلها في أمر المنصور فأفتى لهم بخلع بيعته خلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم أمر محمد هذا وحاربه المنصور ولم تغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع اهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً ، وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس ، فعلم امير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك ، فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه <sup>(١)</sup> .

### لرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ، ونبغ من ابنائها من درس الفقه الفتياء ، ولكنهم ما زالوا عيالاً فيها على اهل المدينة ، لانهم اوثق الناس بحفظ الحديث قراءة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب ناك اكثرهم الفرس ، وهم اهل تمدن وعلم ، فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج احكام الفقه من القرآن والحديث ، فخالفوا بذلك اهل المدينة لانهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد . فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير امر المدينة وفقائها ، وخصوصاً مالك بعد ان اُفتى بخلع بيعته ، انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس ، وكان كبيرهم ومئذ ابا حنيفة النعمان في الكوفة ، فاستقدمه المنصور الى بغداد واکرمه وعزز مذهبه . كان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية ، حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به <sup>(٢)</sup> . لذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه ، لان الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره لفرس ، وابنه الفضل هو الذي سمى في قتل البرامكة .

فلما نصر المنصور ابا حنيفة واصحابه ، وهم المعروفون بأهل الرأي او القياس ، ازداد مالك تمسكاً برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم اهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين : هل الحديث ، واهل الرأي . وزعيم الاول مالك وانصاره من اهل الحجاز ، واصحاب لشافعي واصحاب سفيان الثوري واصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من اهل التقليد ، وعرفوا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلي او الخفي ما وجدوا خبراً او أثراً .

١ - ابن خلكان ٤٣٩ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ .

ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي : « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر » .

وزعيم اصحاب الرأي ابو حنيفة النعمان واصحابه فقهاء العراق ، ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وابو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم ، وقد سمو اهل الرأي لان عنايتهم اتجهت الى تحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الاحكام عليها ، وهم يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار<sup>(١)</sup> .

وجاء بعد مالك من اصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلي الشافعي ، فرحل الى العراق وخالط اصحاب ابي حنيفة واخذ عنهم ، ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا في كثير من مذهبه . ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من عليّة المحدثين ، وقرأ اصحابه على اصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ، وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي .

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا ، فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية .

#### منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء ، في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية ، علماء الحديث والقرآن والفقه . وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة ، فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء واصحاب الحديث والزهاد والعلماء ، وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة . وكثيراً ما كان اهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليحجروا عليه — كتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فأجابه جواباً وافياً<sup>(٢)</sup> فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه وحل يقظه » .

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة ( يريد عمر بن عبد العزيز ) في التقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء، اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور : « يا ابا عثمان ، هذا ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو : « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وانت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال « عظمي يا عمرو » فوعظه<sup>(١)</sup> ولما مات عمرو رثاه المنصور بأبيات<sup>(٢)</sup> . فاهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ، ولما سأله المنصور عمن يعني صرح له انه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها<sup>(٣)</sup> وقس على ذلك عظات الازاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدي والرشيد ( راجع كتاب الثوري للرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب ) . وكثيراً ما كان الواعظ يبي الخلفاء لأنهم كانوا يحلون العلماء ويكرمونهم حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر إلا من خادم الى مولاه ، فقد صب الرشيد الماء على يدي ابي معاوية الضريز وهو يغسل<sup>(٤)</sup> .

وكان الاكرام في اول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ، ثم اطلق على اصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين ، فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما الا ينزعجا لنهضته<sup>(٥)</sup> ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد : « دفنت الفقه والعربية في الري »<sup>(٦)</sup> . وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه ، حتى اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة<sup>(٧)</sup> .

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم ، فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ امرأة<sup>(٨)</sup> وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار ابو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدر الى السلطان ملك شاه تنافس اهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه<sup>(٩)</sup> .

- 
- |                             |                         |
|-----------------------------|-------------------------|
| ١ - المسعودي ١٧٣ ج ٢ .      | ٢ - ابن خلكان ٣٨٥ ج ١ . |
| ٣ - المقدم الفريد ٢٨٧ ج ١ . | ٤ - الفخري ١٧٥ .        |
| ٥ - المزهر ٢١١ ج ٢ .        | ٦ - ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ . |
| ٧ - طبقات الأدباء ١٣٠ .     | ٨ - ابن خلكان ١٧ ج ١ .  |
| ٩ - ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣ .     |                         |

## ٢ — العلوم اللسانية

### النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره ، اما اذا اراد ان يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالامة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علماً فالليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد ، واول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس Protogoras المتوفي سنة ٤١١ ق.م. فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الأسماء ، ثم بروديكوس Prodichos وقد عاصره وتكلم في المترادفات ، ثم جاء أرسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية ، فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الأول قبل الميلاد في زمن بومبيوس ، وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس D. Tarrax اقتداء باليونان .

فالليونان نبغ منهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته وأوديسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً ، لأن اللغة كانت ملكة فيه ، وألف أشيلوس Aeschylus الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ، ونبغ الفلاسفة فريسيديس واناكسيمندر وطاليس Tales وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو .

### وضع النحو العربي ووضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على انهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطروا اليه اليونان والرومان ، التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان ، لأن السريان دونوا نحوهم والقوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد ، واول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفي

سنة ٤٦٠ م<sup>(١)</sup> فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم ، فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان. ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان ، واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية .

اما استعمال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين ، لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب . لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن ، الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ايام النبي ( صلعم ) يخطئون الاعراب ، وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال : « ارشدوا اخاكم فقد ضل » . وقال ابو بكر : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن »<sup>(٢)</sup> . ولكن اللحن لم يكن الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، فتذمر العمال ، فكانوا يسمعون من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة .

اما واضع علم النحو او مدونه فهو بالاجماع ابو الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين ، صحب علي بن أبي طالب وشهد معه واقعة صفين ، ثم اقام في البصرة وكأنه تعلم لغة السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسخ على منواله ، فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد ابن أبيه فأبى<sup>(٣)</sup> لأسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه أمراً فسمعه يقول : « أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى أبي الأسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه .

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الأسدي دخلت على معاوية وقالت : « ان أبوي ماتا وتركاني مالا » ( بالامالة ) وبلغ ذلك علياً فرسم لأبي الأسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله ، فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوماً : « يا ابت ما احسن السماء » على طريق الاستفهام ، فقال « نجومها » . فقالت : « انما اتعجب من حسنها » . فقال : « قولي : ما احسن السماء . . افتحي فاك » . وقالت له يوماً :

١ - شعراء السريان للفرداحي ١٨ .

٢ - المزهر ١٩٩ ج ٢ .

٣ - ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ .

« ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية ، فنصف باب التعجب (١) .

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد ، فهم يجمعون على أن أبا الاسود وضع النحو لمثل الاسباب التي قدمناها ، وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضع علم النحو او الشروع فيه على الاقل ثابت لأبي الاسود ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه في خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب ، فكان في جملة ما فيها قطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود آدم وورق خراساني ، وبينها اربعة اوراق قال : « احسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي ، وتحت : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » (٢) .

على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع ، او الفعل من الاسم ، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر ، او يميزون بها الفعل من الاسم ، كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي .

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو ، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض ، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن ، فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود وأتته من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . واول من اخذ عنه عنبة بن معدان المهري ، واخذ عن هذا ميمون الأقرن ، واخذ عنه عبدالله الحضرمي ، واخذ عنه عيسى بن عمر ، واخذ عنه الخليل بن احمد امام علم العروض واللغة ، ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو (٣) فتنوقل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر ، وهو ينمو ويرتقي عملا بناموس الارتقاء ، والفوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه ( توفي سنة ١٨٠ هـ ) فألف فيه كتابه الشهير ، واصبح كل من الف في النحو عيالا

١ - مفتاح السعادة ( خط ) .

٢ - الفهرست ٤٠ .

٣ - ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .



عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره. وكانوا إذا قالوا : « الكتاب » أرادوا كتاب سيويه ،  
كان الناس يتهادونه كأفخر التحف .

## الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معاني الفاظه وتفهم اساليب  
بساترته ، فجرم ذلك الى البحث في أساليب العرب واقوالهم واشعارهم وامثالهم ، ولا  
كون ذلك سالماً من المعجمة او الفساد الا اذا اخذ عن عرب البادية الذين كانت قریش في  
لجاهلية تتخير من الفاظهم واساليبهم فعني جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة الى بادية العرب  
التقاط الأشعار والأمثال وسؤال العرب عن معاني اللفاظ واساليب التعبير ، وسموا  
لاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب .

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتيم وأسد ، وعن هذه القبائل الثلاث اكثر ما  
خذ من اللغة ، وعليها عول الناقلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم قبيلة هذيل  
بعض كنانة وبعض طي ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا أخذوا شيئاً عن الحضرة  
لا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للأمم الأخرى . فلم يأخذوا من لحم  
جذام لمجاورتها اهل مصر ، ولا من قضاة وغسان واياهم لمجاورتهم اهل الشام واكثرهم  
صارى يقرأون العبرانية والسريانية ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من  
بد القيس وأزد عمان لانهم كانوا في البحرين يخالطون الهند والفرس ، ولا من اهل اليمن  
فالطنتهم الهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهل الطائف  
فالطنتهم تجار اليمن ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا  
نقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت سنتهم . والذين نقلوا اللغة  
أساليبها عن القبائل المذكورة وأثبتوها في الكتب وصيروها علماً هم اهل البصرة  
الكوفة فقط <sup>(١)</sup> وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر  
ن العرب .

### علماء الأدب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسمهم حفظاً ورواية أبو عمرو بن العلاء التميمي المتوفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة ، وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف<sup>(١)</sup> وقال مع ذلك : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة ، اشهرهم اربعة في عصر واحد وهم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والخليل . وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الاول اخذوا عن أبي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة<sup>(٢)</sup> .

فأبو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة واخذ عنه سيبويه . وأبو عبيدة كان اعلم الجميع بأيام العرب واخبارهم واجمعهم لعلومهم ، ومن اقواله : « ما التقى فرسان في جاهلية او اسلام الا عرفتها وعرفت فارسيتها » توفي سنة ٢٠٩ هـ ، والأصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده ، توفي سنة ٢١٣ هـ .

واما الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ هـ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب ، لانه اول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين ، سماه بذلك لانه رتبته على الحروف باعتبار نخرجها : من الحلق ، فاللسان ، فالاسنان ، فالشفيتين . وبدأ بحرف العين ، وهالك ترتيبه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ي . فكان الخليل حذاً بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية ، فانهم يبدأون بأحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية<sup>(٣)</sup>

وكان من عادات العرب ان يسموا الكتاب بأول لفظ من الفاظه ، ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبته على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم<sup>(٤)</sup> وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني<sup>(٥)</sup> ومن هذا القبيل كتاب الغين في الحروف ، وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من

١ - ابن خلكان ٣٨٦ ج ١ . ٢ - الزهر ٢٠٢ ج ٢ .

٣ - William's Sanskrit Grammar, 15 .

٤ - طبقات الأدباء ٢٦٠ . ٥ - ابن خلكان ٦٥ ج ١ .

ملاحظة ترتيب الحروف في كتاب العين ان الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية ، وان كثيراً من الأحرف تختلف عما تنطق به الآن .

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر او مثل او غير ذلك ، وما يسمعون من معانيها ، لأن عليها يتوقف تفسير القرآن . فانهم اتبعوا في نقل اللغة طريقة الاسناد المتسلسل ، كما كانوا يفعلون في رواية الحديث ، وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه ، لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب ان يكون عدلاً كما يشترط في ناقل الحديث ، لأنها واسطة تفسيره وتأويله . على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً .

وازدهرت علوم الادب في القرن الثاني وبعض الثالث الهجريين في البصرة والكوفة ، ونبع فيها النحاة والرواة والحفاظ والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك ، واهل الكوفة يأخذون عن اهل البصرة ، وهؤلاء يستنكفون ان يأخذوا عن اهل الكوفة لاعتقادهم انهم غير محققين . ولم يعلم ان احداً من البصريين اخذ عن اهل الكوفة إلا ابو زيد الانصاري<sup>(١)</sup> على ان الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ، ولكن كثيراً منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائي<sup>(٢)</sup> المتوفي سنة ١٨٢ هـ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفي سنة ٢٠٧ هـ وعلي الاحمر اللحياني وغيره ، كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الادب .

#### علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها ، وغلب ورود اهل الكوفة الى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصرهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدمهم الخلفاء على اهل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبدالله بن سعيد الاموي ، وابو الحسن الاخفش الكوفي ، وابو عكرمة الضبي ، وابو عمرو الشيباني وغيرهم .

وآل الأمر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى اربعة هم اركانه واعمدته ،

دونوا عملهم في كتب شهيرة هي: (١) كتاب ادب السكاك لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقيلي . وهذه الكتب هي مصادر علم الأدب عند العرب الى الآن ، واكثر ما ألف بعدها نقل عنها (١) .

ولما قدم العباسيون اهل الكوفة ارتقوا في عين انفسهم وارادوا مسابقة اهل البصرة ومفاخرتهم ، فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والأدب واللغة ، اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشرت ناراها بين سيدييه من البصرة والكسائي من الكوفة . وكان الكسائي يعلم الأمين ابن الرشيد ، فكان الأمين ينصره كأن على انتصار أحد النحويين يتوقف انتصار بلده جميعاً . ولا بأس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء بالمسائل العلمية . وذلك ان الكسائي كان مقيماً في بغداد يعلم الأمين ، واتفق ان سيدييه قدم اليها من البصرة ، فجمع الأمين بينهما في مجلس فتناظرا في امور كثيرة من جلستها مسألة الزنبور . فذكر الكسائي من امثال العرب مثلاً رواه على هذه الصورة : « كنت اظن الزنبور اشد لهما من النحلة فاذا هو إياها » فقال سيدييه : « ليس المثل كذلك ، بل : فاذا هو هي » وتجاوزا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام اهل الحضر . وكانت الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله ، فقال كما قال سيدييه ، فقال له : « نريد ان نقول كما قال الكسائي » فقال : « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق إلا الى الصواب » فقرروا معه ان شخصاً يقول : « قال سيدييه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما ؟ » فيقول العربي : « مع الكسائي » فقال : « هذا يمكن » . ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك فقال : « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيدييه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي ، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس .

ويدل ذلك على عناية اهل الدولة بالمسائل الادبية ، وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على انهم كانوا يهتمون بالآداب من ايام بني امية ، فقد ذكروا ان عبد الملك ابن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة ، فقال مرة لبعض اهل مسامرته : « ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ؟ » اراد ان يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً اوله حرف الالف ثم

عضواً اوله حرف الباء وهكذا الى الباء ، فقام سويد بن غفلة فعددها ، فقام احد الحاضرين فعددها في جسد الانسان مرتين<sup>(١)</sup> فأجاز الاثنان .

وكانت علوم اللغة في اول امرها مشتركة مختلطة ، ثم تميزت وتسعبت فصارت علومها عديدة ، كل منها مستقل عن الآخر ، كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي واخبار العرب وامثالهم والجدل وغيرها ، وقد يطلقون عليها علم الادب ، ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة .

### بلاغة الانشاء

البلاغة في الإنشاء مما اقتضاه القرآن ، لأنه مثال البلاغة والفصاحة عند العرب ، يتخذونه نموذجاً في خطبتهم ورسائلهم وإنشائهم ، وإذا لم يقصدوا الى الاقتباس منه عمداً فشيوع حفظه بينهم اكسبهم ملكة البلاغة ، مع ما كانوا فيه من اسباب الحماسة والأنفة في ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ، ظهر في عباراتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة او كتابة . اما بلاغة الخطابة فسياًتي الكلام عليها . واما الكتابة فينظر فيها من عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب .

### إنشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة ، من حيث انتقن في اساليب الخيال بالتهديد او الوعيد او النصيح او الاستنهاض او الاستعطاف او نحو ذلك من المعاني . وكانوا في اوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان ، عملاً بالحديث القائل : « اوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصاراً » . فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل ، حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة ، كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء .

ومن امثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص امير

مصر ، وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة : « من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص . سلام عليك ، اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبت انت ومن معك ان أهلك انا ومن معي . فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عبدالله عمرو بن العاص . اما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك ! قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي . والسلام عليك ورحمة الله . »

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه ، وامر الحجاج فبنى باباً باسمه هو ، فاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط ، فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه : « بلغني ان ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر » فسرى عن عبد الملك بذلك .

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلاء ، ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ، ومن أمثلة ذلك ان المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب : « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معني بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية . »

وكثيراً ما كانوا يحييون على الكتاب بعبارة مختصرة ، وخصوصاً اذا ارادوا التهديد او نحوه ، كما اجاب الرشيد نقفور ملك الروم ، وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ، ويطلب اليه ارجاع ما كان قبضه منها الى ان قال : « واقتد نفسك بما تقع به المصادرة ، والا فالسيف بيننا وبينك » . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بعد البسمة : « قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ! » . واجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدهد بكتاب ، فكتب يوسف على ظهر الكتاب : « الذي يكون ستراه » .

### التوقيعات

ويعد من هذا القبيل أيضاً التوقيعات ، وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه ( التأشير ) في دواوين هذه الايام ، وكانوا يتفننون في التوقيع تفنناً بديعاً . ويغلب ان يجعلوا اجوبتهم آيات من القرآن ، او جملات من الحديث ، او اشعاراً

مشهورة . ومن امثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنيان يبنيه ، فوقع عمر في اسفل الكتاب « ابن ما يكتنك من الهواجر واذى المطر » . ووقع عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجأ أعناقهم : « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » . وكتب سلمان الفارسي الى علي بن ابي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ، فوقع على جوابه : « يحاسبون كما يرزقون » .

وكتب عبدالله بن عامر الى معاوية في امر يعاتبه فيه ، فوقع في اسفل الكتاب : « بيت امية في الجاهلية اشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » . وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع ، فوقع في اسفل الكتاب : « ادارك في البصرة ام البصرة في دارك ؟ » . وكتب الحجاج الى عبدالملك بن مروان يخبره بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل اشراقتهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » . ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث :

فما بال من اسمى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس : « كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت ، والسلام » <sup>(١)</sup> وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة ، فوقع على الكتاب : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

\* \* \*

وفس على ذلك سائر توقيعات بني أمية وبني العباس ، وهي كثيرة وكلها بليغة ، كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لأمر جاء عنه : « أنا ساهر وانت نائم . . » . وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزائني وخزانة اخي يوسف ، فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وتوقيع المأمون الى ابن هشام لأمر تظلم فيه : « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من تحته ، فأأي الرجلين انت ؟ »

وكان الأمراء والوزراء أيضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم احدهم الى زياد ابن أبيه من بعض عماله بكتاب فوقع له : « انا معك » . ووقع

الحجاج في كتاب أراه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها وما يقامي من مداراتهم :  
 « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ » . ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس :  
 « ولكل أجل كتاب » . ووقع لآخر : « الجناية حبسته والتوبة تطلقه » . وقد اقتبس  
 العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم إلى ذلك .

وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم ؛ حتى تحضروا واختلطوا  
 بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بدأوا بذلك  
 من أوائل القرن الثاني للهجرة . وأول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول  
 الكتب وفتق أحكام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفي سنة ١٣٢ هـ وهو من أهل  
 الشام <sup>(٢)</sup> غير عربي . وسار الكتاب بعده على خطته وقلوده وتوسعوا في طريقته ، فنبغ  
 جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والأمراء وأكثرهم من غير العرب ، ومنهم يحيى بن  
 خالد البرمكي فارسي ، والفضل بن الربيع من الموالي ، والفضل بن سهل فارسي ، والصاحب  
 ابن عباد من الطالقان ، وابن العميد المتوفي سنة ٣٦٠ هـ وهو من أهل خراسان ،  
 وعماد الدين الكاتب المتوفي سنة ٥٩٧ هـ من أهل أصبهان وهو أكثرهم توسعاً واطناباً .

#### إنشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في الموضوعات الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها ، وهي  
 تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف موضوعاتها . وكتب الأدب احوج إلى البلاغة لما تقتضيه  
 الموضوعات الأدبية من التخيلات الشعرية والكنائيات ونحوها . والغالب في كتاب الأدب  
 أن يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا أساليبهم في أشعارهم وخطبهم وأقوالهم ،  
 فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ، ولذلك كان الفقهاء وأهل العلوم الطبيعية قاصرين في  
 البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال ، فيتعودون التعبير بعبارات بسيطة بعيدة عن  
 أساليب الأدباء . وإذا حاولوا الكتابة في الأدب أو نظم الشعر جاء كلامهم ضعيفاً ركيكاً .

فلغة الكتاب ، قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية إلى العربية ، كانت أقرب إلى  
 البلاغة مما صارت إليه بعد ذلك ، لأنها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة ،  
 ولكنه أقرب إلى التعبير الشعري منه إلى الكلام المرسل . فالذين حذوا حذوه في صدر  
 الإسلام اجادوا في الخطب والمراسلات ، لافتقارهما إلى ذلك الأسلوب بما فيه من أسباب



التأثير في النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب . وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من أسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . واحسن امثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كلیلة ودمنة ، فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم .

### ابن المقفع

كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بأدائها متمكناً من اساليبها لأنها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية ، وقد نشأ في البصرة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء ، فبرع في اللغة العربية وأدائها وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية . فلما اقدم على نقل كتاب كلیلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة ، وقد سار على نهجه من جاء بعده لأنه اقدم من حفظ انشاؤه في الموضوعات الادبية باللغة العربية ( توفي سنة ١٤٣ هـ ) .

على ان سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر قلما انشأوا شيئاً من عند انفسهم ، لان اكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن اهل البادية او عن بلغاء الخطباء بنصها ، وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم : حدثنا فلان ، او اخبرنا فلان ، او خطب فلان فقال كذا وكذا ، وكتب فلان الى فلان كذا وكذا ، مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل . حتى ما كتبه اركان علم الادب في اواسط القرن الثالث للهجرة ، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، فان كتبهم عبارة عن قطع من اقوال العرب او مروياتهم منقولة بالاسناد الى اصحابها ، وشأنهم في ذلك شأن كتاب المغازي والفتوح والسير وال اخبار والاشعار ، كحماد والاصمعي وابي عبيدة ومحمد بن اسحق ، فانهم كانوا يقولون ويسندون اقوالهم الى الرواة واكثرهم من اهل البادية . ويقال نحو ذلك فيما جمع بين هذه الفنون ، ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني وغيرهما ، فانها عبارة عن اخبار مسندة الى اصحابها ، ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف .

فكتاب كلیلة ودمنة اقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ، ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره او ما بعده من كتب ادب ، يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير اساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفها

الكاتب ، او لاقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت احد بأحسن منه ، مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدل على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تتقيد بالزمان او المكان إلا قليلاً .

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية ، حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن او علم ، وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس او السابع ، فأخذوا يحذفون الاسانيد او يختصرونها الالأسباب خاصة كما سترى في باب التاريخ .

### السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء ، واصبح الشعر شائعاً على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكثر تمثلهم به وتناشدهم اياه ، الف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها اولاً في المراسلات وهو التسجيع ، وقد كانت في اول امره مقبولة لقلته وحسن وقعه ، حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في اواخر القرن الرابع . واول من فعل ذلك بديع الزمان الهمداني المتوفي سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفي سنة ٣٩٠ هـ<sup>(١)</sup> وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع ، فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في ايام الكهان .

والتسجيع في الكتب أنبى على السمع مما في الرسائل ، وخصوصاً فيما لا يحتاج الى تنميق او اطناب او رنة او خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفي سنة ٥٣٥ هـ ، او الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره ، او تاريخ سلجوق لعماد الدين أيضاً يرى ثقل الاسجاع على السماع في التاريخ وان حسنت احياناً في الرسائل والخطب .

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مراسلاً ، وقد اجادوا كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء<sup>(٢)</sup> .

١ - ابن خلكان ٣٥ و ٣٩ ج ١ . ٢ - ابن خلدون ٤٩٨ ج ١ .

### ٣ — التاريخ والجغرافية

#### التاريخ

بقي الانسان أحقاباً لم يدون فيها التاريخ، لانه لم يكن يعرف الكتابة، ولان احواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها، مع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة. على انه ما لبث ان اصيب بطوارق الحداث، فحفظ اكثرها تأثيراً في احوال معاشه، كالطوفان والقحط والحرب ونحوها، وتناولت تلك الاخبار في اعقابه ادهاراً، وهي تتعاضد وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب، واجتهاد الراوي في التأثير على السامع بما يليق به من الاخبار المنمقة المستغربة. فوصلت اخبار الاوائل الى زمن التاريخ وهي اشبه بالخرافات منها بالحقائق. واتخذ بعضها وجهة دينية، والبعض الآخر وجهة حماسية، واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية، ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور. فنشأ من ذلك كله ما يعرف بالخرافات القديمة، كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة، واخبار الهنود في المهاباراتة، واخبار الفرس القدماء في الشاهنامه، واخبار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلوها. فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا يخلو من اصل تاريخي تعاضد وتضاعف على مر الايام، وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرها.

ويلي ذلك طبقة من الاخبار اقرب الى التاريخ من تلك، كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة، ومنها ايام العرب وحروبهم قبل الاسلام، وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام. فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير انسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات، ولا علم لهم بأحوال الامم الاخرى إلا ما له علاقة بهم، غير ما كانوا يسمعون من حوادث التوراة والتلمود من اخبار اليهود او قسس النصارى، ولا يخرج ذلك كله عن اخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة او واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى.

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من اضعف الامم المتعدنة في التاريخ. فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب، حتى اذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية. وقد عدنا التاريخ من هذه العلوم، لا لأنه خاص بالاسلام بل لأن الاسلام دعا الى وضعه كما سترى.

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم، إلا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقضها، وخصوصاً اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء، لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس .

وكان اكثر الخلفاء دهاء وسياسة اكثرهم رغبة في استماع الاخبار، فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني امية كان يجلس لأصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل، فيقصون عليه اخبار العرب وايامها، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتهما وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكائدها وانواع السياسات<sup>(١)</sup> والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب باليونانية او اللاتينية، وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر وبوايريس قيصر وهنوبال، وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لأن العرب لم يدونوا الكتب إلا بعد زمن معاوية .

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم، ولذلك كان اكبر القواد العظام الراغبين في العلا، من العرب وغير العرب، يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد، واذا وقع احدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثاله قبله تسهيلاً لابداء حكمه فيها . يقال ان المنصور لما هم بقتل أبي مسلم الخراساني تردد بين ان يعضى قتله او يشاور فيه، لما كان لأبي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى ارق، فلما اصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال له : « حدثني حديث الملك الذي اخبرني عنه في حران »، فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس انفسد وزيره الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته، فمضى وسعى في تحجيب الناس به ودعاهم الى طاعته . فلما استفحل امره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان، فلما رجعوا بغتهم فلم ينتهبوا إلا ورأس الوزير بين ايديهم، فاضطروا الى طاعة سابور - فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا      وما علم الانسان إلا ليعلم

واستقر رأيه على قتل ابي مسلم ، وقتله<sup>(١)</sup> . وكان بدر لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم ، فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك واصحاب السيادة ، وكان من الامثال الشائعة في اوائل الاسلام قولهم : « علم الملوك النسب والخبر ، وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير ، وعلم التجار الكتابة والحساب »<sup>(٢)</sup> .

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء بأمور الدولة ، اصبح مهمهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ او السير ، خوفاً من ان يتفطنوا الى اشياء لا يحب الوزراء ان يفطنوا لها - قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة ، ومن وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحليل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه : « والله انكم اشد الناس عداوة لي .. انا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشغل بها عني وعن غيري ، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها .. ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعاراً تطربه »<sup>(٣)</sup> ففعلوا .

### مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الاحوال ، واليك تمثيل ذلك : لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي نزلت فيها الآيات او قيلت فيها الاحاديث ، فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . واول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفي سنة ١٥١ هـ ، الفها للمنصور . على اننا رأينا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفي سنة ١٢٤ هـ ألف كتاباً في المغازي<sup>(٤)</sup> وقد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان انها كانا متعاصرين . ويقال ايضاً ان اول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٣ هـ وهب بن منبه

١ - البيان والتبيين ١٥٥ ج ٢ . ٢ - العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .

٣ - الفخري ٥ . ٤ - كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢ .

المتوفي سنة ١١٤١<sup>(١)</sup> وعلى أي حال فإن هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل إلينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفي سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة .

ولما اشتغل المسلمون في ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا في بعضها : هل فتح عنوة او صلحاً او اماناً او قوة ، وفي شروط الصلح او الامان . فاضطروا الى تدوين اخبار الفتح باعتبار البلاد ، فالفوا كتباً في فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات . وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفي سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هـ ، وهو اوثق كتب الفتح واشملها واقدم ما بين ايدينا منها ، إلا الواقدي .

### الطبقات والمغازي

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، ان العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدها وتراجهم وسائر احوالهم ، حتى اصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدها ، والاحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها : طبقات الشعراء ، وطبقات الادباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات الفرسان والحديث واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والاطباء ، حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، والفوا في كل باب غير كتاب . ولذلك كانت المسلمون اكثر امم الأرض كتباً في التراجم لأفراد الرجال .

واقدم كتب الطبقات التي وصلت إلينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدي المتوفي سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ، ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى أيام المؤلف<sup>(٢)</sup> وكانت هذا الكتاب مشتتاً في مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية ( المصرية ) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف ان جمعية المانية شرعت في طبعه واصدرت الجزء الاول منه . ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هذا العام بعناية

الاستاذ دي خويه المستشرق الهولندي الشهير . ثم الف الناس طبقات كثيرة في ازمنا مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الاعيان ، والوافي في الوفيات ، وفوات الوفيات ، وغيرها مما سيأتي ذكره ، غير التراجم الدخيلة في تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في نحو ذلك وفيها تراجم كثيرة .

وكان طلاب الأدب الراحلون في جمع اللغة والشعر من افواه اهل البادية يلتقطون اخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم . ناهيك بالأخبار المستخرجة من تلك الاشعار - قال ابن يونس : « لولا شعرالفرزدق لذهب نصف اخبار الناس<sup>(١)</sup> » .

ولما استبد بنو امية بالخلافة واعوجوا في احكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق - وذلك طبيعي في هذه الاحوال . ثم الف بعضهم كتباً في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم في الخلفاء على الاجمال ، واقدمهم الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم .

### التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ما تقدم . اما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم او البلاد قديماً او حديثاً فلم يشتغلوا بها إلا بعد ذلك ، وأقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي ، وكتابه مطبوع في جزئين : جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ، والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى ايام المعتمد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفي سنة ٣٠٢ هـ . وقد الف الفرغاني عليه ذيلاً ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ ، وكلاهما مطبوع . ثم المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ صاحب « مروج الذهب » وفيه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها ، فضلاً عن التاريخ ، وهو محبوب حسب الدول او الامم ومطبوع . وللمسعودي كتاب سماه « اخبار الزمان » وقد ضاع ولم يقف له احد على اثر ، ولكن

يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب انه مطول جداً . يليه حمزة الأصفهاني صاحب « تاريخ سني ملوك الارض » فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ .

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة ، اذ انقضت الدول الاسلامية العربية : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس . وقامت دول الاتراك والاكراذ والبربر ، فانتقل الناس الى عصر جديد ، فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضي ، فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين موضوعاتها و اضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة تواريخ مطولة ، اشهرها واوعاها واضبطها كتاب « الكامل » لابن الاثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة ، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الأندلس وغيرها . ورتب ابن الاثير كتابه على السنين ، مثل كتاب الطبري ، فجاء ١٢ مجلداً كبيراً ، وهو مطبوع . وجاء بعده ابو الفداء صاحب حماء المتوفي سنة ٧٣٢ هـ ، فأخذ الكامل فلخصه وادخل فيه كثيراً من اخبار الأدباء والعلماء ، وتوسع في اخبار العرب الجاهلية وابقاه على حوادث السنين ، فجاء في ثلاثة مجلدات ، وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردي لتوفي سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ ابي الفداء .

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الزهاب وانضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس ، فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين ، وافاض خصوصاً في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه احد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على مثالا قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفي شهرتها ما يغني عن وصفها .

ونهج بعض المؤرخين في تأليفهم منهجاً آخر ، فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . واطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ في ثمانين مجلداً وقد تقدم ذكرهما ، وكلاهما لم يطبع ، والثاني اكثر وجوداً من الأول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للمقريزي ، وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها اخبار مصر القاهرة لأبي المحاسن والسيوطي .



## التراجم والمعجمات

وأما التراجم فكانت في القرون الاولى تدون في الطبقات ، باعتبار المهن او العلم الذي يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب ، نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم ، واشهر تلك الكتب « وفيات الاعيان » لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ ، ثم « فوات الوفيات » لصلاح الدين بن شاكر الكتي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره ، وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيات » لصلاح الدين الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ ، وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعاً في مكتبة واحدة ولا جمعه بعد ، فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكتبات اوروبا . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤ في ١٠ مجلدات ، وهو مشتمل . وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفي سنة ٥٧٨ وكتاب « المعجم » لابن الأبار وغيرهما .

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس او طبقة من طبقاتهم ككتاب « اسد الغابة » في اخبار الصحابة لابن الأثير صاحب الكامل ، وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخامس بالصحابة ، وهو مطبوع وملشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع .

على ان كثيراً من التراجم والاخبار التاريخية منتشرة في كتب الأدب ، ككتاب الأغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولاً تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ، ككتاب الحيوان للدميري فان فيه فصولاً تاريخية قلما نعاثر عليها في كتب التاريخ .

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبه من التراجم ، واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعندهم اخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة ، هي كنوز في التاريخ والجغرافية والأدب والعلم . وفيات الاعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء ، غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه أنه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ، ويذكر سني الوفاة والولادة ، ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقال نحو ذلك في

قواميس التراجم الأخرى ، كفوات الوفيات وفيه أكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان ، وكتاب الوافي في الوفيات ، وأسد الغابة في أخبار الصحابة ، وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ، ككتاب الطبقات للشعراء والفقههاء والأطباء ، ومن أحسنها كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفي سنة ٦٦٨ هـ ، فإنه جامع تاريخ الطب والأطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والسكندان ، فضلاً عن العرب والمسلمين ، وهو مرتب بحسب العصور والبلاد ، ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها ، وهو مطبوع ومشهور .

### عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة اسمائها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب واهمل ذكره وهو كثير جداً . يدل ذلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ او الجغرافية ، اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها او اعتمد عليها في تأليف كتابه ، فاذا بحثت عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون او غيره . فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عشرات من الكتب التي كانت شائعة في أيامه ، وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل . فلو بقيت الكتب التي ألفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف ، وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في اربعين مجلداً او خمسين او ثمانين ، ومنها في عشرة او خمسة او اقل او اكثر .

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين ، كالطبري وابن الاثير وابي الفداء ، او باعتبار الامم أو الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون ، او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى . واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين ، لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار ، الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لاغراض بعض ذوي المطامع او الاهواء والعرب لا يزالون على سذاجتهم .

## عيوب المؤرخين المسلمين

ولمّا يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على ايراد الحوادث على عواهنها بما بلغت اليهم ، وقد يسندونها الى راو او عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء الاسناد . وقد فاتهم ان بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول او ما بعده لغراض سياسية ، كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها .

ومما ينتقد عليهم أيضاً أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين اخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة ، وقلما يذكرون تاريخ الآداب او العلوم ، او احوال الدولة من الحضارة واسبابها ، وتعليل الحوادث وما نجم عنها ، وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضاً . فيندر ان ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او امير ، او ملاحظة على نكته ، حتى في الاحوال التي يعلم أنه لا يسيء فيها الى الخليفة ، بل قد يكون في انتقاده ما يسر ذلك الخليفة ، كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية ، فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة ، ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئاً من مساوئ بني أمية ، الا ما قد يجيء عرضاً . ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة وأخرى او مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين او اميرين مسلمين ، لا يخلو ان يكون احدهما ظالماً والآخر مظلوماً ، فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احتراماً لمقام الدين ، فينقل الخبر على علته ويترك الحكم فيه للقارئ ، وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ .

وقديكون من اسباب سكوتهم عن مساوئ بعض الامراء التزلف اليهم او الاستجداء بمدحهم ، وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء او السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويحيزونهم على تأليفها ، فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد ما قاله ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير ، وقد كلفه عضد الدولة بن بويه ان يؤلف له كتاباً في اخبار الدولة الديلمية ، فألف له تاريخاً سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمل فقال : « أباطيل أمقها وأكاذيب ألفقها . » (١)

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخره حقه عمداً ، كما فعل الفتح بن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير (١) .

ويندر ان ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوىء احد الخلفاء او الامراء او غيرهم من اولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من امثال ذلك في كتاب الفخري والآداب السلطانية لابن طباطبا ، وتاريخ ابن خلدون . اما ابن طباطبا فقد صرح بذلك انتصاراً لآل علي ، كقوله على اثر حكاية وقعت للرشد مع ابي نواس اذ اورد قول ابي نواس في الرشد :

قد كنت خفتك ثم أمني من ان اخافك خوفك الله

ثم قال : « ولم يكن الرشد يخاف الله وافعله بأعيان آل علي (عم) اولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » ، وهذا تصريح لم نر له شبيهاً في كتب مؤرخي المسلمين إلا ما قد يقوله الشيعة في اعمال اهل السنة او بالعكس . وأما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي .

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين ايضاً - بالنظر الى آداب هذه الايام - انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذينة ، او واقعة ينجل سماعها الاديب فانهم يذكرونها بالفاظها ، كما يذكرون سائر الحوادث ، ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السفيهة ، وهم يسمون ذلك احماضاً وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك العصور ، او انه لم يكن منكراً عندهم . والحقيقة ان اهل الادب الصحيح من اولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك . وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول ، ومن الادلة على أدبه انه لما ترجم لحسين بن محمد المنعوت بالبارع ، وهو من الشعراء المشهورين ، ساقه الحديث الى قصيدة نظمها احدهم للبارع المذكور وقصيدة اجابه البارع بها ، فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيدة ثم قال : « لولا ما اودعها من السخف والفحش لذكرتها » .

## الجغرافية او تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كان للدلالة على ان هذا الفن ليس من موضوعات العرب ، ولكننا

ذكرناه. هنا لارتباطه بالتاريخ ، ولان العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لأسباب خاصة بالاسلام .

لم يقدم البشر على وضع علم او فن الا لأسباب حملتهم على ذلك ، لأنهم يساقون في شؤونهم واعمالهم بالحاجة ، ولذلك قالوا : الحاجة ام الاختراع . واضطروا الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة ، بل جاء بالتدريج فنا واتسع عملا بناموس الارتقاء . واهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها ، اما للتجارة او للفتح ، فجمعوا معلومات التجار والفتاحين بتوالي الأزمان ، وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها ، حتى اتيج لها من رتب ابوابها وضبط اجزاءها وجعلها علماً .

واول من وضع اساس هذا العلم الفينيقيون ، لانهم اقدم تجار العالم واكثرهم اسفاراً ، فقد رادوا شواطئ البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً . وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الأيام ، تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتنفرد منها حتى الهند ، فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على أصلها الهندي . فاطلع الفينيقيون في أثناء أسفارهم على احوال كثيرة من البلاد وعرفوا المسافات بينها واخبار اهلها .

ولما حمل الاسكندر يحيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند برأ وبحراً ، اطلع رجاله على احوال اواسط آسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والادواف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطئ البحر الاحمر الى الحبشة ثم الرومان وغيرهم .

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ، ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . واول من فعل ذلك اراتستين Eratostenes اليوناني المتوفي سنة ١٩٦ ق . م على عهد البطالسة ، فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون او رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافي بلينيوس ، الى زمن بطليموس القلوذي في اواسط القرن الثاني لليلاد ، فألف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق اماكنها على ما بلغ اليه العلم في عصره ، وذكر فيه ان عدد المدن في ايامه كان ٣٥٠٠ وسماها مدينة مدينة ، وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما

في بطونها من المعادن ، وذكر ما على الأرض من الخلائق وغير ذلك . فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعمول عليه في تقويم البلدان . فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية ، وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطي ، وعلى هذين الكتابين بنوا اكثر ما كتبوه في علم الجغرافية .

### الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس . لثلاثة اسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان او غيرهم الى وضعها . لأن العرب من اكثر الأمم فتحاً وغزواً ، وقد تفرقوا بعد الاسلام في اربعة اقطار المسكونة . وهم — وخصوصاً اهل الحجاز — كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم . اما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فأولها الحج ، لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقاليهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند او الصين او او غيرهما ، والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها الرحلة في طلب العلم ، فقد رأيت فيما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق . ولذلك كان اول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية . واول من ألف في ذلك رواة الأدب والشعر ، كالاصمعي والسكوني ، ثم الفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في جزيرة العرب وابو الأشعث الكندي في جبال تهامة<sup>(١)</sup> وغيره . والسبب الثالث ان العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين ان تكون قد فتحت صلحاً او عنوة او اماناً او قوة ، ولكل من فعل ذلك حكم في قسمة الفء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات واناة التسويات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الأمراء . فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ، ولا يتوصل اليه إلا بالتاريخ والجغرافية .

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها اخذوا في تأليف الكتب على مثالها ، وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ،

ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الافطار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وكتبوا ما شاهدوه او تحققوه وصححوا كثيراً من اخطاء بطليموس . والظاهر ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج إلا في القرن الرابع للهجرة ، فتهافت الناس على التأليف فيه تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن .

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ ابو زيد البلخي ، الف في اول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد ان قسمها الى عشرين جزءاً ، ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيراً من امهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه ابو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقي على كتاب البلخي ، والف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . واما كتاب البلخي فقد ضاع .

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي ، فجعل بلاد المسلمين عشرين قسماً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر ( تركستان ) ووصف كل قسم على حدة ، وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك . ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل ، فالف كتاب « المسالك والممالك » وقد سار بنفسه ايضاً لمشاهدة البلاد . قال في مقدمة كتابه : « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخرائط الكثيرة ، لكل اقليم من اقاليم الاسلام خريطة او غير خريطة ، ورسم المدن والانهار والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخري ، والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن .

ثم الف ابن الفقيه الهمداني والمقدسي والمسعودي وغيرهم . وقد رحل المسعودي رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصي الهند وذكر ما شاهدته وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من اهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن إلا الخرائط فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها او الاشارة اليها .

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها ، حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه ، فنهض جماعة الفوا في الجغرافية

كما الفوا في التاريخ ، فوضعوا المعجمات الجغرافية على احرف الهجاء ، واشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ فقد الف كتاباً ضخماً سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والاطوان والبحار والأنهار والاصنام والأبداد والأوثان ، وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في اثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها او نسبوا اليها . فهو قاموس جغرافي تاريخي أدبي . ولأبي الفداء صاحب حماه ايضاً كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها ، فضلاً عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية ، فنكتفي بالإشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية .





# الآداب العربية الجاهلية

## الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام ررنقا وبلاغة وارتقاء ، ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء ، لحاجة المسلمين اليها في الفتوحات والغزوات ، والعرب يومئذ لا يزالون على بدائهم ، تتأثر نفوسهم بالتصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة او الشعر . والخطابة اقرب تناولا ، ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء . فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد ما اثرهم ويفخم شأنهم ويحول على عدوهم ويهيب بفرسانهم ، اصبح الخطيب في الاسلام مقدما على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة<sup>(١)</sup> في استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وارهاب الاعداء .

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ، ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من مجارة اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر ايضا ، ولكن الخطابة اوسع مجالا للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلا او اشارة او تهديدا ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على الطاعة لأخيه عبدالله ، فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الأرض وجعل اهله شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ( و اشار بيده نحو الشام ) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ( و اشار بيده نحو الحجاز ) ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ( و اشار بيده نحو العراق ) »<sup>(٢)</sup> .

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعا في النفوس، بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها ، فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسميها ذوقهم في البلاغة ، وشحذت قرائنهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنه الجديدة، فبلغت الخطابة عندهم مبلغا قلما سبقهم فيه احد من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعا وتأثيرا حتى اليونان والرومان . لا تنكر ما كان من تفوق هاتين الأمتين في الخطابة ، وما نبغ بين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستينيس واشينس وهيبيريدس من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به اولئك بلاغة ووقعا . وربما كان الخطباء في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ ، مع اعتبار الفرق بين الامتين افة وخلفاً وادباً .

فقد ذكروا لديموستينيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ ، وهذه خطب الأمام علي تعد بالملئات . واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء ، لأن خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء والنسك والزهاد<sup>(١)</sup> ، ولا غرابة في ذلك ، لأن العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، وللبلغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم . وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله ، فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع او الهجوم . وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدتهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم .

\* \* \*

فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة . كان العراق متمرداً على عبد الملك ، فلما أعجزه امره ولى عليه الحجاج ، فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلماً متنكباً قوسه واضعاً ايهاهه على فمه ، فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه والقى خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا      متى اضع العمامة تعرفوني

الى ان قال :

« اما والله لأحمل الشر بثقله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله . أما والله اني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، وكأني ارى الدماء بين العمام واللحى :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم      قد لفها الليل بسواق حطم

« الا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أصلها عوداً فوجهني اليكم .. فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق ، طالما سمعتم في الضلالة وسنتم سنن البغي .. أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعضبنكم غضب السلمة ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .. والله ما أخلق الا فريت ، ولا أعد الا وفيت ... الخ » (١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له ، وكان شديداً عليهم . وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقى المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، يخيل للسامع انه صادق وان اهل العراق ظالموه .. (٢) ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء ، لما في اقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة .

واذا رجعت الى حوادث الفتح او جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجيباً ، وأول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ أهل المدينة موت النبي (صلعم) فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة ، فقام أبو بكر خطيباً فقال : « أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يميت ( وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ) وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بر ، رجارية في بحر ، فأقروا أميركم وانا ضامن ان لم يتم الأمر ان أردتها عليكم » (٣) فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاختماد تلك الثورة .

\* \* \*

وقس على ذلك خطبته في السقيفة ، وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين ، واخطبهم بلا خلاف علي بن ابي طالب ، وفي كتاب « نهج البلاغة » المشهور بين ظهرانينا

١ - العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره . ٢ - البيان والتبيين ٢٠ ج ١ .

٣ - البيان والتبيين ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١ .

اكبر شاهد على ذلك ، وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه ، فاكثرها من اقواله ، وفيها امثلة على كل ضروب الخطب ، ومنها الدينية والادبية والعلمية والحماسية والفخرية .

وكان اكثر الخلفاء يخطبون ، ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة ، على ان تلك القوة اخذت تضعف فيهم ، بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في اسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ ، وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعى دولة العرب في الشرق ، فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء ، لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم او اخماد الفتن ، لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداءة والفراغ من الفتح . على انهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة او بالنصر على عدو او باستقبال قادم كبير ، تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه او شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة (١) .

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر ، كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك ، وخطبة المغيرة في وقعة القادسية ، وخطبة خلود بن المنذر في غزوة فارس ، وخطبة طارق ابن زياد في فتح الاندلس ، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات .

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة او دمشق او بغداد او غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة او استنفاذه او استنجاده او استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطباءهم ، لشيوع حب الخطابة فيهم (٢) ولاقتباس اساليب البلاغة منهم .

موبعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات ، فقد كان الخلفاء وخصوصاً في صدر الاسلام اذا كتبوا اميراً في امر تعمدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب في قوى العارضة في الخطابة ان يكون بليغاً في الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك .

## الشعر بعد الاسلام

### لشعر وبنو أمية :

ولما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي ، واشتغلوا بالفتوح ونشر الاسلام ، انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض لهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين العرب في شاغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من اهل البيت واحتاجوا الى من يؤيدهم ، استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب الأموال واستخدموهم بالدهاء ، فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء ، اما ليرغبوا الناس في خلافتهم او ليقطعوا ألسنتهم فيسكتوا عن هجوهم ، ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر قطع لسانه .

فكان الخلفاء من بني أمية يرغبون الناس في الشعر ويحيزونهم بأعظم الجوائز ، على سبب الجودة في اشعارهم ومكانهم في اقوالهم ، وكانوا يطالبون اولادهم بحفظ الاشعار والآثار . على ان تحريض الناس على تعليم اولادهم الشعر بدأ في ايام عمر كما تقدم ، اما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم : « اجعلوا الشعر كبر همكم واكثر آدابكم »<sup>(١)</sup> وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه ، واقتدى به خلفاؤه وامراؤه ، حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن اشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم ، واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به اهل العلم ، كما كاتب قتيبة بن مسلم<sup>(٢)</sup> . وكانوا اذا امسك الشعراء عن ابوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالاموال والاکرام . ومن اكثرهم رغبة في الشعر عبد الملك بن مروان ، فكان الناس في ايامه حيثما جتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

٢ - المزهري ٤٢٠ ج ١ .

١ - ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ .

٣ - لطائف المعارف ٧٠ .

٨ - تاريخ التمدن الاسلامي

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الأدب وتنشيطاً لأهله ، لأن الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة فلا يبعد ان يكون لذلك يد في الامر ، ولكن الاغلب انهم كانوا يفعلونه للاستعانة بالسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت ، لعلمهم ان الجمهور يعتقد ان الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنعم بني أمية لا يتألمون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال .

فالفردق مثلاً امتدح بني أمية ونال جوائزهم ، وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم ، والامويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة اخباره ان مروان بن الحكم ، وكان عاملاً لمعاوية على المدينة ، بلغه عن الفردق قول اوجب حده فطلبه ففر الفردق الى البصرة ، فقال الناس لمروان : « اخطأ . فيما فعلت ، فأنتك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه . ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام ابن عبد الملك ذهب الى الحج ، وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين وانكره ، فسأل عنه . وكان الفردق حاضراً ، فنظم قصيدته المشهورة في مدح اهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

ومما يدل على ان بني أمية كانوا يقربون الشعراء اغرض عائد الى تأييد سلطانهم ، ان عمر بن عبدالعزيز اتقاهم واعدلهم لما اراد ان يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد ، منع الشعراء من بابه واعلن انه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء<sup>(١)</sup> فلم يطل حكمه ، وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال .

### الشعر وبني العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين ، عدل المنصور عن اكرام الشعراء ، وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء او نيل جوائزهم ، فاصبحوا اذا اتوا المنصور منعهم من الدخول عليه اياماً ، حتى تنفذ نفقاتهم ويملوا الانتظار وحاجبه يرفع امرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا اذن لهم بعد ذلك ، اشترط عليهم ان يدحوه كما كانوا يدحون بني أمية<sup>(٢)</sup> وكان بخيلاً عليهم ، فتغيرت قلوب الشعراء عليه ، فساعد ذلك على تباعد قلوب

العرب عنه وميلهم الى العلويين ، فاستفحل امر محمد بن عبدالله بالمدينة وقاسى المنصور امر العذاب في اخماد ثورته . فأصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون اغصاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين ، وخصوصاً الرشيد ، فقد كان مروان بن ابي حفصة يتقرب اليه بهجائهم<sup>(١)</sup> وبعد ان كان الشعراء يسمون في ايام بني أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالغ المأمون في اكرامهم ، حتى كان يغضي عنهم اذا هجوه . ذكروا ان دعبلاً الخزاعي الشاعر هجا ابراهيم بن المهدي ، فرفع ابراهيم امره الى المأمون ، فقال له المأمون : « لك اسوة بي ، فقد هجاني واحتملته وقال في :

أيسومني المأمون خطبة عاجز      او ما رأى بالأمس رأس محمد ؟  
لني من القوم الذين سيوفهم      قتلت اخاك وشرفتك بمقعد  
شادوا بذكرك بعد طاء ، خمولة      واستنقذك من الحضيض الأوهد »

فقال ابراهيم : « زادك الله حلاً يا امير المؤمنين »<sup>(٢)</sup> .

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشيد والمأمون ، ونبغ بشار بن برد العقيلي وابو نواس وابو العتاهية وغيرهم .

### الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية ، فلما تغلب العنصر الأعجمي في دولة بني العباس وصارت الأمور الى ايدي الأتراك ضعف أمر الشعراء . حتى إذا قامت دولة بني حمدان ، وهم عرب ، عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة ، حتى قيل أنه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الشعر ما اجتمع ببابه . وكان هو أديباً شاعراً ، فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء وأبو العباس أحمد بن محمد النامي وأبو الفرج عبد الواحد البغفاء وأبو الفرج الوأواء وغيرهم .

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الخمول ، وكان قد أينع في دولة بني أمية في الأندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما سيجيء .

أما دول المسلمين غير العرب ، فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ، ولكن

الغالب فيهم ان يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة او المباهاة ، وهو لا يفهم ما يقرأه من مدائح . ومما يضحك من هذا القبيل ان الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وكان من بربر قبيلة لمتونة البربرية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتمد بن عباد ، فلما أنشده قصائدهم قال له المعتمد : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ » قال : « لا اعلم ، ولكنهم يطبقون الخبر . . » . ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا  
حالت لفقدكم أيامنا ففدت سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : « يطلب منا جواري سودا وبيضا ؟ » قال : « لا يا مولانا . . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهراً لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره بعده ليلاً لأن ليالي الحزن سود . . » . فقال : « والله جيد . . اكتب له في جوابه أن دموعنا تجري عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده ا » (١)

### جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الألفاظ ، كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها ، فاضطروا الى جمعه بالأخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الأول للهجرة . واكثر الناس اشتغالا بجمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة ، وكان اهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة (٢) واول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفي سنة ١٥٥ هـ (٣) وخلف ابن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابن بردة (٤) وابو عمرو العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم ، واكثرهم من رواة الادب واللغة ، وقد مر الكلام على ذلك في بابه .

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الألوف من القصائد ، مما لم يسمع له مثيل في أمة من الأمم كما تقدم . على ان بعض البرزاة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لأسباب بعثهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الأبيات القليلة . قال خلف

١ - نفح الطيب ٧٨١ ج ٢ . ٢ - المزهري ٢٠٦ ج ٢ .

٣ - ابن خلكان ١٦٤ ج ١ . ٤ - طبقات الادباء ٦٩ .



الاحمر : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به ، فكنت أعطيهم المنحول وأخذ الصحيح ، حتى مرضت فقلت لهم : « ويلكم ! أنا تأيب الى الله .. هذا الشعر لي » فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب » (١) .

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً وهو :

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

ادخلته في جملة ابيات الاعشى » . وفعل حماد أيضاً نحو ذلك (٢) على ان العرب ما لبثوا ان اخذوا في تحميم الروايات بالاسانيد ، بعد ان تعودوا ذلك في رواية الحديث .

\* \* \*

ومن عادة العرب في رواية الشعر ، انهم كانوا من ايام الجاهلية اذا نبغ الشاعر فصحه رجل يروي اشعاره ويتلوها ، او يروي له اشعار غيره للشاهد او نحوه . ويغلب على الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية ، كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه . وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ ، لانهم لم يكونوا يكتبون ، فكان كثير عزة راوية جميل بثينة ، وجميل راوية هذبة بن خشرم ، وهذبة كان راوية الخطيئة ، والخطيئة راوية زهير وابنه (٣) وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له ، ويمعجب به اعجاب التلميذ بأستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته او جماعه ، وكل منهم يجمعه ويرويه لغرض . فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بها في الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر ما يجدون فيه الشاهد والمثل وكان فيهم من يروي اشعار المجانين ولصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود ، على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة . وتفرد جماعة يجمع كل انواع الشعر ، وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهما . وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة ، لتعود ذاكرتهم على ذلك منذ اخذ الناس في ذلك العود بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث ، لتجنب الكتابة للأسباب التي

١ - ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .

٣ - الاغانى ٧٨ ج ٧ .

قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين ألف قصيدة ، يرونها بأسانيدھا ومعاني الفاظھا كما تقدم . وكان للشعراء عناية خاصة في حفظ اشعار العرب ، لاكتساب ملكة العرب فيها ، لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشمر مثله ، او للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة ، اذ كان الخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب .

### طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر ، ولكنه يختلف فيهم معنى وأسلوباً باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيده في عرض البيداء لا يرى حوله الا رمالاً أو أطلالاً ، اذا لدغته الشمس او جنه الظلام اوى الى بيت من الشعر او الوبر ، أنيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح ، يتوسد على حذر من عدو يبغيته او حشرة تلسعه ، واذا واعد حبيبته فموعدھا الرقتان او العقيق فيلتقيان على أكمة او في واد ، يعبد آلهة من الحجارة او الاخشاب او يصنعها من التمر ، واذا جاع أكلها . . فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور الشام والحدائق الغناء ، ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود ابهة الدولة وجلال الملك ، وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التألق وانغمس في الترف والبذخ . فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الاحوال . ولذلك كان الشعر الجاهلي اقرب الى الحشونة والمتانة ، مع خلوه من زخرف الكلام وأساليب الكتابة والمجاز .

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الأحاديث ، وعنى الناس بجمع الآداب والأمثال واستظهار احاسنها واحسان الشعر ، نهضت طباع الناس وارتقت اذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة واصفى رونقاً ، واقتبسوا من الفرس اساليب الاطناب . ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر ابن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق ونصيب وذو الرمة والأحوص ارفع طبقة في البلاغة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وعمر بن كثوم وزهير وعلقمة وطرفة <sup>(١)</sup> كما كان الخطباء الاسلاميون احسن ديباجة وابلغ عبارة من خطباء الجاهلية .

فالجاهليون طبقة أولى، تليهم طبقة الاسلاميين الى اخر دولة بني امية وهم المخضرمون، ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين، تليها طبقة المحدثين. ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها، لان كثيرين من الشعراء ادركوا او اخر احدي هذه الطبقات واوائل التي تليها. فمن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام، ومن المخضرمين من ادرك زمن المولدين، وقس على ذلك.

وانما نقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيماً اجمالياً. فالطبقة الأولى شعراء الجاهلية، والمراد بهم من كان شعره جاهلياً او نظم اكثره قبل الاسلام. ومزية الشعر الجاهلي البساطة والحشونة، فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها، او وصفوا اسداً او بيتاً او ظبياً لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغة. واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقة.

والطبقة الثانية، وهي المخضرمون، تشب الأولى من حيث بقاء اهلها على البداوة في عهد الأمويين، ولكنها اسمى منها في البلاغة للأسباب التي قدمناها، وعليها مسحة من الحضارة. ومن اشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجريير والأخطل والفرزدق.

والطبقة الثالثة المولدون، وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون، في عصر النهو العباسي، عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء، فرقت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاصرة والمخالطة، فظهر ذلك في اشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الأنس وحدائق القصور ونحو ذلك. فشعر المولدين يتنازع عن الطبقتين السابقتين بالركة والحلاعة، واشهر المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وابو تمام زالبحتري.

وأما الطبقة الرابعة فتريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام، وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكيمية جدلية، كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفى الحلي.

### الشعراء في الاسلام واشعارهم :

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي، لرواج سوق الشعراء في القرون الأولى. على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياح اكثر اخبارهم، لكننا نستدل من بعض النصوص على ان عددهم كان عظيماً جداً، فقد ذكر ابن خلكان : « ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارح في اخبار الشعراء المولدين وجمع

فيه ١٦١ شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، والفترة بينها قصيرة ، وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين من اهل الطبقة الرابعة ، ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات .

اما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فما لا يحصيه عد ، وقد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى ، فنكتفي منها بما ذكره صاحب كشف الظنون ، فانه ذكر نحو ستائة ديوان لستائة شاعر من المشاهير ، اورد اسماءهم والقائهم وسني وفاتهم ، وهم من اهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من ألفي صفحة الى مائة وما تحتها ، وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطراً . فديوان بشار العقيلي مثلاً ألف ورقة في ألفي صفحة أي ٤٠٠٠٠ سطر او بيت ، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠٠٠٠ بيت ، وشعر ابي نواس في نحو ألف ورقة ، ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة ، وقس على ذلك<sup>(١)</sup> .

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها ، والشعراء الذين لم تجمع اشعارهم ولم يكن لهم دواوين ، زاد استغرابك من كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم او الحديث .

### عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ هـ هو اول من وضع عروض الشعر العربي ، اي استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً ، ثم زاد فيه الاخفش بحراً واحداً سماه الحبب<sup>(٢)</sup> . ولكن الغالب ان بحور الشعر كانت معروفة من قبل ، ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في اشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكراً قول من قال ان القرآن شعر : « لقد عرفت اضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك »<sup>(٣)</sup> فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ فالظاهر ان الخليل اول من جعل العروض علماً

١ - الفهرست ١٥٩ . ٢ - ابن خلكان ١٧٢ ج ١ .

٣ - المزهري ١٧٧ ج ٢ .

ورتبة هذا الترتيب وزاد فيه انواعاً من الشعر ليست من اوزان العرب<sup>(١)</sup> وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئاً من بحور اليونان او اساليبهم ، لأن بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي<sup>(٢)</sup> لم نقف عليها . على ان ابن شرشير - الشاعر المعروف بالناسخ الاكبر المتوفي سنة ٢٩٣ هـ - كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شبيهاً ومثلها بغير امثلة الخليل<sup>(٣)</sup> .

ولا مشاحة في ان عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون ، شأن كل ماسا هو من قبيل الاحياء ( اي كل ما هو من صنع البشر ) ، فتولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والخوراني وغيرها .

اما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه ، فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التتميق فيه الغاية ، واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معافي القبري الاندلسي في اواخر القرن الثالث للهجرة<sup>(٤)</sup> ولما شاع التوشيح عندهم واخذ به الجمهور ، لسلاسته وتتميق كلامه ، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعراباً ، واستحدثوا فناً سموه « الزجل » شهره ابو بكر بن قزمان القرطبي ويعرف بامام الزجالين .

ثم استحدث اهل الأمصار في المغرب فناً آخر من الشعر في اعراب مضروبة ، نظموا بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه اصنافاً سموها : المزدوج ، والكاري ، والمعلقة ، والغزل وغيرها ، كما شاعت الآن انواع الزجل المصري في مصر ، والقريض اللبناني ، والمعنى في الشام .

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ، ذكروا منها « القوما » و « كان وكان »<sup>(٥)</sup> ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه ، وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر .

١ - المزهري ٢٠٢ ج ٢ . ٢ - طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ .

٣ - ابن خلكان ٢٦٣ ج ١ . ٤ - ابن خلدون ٥١٨ او ابن الاثير ٢٨ ج ٨ .

٥ - ابن خلكان ٥٣٠ ج ١ .

## الشعر والدولة

بيننا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساسيتها وسرعة تأثيرها . فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسية وتضاعف تأثير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء واشعارهم . فقد رأيت ما كان من احتفاء بني أمية بالشعراء واستقدامهم اليهم ، وظل ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة او الأمير استأذن في الدخول عليه ، فاذا حل أنشد قصيدته جهاراً والخليفة وارباب مجلسه يسمعون <sup>(١)</sup> ويترون فيأمر الخليفة او الأمير بالجائزة وقد تتجاوز مائة الف درهم الى الف الف <sup>(٢)</sup> وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقبله الوظائف <sup>(٣)</sup> . ومن اكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والحكم المستنصر الأندلسيان . ومن اسخى الأمراء خالد القسري أمير العراقيين في زمن الأمويين وسيف الدولة بن حمدان .

على أن الخلفاء والأمراء عموماً كانوا يبذلون الأموال للشعراء الا نادراً ، وكانوا يعينون يوماً كل أسبوع أو كل شهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم <sup>(٤)</sup> كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون ويتنافسون في ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الأذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم : كان للمعتضد بن عباد أمير أشبيلية المتوفي سنة ٤٦٩هـ دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة ، فاذا آن يوم الشعراء - وهو يوم الاثنين من كل أسبوع - يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعر مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان <sup>(٥)</sup> وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة <sup>(٦)</sup> وكان أمراء الأندلس اذا عاد احدهم من فتح جلس الناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفاء بغداد ، كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظمهم وسائر احوالهم .

- 
- |                         |   |
|-------------------------|---|
| ١ - ابن خلكان ٧٢ ج ١ .  | ٢ - ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .                 |
| ٣ - نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ . | ٤ - الاغانى ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١ . |
| ٥ - نفح الطيب ١١٩ ج ٢ . | ٦ - نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢ .                 |

## الشعر والخلفاء والأمراء :

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدولة العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ، ول بعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن اشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ، فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها لشدة غرامه بها <sup>(١)</sup> ولا غرابة في ذلك لأن يزيد نشأ في البادية ، ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الأبيات التي مطلعها :

لبيت تخفق الأرواح فيه      احب الي من قصر منيف  
ولبس عباءة وتقر عيني      احب الي من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها ، فسارت الى اهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فأرضعته سنتين <sup>(٢)</sup> هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر ، واشعرهم بلا استثناء عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يتول الخلافة الا يوماً وليلة ، وكان من رجال العلم وله ديوان شعر <sup>(٣)</sup> قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الرازي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ، فانه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء <sup>(٤)</sup> .

واما الخلفاء وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبيد الرحمن الاوسط والمستعين بالله . وقد الف الصولي كتاباً مستقلاً في اشعار خلفاء بني العباس ، فحسدهم خلفاء بني امية بالاندلس ، فكان هم الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتاباً في بني امية مثل كتاب الصولي في بني العباس <sup>(٥)</sup> .

واذا تدبرت ما تقدم رأيت اكثر الخلفاء والأمراء عناية في الشعر اكثرهم اقتداراً على نظمه ، لأنهم كانوا يقدرون الشعر قدره . وذلك شأن العلم في الدول المطلقة ، فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك او الأمراء رغبة فيه . فالوليد

٢ - الديميري ٢١٨ ج ٢ .

٤ - الفخري ٢٥٢ .

١ - ابن خلكان ٥٠٨ ج ١ .

٣ - ابن خلكان ٢٥٨ ج ١ .

٥ - نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢ .

ابن يزيد بن عبد الملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم<sup>(١)</sup> وهو اول خليفة عد الشعراء واعطى على البيت الف درهم . ويقال نحو ذلك في سائر الخلفاء الشعراء ، وكذلك الأمراء ، فان سيف الدولة لم يرج الشعر في عصره إلا لأنه كان هو نفسه شاعراً<sup>(٢)</sup> .

فكان الغرض من تقريب الشعراء في اول دولة بني أمية سياسياً ، ثم صار أدبياً يندفع الخلفاء والأمراء اليه تلذذاً بالشعر وآدابه . ولذلك كانوا يحالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد أو الأبيات ، أو يستقدمونهم للسؤال عن بيت استغلق عليهم فهمه أو نسوا بعضه ، وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي ان يوجه اليه حمادا الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرباً ، فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ، ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه قال له هشام : « خطر ببالي بيت لا اعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق »

فقال حماد : « يقوله عدي بن زيد العبادي » وانشده باقي القصيدة<sup>(٣)</sup> . وكثيراً ما كانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لا يجوزهم الشرع ، فان يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة التي مات في سبيل تهتكه بها ، كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابر

فسألها من قائل هذا البيت فقالت : لا ادري ، فبعث الى الزهري ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره ، فجاء وهو يرتعد خوفاً فلما علم السبب سري عنه<sup>(٤)</sup> .

على ان الغالب في مجالسة الشعراء ان تكون لغرض أدبي ، كوصف منظر أو اداة ، كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم ان يصفوا سيفاً اهداه اليه المهدي ، وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، فوضع السيف بين يديه وقال لاشعراء : صفوه ، فنال الجائزة ابن يامين المصري<sup>(٥)</sup> .

١ - ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ . ٢ - ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ .

٣ - ابن خلكان ١٦٥ ج ١ . ٤ - حلبة الكميت ٦٠ .

٥ - المسعودي ١٨٧ ج ٢ .



وكان الرشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه، فقد سأل أهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت : « ومن يسأل الصعلوك أين مذهب » فلم يعرفه أحد وكان الأصمعي مريضاً لا يقدر على الجيء ، فأرسل إليه اسحق الموصلي وبعث معه ألف دينار لنفقته ، فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لأبي النشاش النهملي ، وهذا صدره :

وسائله أين الرجيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهب<sup>(١)</sup>

وكثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت ، وقد سأل أهل مجلسه يوماً عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ورعا فلم أر مثله نجذولا

وكان في المجلس الكسائي والأصمعي ، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع<sup>(٢)</sup> واعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب<sup>(٣)</sup> والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك<sup>(٤)</sup> وقس على ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر .

### تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم ، يتناشدونه ويتسامرون به ويتذكرون فيه ، لم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء والأمراء أو الأدباء ، ولكنه كان عاماً في الرجال والنساء . وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى ، كما اتفق لرجل كان قاعداً على جسر بغداد فوجد امرأة بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة ، فاستقبلها شاب فقال : « رحم الله علي بن الجهم » . فقالت له المرأة : « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفابل سارا مشرقاً ومغرباً . قال الرجل : « فتبعت المرأة وقلت لها : والله ان لم تقولي لي ما اراد وما اردت لافضحك ! » . قالت : اراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري  
وأردت بأبي العلاء قوله :

١ - المزهر ٨٣ ج ١ . ٢ - المزهر ٢٧٨ ج ١ .  
٣ - النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١ . ٤ - الاغانى ١٦ ج ١٣ .

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال (١)  
 فلا غرو بمد ما تقدم أن رأيت للشعر تأثيراً شديداً في نفوس كبار القوم ، حتى  
 يقرتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب او قتل جماعة او انقاذهم من القتل .

ومن أمثلة ذلك أن أبا العباس السفاح أول خلفاء بني العباس ، لما استوثق له الأمر  
 بالخلافة تتبع بقايا بني أمية ورجالهم ووضع السيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا  
 قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح ، فاتفق مرة أن أحدهم سليمان بن هشام بن  
 عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد أكرمه ، فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يفرنك ما ترى من رجال      ان تحت الضلوع داء دويا  
 فضع السيف وارفع السوط حتى      لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتي يا شيخ ! ثم أخذ سليمان فقتل . ودخل على السفاح شاعر  
 آخر ، وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الآساس      بالبهايل من بني العباس  
 ثم ذكر مظالم بني أمية الى أن قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا      وقتيلاً بجانب المهراس  
 والقتيل الذي بحران اضحى      ثاوياً بين غربة وتناس

فأمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم  
 فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً (٢) .

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :  
 نقض الذي أعطيته نقفور      فعليه دائرة البوار تدور (٣)

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل ببیت يعجب به الخليفة فيخلي سبيله ، وحكاية  
 مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة ، فانه بعد أن استوجب القتل وركع على النطع قال  
 القصيدة التي مطلعها :

أرى الموت بين النطع والسيف كما منا يلاحظني من حيثما أتلفت  
الى أن قال :

وما بي من خوف أموت وانني لأعلم أن الموت شيء موقت  
ولكن خوفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت  
كأنني أراهم حين أنمي اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا  
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة أذود الردى عنهم، وإن مت موتوا  
فكم قائل : لا يبعد الله دهره ! وآخر جدلان يسر ويشمت

فبكي الرشيد وقال : « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة ، وقد عفوت  
لك عن الصبوة ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود » فقال : « سمعاً وطاعة »  
وانصرف (١) .

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببیت تذكره فتحمس . قال معاوية يرغب الناس في  
الشعر : « .. فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم ، فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد  
عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري .

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الربيع » (٢)  
وقس على ذلك كثيراً من أمثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام .



## العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم الاسلامية ، وفي الأسباب التي دعت الى نشوئها ، وفي الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه في الاسلام ، ونحن متقدمون فيما يلي الى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية ، ونريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب في ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأصقاع في القرون المتوالية ، من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم ، وفيها زبدة علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك ان العرب أخذوا علم كل أمة عن أهل رأساء ، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحللت بتوالي العصور وتفاعل العناصر ، واجتمع معظمها لليونان فبوبرها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها ، وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دأبوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم ، فأخذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة أفضال الأئمة الاسلامي على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتي .

\* \* \*

فلنبحث أولاً في حال العلم والأدب في البلاد التي عرفها المسلمون ، وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والأسباب التي دعت الى نقله .

### آداب اللغة اليونانية

أصل اليونان من القبائل الآرية التي نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت

في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطئ آسيا الصغرى حول بحر ايجه . وللشعوب الآرية آداب مشتركة وأخلاق متشابهة . فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ، ودونوا معظمها في كتبهم الديفية السنسكريتية ( البرهمية ) في أقدم أزمنة التاريخ .

اما اليونان فكانوا يسمون هلاس او الهيلينيين ، وهم ثلاث قبائل كبرى : اليونيون Ionoï والايوليون Aeoloi والدوريون Dorioi . فنزل اليونيون شواطئ آسيا الصغرى ، والايوليون في لسبس وما والاها ، ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرها . وكان التمدن القديم يومئذ مزدهراً في وادي النيل ووادي الفرات ، وكان الفينيقيون جيران اليونانيين برأ والدوريين بجزراً ، وقد استعمروا شواطئ آسيا الصغرى مما يلي بلادهم . فاصبح اليونانيون ( او اليونان الاسيويون ) على مقربة منهم ، فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن ، واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين . فاقتبس اليونانيون مبادئ العلم والادب كالفلك والطب والدين ، ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجه . وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط ، فما لبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائنهم الفطرية ، ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء ، وجعلوا للعلم قواعد لا تزال مرعية في اكثر وجوهها اليوم .

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة عصور :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ، ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد ، وهي السنة التي أمر فيها القيصر جستنيان باغلاق المدارس الوثنية في مملكة الروم .

(٢) العصر البيزنطي او القسطنطيني ، ويبتدىء سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٣) العصر الحديث ، يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال .

ولا يهمننا في هذا المقام إلا العصر الاول وبعض الثاني .

## الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية الى ثلاثة أدوار : (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ - ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه او الدور الاسكندري ، ويقسم الى عصرين : العصر اليوناني ، والعصر الروماني .

### ١ - الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ، ولم تقلد بها احداً ولا اخذتها عن احد ، وشأنهم في ذلك شأن العرب في علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . واقدام آداب اليونان الشعر ، وقد اتقنوه واجادوا فيه من قديم الزمان ، لأن كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منه ، فاشتغل اليونانيون في الشعر القصصي ، والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط ، واشتغل الدوريون في اتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، واخيراً اشتغل الاتيون Attioi - وهم فرع من اليونانيين - في اتقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية ، وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرها . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض ، مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية .

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم ، واقدام اشعارهم « اناشيد الفصول » ، تليها اشعار وصفوا بها الآلهة او الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونانيون بالشعر القصصي ، فألفوا من تلك الحكايات الملاحم ، واقدام الملاحم الايلاذة والاذيسية نظمها هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد ، وصف بها الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة .

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر ، لأنه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في اوائل احوالهم مثل قبائل العرب ، وكان امراؤهم يحبون سماع اخبار اسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة ، فحببوا الى اصحاب القلاع نظم تلك الاخبار

في الملاحم . وفي اواسط القرن الثامن قبل الميلاد اخذت السلطة الاستبدادية في الافول ، واخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فثنا شعورهم الاستقلالي ، واحس كل منهم بذاتيته ، وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وميوله ، فنظمها شعراً هو الشعر الغنائي ، واكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون ، وله عند كل منها مميزات . واشهر نوابغ الشعر الموسيقي عند اليونان سميونيدس وبندار . الأول يوفي الاصل دوري النظم ، واكثر منظوماته في وصف احوال الحرب بين اليونان والفرس ، والثاني دوري المولد والمنشأ واسلوبه ونظمه دوريان .

## ٢ — الأدب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ - ٣٠٠ ق . م

### الادب والتاريخ

ويسمى هذا الدور ايضاً الدور الأتي او الاتيكي نسبة الى اتيكيا في جزائر اليونان ، وسكانها مزيج من اليونين والدوريين . فبعد ان اشتغل اليونانيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به اخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم ، استحدثهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف ، ليراهم الناس رأي العين او يشعروا بها كأنها بين جنبينهم فأحدثوا فن التمثيل ( الدراما ) ومنه التراجيديا والكوميديا ، واجادوا في كليهما ونبع منهم مشاهير عظام من اهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه ، وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه وموضوعاته قبل ان يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . واقدام آثارهم النثرية واكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفي سنة ٤٠٦ ق . م ، وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم .

على ان هيرودوتس ليس اول من كتب في النثر المرسل عندهم ، فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراهم في الفلسفة او الميثولوجيا او التاريخ او غيرها من العلوم النثرية . واما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن اسلوبه واهمية الموضوعات التي كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق . م ، وهي التاريخ المعروف باسمه ، بين

فيه اسباب الحروب التي نشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس واول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريداً في بابهِ الى اليوم ، ولذلك لقبوه بأبي التاريخ . وبعده بقليل نشبت بين اهل اثينا واهل المورة حرب اهلية ، هي الحرب المورية او البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ - ٤٠٤ ق . م فأرخها ثوسيدس ، وكان معاصراً لهيرودوتس واصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره ، ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستينس واشينس وهيريدس وغيرهم ، واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون ، وآخرون بوضع قواعد اللغة او غيرها مما لا يهمننا البحث فيه هنا .

### العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الآتي ، فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية ، حتى تنبّهت اذهانهم الى البحث في الخليفة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على اثر الحروب المورية المذكورة . فانها توالى ٢٧ سنة ، وفي نهايتها دخلت اثينا في حوزة اللقديمونيين Laecedomonoi واصبح الاثينيون بعد العز اذلاء ، فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع اساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية او علمية او سياسية ، على ما قررناه في غير هذا المكان .

على ان اليونان تنبّهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية واحوالها قبل تلك النهضة ، على اثر احتكاك الافكار في اثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدام من وصل خبره اليها من الفلاسفة الطبيعيين طاليس الميليطي ، ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد ، وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا ، وغلب عليه النظر في النجوم والهندسة ، وله آراء في الوجود والموجودات واصل العناصر ، ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلاميذهم ، ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى اثينا ، وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق . م ، وفي ايام الفيلسوف حدثت الحرب المورية ، فامتزجت الطباع وتحاكت الافكار فهاجت القرائح واثارت



العواطف ، واصبح الناس متضاغنين متنافسين ، وربما كان للرجل عدو من قبيلته واهله .

\* \* \*

فلما اصبحت اثينا بالذل بعد تلك العظمة اصاب اهلها اضطراب وانكسار ، والانسان اذا اصاب بنكبة لا حيلة في دفعها اشتغل عنها بالتعليقات الفلسفية عن الوجود واصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، خصوصاً في مثل ما اصبحت به اثينا بعد عزها ورفعة شأنها ، واصبح اهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الورا آسفين وينظرون الى الامام خائفين ، وقد ذهبت اسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنهبت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر في شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص . فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة ، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق احوالهم ، ونفوسهم تشاق الى الزيادة .

### سقراط

وكان الناس في ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ، ورأى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدي نفعا في تلك الاحوال ، فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها جيداً ، وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض ، وطبقها على حاجات الاثينيين يومئذ ، وقسم شرائعها الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان ، والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدير ، والى ما يتعلق به من حيث هو عضو في الجماعة ، وذهب الى خلود النفس . ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الادبية العلمية ، او هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل ، قال شيشرون : « ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض » .

ويندب ان ينجو النوابغ واصحاب الآراء الجديدة من حساد يمتنون اذيتهم او يسعون فيها . وقد كان في تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الاثينيين يومئذ ، فقاموا عليه واتهموه بافساد عقول الشباب وحكوا عليه بالموت ، فشرب السم ومات .

### افلاطون

مات سقراط ولم يدون شيئاً من تعاليمه ، فدونها تلامذته من بعده ، ولكنهم اختلفوا

في تفسير اقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيرينية والكلمية والاشراقية . وهذه الاخيرة اشهرها وتسمى ايضاً الافلاطونية نسبة الى صاحبها افلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة ، فانه تبع هيرقليطس في الطبيعيات ، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات ، وتبع سقراط في الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة اصول هي : الاله ، والمادة ، والادراك . والآلهة عنده ثلاث طبقات : علويون ، ومتوسطون ، وسفليون ، وعلم بتناسخ الارواح . وكتب افلاطون على اسلوب المحاورات ، وسيأتي ذكرها في كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية .

### ارسطو

وانقسم تلامذة افلاطون ايضاً الى فرق ، اهمها فرقة المشائين وصاحبها ارسطو او ارسطوطاليس الذي اجمع العلماء على انه اقدر الفلاسفة القدماء ، ويسميه العرب المعلم الاول . ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ ق . م ، وعنه نقل العرب اكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع ارسطو في كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فأخذها عن استاذه افلاطون ، ويدخل فيها الابحاث المنطقية والعقلية والنفسية والسياسية . وأما العلم ، ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها ، فقد كانت جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه ، وكان غرض ارسطو ايضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلي او نظري الى النواميس الطبيعية . ولم يكن همه تزويق العبارة او برقشة الالفاظ ، وإنما كان همه الغرض الاصلي من الموضوع ، فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة افلاطون .

فلما اظهر ارسطو فلسفته شغف الناس بها ، وكان يلقيها في اروقة حول هيكل ابولو قرب اكاديمية افلاطون ، وكان يتلو دروسه وهو يمشي هناك فسمي تلامذته المشائين او الرواقيين . ومن حظ ارسطو ان الاسكندر المقدوني ظهر في ايامه وتلمذ له وأمدده بالاموال لأبحاثه في الطب والحيوان وغيرها . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل ارسطو في اثينا ، فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفي جملتهم ارسطو . وكان فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل ، فنهضت نهضة ثانية والعقول اكثر استعداداً واقوى على الابحاث . ولا يبعد ان يكون الاسكندر قد نقل الى

اثنين بعض علوم فينيقية وبابل وفارس ، كما سيأتي ، فأدخلها ارسطو في فلسفته والف في كل موضوع عقلي وطبيعي وفلسفي ومنطقي ولغوي . ومؤلفاته كثيرة ، وينسبون اليه كتباً لم يؤلفها هو . واما الكتب التي ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتاباً ، نقل المسلمون اكثرها الى العربية وسيأتي ذكرها .

والكتب المنسوبة اليه خطأ اكثرها في الميكانيكيات والبلاغة والادبيات والرياضيات ، مما لا حاجة الى ذكره ، وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما : كتاب المقولات ( قاطيفورياس ) في المنطق ، وكتاب التفسير .

قد جاء ارسطو في اواخر عصر الزهو اليوناني ، فجمع ما ولدته العقول اليونانية الى ايامه من الآراء والابحاث والاختبارات في العلم والفلسفة ، ورتبها في كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهولة ، فعاشت تعاليمه ادهاراً ولم تستغن عنها امة من الأمم التي تقدمت في عصر اليونان او بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ، ولا يزال كثير منها مرجعاً الى اليوم .

### مؤلفات ارسطو

ولمؤلفات ارسطو تاريخ غريب لا بأس من ايراده : لما دنا اجله عهد بكتبه ومسوداته الى اكبر تلامذته ثيوفراستوس ، وبعد ٣٥ سنة توفي هذا وقد عهد بها وبكتبه هو الى تلميذ اسمه نيلئوس . فرحل هذا الى وطنه سبسس في آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفي ، فخاف ورثته عليها من ملك برجامس حينئذ فأخفوها في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما استخرجوها في رأس المائة الأولى قبل الميلاد ، وجدوا بعضها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر اكله الدود والعت ، فباعوها صفقة واحدة الى كتيي اسمه ابليكون فأرجعها الى اثنين . فلما استولى سولا الروماني على اثنين سنة ٨٦ ق . م ، كانت مكتبة هذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين ، فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها . واول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودي تصحيحها وترميمها ، ثم تناقلها الناس . فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في اواسط القرن الاول قبل الميلاد .

على انها ما لبثت ان ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل ،

وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان انفسهم ، ثم الرومان فالفرس فالعرب ، فأهل المعصور الوسطى في اوروبا ، فأهل اوائل التمدن الحديث ، وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية - وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس - اعتمدوا عليها دون سواها واصبحت عمدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية ، فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية . ولما سعى قيصرية الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم ، بحثوا عن العلوم الوثنية وابطلوها ومن جملتها كتب ارسطو إلا بعض كتبه المنطقية . على انهم كانوا يعلمونها سرّاً ، حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية ايام عمر بن عبدالعزيز ، فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها إلا بعض اليهود او الحرانيين لتقوى بها حججهم على النصرانية .

### الطب والنجوم

والطب ايضاً من ثمار تلك النهضة على اثر الحرب المورية ، وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة ، وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاج الى اعمال الالهة . وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ، ولم يستقل احد منهم بالبحث فيه . واول من رتب الطب وبويه وبناء على اسس صحيحة ابقرات المتوفي سنة ٣٥٧ ق . م ، ولذلك سموه ابا الطب . وهو من نتائج الحرب المورية ، فقد نشأ في اثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ، ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فاضافها الى طب اليونان والى الف فيه الكتب . واساس علاجه الاعتماد على الطبيعة ، وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب في الطب كثيرة ، ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يتبث له منها إلا نحو العشرين ، وسيأتي ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب ابقرات معول الاطباء الى العصر الحديث ، وفيهم من شرحها او فسرّها او ترجمها او علق عليها . ومن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقرات ارسطو وغيره من الفلاسفة العظام ، فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء .

وعلم النجوم - او علم الفلك - قديم عند سائر الامم ، كما قد رأيت في كلامنا عن

علوم العرب قبل الاسلام . اخذ اليونان مبادئ هذا العلم عن سبقهم من امم التمدن القديم ، على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند انفسهم . وكان النظر فيه من جملة ابحاث الفلاسفة واقدمهم طاليس المتقدم ذكره ، وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن ، واشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيميلس وانكساغوراس . وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ، ومقدم فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفي سنة ٥٠٠ ق . م ، اخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامهم . مما يطول شرحه . على ان هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالاحساب والهندسة ، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج إلا في مدرسة الاسكندرية على يد اوقليدس .

### ٣ - الدور الاسكندري

#### مدرسة الاسكندرية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المقدوني العظيم ( الاسكندر ) فغلبهم على ما في ايديهم ، ثم حمل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ، ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره ، فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي ، وتحاكت الافكار وتلامست المطاعم وتقاطعت المصالح ، وكان من اقل نتائجها : اولا ، نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنها في امم الأرض ، ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان او مصر . فقد ذكروا ان الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس خرب ابنيها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي . وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية ، واخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما اصاب من العلوم والخزائن والعلماء الى بلاد مصر (١) .

ولامات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م ، انقسمت مملكته بين قواده ، فانتقل علماء اليونان من بلادهم للإقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق ، فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها ، وكان حظ البطالسة في الاسكندرية اوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة . وكان بطليموس الاول - الملقب بسوتر - اول البطالسة عادلاً محباً للعلم ( حكم من سنة ٣٠٦ - ٢٨٥ ق . م ) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن . فاکرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس ، واطلق لهم الأموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم .

وكان في جملة المقربين اليه خطيب اثيني اسمه ديمتريوس فاليريوس ، أشار عليه بإنشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من انحاء العالم فأجاب به الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن اسباب حرقها فيما تقدم والظاهر ان الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن القفطي « زميرة » ، وسبب الفرق تصحيف في النسخ . وبإشارته أيضاً أنشأ سوتر المتحف او النادي Museum على هيئة مدارس اوروبا الجامعة ، يجتمع فيه العلماء والأدباء والفلاسفة للدرس والبحث ، وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة .

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون اثره في تنشيط العلم ، واكثرهم من العلماء وخصوصاً فيلادلفوس ( من سنة ٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م ) فانه اضاف الى المكتبة ما لم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية ، فابتاع الكتب وجمع كثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر ، وخلفه بطليموس اورجيتس ( سنة ٢٤٧ - ٢٢٢ ق . م ) فاضاف الى المكتبة كثيراً من كتب الأدب والشعر والتمثيل او مما وجدوه في خزائن اثينا ، وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية او يربها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب ، فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء في كل موضوع ، حتى فاقت كل ما تقدسها او عاصرها من مدد العالم القديم ، وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام ، اي عبارة عن نيف وتسمائة سنة تقسم الى مدتين : الأولى ، يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد ، والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهي سنة ٦٤٠ م ، لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها في المدة الأولى علمياً أدبياً ، وغايتها ترقية العلوم اليونانية

وتوسيع نطاقها ، وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى اواخر القرن الثاني للميلاد ، فأخذت تتقهقر لأسباب كثيرة ، اهمها فساد الحكومة واعوجاج الحكم وظهور مدارس أخرى من نوعها في سوريا ورودرس وغيرها ، فتحولت هم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية. فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ، ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها او نفيها . ونظراً لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدل اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية . فمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران : الأول ، يوناني علمي أدبي ، والثاني روماني فلسفي ديني .

#### العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ - ٣٠ ق.م.

زهت الاسكندرية في عصرها الأول بمن انتقل اليها من جالية اليونان ، على أثر ما أصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم ، وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والأدب واللغة والتاريخ ، غير ما جمعه البطالسة من الكتب الأخرى كما تقدم ، فأقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكم يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد اضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية ، لتقيد عواطفهم وشعائزهم بالحكم المطلق الذي لا يقترب منه الا المتزلفون ، ففسدت القرائح وضاعت العقول ، فاشتغل يونانيو الاسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا ، لكنهم لم يحددوا شيئاً منها مثل إجادتهم في أثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الأذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات ، وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة ، فنبت فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية ، وان كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء او شروحاً لها .

#### الرياضيات

نبغ أقليدس السوري المولود سنة ٣٢٣ ق.م ، وقد طلب العلم في بلاد اليونان واتفق الرياضيات بنوع خاص ، وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس ، فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ، ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه ، وهناك ألف كتابه المعروف بأصول أقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم ، وقد نقل الى كل لغات العالم المتعدن .

ونبغ من الرياضيين بعد أقليدس أرخميدس - أو أرشميدس - الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ، وجاء مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات وعاد إلى بلاده ، وكان ملكها يحترمه فقربه اليه ، وكان في حرب ضد الرومان فأعانه من علمه بما لم يستطعه القواد بسيوفهم ، ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي ، فقتله بعض جنود الرومان في أثناء الفتح وهو لا يعرفه . ولأرخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب ، وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة ، وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المحاسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات (١) .

ثم نبغ أبولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق.م صاحب الأبحاث في قطع المخروط ، وهيبارخوس المتوفي سنة ١٢٥ ق.م مؤسس الرأي الفلكي للسماوات ، واشتغلوا في أثناء ذلك بالجغرافية الرياضية ، وأول من كتب فيها أراتستين المتوفي سنة ١٩٥ ق.م ، وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك الفراعنة وأول من قاس الأرض .

ثم ظهر بطليموس القلوذي الشهير في أواسط القرن الثاني بعد الميلاد ، فأخذ رأي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطي الذي كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم : « لا يعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه غير ثلاثة : كتاب المجسطي في علم هيئة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس في صناعة المنطق ، وكتاب سيبويه في النحو » (٢) . ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الأربعة ، وكتاب الحرب والقتال ، وكتاب الجغرافية في المعمور وغيرها .

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الأفلاك واستخراج الازياج ، وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام ، وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى أيام الاسلام .

#### الطب

اما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برجامس ، فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها ، وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط ، لكنهم اشتغلوا خصوصاً في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك



العهد ، واشتهر فيها اثناء العصر اليوناني طيبيان لكل منها مذهب في الطب والعلاج وهما: هيروفيلوس ، وارااستراتس . الاول من خلقيدونة ، وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح ، والف كتباً وافق ابقراط في اكثرها ، ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . اما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس ، وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح ، وله مؤلفات ذهب فيها غير مذهب هيروفيلوس ، فكان لكل من هذين الطبيين تلامذة يؤيدون رأيه . واصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرين ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد ، وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة .

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فثتان لهما مذهبان متناقضان ، حتى ظهر جالينوس القلوذي المولود في برجاموس سنة ١٣٠ م . تلقى اصول العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك ، وسافر سنة ١٥٠ م الى ازмир ، ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، وطاف بلاداً اخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م . الى برجاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء ، واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفائهم على يديه فذاع صيته وسموه « الطبيب العجيب » ، فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ، ثم تمكن من الرجوع الى رومية وخدم بعض اباطرتها حتى توفي سنة ٢٠٠ م ، وله مؤلفات عديدة في الطب اشهرها يعرف بالكتب الستة عشر ، وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب موضوعاتها ، وسيأتي ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من اهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن بصددده ، وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب .

#### العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق . م - ٦٤٠

هو العصر الاسكندري الثاني ، ويبتدىء في الحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن ، أي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد ، فان قائدهم « سولا » — بعد ان فتح اثينا — حمل منها الى رومية احمالاً من كتب العلم والفلسفة كما تقدم ، فانتقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ، ولما اسس اوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين : لاتيني ويوناني . ولم ترث رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها ايضاً ، فاصبح اليونان انفسهم اذا ارادوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان .

فمدرسة الاسكندرية اخذت في الانحطاط قبل دخولها في حوزة الرومان، فلما صارت رومانية زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة ، لأن الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود ، نزحوا اليها كمعادتهم في الرحيل للارتزاق او فراراً من الاضطهاد ، فأنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الازواق والاجاث تطور مهم في الفلسفة والدين ، لأن اليهود اهل توحيد ووحى وتقليد ، واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية ، فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين ، فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة Neo-Platonic والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-Pythagoric ، وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني قلما افاد العلم لأن اتجاهه كانت غايتها فلسفية دينية .

ومما اختلفت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم : اولا التشريح ، لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لأجل تخنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها . ثانياً علم الكيمياء ، لأنه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ، ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماءها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد .

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى اواخر القرن الاول للهجرة ، حتى نقله عمر بن عبدالعزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرهما من تلك الايام<sup>(١)</sup> .

#### العصر البيزنطي من سنة ٥٢٩ - ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنطي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لأن آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص ، فلا بأس من الاشارة الى ما يهمننا منه . ويقال بالاجمال أن الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة ، مع ان العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية ، وخصوصاً بعد موت جستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصر النوابع فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خاصة ، او الى بحث او نظر، فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة واراد التشبه بمنشطي

العلم القدماء وغب الناس في المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات ، وقد يفعل القيصر نفسه ذلك . فان قسطنطين السابع ( ٩٠٥ - ٩٥٩ م ) كان محباً للعلم مشتغلاً بالتأليف ، فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون في سائر الموضوعات الأدبية ، كاللغويات والشعر واللغة ، بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . اما الفلسفة فتحوّلت عندهم الى اللاهوت ، لان علماء النصرانية استخدموا الأدلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد او الآراء الدينية في مجادلاتهم او في مواعظهم ، على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة . ومن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي ( ٧١٨ - ٧٤١ م ) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لا حاجة بنا الى ذكره .

## آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان ، وهم امة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون ، فجردت على بلادهم جيشاً قد يمتنع على اعظم دول الأرض اليوم حشده ونقله بمهاته ومؤنثه من اواسط آسيا الى البحر الابيض ، فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً ؟ فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لا تحلو من ادب وعلم ، والفرس اهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن . فلا بد من اجاتهم نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهاجرات ونحوها ، وان كان ما وصل منه البنا قليلاً . ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من جيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والانواء ، فقد احرزوا شيئاً منها وخصوصاً لأنهم ورثوا البابليين والأشوريين واحتكوا باليونان وهم في ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الأحجار باللغة الفهلوية ، ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الأخبار عن فتح الاسكندر بلاد فارس ، وما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها واحرقها كما تقدم ، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الأيام .

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم ، فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخايب في رستاق جي بفارس ، هي عبارة عن أزج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز ، وفيها اصناف من علوم الأوائل باللغة

الفارسية القديمة ( الفهلوية ) وقد تبين من قراءتها « أن طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الأمطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان <sup>(١)</sup> . وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على أزج آخر انهار فأنكشف عن كتب كثيرة لم يهتد أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب في المغارات او نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان . قال ابن النديم : « والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد انفذ الى هنا في سنة نيف وأربعين (وثلثائة) كتباً متقطعة اصبحت بأصفهان في سور المدينة في صناديق ، وكانت في اليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ، وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ » .

على ان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الأشعار والأخبار وكتب العقائد والأديان الى أيام سابور بن اردشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد . وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية ، ونشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته ، وقد حمل معه عدداً كبيراً من أسرارهم الى بلاده ، فأنشأ لهم في الأهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه ، وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان او الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان فاستجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية <sup>(٢)</sup> واخترنها في مدينته ، وأخذ الناس في نسخها ودراستها .

فلما تولى كسرى انوشروان العادل (من سنة ٥٣١ - ٥٧٨) فتح للفرس مورداً جديداً للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جستينيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهيكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ، ففر بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم ، وجاء منهم سبعة الى انوشروان فأكرم وفادتهم ، وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب <sup>(٣)</sup> والفوا فيها الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن ، حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلامذة افلاطون . والمظنون ان تلك الفلسفة كانت اساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك .

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود أيضاً

من السنسكريتية الى الفارسية<sup>(١)</sup> وانشأ في جنديسابور مارستانا ( مستشفى ) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب ، استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان ، وكانوا يعلمون فيه الطب : الهندي والابقرطي فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل ، وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي .

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب ، وثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك ، مما توارثوه عن اسلافهم او نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل ، والعلم لا يزهر إلا في ظل العدل والحرية .

### آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان او البابليين القدماء ، الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاويل ووضعوا اسس الطب قبل الميلاد بقرون ، ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم ، حتى اذا قامت النصرانية وانتشر دعائها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب ، كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية .

وانما يهنا في هذا المقام ما كان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان ، لأنهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم ، كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان اهل ذكاء ونشاط ، فكانوا كلما اطمأنت خواتمهم من مظالم الحكم وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال بالعلم ، فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ، ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضاً . ومنهم خرج اكثر الذين ترجوا العلم للعباسيين واكثرهم من النساطرة كما سيجيء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم بالعلم لأنفسهم .

كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة ، تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية ،

اشهرها مدرسة الرها وفيها ابتداء السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها اخذوا في نقلها الى لسانهم ، فنقلوا المنطق في اواسط القرن المذكور . ثم اتم دراسة المنطق سرجيس الراس عيني الطبيب المشهور ، وفي المتحف البريطاني بلندن نسخ خطية من ترجمة الياساغوجي الى السريانية ، وكذلك مقولات ارسطو لفرفوريوس ، وكتاب النفس وغيرها ، وقد نشر بعضها من عهد قريب .

وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنشرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية ، وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفي جلتهن الاسقف ساويرس ، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ، ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني ومن تلامذة اثناسيوس جورجيس المعروف باسم الفيلسوف العرب ( ٦٨٦ م ) فقد ترجم بعض كتب ارسطو . واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون وفيثاغورس وغيرها مما يطول شرحه . واشتهرت هناك مدارس اخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة ، وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية .

اما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على اثر انشاء مارستان جنديسابور ، واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون ، منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره ، واثاتوس الامدي ، وسمعان الطيبوتي ، والاسقف غريغوريوس ، والبطريرك ثيودوسيوس ، وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها .

وقد نقل اطباء السريان كثيراً من كتب الطب اليوناني الى السرياني ، حتى في اثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية ، لانهم كانوا كثيراً ما ينقلونها الى السريانية فقط او الى السريانية والعربية معاً . فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ، ثم نقلها في الاسلام موسى بن خالد الى العربية<sup>(١)</sup> والطيبوتي الف في اواخر القرن السابع للميلاد كتاباً في الطب وترجم غير كتاب ، ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرها .

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة ، لتسلسل هذا العلم فيهم عن آباءهم الكلدانيين ، فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل إلينا غير خبره ، وألف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس وألف السبكتي في صور الأبراج . وممن ألف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكره ، وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشباري وغيرهم .

واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلاً عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور أنهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان ، وحركات احرفهم عبارة عن احرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف او تحتها . وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها ، فترجموا الالياذة والأوديسية الى لسانهم . ترجمها ثيوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان . ويقال أنهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الالياذة ضبط الاعلام اليونانية فيها . وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات ، وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربي . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والأحرف اليونانية الى اليوم ، الأولى شائعة عند السريان الشرقيين ، والثانية عند الغربيين .

### آداب اللغة الهندية قبل الإسلام

الهنود امة قديمة ، والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان ، وقد نظموا الملاحم ودونوا الأخبار شعراً من قديم الزمان ، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون ، كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى أنه كثيراً ما كان ملوك الفرس يستعينون بأطباء الهنود ، كما فعل انوشروان في مارستان جنديسابور ، وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم ، فانهم كانوا يستقدمون الأطباء من الهند ويستشيرونهم في أمراضهم ، بعد ان تفرغ حيل اطباء الفرس والسريان من معالجتهم . لأن للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني او الفارسي ، وقد اشتهر منهم عدة أطباء ألفوا في الهندية ، ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيحيى ، ومنهم كنكة وصنجبل وشاناق وغيرهم .

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها ، ولها أسماء خاصة بلسانهم ، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب : مذهب الارجهير ، ومذهب الاركند ، ومذهب ثالث يقال

له بالسنسكربتية سدهنتا Siddhanta وهو عبارة عن زيغ ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب ، وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهنود هم الذين اخترعوا الأرقام ، وعنهم اخذها العرب ، ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتي ذكرها .

### الخلاصة

هذه حال العلوم في العالم وبعض نواحي المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية ، وقد رأيت أن أكثرها يونانية الأصل ، وضعها اليونان في أيام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الأمم التي تمدنت قبلهم . ثم تنوعت بالنصرانية وانتقلها الى الفرس والسراني ، على مقتضيات آداب تلك الأمم وعاداتهم .

وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء ، وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ، ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين ، وفيهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما اراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرائهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض .

\* \* \*

### العلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها :

قد رأيت فيما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الأول « أن الاسلام يجب ما قبله » ، وأنه « لا ينبغي أن يتلى غير القرآن » ، وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة ، فأصبخوا لا غناية لهم الا بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم



الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك . وكان اهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحبون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل ، وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون . يحكى ان ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب ، وهو سرياني الجنس يهودي المذهب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش ( حاوي ) من افضل الكنانيش ألفه القس أهرون بن أعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام ، فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك اربعين يوماً ثم اخرجته الى الناس وبثه في أيديهم <sup>(١)</sup> ويدل ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة .

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية - وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصناعات ، واخذوا في اسباب الحضارة بالخط الوافر وتفننوا في الصناعات والعلوم - تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من شمعها ولا يبالي في أي وعاء خرجت » ، وقوله : «خذوا الحكمة ولو من السنة المشركين » <sup>(٢)</sup> ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، و « اطلبوا العلم ولو بالصين » <sup>(٣)</sup> . على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال .

## أول من اشتغل بها

اقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وهو ابن خالة النبي (صلعم) ، وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي (صلعم) ، واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب . وكان يجاري أبا سفيان في عداوة النبي (صلعم) لأنه ثقفي ، وكان بنو ثقيف حلفاء بني

١ - تاريخ الحكماء ( خط ) ٢ - العقد الفريد ١٦٠ ج ١ .

٣ - كشف الظنون ٣٩ و ٤٣ ج ١ .

أمية . فكان النضر كثير الأذى للنبي ( صلعم ) ، ينكلم فيه بأشياء كثيرة . ثم وقع النضر أسيراً في واقعة بدر ، فأمر النبي ( صلعم ) بقتله وذهب خبره <sup>(١)</sup> .

على ان النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئاً الى العربية . أما أول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الأموي المتوفي سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الأكبر ، ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني ، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت أبي سفيان الى بيت مروان . فلما يش خالد من الخلافة - وهو ذو مطامع وذكاة - انصرف ذهنه الى اكتساب العلي بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية ، فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اسطفان القديم <sup>(٢)</sup> وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة .

وكان خالد راغباً في علم النجوم ايضاً ، وأنفق الاموال في طلبه واستحضر آلاته ، ولعلمهم ترجعوا له شيئاً منه لم يصلنا خبره . على ان بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » <sup>(٣)</sup> .

ويلى نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه - او ماسرجيس المتقدم ذكره - لكنناش أهرون من السرياني الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين <sup>(٤)</sup> .

١ - طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ . ٢ - الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤ .

٣ - تراجم الحكماء . ٤ - طبقات الأطباء ١٠٩ ج ١ .

# نقل العلوم في العصر العباسي

## المنصور والنجوم والطب

اول الخلفاء العباسيين السفاح ، ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى اخيه المنصور ( سنة ١٣٦ - ١٥٨ هـ ) وكان شديداً حازماً كثرت في ايامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة ، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته « بغداد » .

## النجوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالا الى التنجيم لا يكاد يعمل عملاً إلا استشار المنجمين فيه ، وهو اول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم <sup>(١)</sup> واقتدى به اكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ، ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه اشهرهم نوبخت المنجم الفارسي - كان مجوسياً واسلم على يده ، وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها ، وكان يصحب المنصور حينما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور : « احضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو ابو سهل بن نوبخت <sup>(٢)</sup> وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين ، وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها ، وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الاوائل .

وخدم المنصور ايضاً في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم <sup>(٣)</sup> . ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند بارع في حساب

٢ - ابو الفرج ٢١٦ .

١ - المسعودي ٣٦٤ ج ٢ .

٣ .. المسعودي ٢٦٤ ج ٢ .

السدهنتا المتقدم ذكره سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معموله على مذاهب الهند ، فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وان يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب اصلاً في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه المنجمون « السند هند الكبير » وظل اهل ذلك الزمان يعملون به الى ايام المأمون<sup>(١)</sup> .

فاهتم الناس من ذلك الحين بعلم النجوم ومتعلقاتها ، وجرهم النظر في الافلاك الى الهندسة ، فكتب المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات<sup>(٢)</sup> ولعل المجسطي من جملتها ، لأنه في النجوم . والظاهر ان ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة ، لأننا رأينا اقليدس والمجسطي في جملة ما ترجم للرشد والمأمون . وجملة القول ان رغبة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها .

## الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في ايام المنصور الطب . والسبب في ذلك ان المنصور اصابه في اواخر أيامه ( سنة ١٤٨ هـ ) مرض في معدته فانقطعت شهورته ، وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعا . فجمعهم يوماً وقال لهم : « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ » فقالوا : « ليس في وقتنا هذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني ، فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية ، وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، حتى اصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور اشهر مدارس الطب في تلك الايام . فبعث المنصور في طلبه على عجل ، فلما جاء الرسول الى جورجيس اراد استمهاله فهدده بالقتل اذا ابطأ . فعهده بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع ، واصطحب اثنين من تلامذته هما : ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعاه بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة ، فوقع عند المنصور موقعا حسنا فأجلسه امامه وسأله بعض الاسئلة فاجابه عليها بسكون ،

١ - تراجم الحكماء ( خط ) . ٢ - ابن خلدون ٤٠١ ج ١ .

فازداد إعجاباً به فأخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس : « انا ادبرك كما تحب » فخلع عليه وانزله في قصر خاص وأمر بإكرامه . ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء ( زجاجة البول ) ودبره تدبيراً لطيفاً ، فشفى ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه انه رآه عفيفاً صادقاً في دينه . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه ، فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجوارى ، فلما عاتبه المنصور في الغد اجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج إلا بامرأة واحدة ، وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها »<sup>(١)</sup> فحسن موقع ذلك عند المنصور واطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطيبهن ، وتعلق به تعلقاً شديداً .

وكان جورجيس محباً للتأليف كما رأيت ، وكان يعرف اللغة اليونانية فضلاً عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما ألفه في السريانية . اما التأليف في الطب فقد سبقه اليه اكثر الأطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألف لنفسه او لولده او لأحد تلامذته كتاباً او غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب ان يؤلفوا الكنانيش ، كالكناش الذي ألفه ثياذوق المتوفي سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ، ألفه لابنه وألف له ايضاً كتاباً في الأدوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة .

فالمنصور اول من عني بنقل الكتب القديمة ، ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي ايامه ترجم ابن المقفع كلية ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست ان ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كانت الفرس قد نقلوها عن اليونانية . فلعله نقلها لنفسه .

### المهدي والرشيدي

اما المهدي ( ١٥٨ - ١٦٩ هـ ) فانه اشتغل عن العلم بما ظهر في ايامه من البدع الدينية ،

وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومريقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية ، فكثير الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس ، فأمر المهدي اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . اما الهادي ، فلم تطل ايامه ولم يأت أمراً يذكر .

فلما أفضت الخلافة الى الرشيد ( ١٧٠ - ١٩٣ هـ ) كانت الافكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا اهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم ، والمسلمون يتهيئون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين إلا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها او مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين ، ويغلب ان يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق ، وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويحاضرونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض اهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة ، واصبحوا اذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرؤن باحراقها او اعدامها ، بل يأمرؤن بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم ، كما اتفق للرشيد في اثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم ، فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها<sup>(١)</sup> ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني<sup>(٢)</sup> .

وفي ايام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر ، وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون<sup>(٣)</sup> . وفي ايامه نقل المحسبي الى العربية ، واول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ، ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره ابا حسان وسلمة صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه .

## المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلا في ايام المأمون ، لسبب متصل بالمأمون نفسه . وذلك ان المسلمين تعودوا من اول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة

٢ - ابو الفرج ٢٢٧ .

١ - طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ .

٣ - الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨ .

فما بينهم ، فكان اذا خطر لأحدهم رأي في خليفة او امير لا تمتعه هيبة الملك من ابداء رأيه . وكان ذلك شأنهم في الدين ، فاذا فهم احد من الآية او الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه . فلم ينقض عصر الصحابة حتى اخذ المسلمون يفترقون في المذاهب ، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت ، وفي جملتها المعتزلة . والمعتزلة طوائف كثيرة ، اساس مذهبهم تطبيق الاحكام العقلية على النصوص الدينية ، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق احداث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون اصحاب العدل والتوحيد .

### المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في اواخر القرن الاول للهجرة ، وكثر اشياعه بسرعة لارتياح العقل الى ادلته . وقد تقدم في كلامنا عن الفقه ان المنصور اخذ بناصر اصحاب الرأي والقياس واستقدم ابا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية ، وظل الميل الى القياس متواصلاً في بني العباس . والاعتزال اقرب المذاهب الى اصحاب الرأي ، لأن عمدة المعتزلة في اثبات مذهبهم البرهان العقلي ، ولذلك كانوا اذا رأوا رجلاً مطلعاً على منطق ارسطو او اقواله في الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعون منه في تأييد مذهبهم ، واحتاجوا الى ذلك ، خصوصاً في ايام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم . فلعلمهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم ، او شعروا باحتياجهم اليها على الاقل ، واخذوا في انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من اصحاب الرأي ايضاً ، وفيهم ذكاء وميل الى العلم ، فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون<sup>(١)</sup> وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به .

فلما افضت الخلافة الى المأمون ( ١٩٨ - ٢١٨ هـ ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي . وقد تعلم وتفقّه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى احكام العقل ، فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه اشياعه كأبي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام ، وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر اشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا

يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء ، وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل . وكان المسلمون في ايام الرشيد يخافون المأمون في ذلك ، لانه ظهر فيه قبل توليه الخلافة ، وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من امر المأمون من هذا القبيل .

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن ، قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم اكثر عدداً ، ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع <sup>(١)</sup> . وتأيداً لصحة الجدل امر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية ، واطلع هو عليها ففويت حجة وازداد تمسكاً بالاعتزال . ولما يش من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف ، باشر ذلك في العام الأخير من حكمه وهو خارج بغداد ، فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يتمتع بالقضاة والشهود وجميع اهل العلم بالقرآن ، فمن اقر انه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلم به <sup>(٢)</sup> .

فالراجح عندنا ان المأمون ، لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى بأساً على نقل علوم اليونان الى العربية ، وأنه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييداً لمذهب الاعتزال ، ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب في اعوام بضعة عشر ومائتين ، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقى الظمآن لموارد الماء ، واقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعداهم بها <sup>(٣)</sup> . فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام <sup>(٤)</sup> كما تولد من اشتغال النصارى بها «الفلسفة الأفلاطونية الجديدة» .

## المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسباباً كثيرة . قال أبو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ، إن المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه ، فكتب الى ملك الروم يسأله

١ - الديميري ٧٢ ج ١ . ٢ - أبو الفداء ٣٣ ج ٢ .  
٣ - المقرئ ٢٥٧ ج ٢ . ٤ - الشهرستاني ١٨ ج ١ .



الاذن في انفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمة صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل<sup>(١)</sup> .

وذكر نحو ذلك ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الأطباء ، وابو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب ، فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام الترجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء ، حتى اعطى وزن ما يترجم له ذهباً . وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم<sup>(٢)</sup> .

واقترى بالمأمون كثيرون من اهل دولته ، وجماعة من اهل الوجاهة والثروة في بغداد ، فتقاطر اليها المترجمون من انحاء العراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة ، يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، واصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية .

### نقلة العلم في العصر العباسي

رأيت فيما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبل الاسلام ، وأنهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ، ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب ، وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم ، وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم ( العراق ) وعمرت بغداد بالوافدين من اطراف المملكة الاسلامية وغيرها ، كان أولئك السريان من جملة الوفود التماساً للرزق ، فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانجليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم

١ - الفهرست ٢٤٣ . ٢ - ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء .

الاختلاط بالعرب - او المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في اول دولتهم ، واطلاق حرية الأديان لرعاياهم ، حتى كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم واساقفتهم . ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة من الفرس الى بغداد ، وكانوا اهل دولة وحكومة ، فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون دولتهم ، وفيهم جماعة كبيرة من اهل العلم والأدب ، واستقدم الخلفاء أيضاً جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم .

فلما اراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية ، كان واسطة ذلك النقل اهل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبدل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وأرزاقاً ، وبالغوا في اكرامهم ومحاسنتهم ، فتكاثروا . واكثرهم من السريان النساطرة ، لأنهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني . وفيهم جماعة من اهل فارس والهند وغيرهم ، للنقل من الفارسية او الهندية ، وكان اكثرهم تتوالى الترجمة في اعقابه فيتولاها هو واولاده واحفاده . واليك اشهر نقلة العلم في العصر العباسي :

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة ، اولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره ، وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اياه قبله . فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية ، فقال الرشيد لوزيره يحيى : امتحنه ، فدعا يحيى الأطباء لامتحانه - وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرابيون وغيرهم - فلما رأوه قال أبو قريش : « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا ، لأنه كون الكلام وهو وابوه وجنسه فلاسفة » . ويدل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الأطباء ، وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء ونال جوائزهم وعطاياهم . وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل ، وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه احد من أطباء عصره . ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ، خدم المقتدر العباسي . وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع ، كلهم من مهرة الأطباء ، ولم يعن بالترجمة منهم الا جورجيس الاول . وانما اوردنا ذكرهم لان اكثرهم ألف في الطب كتباً مفيدة ، وبعضهم استخدم الترجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية <sup>(١)</sup> .

( ٢ ) آل حنين : اولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة . ولد سنة ١٩٤ هـ وكان ابوه صيرفياً ، ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتأقلم فيها العربية ، ثم انتقل الى بغداد ليستغل بصناعة الطب ، فلقى في ذلك مشقة لأن الأطباء - وخصوصاً اهل جنديسابور - كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار . وكان امر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد متخرجي مارستان جنديسابور ، فجعل حنين يحضره . فاتفق انه سأل مرة مسألة مما كان يقرأه عليه ، فغضب يوحنا وقال : « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب ؟ فصر الى فلان قرابتك ، حتى يهب لك خمسين درهماً ، تشتري بها قفافاً صغاراً بدرهم ، وزرنيخاً بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوساً كوفية وفارسية ، وزرنخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على الطريق وصح : الفلوس الجياد للصدقة والنفقة ! وبع الفلوس ، فإنه اعود عليك من هذه الصناعة ... » ثم امر به فأخرج من داره .

فخرج حنين باكياً مكروباً ، وقد بعثه ذلك النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ، ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس<sup>(١)</sup> فأصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربية ، واصبح اطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب ، حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية ، واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين<sup>(٢)</sup> . وترجم ايضاً لجبريل بن مجتئشوع كتاب التشريح لجالينوس ، وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له : « ربن حنين » في اصطلاح السريان اي : « يا معلمنا حنين » . ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عن يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين ، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شاباً ، فأخرج المأمون جماعته من الترجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلاً بمثل ، ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جداً لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر ان حنيناً رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها ، وكان يترجم ايضاً لبني شاعر الآتي ذكرهم ولغيرهم .

وكان لحنين ولدان : دار ، واسحق ، صنف لهما كتباً طبية في المبادئ والتعليم ، ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فأفلق اسحق وتميز ، واشتغل في الترجمة مثل ابيه من اليونانية الى العربية . الا ان عنايته كانت منصرفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما ابوه فكان اكثر اشتغاله في نقل كتب الطب ، وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر ان يوجد من جالينوس كتاب إلا وهو بنقل حنين او باصلاحه ، وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم ، لبراعة حنين في العربية فضلاً عن قهره بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل ( تولى سنة ٢٣٣ هـ ) فاختره لرئاسة الترجمة ، فعين جماعة من الترجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد ، فكانوا يترجمون ويتفحص حنين ترجمانهم وينقحها . وكان يلبس زفاراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق ايضاً ، واكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها ، وكان مع ابيه ثم انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد ، وكان يفضي اليه بأسراره ، وله فضلاً عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرها .

(٣) حبش الأعمش الدمشقي : هو حبش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين بن اسحق ، وقد تعلم صناعة الطب منه ، وكان قد سلك مسلكه في الترجمة . وقيل : من جملة سعادة حنين صحبة حبش له ، فان اكثر ما نقله حبش نسب الى حنين ، وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبش فيظنه لحنين وقد صحف ، فيكشطه ويجعله لحنين (١) .

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي : وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً ، رحل الى بلاد الروم في طلب العلم ، وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية ، وكان جيد النقل واصلاح نقولاً كثيرة وألف رسائل عديدة في الطب ، وكان حسن العبارة جيد القريحة . وفضلاً عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والأدب والدين ، ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج الملقب : « لو قلت حقاً لقلت أنه افضل من صنف كتاباً ، بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني » .

(٥) آل ماسرجويه : اولهم ماسرجويه ، متطبب البصرة ، وهو يهودي المذهب سرياني اللغة . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه ، وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات في الطب .

(٦) آل الكرخي : اولهم شهدي الكرخي من اهل الكرخ ، وكان قريب الحال في الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل ابيه في النقل ثم فاق اياه في آخر عمره ، ولم يزل متوسطاً . وكان ينقل من السرياني الى العربي .

(٧) آل ثابت : اولهم ثابت بن قسره الحراني ، وهو من الصائبة المقيمين في حران . وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم ، وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً ، وكان جيد النقل الى العربية ، وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق ، وله في السريانية كتاب في مذهب الصائبة . وكان في خدمة المعتضد العباسي ، وبلغ عنده اجل المراتب ، حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ، ويحادثه طويلاً ويضاحكه ، فيقبل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت ، وكان مقدماً عند القاهرة بالله ، وله تصانيف كثيرة ، وكذلك ابنه ثابت بن سنان ، ولكنها لم ينقل شيئاً .

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للعامة ، وقد نقل كتاب الجسطي واقليدس الى العربية ، ثم اصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني .

(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي ، كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصي ايضاً زروبا بن مائحوه ، وكان أضعف من سابقه .

(١٠) اسطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل ، الا ان عبارة حنين كانت أفصح وأحلى .

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان ، نقل كتباً كثيرة من الستة عشر جالينوس ، وهو دون حنين .

(١٢) سرجيس الرأس عيني : هو من مدينة رأس العين في العراق ، نقل كتباً كثيرة ، وكان متوسطاً في النقل ، وحنين كان يصلح نقله .

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم ، وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي .

(١٤) البطريق : كان في ايام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد الا انه دون نقل حنين .

(١٥) يحيى بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية <sup>(١)</sup> .

(١٦) أبو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجهدين الى العربية .

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير قن ، تفقه في مدرسة مارماري على اساتذة عظام ، واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره .

(١٨) يحيى بن عدي : هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة ، قرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي ، وهو يعقوبي المذهب خلافاً لأكثر المترجمين السريان ( اذ كانوا نساطرة ) وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة <sup>(٢)</sup> .

هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني الى العربي . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار .

وأما النقلة من الألسنة الأخرى ، فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت ، وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد ، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وينقلان له من الفارسية الى العربية ، وعلي بن زياد التميمي ويكنى ابا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهریار ، والحسن بن سهل وكان من المنجمين . والبلاذري احمد بن يحيى وجبله بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيارنامه . ومنهم محمد الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم .

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية ( الهندية ) منكه الهندي ، كان في جملة اسحق

ابن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي (١) .

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية ( الكلدانية ) الى العربية ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها .

### السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من اخبار النقلة ومواطنهم وملهم ، رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة الى اخرى او من لسان الى لسان من اقدم ازمنة التاريخ ، يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكائهم وإقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب .

فالسوريون ( او الفينيقيون ) هم الذين نشروا احرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً ، فحملوها معهم في أثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ، ولا تزال صورها واسماؤها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ، ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الأمم المتمدنة في تلك العصور ، كما يدرسون اليوم الانجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات ممالك التمدن الحديث ، لنقل العلم او الاتجار او الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول .

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ، ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام ، تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم و اضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية ، وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في اديرتهم ، ثم كانت مصدراً للعلم والفلسفة الى بلاد الفرس والهند وغيرهما .

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان

وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى اتوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم ، كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة ، ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حران ، لأن أهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه اهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم .

فلما ظهر الاسلام واراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية ، كان السوريون ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد ، وفيهم الحمصي والبلعبي والدمشقي والخياري والحراني والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها ، فضلاً عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان اكثر اولئك المترجمين من اهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله ، وفيهم من ألف في اكثر فروع العلم او الفلسفة او المنطق او الطب وغيرها .

وذلك شأن السوريين أيضاً في علوم التمدن الحديث ، فقد كانوا من اكثر الناس اشتغالا في نقلها من لغات أوروبا المختلفة الى اللغة العربية ، ولا يزالون في ذلك الى اليوم .

### نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد الترجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها اهل بغداد ، نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها ، واستخدموا الترجمة وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها .

واشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكرو او بني موسى ، لأنهم اولاد موسى بن شاكرو ، وهم : محمد واحمد والحسن ، ويعرف اولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون ، والمأمون يرعى حقه في اولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من اهل العلم والادب ، بل كان في حدائته لصاً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند ، وكان شجاعاً مجرباً . وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكراً فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ، ويركب فرساً له اشقر يشد على قوائمه خرقاً بيضاء



ليوهم من يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال ، وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فيصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد . فلما كثر فعله واشتهر اتهم ، فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً ، فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيى بن ابي المنصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان يراعيه ، حتى قال اسحق : « جعلني المأمون داية لأولاد موسى » . وكانت حالهم رثة رقيقة وارزاقهم قليلة ، ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم . وكان اكبرهم واجلهم محمد ، وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم . عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعات والرياضيات . وكان اخوه احمد دونه في العلم إلا صناعة الحيل ( الميكانيكيات ) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيه . وكان اخوها الحسن منفرداً بالهندسة ، وله طبع عجيب فيها لا يدانيه احد فيه ، مع انه علم كل علمه من نفسه بدون تعليم ، ولا قرأ كتب الهندسة إلا ست مقالات من اقليدس<sup>(١)</sup> .

وتقانى اولاد شاكر في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب واتبعوا انفسهم في جمعها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها اليهم ، واحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني . وكان في جملة من انفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق<sup>(٢)</sup> وغيره . واقاموا الترجمة وفي جملتهم حنين وحبش وثابت بن قرة ، وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة<sup>(٣)</sup> . ولبنى موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ، ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم اليها احد . وقد برهنوا للمأمون ان محيط الأرض ٢٤٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً ، فضلاً عن مهارتهم في الرصد وغيره .

ومن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنسخ ٢٠٠٠ دينار في الشهر ، ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم علي ابن يحيى المعروف بابن المنجم ، كان احد كتاب المأمون ونقل له كثيراً من كتب الطب ، وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك .

ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين الى

١ - تراجم الحكماء ( خط ) وطبقات الاطباء . ٢ - الفهرست ٢٤٣ .

٣ - طبقات الاطباء ١٨٧ ج ١ .

لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها . ومنهم تادري الاسقف في الكرخ ، وكان راغباً في طلب الكتب متقرباً الى قلوب نقلتها ، وصنف له الاطباء النصارى كتباً كثيرة . وعيسى ابن يونس الكاتب الحاسب من اهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية . ومنهم شيرشوع ( كذا ) بن قطرب من اهل جنديسابور ، وكان يبر النقلة ويهدي اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال ، وكان يجيد النقل الى السرياني اكثر مما الى العربي . وقس على ذلك جماعة من اطباء الخلفاء كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن مجتيشوع وداود بن سراييون وسلمويه وابن الطيفوري وغيرهم . واقتدى بالخلفاء العباسيين في نقل العلوم الى العربية ايضاً كثيرون من امراء المسلمين المستقلين عنهم ، فقد كانت عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل له من السرياني الى العربي (١) .



## الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التي حلت الخلفاء على نقل علوم القدماء في النهضة العباسية وقبيلها، وقد ذكرنا الذين اشتغلوا في ترجمتها من الألسنة المختلفة. وبقي علينا أن نذكر الكتب التي نقلت وكان عليها معول علماء المسلمين فيما ألفوه بعد ذلك. وهي كثيرة تصعب الاحاطة بها لتشتت أخبارها وضياح كثير منها ، على اننا نكتفي بما يبلغ اليه الامكان .

وتسهيلا للاحاطة بموضوعات تلك الكتب واللغات المنقولة هي عنها نقسمها باعتبار اللغات التي نقلت عنها وهي : اليونانية والفارسية والهندية ( السنسكريتية ) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية . ونقسم منقولات كل لغة الى اقسام باعتبار الموضوعات على ما يقتضيه المقام :

### ١ — الكتب المنقولة عن اليونانية

هي اكثر ما نقلوه الى العربية في تلك النهضة، واكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي . واليك كتب كل علم على حدة ، مرتبة باعتبار المؤلفين ، وبإزاء كل كتاب اسم المترجم الذي نقله .

#### ١ — كتب الفلسفة والادب :

#### كتب افلاطون

- |                  |                           |
|------------------|---------------------------|
| ١ — كتاب السياسة | نقله حنين بن اسحق         |
| ٢ — المناوبات    | « يحيى بن عدي             |
| ٣ — النواميس     | « حنين ويحيى              |
| ٤ — طياوس        | « ابن البطريق وأصلحه حنين |

- ٥ - « أفلاطن الى أقرطن  
٦ - « التوحيد  
٧ - « كتاب الحس واللذة  
٨ - « أصول الهندسة  
« يحيى بن عدي  
« . . . .  
« . . . .  
« قسطا بن لوقا

### كتب أرسطوطاليس

- ١ - قاطيغوريوس ، أي المقولات  
٢ - كتاب العبارة  
٣ - تحليل القياس  
٤ - كتاب البرهان  
٥ - « الجدل  
« نقله حنين بن اسحق  
« الى السريانية واسحق الى العربية  
« ثيادورس وأصلحه حنين  
« اسحق الى السرياني ومقى الى العربي  
« « « « ويحيى «  
٦ - « المغالطات او الحكمة المموهة  
« ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى  
« الى العربي  
٧ - « الخطابة  
« اسحق وابراهيم بن عبدالله  
٨ - « الشعر  
« أبو بشر من السرياني الى العربي  
٩ - « السماع الطبيعي  
« أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا  
« وابن ناعمة  
١٠ - « السماء والعالم  
« ابن البطريق وأصلحه حنين  
١١ - « الكون والفساد  
« حنين الى السرياني واسحق والدمشقي  
« الى العربي  
١٢ - « الآثار العلوية  
« أبو بشر ويحيى  
١٣ - « النفس  
« حنين الى السرياني واسحق الى العربي  
١٤ - « الحس والمحسوس  
« أبو بشر مقى بن يونس  
١٥ - « الحيوان  
« ابن البطريق

- ١٦ - « الحروف أو الإلهيات » اسحق ويحيى وحنين ومق  
 ١٧ - « الاخلاق » اسحق  
 ١٨ - « المرأة » الحجاج بن مطر  
 ١٩ - « اثولوجيا » . . . .

ولكتب أرسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته أو من جاء بعده ، كثاوفرستس وديدوخس برفلس والاسكندر الافروديسي وفرفوزيوس الصوري وامونيوس وتامسطيوس ونيقولائوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة ، وكلها في الفلسفة وفروعها ، وقد نقل كثيرأ منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فأغضينا عن ذكرها ، وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضممة كتب في الفلسفة والادب ، وهي « كتاب ما يمتقده رأياً » ترجمه ثابت ، وكتاب « تعريف المرء عيوب نفسه » نقله توما واصلحه حنين ، وكتاب « الاخلاق » نقله حبش ، وكتاب « انتفاع الأخيار بأعدائهم » نقله حبش ، و « المحرك الاول لا يتحرك » نقله حبش وعيسى وغيرها .

## ٢ - كتب الطب وفروعه

### كتب أبقراط

- ١ - كتاب عهد أبقراط نقله حنين الى السريانية وحبش وعيسى الى العربية  
 ٢ - « الفصول » حنين لمحمد بن موسى  
 ٣ - « الكسر » » » »  
 ٤ - « مقدمة المعرفة » » وعيسى بن يحيى  
 ٥ - « الأمراض الحادة » عيسى بن يحيى  
 ٦ - « ابذيما » » » »  
 ٧ - « الأخلاط » » » » لأحمد بن موسى  
 ٨ - « قاططيون » حنين لمحمد بن موسى  
 ٩ - « الماء والهواء » » وحبش  
 ١٠ - « طبيعة الإنسان » » وعيسى

## كتب جالينوس

واشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر ، وهي : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الأمراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرف علل الأعضاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، البحران ، أيام البحران ، تدبير الأصحاء ، حيلة البرء ، وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبش . اما ما بقي من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع اسماء ناقلها :

١٩ حركات الصدر	نقله اصطفان	١ التشريح الكبير	نقله حبش الأعم
٢٠ علل النفس	نقله اصطفان واصلحه حنين	٢ اختلاف التشريح	» » »
٢١ حركة العضل	» » »	٣ تشريح الحيوان الحي	» » »
٢٢ الحاجة الى النفس	» » »	٤ » » الميت	» » »
٢٣ الامتلاء	» » »	٥ علم أبقراط بالتشريح	» » »
٢٤ المرة والسوداء	» » »	٦ الحاجة الى النبض	» » »
٢٥ الحركات المجهولة	نقله حنين	٧ علوم أرسطو	» » »
٢٦ علل الصوت	» » »	٨ تشريح الرحم	» » »
٢٧ افضل الهيئات	» » »	٩ آراء أبقراط وافلاطون	» » »
٢٨ سوء المزاج المختلف	» » »	١٠ العادات	» » »
٢٩ الأدوية المفردة	» » »	١١ خصب البدن	» » »
٣٠ المولود لسبعة اشهر	» » »	١٢ المنى	» » »
٣١ رداءة التنفس	» » »	١٣ منافع الاعضاء	» » »
٣٢ الذبول	» » »	١٤ تركيب الادوية	» » »
٣٣ قوى الاغذية	» » »	١٥ الرياضة بالكرة الصغيرة	» » »
٣٤ التدبير اللطيف	» » »	١٦ » » الكبيرة	» » »
٣٥ مداواة الامراض	» » »	١٧ الحث على تعلم الطب	» » »
		١٨ قوى النفس ومزاج البدن	» » »

٣٦ أبقراط في الامراض الحادة نقله حنين	٤٣ الفصل نقله عيسى واصطفان
٣٧ الى تراسوبولوس » »	٤٤ صفات لصبي يصرخ » ابن الصلت
٣٨ الطبيب والفيلسوف » »	٤٥ الاورام » » »
٣٩ كتب ابقراط الصحية » »	٤٦ الكيموس » ثابت وحيش
٤٠ محنة الطبيب » »	٤٧ الادوية والادواء » عيسى
٤١ افلاطون في طيماوس » » واسحق	٤٨ الترياق » ابن البطريق
٤٢ مقدمة المعرفة » عيسى	

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها . واما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من اهل افسس كان قبل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهي كتاب الادوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل ، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه ارنافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربي - ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش - كتاب في الحشائش سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب « البرسام » نقله ابن البطريق ، وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه .

### ٣ - كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكات ، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة ، نقله الحجاج مطر نقلين : الهاروني والمأموني ، ونقله اسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله ابو عثمان الدمشقي ، ولا يزال هذا الكتاب باقياً الى الآن . ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها : كتاب الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر ، وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب ارخيديدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان ، وهي عشرة لم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المهمة ، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب اصول الهندسة ، نقله الى العربية ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس ايضاً كتاب الاربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت واصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض نقله ثابت الى العربية نقلاً جيداً ، ولبطليموس ١٥ كتاباً اخر في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها .

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد ، لم يعرف ناقلها .

(٧) ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ، ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقلها ، منها : كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس ، وكتاب العمل بذات الخلق ، وكتاب جداول زيچ بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب - وكلها لثاؤن الاسكندري ، غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في اثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني ، وكتاب الموسيقى المنسوب لافليدس وقد تقدم ذكره ، ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره . وكتاب الريوس ، وكتاب الايقاع لارسطكاس ، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزميري لمورطس .



ونقل لهم من كتب الميكانيكيات ، غير ما جاء في كتب ارخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب شيل الاثقال لايرن ، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصنوعة على ستين ميلا لمورطس .

## ٢ - الكتب المنقولة عن الفارسية

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاعخبار والسير والاشعار ، وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقليها :

٩ » الآداب الصغير نقله عبد الله بن المقفع	١ » كتاب رستم واسفنديار نقله جبلة بن سالم
١٠ » اليتيمة » » »	٢ » بهرام شوش » » »
١١ » هزار افسانه لم يذكرناقله	٣ » خدائنامة في السير » عبد الله بن المقفع
١٢ » شهرزاد مع ابرويز » » »	٤ » آيين نامه » » »
١٣ » الكارنامة مع انوشروان » » »	٥ » كلية ودمنة » » »
١٤ » دارا والصنم الذهب » » »	٦ » مزدك » » »
١٥ » بهرام ونرسي » » »	٧ » التاج في سيرة انوشروان » » »
١٦ » هزارستان » » »	٨ » الآداب الكبير » » »
١٧ » الدب والشعلب » » »	

١٨ - سير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب - ترجم احدها محمد بن جهم البرمكي ، والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني<sup>(١)</sup> .

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس ، وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي ، كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نشرأ للملك العظيم عيسى الايوبي اتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ <sup>(١)</sup> ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً اخرى تاريخية وادبية ، وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

### ٣ - الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية ( السنسكريتية ) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من اخبارها الا القليل ، لان بغداد كانت في ابان الزهو العباسي محج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية في استقدام اطباء الهند اليها ، وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كمنكه وبازيكر وقليرفل وسندبار وغيرهم <sup>(٢)</sup> .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الادب او الطب او الصيدلة او السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل . راجع قانون ابن سينا مثلاً او الملكي للرازي او غيرهما من كتب الطب الكبرى ، فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا او يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه او سراج الملوك للطرطوشي ، او غيرهما من كتب الادب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب او الاخلاق او نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا » .

## كتب الطب وفروعه

على أننا نعلم مما جاء في كتاب طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة انه اشهر حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنهه الهندي وهو من متقدميهم واكابرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة ، منها كتاب النمودار في الاعمار وكتاب امرار المواليد وكتاب القرائن الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش وكتاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في القران . ومنهم ايضاً صنجل وباكر وغيرهما ، وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية ، اما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي . منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي الى العربي عبدالله بن علي ، وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الادوية وكتب اخرى في فروع الطب .

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقد أتى الى بغداد بأشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان منكه يعرف الفارسية أيضاً فكان ينقل من الهندي الى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطباء<sup>(١)</sup> . ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في أيام الرشيد ايضاً ونال شهرة واسعة وخالط اطباءها يومئذ واختلطوا به ، فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئاً من آراء الهند عنه .

ومن مشاهيرهم ايضاً شاناق ، وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى الفارسي منكه الهندي ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله الى العربية ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربية ايضاً .

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره<sup>(٢)</sup> :

- |  |                   |
|--|-------------------|
| ١ - كتاب سسردي الطب                    | نقله منكه         |
| ٢ - أسماء عقاير الهند                  | « لاسحق بن سليمان |
| ٣ - استانكر الجامع                     | « ابن دهن         |
| ٤ - صفوة النجج                         | « « «             |
| ٥ - مختصر الهند في العقاير             | لم يذكر ناقله     |
| ٦ - علاجات الجبالى للهند               | « « «             |
| ٧ - روسا الهندية في علاجات النساء      | « « «             |
| ٨ - السكر للهند                        | « « «             |
| ٩ - التوهم في الامراض والعلل           | « « «             |
| ١٠ - رأي الهند في اجناس الحيات وسمومها | « « «             |

### كتب النجوم والرياضيات

اما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير ، وقد ذكرنا خبر السند هند فيما تقدم ، وكان لنقل هذا المزيج تأثير في علم النجوم عند العرب وقد قلده وألفوا على مذهبه . ومن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري وحش بن عبدالله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم<sup>(١)</sup> ، والفزاري اول من عمل اسطرلابا في الاسلام<sup>(٢)</sup> . وما من فلكي من فلكيي المسلمين اراد التوسع في علم النجوم إلا وطالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية او في ترجمتها الى العربية . واكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ابو الريحان البيروني المتوفي سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة او تصحيحا او نقدا ، ومما ذكره من كتبه الذي فيها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السند هند كتاباً سميت به جوامع الموجود لطواطر الهند في حساب التنجيم ، جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركنند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتاباً في المدارين المتحددين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا

يخلو منه زيغ من ازياجهم ، وليس بمعلوم عند اصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة ، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في ان رأي العرب في مراتب العدد اصبوب من رأي الهند فيها ، وفي راسكيات الهند ، وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره وهي مقالة الهند في الامراض التي تجري مجرى العفونة ، وغير ذلك ، فيؤخذ من هذا ان الهنود اهل علم ورأي في النجوم وعلومها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً .

#### كتب الادب :

واما كتب الهند في الادب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية ، فأولها كتاب كلية ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمهم الفرس من قبلهم . ومن نظمهم في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق ابن عفير الرقاشي وعلي بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب ادب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة (١٦) .

ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية ( بيافر ) ومعناه ثمار الحكمة وفيه اصول الالحان وجوامع تأليف النغم (٢) .

#### ٤ — الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليونانية الى العربية عن طريق اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عينها فلا تتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب

١ — الفهرست ٣٠٥ . ٢ — تراجم الحكماء ( خط ) .

الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابهِ ، وقد نقله الى العربية احمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ ، وظل معتمد اهل الزراعة الى امد غير بعيد ، وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية وهو يميل الى الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : « اعلم يا بني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين ( الكلدان او النبط ) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحه الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون اشد غيرة عليها ، لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه يجهدهم . وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم ، فوصلت الى ما اردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عني علمه ، فلما اطلعت عليه لمت في اخفاء الكتاب عني وقلت له : انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر . وما يصنع الانسان بكتب لا يقرأها ولا يخلي من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر ؟ فصدقني في ذلك واخرج الى الكتب ، فجعلت انقل كتاباً بعد كتاب . فكان اول كتاب نقلته كتاب دوائى البابلي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ » (١) (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرايين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية (٢) غير ما لا بد من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء .

## ٥ - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد

نقل الى العربية ، وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لأنهم كانوا ينقلونها شفاهاً للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئاً وضاع . واما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة اسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومي المتوفي سنة ٥٣٠ هـ وهو اقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره ، وله ايضاً شروح وتفسير عليها <sup>(١)</sup> .

ولا يبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فاتت نقله الاخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين ان يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية وانه ترجم عدة كتب ، فالظاهر انه ترجمها عن اللاتينية .

واما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، واما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معاً بأمر خالد بن يزيد <sup>(٢)</sup> .

### الخلاصة

وفي الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد ، ولم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً ، وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فأخذوا من كل امة احسن ما عندها ، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفي الطب ( الهندي ) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود ، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان ، وفي الكيمياء والتشريح على المصريين ، فكأنهم ورثوا اهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي ( الدخيلة ) .

وبما نلاحظه من امر ذلك النقل ان العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر ، مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جملة سالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ، ولا جغرافية استرابون ، ولا الياذة هوميروس ولا اوديسيته . والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ، لأسباب تقدم بيانها . وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم ، حباً في اظهار مآثر اسلافهم او جيرانهم . فالترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وآدابهم ، وكذلك فعل التراجمة السريان بأداب اجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان في اولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها . ولا ريب ان من جملة ما منعه من نقل الياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ، ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها .

ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تمدنهم العجيب .

### محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية ، وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ، ان الخلفاء اصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة ، بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او انسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام ، مما يصح ان يكون مثلاً للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور .

بلغ من اكرام المنصور لطيبه جورجيس بن بختيشوع<sup>(١)</sup> انه أمر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام . وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : « ارى هذا الرجل قد تغير وجهه .. أتكون قد منعت ما

١ - ويقال ايضاً جورجيس بن جبرئيل .



يشربه على عادته ؟ » . قال الربيع : « لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً » فاجابه المنصور بقبيح وقال : « لا بد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غايه ما امكنه من الشراب الجيد<sup>(١)</sup> وكان ذلك شأن المنصور مع اكثر اطبائه ، حتى كان يستشير بعضهم في اهم الامور . فلما طلب اهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كانت من اطبائه طبيب يهودي اسمه فرات ابن شحاتا وكانت حاضراً ، فقال له المنصور : « ما تقول يا فرات ؟ » فأشار عليه بما يراه .

وبلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيراً ، فانكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا : « يا سيدنا ذمي » فقال : « نعم ، ولكن صلاح بدني وقوامه به ، وصلاح المسلمين بي ، فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا : « صدقت يا امير المؤمنين ! »<sup>(٢)</sup> . اما المأمون فلفظه واكرامه العلماء اشهر من ان يذكر .

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون ايدي اطبائهم في دورهم ، ويستشيرونهم في مهام امورهم الادارية والسياسية ، وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني ، وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً ، وكان سلمويه حاضراً ، امره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كانت يرد على الأمراء والقواد من خروج امر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد<sup>(٣)</sup> ومن ادلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتمه الخليفة ، ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبي » وكان اذا قرب الفصح او غيره من اعياد النصراني اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقم في كنيسها ويتقرب ، ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : « تشير علي بعدك بما يصلحني ؟ » فأشار عليه بيوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من اكل الطعام يوم موته ، وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصراني الكامل ، ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته<sup>(٤)</sup> .

١ - طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .

٢ - طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ .

٣ - طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١ .

٤ - طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ .

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديهم والاحسان اليهم ، وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة<sup>(١)</sup> وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء وقوف ، كما كان شأن ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله<sup>(٢)</sup> . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم ، وهم اول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح ابدانهم ، ويختارون لهم الأطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء إلا باذن طبيبه ، فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسراييل بن الطيفوري ، فغضب اسراييل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة ٥٠٠٠٠ درهم<sup>(٣)</sup> وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المأمون بعد الصلاة ، فيغسل اجفانه ويكحل عينيه ، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك<sup>(٤)</sup> .

وطبيعي ان يأنس الانسان بطبيبه ويكرمه ، وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر ، والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن اقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقتلوا الخليفة بالسم ، وذلك حين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً في مال او منصب ، فكانوا يبذلون الجهد في ان يلاؤا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم ، كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه ، فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعاً سنياً وقرر له جارياً وخلع عليه ثم قال له : « اريد ان تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله سراً » فقال حنين : « ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فان احب ان امضي وانعلم فعلت » فقال : « هذا شيء يطول بنا » . ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ، ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً وهدده بالقتل فقال : « لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم » فتبسم المتوكل واخبره انه اراد امتحانه<sup>(٥)</sup> .

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبايهم النصارى او غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم<sup>(٦)</sup> ويكرمون اهل تلك الاديان من اجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئياً ،

١ - ابو الفرج ٢٤٩ . ٢ - طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١ .

٣ - طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ . ٤ - طبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .

٥ - ابو الفرج ٢٥١ . ٦ - طبقات الاطباء ١٩٠ ج ١ .

فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصائبة في مدينة السلام . وقبلما كانوا يريدونهم على الاسلام إلا نادراً ، كما اراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم اسلم خوفاً منه . علي ان الصائبة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين ، كما كانت يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في ايام عز الدولة ، ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل ، لأنه كان متمسكاً بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها<sup>(١)</sup> :

أرأيت من حملوا على الاعواد      أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟

ولم يمنعه شرفه في الاسلام من هذا الرثاء . ويدل ذلك على ان التعصب او التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الأمر والنهي ، فاذا كان الامير معتدلاً او متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً على الخصوص اهل الخلفاء واهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان يأخذ العلم عن نصراني ، حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد اخذ بعض علمه عن نصارى حران<sup>(٢)</sup> وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم<sup>(٣)</sup> .

أما بذل الاموال للأطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ، ومن مراجعة ثروة جبريل ابن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلاً عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب ، فان المأمون امر ان كل من يتقلد عملاً لا يخرج الى عمله إلا بعد ان يلقي طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

أفي طبك يا جبريل      ل ما يشفي ذوي العلة ؟  
غزال قد سبى عقلي      بلا جرم ولا زلة<sup>(٤)</sup>

فكيف لا يزهو العلم ويزهر ويشمر في ظل هؤلاء ؟

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية ، بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم ، فالدولة الفاطمية بمصر كان اكثر اطبائها من النصارى واليهود والسامريين ، وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية ، فكانوا يغدقون عليهم الاموال ، ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بالقباب الشرف ، كسلطان

١ - ابن خلكان ١٣ ج ١ .      ٢ - ابن خلكان ج ٢ .  
٣ - ابن خلكان ١٣٣ ج ٢ .      ٤ - طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ .

الحكام وامين الدولة ومعتمد الملك<sup>(١)</sup> ويخاطبونهم كما يخاطبون الأمراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانياً اسمه منصور بن مقشّر ، فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب ، فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبينا - سلمه الله - سلام الله الطيب ، واتم النعمة عليه . وصلت اليها البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة ، واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته<sup>(٢)</sup> .

ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس ، فقد كان للطباء والعلماء في ايام الحكم المستنصر ابن الناصر ما كان لهم في ايام المأمون لمشابهة بين الخليفتين ، فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جماعاً للكتب كما سيأتي . على ان حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء واختلاف العصور .

### انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكن العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى اخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها . وكان اشتغالهم في بادئ الرأي على سبيل التلخيص او الشرح او التعليق ، حتى اذا نضج قديهم وانتشرت العلوم في البلاد - للاسباب الآتية - اخذ المسلمون في التأليف من عند انفسهم ، وبعد ان كانت العلوم في القرنين الأولين نقلية انما تحتاج الى الادخار في الذاكرة ، اصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتكيب .

وكانت بغداد كعبة العلم ومحج العلماء ومنبت اهل الفضل ومقر نقلة العلم في اثنائه النهضة العباسية ، وخصوصاً في ايام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاثراك ، وظهرت منهم الاساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ، ولكن المعتصم كان على مذهب اخيه المأمون في الاعتزال واکرام الشيعة ، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في ايام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع<sup>(٣)</sup> .

فلما توفي الواصل سنة ٢٣٣ هـ خلفه اخوه جعفر المتوكل ، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى امر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه ، وكان كثير الاستهزاء بعلي<sup>(١)</sup> وكان يحالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواصل من الاعتقاد ، فأبطل القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء ، وعاقب عليه ، وامر بالرجوع الى التقليد . ونصر السنة والجماعة ، وامر الشيوخ والمحدثين بالتحديث ، فانحط علم الكلام بعد ان بلغ رونقه في ايام الرشيد وخلفائه ، فأخذ في التقهقر في ايام المتوكل ، لأنه كان شديد الوطأة على اصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . واخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم ، فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم واهله ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم<sup>(٢)</sup> . ومن اشهر حوادث نقمته على خدمة العلم ، انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وقتل ابا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت<sup>(٣)</sup> وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب ، واخذ منه مالا وجوهراً وأمر أن يصفع كل يوم ، فأحصى ما صفع به فكان ستة آلاف صفقة<sup>(٤)</sup> .

ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧ هـ ، قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت احوال الخلافة واستفحل شأن الأتراك ، فنفرت قلوب طلبة العلم واكثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ، ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء — بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة — مما بعده — انما نبغوا خارج بغداد ، وفيهم اطباء وفلاسفة ومهندسون ومتكلمون واصحاب المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم .

فكان مركز الطب والطبيعات والفلسفة — عند ظهور الاسلام — في الاسكندرية ، ثم انتقل في ايام عمر بن عبدالعزيز في آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الاسلامية في اول الاسلام في المدينة ، ثم انتقل الى البصرة ، ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ، ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة ، فأصبحت بغداد ام المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت احوال الخلافة في ايام المتوكل ، ثم لما نشأت الدول الجديدة في انحاء المملكة

١ - ابو الفداء ٤٠ ج ٢ . ٢ - تاريخ المشاركة ( خط ) .

٢ - ابو الفداء ٤٣ ج ٢ . ٣ - المسعودي ٢٦٩ ج ٢ .

الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء ، تفرق العلماء واصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد اولا الى العراق المعجمي ، فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما إليها من المغرب والاندلس .

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر ، لأنها ورثت دول المشرق في ذلك ، فأصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء ، واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء<sup>(١)</sup> وهي في ذلك وفي غيره مدينة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون ، دخلا في ايام الحكم بن هشام<sup>(٢)</sup> . واما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبد الرحمن الاوسط المعاصر للمأمون وازدهت في ايام الحكم بن الناصر<sup>(٣)</sup> أما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق ابن عمران ، اصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه<sup>(٤)</sup> في اوائل القرن الثالث . على ان اطباء الاندلس ومصر ما زالوا حيناً من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد<sup>(٥)</sup> . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد . ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام .

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ، ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذربيجان وما وراء النهر ، وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من اسباب الثروة ولأنها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من اهل العلم المسلمين ، فضلاً عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة .

على ان اكثر العلماء غير المسلمين ، الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة ، كانوا يتقاطرون اليها من انحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . اما المسلمون فالغالب ان يكون ظهورهم خارج العراق ، ولا سيما وان اكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية ، في ترغيب اهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازي من الري ، وابن سينا من بخارى في تركستان ، والبيروني من بيرون في بلاد السند ، وابن جليل النباقي من اهل

١ - نفح الطيب ٢١٧ ج ١ .  
٢ - نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢ .  
٣ - طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ .  
٤ - طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢ .  
٥ - طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢ .

الاندلس ، وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب واقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النبائي وكلهم من الأندلس .

اما مصر فأكثر أطباؤها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين ، وقد نبغ فيها ابن الهيثم من اهل الفلسفة والطبيعات ، وعلي بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ، ورشيد الدين ابو حليقة الطبيب الفيلسوف ، وضياء الدين بن البيطار النبائي الشهير . اما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف ، وابو المجد بن ابي الحكم ، وشهاب الدين السهروردي ، وموفق الدين البغدادي الرحالة ، ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والأمراء في الطب والفلسفة وغيرهما ممن نبغ في الشام .

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية ، كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء ، فانهم مع بقاء بغداد أهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها ، والقايم تدل على اماكنهم ، كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزابادي والحوي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم .

## الخلفاء والامراء والعلم

### اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء بأهل العلم وحاسنهم ، وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه ، واذا كان الملك او الامير عالماً زها في ايامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة في الاسلام ان يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ، ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالين بها ، يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين ، وتطرقوا من ذلك الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض ، والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق ، واحاط بهم اهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس ، واطلموا على شيء من تلك العلوم ، تأقت انفسهم اليها واشتغلوا بها ، وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والأمراء ، فنبت من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء ، انتظموا في سلك اهل العلم الطبيعي فضلاً عن الأدبي .

واعلم خلفاء بني العباس المأمون ، فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ، ويقابله في الدول الإسلامية الأخرى الحكم المستنصر بن الناصر الأموي في الأندلس ( توفي سنة ٣٦٦ هـ ) والحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر ( توفي سنة ٤١١ هـ ) أما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جامعاً للكتب يبذل الأموال في استجلائها من الاقطار . وأما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبني مرصداً وأنشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كانت عبدالرحمن الأوسط أمير الأندلس المتوفي سنة ٢٣٨ هـ<sup>(١)</sup> وهو أول من وصلت إليه كتب الفلسفة من أمراء الأندلس وأطلع عليها وتظاهر بها ، اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . أما قبلهما فلم يكن أحد من الخلفاء يعرف الفلسفة ، وإذا عرفها فلا يحسر على التظاهر بها ، ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشغلون بها ، كما فعل المنصور والرشيد . أما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي .

أما الأدب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما ، وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . أما الأدب فقد كان السفاح تعجبه المحدثات ومفاخرات العرب من نزار واليمن<sup>(٢)</sup> وكان المنصور صاحب اخبار وآداب وله كتاب فيها<sup>(٣)</sup> وكان الهادي يحالس الأدباء يقصون عليه الاخبار والاشعار . وابن المعتز أول من ألف في علم البديع<sup>(٤)</sup> وأبراهيم بن المهدي كان من عليّة اهل الأدب والشعر . ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب ، وبني عباد في الأندلس ، وبني بويه في بغداد .

وكان هؤلاء الخلفاء أو الأمراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء : يحيى بن خالد وزير الرشيد ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر ، وكذلك كان أكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها .

وإذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو إذا كثرت العلماء في عصره وزها العلم على يده ، لأن الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصاً في الحكم المطلق ، لأن الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه . قال اسامة بن مقل : « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت الف رسالة والف خطبة طالباً للحظوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وایام العرب يدني اهلها ويحيزهم عليها ، فلم يبق شيء من الاسمار او الاخبار إلا حفظته طلباً للقربى منه ، وكان موسى

١ - نفح الطيب ١٦٤ ج ١ .  
٢ - المسعودي ١٥٩ ج ١ .  
٣ - البيان والتبيين ١١٤ ج ٢ .  
٤ - ابن خلكان ٢٥٨ ج ١ .



المهادي مغرمًا بالشعر يستخلص اهله ، فما تركت بيتًا نادرًا ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته ، ولم ار شيئاً ادعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها « (١) » .

### بأليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فالأمايون لولا حبه العلم واحرازه شيئاً منه لم يقدم على ترجمة الكتب ، وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة ، وهو الذي امر الفراء بجمع اصول النحو واخلاه في غرفة واطلق له الاموال (٢) فزها العلم في ايامه وخصوصاً الفلسفة لأنه كان يحبها . وما من امير ولا ملك يحب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله ، والفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يميزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة (٣) وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله (٤) والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور ابن اسحق ، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم ، فقصدوه من كل بلد وصنفوا له « كتاب الايضاح » في النحو و« كتاب الحجة » في القراءات و« كتاب الملكي » في الطب و« التاجي » في تاريخ الديلم وغيرها (٥) وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للمقتدي بأمر الله (٦) وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء ، فقد الف الحريري مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد (٧) والف جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب صاحب بن عباد لمحبه له . وقس على ذلك كثيرين الفوا الكتب بأسماء الخلفاء والامراء او الوجهاء . والغالب ان يكون الغرض من ذلك الطمع في العطايا الوافرة ، وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي اثنى على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار (٨) والفردوسي نظم الشاهنامه للسلطان محمود الغزنوي على ان يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠٠٠٠ بيت .

- 
- |                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| ١ - كتاب البلدان للهمداني . | ٢ - طبقات الادباء ١٢٧ .     |
| ٣ - ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ .     | ٤ - المسعودي ٢٤١ ج ٢ .      |
| ٥ - ابو الفداء ١٢٨ ج ٢ .    | ٦ - طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ . |
| ٧ - الفخري ٢٧٤ .            | ٨ - ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .     |

على انهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطاً ، وانما كانوا ينظرون فيها نفعاً نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها ، فأبو بكر الرازي الطبيب الف للمنصور بن اسحق المذكور كتاباً في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بألف دينار ، ولكنه طالبه بإثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور : « ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ! » ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وارجمه الى بغداد<sup>(١)</sup> .

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم ، وخصوصاً في الاندلس بعد ذهاب دولة بني أمية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء ، وكان اكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ويجب ان يشهر عنه ذلك وخصوصاً عند مباديه في الرئاسة<sup>(٢)</sup> ، وكانوا يتباهون ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني . وكانت العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون ، وربما ابى الشاعر ان يمدح الملك إلا بمال معين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون ، وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف كتاباً باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى ان ابا غالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفي سنة ٤٣٦ هـ ، لما الف كتابه في اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوباً وكساء ، على ان يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره : « هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لأبي الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال : « كتاب الفته ليتنفع به الناس واخذ فيه همي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسنت انفتته واضعف له العطاء وقال : « هو في حل من ان يذكرني فيه لا نصده عن غرضه<sup>(٣)</sup> » .

على ان بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لأبنائهم واخوانهم واصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجراً ، وقد يؤلفون لأنفسهم ، ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب الحيوان للدميري قوله : « هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه » .

١ - ابن خلكان ٧٨ ج ٢ . ٢ - نفح الطيب ١٠١ ج ١ .

٣ - نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١ .

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم ، من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مجالس الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها ، وفي الآداب على تنوع وجهاتها ، وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون انعلم على اولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواربهم وسراربهم . وكانوا يعلمون الجوارب ويثقفونهم ويحفظونهم القرآن ويروونهم الأشعار والأخبار ويعلمونهم النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهم . وقد كان عند زبيدة ام الأمين مائة جارية يحفظن القرآن ، وكانت يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة<sup>(١)</sup> حتى الخنايث فقد كانوا يؤدبونهم ، وكان في قرطبة في اوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتبان الخنايث ممن اخذ من الأدب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات<sup>(٢)</sup> .

واغرب من ذلك بذلم الاموال للمطالعين ، فضلا عن المؤلفين ، فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغب الادب ، فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزخشمري مائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة كبيرة<sup>(٣)</sup> وهذه منقبة لم يسمع بمثلا .

## المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم ، وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاعنياء والفقراء ، وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسراني والهنود والترك والديلم والقبط ، وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في انحاء العالم المتمدن يومئذ ، في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان ، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم ، ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام ، كالالاقتصاد السياسي ، وفلسفة التاريخ ، والموسوعات التاريخية ، والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين .

١ - ابو الحسن ٦٣٢ ج ١ . ٢ - نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ . ٣ - ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى أصبحت تعد بعشرات الالوف ، ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤٥٠١ غير الشروح والتعليق ، وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها ، وما كان يحرقه ولاة الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها ، اضطهاداً لأصحابها كما سيجيء ، حتى ذهب معظم ما ترجموه او الفوه ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

ولا ريب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء ، كالمسعودي والطبري وابن الأثير وغيرهم ، ذكروا في مقدمات كتبهم كثيراً من أسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد أسماءها في الفهارس .

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف ، فمؤلفات ابي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ، ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ، ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ، ومؤلفات الكندي ٢٣١ ، ومؤلفات القاضي الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في الموضوعات المختلفة ، كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا ، وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس<sup>(١)</sup> وقد عدت مؤلفات جمال الدين العيني الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس<sup>(٢)</sup> .

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات ، فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات خصوصاً كتب التاريخ ، فكتاب مرآة الزمان لسبط بن الجوزي اربعون مجلداً ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً ، والاغانى عشرون مجلداً ، وابن الاثير ١٢ مجلداً ، ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري فانه بلغ ستين مجلداً<sup>(٣)</sup> وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال ، فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغانى الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات<sup>(٤)</sup> وربما اختلف ذلك باختلاف الموضوعات .

١ - نفح الطيب ٣٣١ ج ١ .  
٢ - ابن خلكان ٢٩٧ ج ١ .  
٣ - نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ .  
٤ - ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٠ .

والغالب في المؤلفات الكبرى عندهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ، ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وادبائه ، والاغاني في الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وآدابهم في الجاهلية واولئل الاسلام ، والعقد الفريد كتاب في الأدب ، ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها ، وقس على ذلك سائر كتب التراجم او التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا ، فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كاللتشريح والفسولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها ، وكذلك كتاب الرازي . وقد يجمع الكتاب الواحد موضوعات متباعدة ، ككتاب حياة الحيوان للدميري ، فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات ، والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا في فنون متناقضة ، كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها .



## تأثير الإسلام في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام ، عنى المسلمون بدرسها ونسخ منهم جماعة فاقوا اصحابها وادخلوا فيها آراء جديدة ، فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الأمم الاخرى ، فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي . فلما نهض اهل اوربا الى استرجاع علوم اليونان ، اخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية . فلنبحث فيما اثره التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم .

### ١ — الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو ، وما علقه عليها اليونان من الشروح و اضافوا اليها من الآراء ، وهي تشمل المنطق والطبيعات والالهيات والاخلاق . فبدأ المسلمون اولاً بدرس هذه الكتب ، ثم اخذوا في شرحها او تلخيصها ، ثم عمدوا الى الكتابة في تلك الموضوعات من عند انفسهم . ويندر ان يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم ، او في الطب دون الفلسفة والنجوم ، او بالعكس . ومن اقوال حنين : « ان الطبيب يجب ان يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه .

### الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي ، وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصل نسبه بملوك كنده ولذلك سموه فيلسوف العرب . فبعد ان كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال بالعلوم حتى

الاسلامية ، وبعد ان عملوا على اباده ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس ،  
اصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى بالعلوم الفلسفية الدخيلة . وأول من اشتغل  
بها منهم ابناء ملوكهم . كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل ، وكانت له  
عندهم منزلة سامية ، وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالخان والهندسة  
وطبائع الاعداد وعلم النجوم ، وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره ، وحذا في  
تأليفه حذو ارسطوطاليس ، وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه ، وكان يعد من حذاق  
التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة  
كتباً كثيرة ، ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

في الفلسفة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣	كتاباً
» الحساب	١١	»	» الكريات	٨	كتب
» النجوم	١٩	»	» المنطق	٩	»
» الهندسة	٢٣	»	» الموسيقى	٧	»
» الفلكيات	١٦	»	» الأحكام	١٠	»
» الطب	٢٢	»	» النفس	٥	»
» الجدل	١٧	»	» الأبعاد	٨	»
» السياسة	١٢	»	» مقدمة المعرفة	٥	»
» الأحداث	١٤	»	المجموع كله	٢٣١	

واكثر هذه الكتب قد ضاع . ويتضح من مراجعة اسمائها ان الرجل كان كثير النضلع  
في هذه العلوم ، حتى انتقد اصحابها وخطأهم . وللكندي تلامذة حذوا حذوه .

ويليه ابو نصر الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩ هـ ، أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي  
المنتسب<sup>(١)</sup> وقد نشأ في الشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل ما درسه  
الكندي من العلوم ، وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق ، وتعمق في الفلسفة والتحليل  
والنحاء التعاليم ، وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها ، والف كتباً في موضوعات لم يسبقه احد  
اليها ، ككتابه « في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها » وهو اشبه بقاموس علمي على  
شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه احد قبله ، وكتاب « السياسة المدنية » وهو

الاقتصاد السياسي الذي يزعم اهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم ، وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ، ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى اصبحت لا يضاهيه فيه احد ، واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى ، واصلاح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني<sup>(١)</sup> .

ومن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفي سنة ٤٢٨ هـ ، وله من المؤلفات نحو مائة كتاب منها ٣٦ في الفلسفة فقط . ومنهم ابو حامد الغزالي الملقب بحجة الاسلام المتوفي سنة ٥٠٥ هـ ، وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس ، وسيأتي ذكرهم . على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم .

اهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وأيدوه بها ، لتقوى حاجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه ، وخصوصاً المعتزلة ، واشتهر به جماعة من علية القوم ، وفي جملتهم الشريف المرتضى والزنجشيري والباقلاني وغيرهم .

واما الفلسفة في حد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر ، وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ، ومن اقوالهم : « كان فلان - سأل الله - يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبية عليه »<sup>(٢)</sup> وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة ، حتى في ايام المأمون ، ولذلك سماه بعضهم امير الكافرين<sup>(٣)</sup> ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك ، حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق ، وتولى المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها ، او ينكرونها وهم كلفون بها ، فكانوا يشتغلون فيها سرّاً فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية .

١ - كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ .

٢ - ابن خلدون ١٣٤ ج ٢ .

٣ - البغوي ٥٤٦ .



## جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا ، تألفت في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة ، ذكروا من اعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالقدسسي ، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعه<sup>(١)</sup> وكانوا يجتمعون سرّاً ويتباحثون في الفلسفة على انواعها ، حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنس بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتماعية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا ، وكتبوا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها ، وتشمل : النظر في مبادئ الموجودات ، واصول الكائنات الى نضد العالم ، فالهولي والصورة ، وماهية الطبيعة ، والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، واوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة ، والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وطبيعة العدد ، وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، والاكوار والادوار ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، واجناس الحركات ، والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم . . وبالجمله فقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او اهي او عقلي . وبين ايدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يصل اهل هذا الزمان الى احسن منها . وفي ذيل ذلك الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصديق المودة والشفقة ، وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك .

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً الى بلاد الاسلام ، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يد أبي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة ، رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين. فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس<sup>(١)</sup> فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها اصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها .

### فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في ايام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم ، وقد اخذ الاندلسيون بشيء منها ، وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم ، واولهم ابو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة توفي في اواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمين المتوفي سنة ٣١٥ هـ ، وابو القاسم مسلمة ابن احمد المعروف بالمرجيطي او المجريطي من اهل قرطبة ، كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ ، وانجب تلامذة جلة ، اشهرهم ابن السمع المهندس الغرناطي ، وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة ، والزهرابي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان ، وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره ، فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ، ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ .

على ان هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم ونحوها ، اما الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن اهل الاندلس بها إلا بعد دخول رسائل اخوان الصفا ، وكان المستنصر بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ، ولكنهم لم ينبغوا فيها إلا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنبغ ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفي سنة ٥٢٣ هـ ، ويعرف بابن الصائغ ، ومن تلاميذه القاضي ابو الوليد بن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفي سنة ٥٩٥ هـ ، نبغ ايضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد ألفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذها الافرنج قاعدة لفلسفتهم في اوائل نهضتهم .

على ان اولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة ، شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم ، فما من ملك إلا نقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن اشهر الحوادث من هذا القبيل نعمة المنصور بن عامر صاحب الاندلس ، في اواخر القرن السادس للهجرة ، فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم ، وفي جملتهم ابن رشد وابو جعفر الذهبي وابو عبدالله قاضي بجة وغيرهم<sup>(١)</sup> وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده ، فأمر بإحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها ، واصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة او التنجيم اطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه ، فان زل في شبهة رجوه بالحجارة او احرقوه . اما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سرّاً ، وربما امر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقريباً من قلوب العامة ، ويكون هو نفسه يحبها<sup>(٢)</sup> .

## ٢ - الطب في الاسلام

### الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الامم المتقدمة قبل الاسلام . لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من اطباء اليونان ، واطلموا على ما كان عند السريان من الطب اليوناني المزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ، ونقل اليهم اطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغة الفارسية ، واطلموا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من اطبائهم ، غير ما كان عند العرب في ايام الجاهلية وتنوّل في الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي ، الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي ( او الملوكي ) لأبي بكر الرازي الملقب بجالينوس العرب ، الفه للملك عضد الدولة بن بويه ، وجمع فيه كل ما وجده متفرقاً من ذكر الامراض ومداوتها في كتب القدماء الى زمانه في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وللرازي من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شيء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكي حتى ظهر القانون لابن سينا ، وهو منشور ومشهور الى اليوم ، واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس في الطب والصيدلة ، وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود

والفرس والعرب في الأمراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض ، لأنك تقرأ في اماكن كثيرة منه تفصيلاً لأراء الهنود وانتقادات واستحسانها . ومما ذكره من طبهم مثلاً انهم وصفوا انواع العلق واشكاله وخصائص كل منها<sup>(١)</sup> ومن آرائهم ان اكل اللبن مع الحوامض او السمك يورث امراضاً منها الجذام . وقولهم ان لا يؤكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن او نحو ذلك<sup>(٢)</sup> فاهيك بالعقاقير الهندية التي تدل اسمائها على اصلها .

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضتهم الاخيرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من اهل القرن الخامس للهجرة ، وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحي ، وكتاب التيسير لعبد الملك بن زهر الاندلسي الفه لابن رشد الفيلسوف في اواسط القرن السادس للهجرة . واطباء المسلمين كثيرون ، وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا .

### الاطباء المسلمون

ولو احصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر ، أي في اثناء ثلاثة او اربعة قرون ، ل زاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا اسمائهم على بضع مئات ، واكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة والفوا الكتب العديدة ، وترى ذلك مفصلاً في طبقات الاطباء لأبن ابي اصيبعة ، وتراجم الحكماء لابن القفطي ، وكتاب كشف الظنون وغيرها . اما عدد الاطباء على الاطلاق فما لا يمكن حصره لضياح ذلك مع الزمان ، وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جداً . فقد احصوا اطباء بغداد وحدها في زمان المقتدر بالله في اول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب ، سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة<sup>(٣)</sup> فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب معاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد اطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً<sup>(٤)</sup> . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيباً ، ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطية علمين ، ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطية ثلاثة علوم<sup>(٥)</sup> .

١ - القانون ١٠٧ ج ١ . ٢ - القانون ٨٤ ج ١ .  
٣ - طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ . ٤ - طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١ .  
٥ - طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ .

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يتمتعهم ويميز من يرى فيه الكفاءة للطبيب، واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال نحو ذلك في الصيدالة ، فقد كانوا كثرأ وتفشى الغش في الأدوية حتى اضطر اولو الأمر الى الامتحان واعطاء الاجازات او المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين . واول من فعل ذلك الافشين في بغداد ، فقد وكل زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره<sup>(١)</sup> وكان من الاطباء او الصيدالة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء ، وهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزين .

وكان الاطباء طبقات وأصنافاً ، وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسناني ، ومن يعالج النساء والمحاضي فقط او يطيب المجانين فقط . على نحو الاطباء الاخصائيين في هذه الايام . وكان الكحالون في مصر اكثر منهم في سواها لتعرضهم لأمراض العين ، وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدر العين على نحو عملية الكثر كتنا اليوم .

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب ، منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها ، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي واهله ولا يقبل المنصور سواهما<sup>(٢)</sup> واشتهر في ايام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طيبة بني أود ، كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة<sup>(٣)</sup> فضلا عن اشتهر منهن بالعلم والادب ، كشهادة الدينورية وبنت دهن اللوز الدمشقية وغيرهما .

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض . فيأتي المريض ومعه قارورة الماء ، اي زجاجة البول ، فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ، ليتحقق وجود الحوامض او القوايض او السكر فيها ، ثم يحس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض ، لاعتقادهم ان النبض يدل على مزاج القلب ، والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم .

١ - ابو الفرج ٢٤٤ . ٢ - طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ .

٣ - طبقات الاطباء ١٢٣ ج ٦ .

## ما الذي أحدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر فيما أحدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة ، والحكم في ذلك يستلزم درساً لا يسعه هذا المكان . على اننا نقول باختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم ، و اضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة ، كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية ، فأنهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس أو ابقراط مثلاً وينتقدونه ويبيّنون وجه الخطأ وصوابه<sup>(١)</sup> . فضلاً عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها ، كما فعل ابن أبي الاشعث بكتب جالينوس ، فأنه رتبها وروّبها وفصلها تسهيلاً لمطالعتها<sup>(٢)</sup> غير ما أحدثوه من الشروح والذيل لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جليل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء .

أما ما أحدثوه من عند انفسهم رأساً فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها ، فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك انهم أحدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الأمراض ، وان لم يصلنا الا خبر القليل منها ، مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة ( على اصطلاحهم ) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، وذلك على غير ما سطره القدماء . وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها واخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ ابو منصور صاعد ابن بشر الطبيب في بغداد ، فانه اخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء ، فأفجع تدبيره فعيّنوه رئيساً للمارستان العضدي ، فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ، ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور ، فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده<sup>(٣)</sup> .

والعرب اول من استخدم المرقد<sup>(٤)</sup> « البنج » في الطب ، يقال انهم استخدموا له الزوان أو الشليم ، وهم اول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء .

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وانهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المصدورين ، ووصفوا

١ - القانون ٢١ ج ٣ . ٢ - طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١ .

٣ - طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ . ٤ - ابن خلسكان ٣١٢ ج ١ والانسكلوبيدي .

علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدسح العين ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة .

وقد الف العرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق احد الى مثله . فالجذام اول من كتب فيه اطباؤهم ، واول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه وهم اول من وصف الحصبة والجذري بكتاب لأبي بكر الرازي ، غير ما الفوه من الموسوعات الضافية في الطب .

### الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة ، وللعرب فضل كبير فيها . فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من ايام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ، ثم نبغ منهم الاطباء والصيدالة ، ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير ، وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عني الافرنج بعد نهضتهم الأخيرة بدرس تاريخ فن الصيدلة ، فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هذا الفن ، وهم اول من اشتغل في تحضير الادوية او العقاقير ، فضلاً عما استنبطوه من الادوية الجديدة . وانهم اول من الف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا<sup>(١)</sup> وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيدالة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفي سنة ٢٥٥ هـ . حتى ظهر اقرباذين امين الدولة بن التلمذ المتوفي في بغداد ٥٦٠ هـ . وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ، ولا تزال عندهم باسمائها العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية<sup>(٢)</sup> .

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ، ولا خلاف في ان العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجارهم ومستحضراتهم . وقد تقدم ان اول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد ، نقلها عن مدرسة الاسكندرية ، وعنه اخذ جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٠ هـ ، وبعده جابر بن حيان ، ثم الكندي ، فابو بكر الرازي وغيرهم ، فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء

الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة ( الحامض النتريك ) ، وزيت الزاج ( الحامض الكبريتيك ) ، وماء الذهب ( الحامض النتروهيديروكلوريك ) ، واكتشفوا البوتاسا ، وروح النشادر ، وملحه ، وحجر جهنم ( نترات الفضة ) ، والسلياني ( كلوريد الزئبق ) ، والراسب الاحمر ( اكسيد الزئبق ) ، وملح الطرطير ، وملح البارود ( نترات البوتاسا ) ، والزاج الاخضر ( كبريتات الحديد ) ، والكحول ، والقلي ، والزرنيخ ، والبورق ، وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل اليها خبرها . على اننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في ايامهم ، بما لم نسمع له بمثيل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي . فقد اشار ابن الأثير الى ادوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ ، اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه <sup>(١)</sup> ولم يذكر ما هي . وبما يعد من قبيل الكيمياء أيضاً البارود ، فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه <sup>(٢)</sup> وهم أول من وصف التقطير ، والترشيح ، والتصعيد ، والتبلور ، والتذويب . وقد الفوا في ابطال الكيمياء القديمة - اول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في اواسط القرن الثالث للهجرة <sup>(٣)</sup> .

وأما النبات فللعرب القدر المعلى في درسه والتأليف فيه ، وقد أخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل ، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية ، فالعقاير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالاً على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة ، فانتفع به الناس الى ايام الناصر صاحب الاندلس في اواسط القرن الرابع للهجرة . فكتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية «مصور الحشائش» بالتصوير الرومي العجيب ، ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية ، فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلاً يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية ، وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاير هذا الكتاب ، ثم جاء ابن جلجل في آخر القرن الرابع فألف كتاباً فيما فات ديسقوريدس ذكره من اسماء العقاير والأدوية وجعله ذيلاً على ذلك الكتاب .

١ - ابن الاثير ١٥١ ج ٧ . ٢ - اهلل ، السنة العاشرة صفحة ٨٧ .

٣ - كشف الظنون ٣٤١ ج ٢ .



حقى اذا نبغ ابن البيطار الملقبى النبائى فى اواسط القرن السابع للهجرة ، تناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ، ثم سافر الى بلاد اليونان ، والى اقصى بلاد الروم ، ولقى جماعة يعاونون هذا الفن ، واخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه فى مواضعه ، واجتمع ايضا وغيره بكثير من علماء النبات وعابن منابته بنفسه ، وذهب الى الشام ودرس نباتها ، وجاء الديار المصرية فى خدمة الملك الكامل الايوبي ، وكان يعتمد عليه فى الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيساً على العشابين واصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار ألف كتابه فى النبات ، وهو فريد فى بابهِ <sup>(١)</sup> وكان عليه معول أهل أوروبا فى نهضتهم الاخيرة .

ومن المبرزين فى علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب « الادوية المفردة » ، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش فى منابتهما ، ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه الى المواضع التى بها النبات فى لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة <sup>(٢)</sup> وذلك غاية ما يفعله الباحثون فى هذا العلم اليوم .

### المارستانات فى الاسلام

المارستان أو البيارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ، ولكن المارستانات كانت فى التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً ، لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وأنشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره .

وأول من أنشأ المارستانات فى الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي ، أنشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨ هـ . جعل فيه الأطباء وأمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الأرزاق <sup>(٣)</sup> فانقضت الدولة الأموية وليس فى الاسلام غير هذا المارستان ، فلما حكم العباسيون كان المنصور اول من استقدم الأطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ، ولم ينشأ مارستاناً

٢ - طبقات الأطباء ٢١٩ ج ٢ .

١ - طبقات الأطباء ٣٣ ج ٢ .

٣ - القرطبي ٤٠٥ ج ٢ .

ولكنه انشأ داراً للغميان والايتام والقواعد من النساء<sup>(١)</sup> وانشأ هو أو من خلفه دوراً لمعالجة المجانين<sup>(٢)</sup> .

وأول من انشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد ، فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من اطباء مارستان جنديسابور ، اراد أن يكون لبغداد مثل ذلك ، فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيباً هندياً اسمه دهشتك ، فبعث اليه ليقبله مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ، ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه<sup>(٣)</sup> وكان البرامكة اهل علم ولهم رغبة في طب الهند واطبائه كما رأيت ، فانشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن ، وهو ممن نقل الى العربية من اللسان الهندي رأساً<sup>(٤)</sup> .

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدها في سائر اسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد انشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر ، فلما تولاه ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩ هـ ، مارستاناً عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠٠٠ دينار ، وشرط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم ، وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساء احد المجانين فقطع الزيارة<sup>(٥)</sup> .

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرها . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها ، منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه ابا عثمان الدمشقي<sup>(٦)</sup> ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة اشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر ان يتخذ مارستاناً ينسب اليه ، فأمر فبنوا له بباب الشام من ابواب بغداد المارستان المقتدري ، وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر وبنى ايضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستاناً بدرب الفضل عرف باسمه<sup>(٧)</sup> وبنى غيرهم

١ - ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ . ٢ - الكشكول ٢١٣ .

٣ - طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ . ٤ - الفهرست ٢٤٥ .

٥ - المقرئ ٤٠٥ ج ٢ . ٦ - طبقات الاطباء ٢٤٣ ج ١ .

٧ - طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١ .

مارستانات اخرى في الري ونيسابور وغيرهما . وفي اواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر . ثم انشا عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨ هـ على ضرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ، ورتب له ٢٤ طبيباً فيهم الجراحون والكهارل والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ، ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات ، وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور » .

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في اواسط القرن السادس ، ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره . ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق ، وصفه المقرئزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خطته . ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر ، ناهيك بما انشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس ، مما يطول شرحه . وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك .

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، وفيها لكل مرض قاعة او قاعات خاصة يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى ، فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه<sup>(١)</sup> فمن شفي فيها زودوه السلام ومن مات كفنوه ودفنوه . وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان .

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال او البغال على نحو المستشفيات المتنقلة في دول هذه الأيام . فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله اربعون جملاً يستصحبه العسكر حيثما توجهوا<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - التنجيم والنجوم او الفلك

النجوم عند القدماء علمان : علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها

١ - طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ . ٢ - ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء .

واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف ، وعلم ينظر فيها باعتبار علاقاتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلاً للبحث نسمي الاول علم النجوم او الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين ، فلما تمدنوا ونقلوا العلم اضافوا الى ما اخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم ، فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين .

### التنجيم

وأول من عنى بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية ابو جعفر المنصور ، فترجموا له السند هند كما تقدم ، واقتدى به خلفاؤه واصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ، حتى في ابان العصر العباسي . وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ، ولهم الرواتب والارزاق<sup>(١)</sup> وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من احوالهم الادارية والسياسية ، فاذا خطر لهم عمل خافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك واقتراعات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل او عدمها . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل ، حتى الطعام والزيارة . على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئون ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم .

### علم النجوم أو الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه ، يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية ، شأنهم في اكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السند هند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب ، وانه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون . وفي ايامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم ، فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، فجعل اساسه على السند هند وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس ،

واخترع فيه ابواباً حسنة فاستحسنه أهل عصره وطاروا به في الآفاق ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي، فنقله مسلمة بن أحمد المرجيطي الاندلسي المتوفي سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة. والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم.

واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة، وقد تقدم ذكرهم. ومن اعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار، واستعملوا فيها محيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره. وقد ألف بنو شاكر كتباً جلية في الفلك والهندسة، ونبغ في عصرهم أبو معشر البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ، كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة، فدرس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم وألف فيه كثيراً. ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير، وثابت بن قرة الحراني المتوفي سنة ٢٨٨ هـ، وأحمد بن كثير الفرغاني، وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين، ومحمد بن عيسى الماهاني، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني، وكان صابيا اصطنع زيجاً عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية أصح. ابتداء بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ، وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ، وكان أوحده عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ<sup>(١)</sup> وغيرهم. يليهم في القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون. وامام فلكيي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي، ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد، والفخر الرازي بالموصل، والفخر الخلاطي بتفليس، ونجم الدين القزويني<sup>(٢)</sup> وغيرهم في عصور اخرى، وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون «تاريخ آداب اللغة»، وانما يهمننا في هذا المقام النظر فيما احدثه التمدن الاسلامي في علم الفلك.

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (او المسلمين) قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم<sup>(٣)</sup> ولعلمهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء، وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون

١ - الفهرست ٢٧٩ . ٢ - ابو الفرج ٥٠١ . ٣ - ابن خلدون ٤٥٧ ج ١ .

العروض ويراقبون السيارات ، ويرتحلون في طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ، ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها او يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لا يسعه هذا المكان ، فنذكر اولاً المراصد ثم نأتي على أمثلة مما استنبطوه في هذا العلم .

### المراصد

الرصد اساس علم الفلك وعليه المعول في تعيين اماكن النجوم وحركاتها ، وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطي . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم ، حتى نهض العرب وانشأوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجيء .

### آلات الرصد

وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلاً تختلف باختلاف الغرض منها ، وهاك اهمها :

(١) اللبنة : وهي جسم مربع مستو ، يستعمل به الميل الكلي وإبعاد الكواكب وعرض البلد .

(٢) الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالي .

(٣) ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل .

(٤) ذات الحلقي : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولاً . وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المسارة بالاقطاب ، تركب احدهما في الاخرى بالتصنيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محدد المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدد حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الأرض قطر محدد لها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي .

- (٥) ذات السميت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السميت وارتفاعه ، وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين .
- (٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي ، يعلم بها الارتفاع .
- (٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين .
- (٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهي ثلاث مساطر .
- (٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة ، منها : التام ، والمسطح ، والطوماري ، والهلالي ، والزورقي ، والعقري ، والآسي ، والقوسي ، والجنوبي ، والشالي ، والمبطح ، والمسطرق ، وحق القمر ، والمغني ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد<sup>(١)</sup> .

### المراصد في الاسلام

لما اشتغل المأمون في نقل علوم الأوائل الى العربية ، ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته الى السير على منهاجه ، فجمع علماء النجوم في عصره وامرهم ان يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ، ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشاسية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ هـ<sup>(١)</sup> ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره ، وخالد المروزي ، وسند بن علي ، والعباس بن سفيد الجوهري ، فألف كل منهم في ذلك زيجاً منسوباً اليه . وارصاد هؤلاء اول الارصاد في الاسلام<sup>(٢)</sup> .

ثم بنى بنو شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ، ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر<sup>(٣)</sup> وبنى شرف الدولة ابن عضد الدولة مرصداً في طرف بستان دار المملكة في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وقد رصد فيه الكواكب السبعة ابو سهل الكوهي<sup>(٤)</sup> .

١ - أيجد العلوم ٣٤٢ . ٢ - كشف الظنون ٥٧٢ ج ١ .

٣ - فوات الوفيات ١٥١ ج ١ . ٤ - ابو الفرج ٢٠٧ .

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع ، تحولت الهمم الى تلك الفروع واكبرها المملكة المصرية في ايام الفاطميين ، فأنشأ وارصداً (او مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي ، نسبة الى الحاكم بأمر الله المتوفي سنة ٤١١ هـ ، وفيه استخرج علي بن يونس الزيج الحاكمي<sup>(١)</sup> ثم اعيد بناء هذا الرصد في ايام الأفضل بن امير الجيوش المتوفي سنة ٥١٥ هـ ، وذكر المقرئ في خبر انشائه في حديث طويل . وأنشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ هـ رصداً عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه البيهقي ( كذا ) .

وما زال الراصد الحاكمي عمدة الراصدين ، حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري ، فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ ، أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وانفق فيه الاموال الطائلة ، وانشأ له مكتبة فيها ٤٠٠٠٠٠ مجلد<sup>(٢)</sup> ، ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند ، وبنى غيرهم مراصد اخرى في اصبهان ومصر والاندلس ، وارصداً خصوصية او عمومية لم يصل اليها تفصيلها .

### علم النجوم والاسلام

وفي هذه المرصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج ، واطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره ، كتبه ابن يونس في اربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعدما سبقه من الازياج البغدادية . ومن اشهر الازياج زيـج الفزاري صاحب المنصور ، وازياج الخوارزمي ، وابي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان ، وابي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس ، وزيج أبي السمع الغرناطي المتوفي سنة ٤٢٦ هـ ، وزيج أبي حماد الأندلسي ، والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي ، وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ هـ وغيرهم<sup>(٣)</sup> وقد اصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية .

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند انفسهم ، واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمات والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما ، وذات الاوتار والمشبعة بالناطق فانها من اختراع تقي الدين الراصد<sup>(٤)</sup> . والبديع الاسطرلابي البغدادى المتوفي في اوائل القرن

١ - ابن خلسكان ٣٧٥ ج ١ . ٢ - فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢ .  
٣ - كشف الظنون ١٣ ج ٢ . ٤ - ايجد العلوم ٣٤٢ .



السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد ان مرت السنون على نقصها ،  
والف رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الحندي وجعلها بعرض واحد ،  
واقام الأدلة على انها لا تكون لعروض متعددة ، فنظر فيها البديع المذكور وعملها لعروض  
متعددة ، غير ما اخترعه من المساطر والبراكير وغيرها<sup>(١)</sup> .

وادخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب ، فاستنبط ان يقع  
المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط ، فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة .  
وهو اول من اظهر هذا في الوجود ، فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح  
وفي الخط ولم يبق غير النقطة<sup>(٢)</sup> وبين البتاني نقطة الذنب للأرض ، واصلاح قيمة مبادرة  
الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء ، وهو اول من استخدم  
الجيوب والاقطار في قياس المثلثات والزوايا<sup>(٣)</sup> .

والبيروني اول من استنبط تسطیح الكرة ، وقد فصل ذلك في كتابه « الآثار  
الباقية »<sup>(٤)</sup> والبيروني استنباطات جلية في الفلك والرياضيات ، يستدل عليها من قراءة  
كتابيه المذكور من فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب . يكفيه انه نقل علوم اليونان  
الى الهند ، ونقل حكمة الهنود الى المسلمين . فقد دخل بلاد الهند واقام فيها عدة سنين ،  
وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم<sup>(٥)</sup> في ظل السلطان محمود  
الغزنوي ، كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل  
هولاكو التتري ، وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة ، ومرجع الفضل في ذلك  
للاسلام .

قطار خبر فلكي المسلمين في اقطار العالم ، واصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل ،  
فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية ، فيعرضون عليهم المسائل  
ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقرىها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى  
بمالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية . ومما نقله ابن أبي أصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج  
انفذ الى بدر الدين أولؤ صاحب الموصل رسولا وبيده مسائل في علم النجوم وغيره ، فبعث  
بدر الدين الى كمال الدين بن يونس في حلها في حديث طويل<sup>(٦)</sup> .

١ - تراجم الحكماء . ٢ - ابن خلكان ١٨٥ ج ١ .  
٣ - القبة الزرقاء ٥ . ٤ - البيروني ٣٥٧ .  
٥ - ابو الفرج ٣٢٥ . ٦ - طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١ .

ويعترف الاسبان ان العرب علموم الرقاص ( البندول ) لقياس الزمن ، ولا يخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ، ويقال ان الرشيد اهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها .

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع اصلها بعد نقلها ، وحفظت العلوم في ترجماتها العربية . منها مؤلفات تموخارس وارستولس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للجسطي<sup>(١)</sup> ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم ، حتى كتب الأدب فان كتاب كلية ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية ، وقد ضاع اصله الفارسي فلما عهد اهل اوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية .

### الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب ، لأنه من شأن عمال الخراج اهل الذمة والموالي ، وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم اولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم : « علم ابنك الحساب قبل الكتاب »<sup>(٢)</sup> ثم ما لبثوا ان استغرقوا في طلب العلم كله على اختلاف انواعه ، ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم ، وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم ، وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده .

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم . فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لأنهم نقلوها عن الهنود ، والافرنج يسمونها عربية لأنهم اخذوها عن العرب<sup>(٣)</sup> واول من تناول تلك الارقام من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوازمي<sup>(٤)</sup> ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ Algorism الافرنجية .

١ - القبة الزرقاء . ٢ - البيان والتبيين ١٢٣ ج ١ .

٣ - راجع كتابنا « الفلسفة اللغوية » ، الطبعة الثانية ١١٦ . ٤ - تراجم الحكماء ( خط ) .

واما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه ، فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية ان العرب نقلوا كتابين في الجبر ، احدهما لذوفانتوس والآخر لابرخس . وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء ، او هي اصول ضعيفة لا يعتد بها ، وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب . والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلعوا على حساب الهنود اضافوا الى ما نقلوه عن اليونان ، وبنوا على ذلك علم الجبر . ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور ، فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس واليونان . وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً . والف ايضاً في الجبر ابو كامل شجاع بن اسلم ، وابو الوفاء البوزجاني ، واكثر مؤلفاته في الحساب ، وابو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ ، وابو العباس السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم . ولما نهض الافرنج في تقدمهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب .

وبما احداثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق ، وقد فعل ذلك ابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة ، فانه الف كتاباً فيه الاصول الهندسية والعديدية من اقليدس وابولونيوس ، ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابولونيوس ، وادخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم<sup>(١)</sup> .

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها احد من الاولين ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذي توال على نسبة ( كذا ) ، وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر امرها لأنها أعيت الاولين<sup>(٢)</sup> .

## الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجاله ورونقه لا لتنفعت

ومتانته ، والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان : الأول تظهر أشكاله محسوسة كالخمر والتصوير والنحت والتمثيل ( وتسمى الآن الفنون التشكيلية ) ، والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . أو ان الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات ، ولبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها . ومن أجاد فيها المصريون واليونان والرومان ، فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان .

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون ، لأنه لم يخلف ما خلفه اليونان او الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين او العرب من اكثر الأمم استعداداً للفنون الجميلة والاجادة فيها لا يقلون شيئاً عن اليونان والرومان ، وربما فاقوها في بعضها . أما الجمال المحسوس فقد اجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ، ولهم نخط خاص فيه مشهور ، ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند ، وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء ، مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسيج ونحوها من الصنائع الجميلة . اما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرم عندهم كما هو معلوم .

أما الشعر فقد بينا فيما تقدم ان العرب اكثر الامم انطباعاً على الشعر واتقاناً له واكثرهم نظاماً واوسعهم خيالاً .

### الموسيقى

واما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها ، وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها ، وكان للموسيقى شأن كبير . والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية ، فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة ، لأن اقتباسها لا يحتاج الى نقل او ترجمة . واول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسحج ، كان حسن الصوت مفرماً بالموسيقى ، وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبدالله بن الزبير في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة ، فسمع ابن مسحج بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ، ثم رحل الى

الشام وفارس وأخذ الألحان الرومية والفارسية ، والقى منها ما استقبله من النبرات والنعيم مما لا يألوه الذوق العربي ، وغنى على هذا المذهب . وهو أول من فعل ذلك ، وأخذ عنه من جاء بعده من مغنبي المسلمين ، فنبت منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في أواخر الدولة الأموية وأواسط الدولة العباسية . ومن أشهر المغنين ابن سريج والغريص ومعبد وحكم الوادي وفيلج بن أبي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وإبراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم من المغنيات جميلة وحباة وسلامة وعقيلة وغيرهن .

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملة كتب الموسيقى لليونان والهند ، فتناولها المسلمون ودرسوها وأصبحت الموسيقى علماً عندهم بأصول ، وقد جمعوا بين الحان اليونان والهنود والفرس والعرب ، فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الإسلامي بلغ درجة حسنة من الاتقان . فألفوا فيه المؤلفات ، فضلاً عما استنبطوه من الألحان أو اخترعوه من الآلات . وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء ، يبذلون الأموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور . وكانوا يشترطون في المغني أن يكون حافظاً للأشعار والنوادر ، يحسن النحو والأعراب ، فكان المغنون في الدولة العباسية من أحسن أهل الأدب ، وفيهم من يحسن الفقه فضلاً عن الأدب واللغة ، كإبراهيم بن إسحاق الموصلي<sup>(١)</sup> وغيره وبعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني . وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين<sup>(٢)</sup> ويحيزون الجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والحواري ، فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠٠٠٠ درهم في الشهر ، غير الصلات وغلات الضياع وغيرها<sup>(٣)</sup> . ولما قدم زرياب المغني من العراق إلى الأندلس ركب الأمير عبدالرحمن بنفسه للقائه<sup>(٤)</sup> .

وقد أدخل الموسيقيون في فن الموسيقى ألحاناً لم تكن من قبل ، وفيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها الحاناً لا يقدر الشبان المعتلى على غنائها ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، وأخرى لا يقدر المتكلم أن يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم<sup>(٥)</sup> .

---

١ - ابن خلكان ٦٦ ج ١ . ٢ - حلبة الكميت ١٨٠ .  
٣ - حلبة الكميت ٦٣ . ٤ - نفح الطيب ١٦٣ ج ١ . ٥ - الأغاني ٢٠ ج ١ .

والآلات الموسيقية اخذوا اكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند ، فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها . كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، وغناء اهل خراسان بالزنج ذات سبعة اوتار ، ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء اهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط والجراجمة بالعيوارات ، وهي كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وترأ ، والسلبان له ٢٤ وترأ ، واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة اوتار ، والقيثارة ولها ١٢ وترأ والصليح من جلود العجايل ، والأرغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر واحد يد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والمزهر . فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة ، كما جمعوا بين علوم تلك الأمم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها ، فضلاً عما استنبطوه من عند انفسهم كآلة المعروفة بالقانون ، فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف ، وهو من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن .

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان ، يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها على اي حال غريبة في بابها . ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ، ولم يكن احد من الحضور يعرفه ، فعاب المغنين فسأله سيف الدولة : هل يحسن الغناء ؟ ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فقام كل من كان في المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج !<sup>(١)</sup>

وزاد المسلمون في العود وترأ خامساً ، زاده زرياب بالاندلس ، وكان للعود اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع ، فزاد عليها وترأ خامساً احمر متوسطاً ، ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال ، يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال<sup>(٢)</sup> .

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة ، بل هم فاقوا سواهم في اكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين .

## المدارس في الاسلام

### التعليم

قد رأيت فيما تقدم ان القرآن اساس العلوم الاسلامية، فتعليمه اساس التعليم الاسلامي، واول دروس القرآن قراءته . فأول المعلمين في الاسلام النبي ( صلعم ) علمه للصحابة ، وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه او تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها ، حتى اصبح للعلم الواحد عدة حلقات ، والغالب ان تنسب الحلقة الى استاذها ، فيقولون مثلاً : حلقة ابي اسحق الشيرازي في جامع المنصور او نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة او الاستنساخ .

على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ، فكثيراً ما كانوا يذشئون حلقات التدريس في المارستانات او الربط او المنازل او غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا المعلمين الى منازلهم ، كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء ، ولا يزال اهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم .

واشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الأزهر في القاهرة ، فقد بني مع القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ، ومنهم من جاء من اقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ، ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام او المغاربة او العجم او الزيالة او السنارية او اليمنية او الهندية ، فضلاً عن اروقة اهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الأزهر في اوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة ، وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم ، يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ويحضرون مجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك او المأوى ، وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقرئزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه

في عهد العائلة الحديوية بضعة عشر ألفاً ، والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه .

### المدارس

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ، ونبع العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة ، وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد اجمع المؤرخون المسلمون تقريباً على ان اول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي ، في اواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ، ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته دون ان ينشئ المسلمون مدرسة ، او ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة انشأها المأمون في خراسان وهو وال هناك<sup>(١)</sup> ولا ندري من اين نقلوا ذلك ولم نر له ذكراً في كتب العرب التي طالعناها . على اننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك ، منها مدرسة ابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ هـ<sup>(٢)</sup> والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ . . . والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ، ومدرسة بناها اسماعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ ، واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق<sup>(٣)</sup> وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور ايضاً قبل مدرسة بغداد ، بناها لأمام الحرمين في سلطنة الب ارسلان<sup>(٤)</sup> فلعل السبب في اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه اول من بنى مدرسة كبرى في بغداد ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، وفرض لتلاميذها الارزاق والجواري والمعالم .

وهل اي حال فان اول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم ، واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان ( او نيسابور ) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي ، وإلا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟ . فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء ؟

١ - Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun . ٢ - ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ .

٣ - السيوطي ١٨٥ ج ٢ . ٤ - ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .



قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والأمراء ، لارتباط السياسة بالدين عندهم ، ولأن العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء في أوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء ، وأفضت الحكومة الى السلاطين والأمراء من الفرس والأتراك والديلم والاكراذ وغيرهم ، أصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني . وأقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واکرام العلماء . فأصبح السلطان أو الأمير اذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً ، فأول ما يسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بإنشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم ، فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة في بغداد ، ونور الدين في الشام ، وصلاح الدين بمصر .

وذلك أيضاً مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس ، لانه وزر للسلطان الب ارسلان عشر سنين ، وكان بمنزلة والده وله النفوذ الأكبر عنده ، فلما توفي الب ارسلان وازدحم اولاده على الملك ، وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد . اقام على ذلك عشرين سنة ، وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها في ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة . وكان نظام الدين عاقلاً حكيماً ، فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاته الاولياء ، فأكثر من الاحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من اهم مساعيه في ذلك انه بنى دور العلم للفقهاء ، وانشأ المدارس للعلماء ، واسبس الرباط للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى الجرايات والمنقحات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند ، فلم يكن فيها حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد إلا وكرامة نظام الملك شاملة له سابعة عليه ، وقدروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٩٠٠٠٠٠ دينار في السنة . فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا : « ان الاموال التي ينفقهها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابته : « يا بني انا شيخ أعجمي ، لو نودي علي فيمن يزيد لم احفظ خمة دنائير .. وانت غلام تركي ، لو نودي عليك عاك تحفظ ثلاثين ديناراً .. وانت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك ، واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنواب اذا احتشدوا كفحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس

لا ينتهي مدى مرماها ثلثائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور ... وانا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، اذا قامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على اقدامها صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم واطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك .. فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وبيركاتهم تمطرون وترزقون .. « فقبل ملك شاه وسكت<sup>(١)</sup> وتوفي نظام الملك مقتولاً سنة ٤٨٥ .

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد ، غير التماس الاجر والثواب ، انهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ويغلب ان يكونوا من صنائعه او مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء او الرق . فاذا توفي احدهم عن مال او ضياع واراد السلطان قبضها فعل وحرم ابنائه منها . فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفه من ذريته ، فيبني المدارس او الزوايا او الربط ، ويقف عليها الاوقاف المغلة من ضياعه او ابنيته ، ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاها بعض ولده وله تصيب منها ، والاوقاف ثابتة فيؤمن بذلك على اولاده الفقير .

وكان من اسباب انشاء المدارس ايضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان او الامير ، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت ، وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الازهر على مذهب الشيعة ، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبي ابطل هذا المذهب واحيا المذهب المالكي والشافعي ، فأنشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعي ، وهي اول مدرسة حدثت بمصر<sup>(٢)</sup> واقتدى به من جاء بعده من الاكراد والأتراك .

ومها يكن السبب ، فلا خلاف في ان نظام الملك اول ما اشتهر بإنشاء المدارس في الاسلام في اواسط القرن الخامس للهجرة . فبنى المدارس في بغداد واصبهان ونيسابور وهراة وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة اليه ، اشرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ هـ على شاطيء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠٠٠٠ دينار .

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي ، وقد تخرج فيها جماعة من رجاء العلم طار ذكرهم في الآفاق . واول اساتذتها الشيخ ابو اسحق الشيرازي : ثم الامام ابو نصر الصباغ صاحب الشامل ، ثم ابو القاسم الدبوسي ، وابو حامد الغزالي ، والشاشي ، والكيا الهراسي ، والسهورودي ، وكال الدين الانباري وغيرهم من اقطاب العلم . فأصبح التعليم في هذه المدرسة من اكبر اسباب الثقة بالمعلمين ، وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية .

واقتردى السلاطين والأمراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في انحاء المملكة الاسلامية ، واشهرهم على الترتيب السلطان نورالدين زنكي صاحب دمشق المتوفي سنة ٥٧٧ هـ ، وهو تركي الأصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعبك ومنبج والرحبة ، غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفي سنة ٥٨٩ هـ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ، ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفي سنة ٦٣٠ هـ ، فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام واللقطاء والارامل وغيرها . واقتردى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من اهله في مصر ، فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتردى بهم الاغنياء ، فبلغ عدد ما انشأوه بمصر الى ايام المقريني في اواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى . واول من انشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفي سنة ٧٦١ هـ ، واقتردى به سلاطين آل عثمان في انشاءها ، واشهرها المدارس الثماني التي انشأها السلطان سليمان<sup>(١)</sup> .

وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس انه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد . اما الاندلس فقد نقل الامير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانجليزية ان العرب انشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليلة وغرناطة ومالقة وغيرها ، وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و١٢٠ مدرسة صغرى<sup>(٢)</sup> . ولكن يظهر ان مدارس الاندلس انشئت على مثال المدرسة النظامية .

١ - الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢ .

٢ - Ameer Ali's Short History of the Saracens, 627

قال المقرئ صاحب نفح الطيب : « وليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يتعلموا لا لأن يأخذوا جارية »<sup>(١)</sup> فترى في عبارة المقرئ نفيًا صريحًا للمدارس في الاندلس ، فالظاهر ان الأمير عليًا المذكور نقل كلامه عن الافرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد .

والمدارس في الاسلام على اشكال ، منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ، ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والممارسات للطب والفلسفة ، غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم في منازلهم . وعدد الطلبة على اي حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه ، فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات المثين من الطلبة . وقد يكون للأستاذ تلامذة تحتهم تلامذة . ذكروا ان ابا بكر الرازي الطبيب المشهور كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ آخر . فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فان كان عندهم علم وإلا تعدهم الى غيرهم ، فان اصابوا وإلا تكلم الرازي<sup>(٢)</sup> وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته ، واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة . كان الامام فخر الدين بن خطيب الري إذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء<sup>(٣)</sup> . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه احد كتابا كتب هو علامته على الكتاب ، شهادة بأنه قرأه عليه . ومن اكثر العلماء تلامذة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي . وكان التعليم شاملاً كل طبقات الناس ، حتى المماليك والجواري والعبيد والمخائث وغيرهم .

## المكتبات او خزائن الكتب

ما برح الناس منذ اخذوا في تدوين اعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه ، لأنهم دونوه رغبة في استبقائه . ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة او خزانة الكتب ، واقدم من انشأ المكتبات في العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل وأشور ، هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني

١ - نفح الطيب ١٠٤ ج ١ .

٢ - الفهرست ٢٩٩ ٣ - طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

( المساري ) ، يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبرملك مصري اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم اول من انشأ المكتبات العامة لفائدة الناس ، واقدم منشئها بسترقاتوس في اواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برجاموس مؤلفة من ٢٠٠.٠٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان ، واول مكتباتهم نقلوها عن مقدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق.م ، ثم استولوا على مكتبة برجاموس المذكورة سنة ١٢٣ ق.م ، ثم نقلوا مكتبات أثينا سنة ٨٦ ، ولما عظم شأن قسطنطين في القسطنطينية أنشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م ، غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والأزج . ثم كف الناس عن إنشاء المكتبات حتى تمدن المسلمون وأنشأوا مكتباتهم .

### المكتبات الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها ، لكنهم ما لبثوا أن تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلاً في الحصول عليها وأشدّهم عناية في صيانتها . وقد رأيت أن العرب قضوا القرن الأول ونصف القرن الثاني وأبحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ، ولم يدونوها إلا في أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الأشعار والأخبار والأمثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الأنسجة أو نحوها . قالوا أن كتب أبي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف ، وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الأدب والشعر كالأصمعي وحماد وأبي عبيدة .

غير أن ذلك لا يعد من قبيل المكتبات العامة التي انما يقوم بإنشائها ولاية الأمور أو من يجري مجراها . ومرجع الفضل في إنشاء هذه المكتبات الى خلفاء النهضة العباسية ، وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في أيام بني أمية التي أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناس هرون ، فذلك على الغالب مما أنشأه الأطباء أو الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لأنفسهم أو لأولادهم .

### مكتبات بغداد

أمّا في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم ، فأنشأوا

مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب أن الرشيد أنشأها وجمع إليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم ، وما ألف من العلوم الاسلامية ، مع ما سمي يحيى ابن خالد في جمعه من كتب الهند ، وما وقع للرشيد من كتب الروم في أنقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها ، وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية ، فضلا عن العربية ، وعلم الناس رغبته في ذلك فأثروا بالكتب على اختلاف موضوعاتها وأشكال خطوطها ، ومنها كتاب ذكر ابن النديم أنه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي ( صلعم ) على جلد ، وفيه ذكر حق عبد المطلب « على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعاء عليه الف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والمكان » (١) .

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف ، فيجلس للنساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبي أصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمنافرات ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وله كتاب في مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها (٢) ومن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة أو التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ، ويحيى بن أبي منصور الموصلي احد اصحاب الارصاد في أيام المأمون ، والفضل بن نوبخت المنجم ، وأولاد شاذان وغيرهم . وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، واشهر مديريها سهل ابن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة . ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت أو الخزانة المذكورة أنشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس ، واكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب .

ثم أنشأ البغداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، اشهرها مكتبة وقفها سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ في سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها اكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم . واحترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك

السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ<sup>(١)</sup> ومن تولى حفظ ما بقي منها والاشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفي سنة ٤٠٥ هـ<sup>(٢)</sup> . واشتهر يجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفي سنة ٦٢٢ هـ<sup>(٣)</sup> .

### مكتبات الاندلس

وكان المأمون مثالا في انشاء المكتبات في الممالك الاسلامية ، كما كان مثالا في سائر اسباب النهضة العلمية . فاقتدى به بنو أمية في الاندلس ، واشبههم به الحكم المستنصر بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب على انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله . فأنشأ في قرطبة مكتبة جمع إليها الكتب في أنحاء العالم ، فكان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الاموال ، ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني معاصرا له ، وهو أموي مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الأغاني قبل اخراجه الى بني العباس ، وبذل له على ذلك الف دينار ذهباً . وفعل نحو ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحه لختصر ابن عبد الحكيم وغيره ، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة اقاموا عليها مديراً ومشرفاً ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة<sup>(٤)</sup> فاذا قدرنا الصفحة ٢٥ اسماً فقط كانت مجموع عدد الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب ، فكيف بسائر الكتب ؟ ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري ان مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد<sup>(٥)</sup> .

واقتمدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته ، فأنشأوا المكتبات في سائر بلاد الاندلس ، حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة ، وأصبح حب الكتب في الاندلس سجية في أهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرياسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلاً ويحتفل ان يكون في بيته خزانة

١ - ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١ .

٢ - طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ . ٣ - ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ .

٤ - ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ . ٥ - نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ .

كتب ، ليقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قال الحضرمي : « أقت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة علي ، الى ان بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا ! أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا ادري فيه ، ولكني أقت خزانة كتب واحتفلت فيها لا تجمل بها بين اعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأخرجني وحملني على ان قلت له : نعم ، لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك .. يعطي الجوز من لا اسنان له .. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيدي وبينه ! » (١) .

وظل اهل قرطبة على أي حال احسن الاندلسيين رغبة في الكتب ، كما كان اهل اشبيلية ارغهم في اللهو والطرب ، فاذا مات عالم في اشبيلية فأريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . اما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في حصار البربر ثم أتم عليها الأفرنج .

### مكتبات مصر

واقتمدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر ، بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب ، فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم ، فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم ، واجرى لهم الارزاق وحجب الى الخليفة اقتناء الكتب ، فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب » ، وبذل الأموال في الاستكثار من المؤلفات



المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر. ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، واشتروا النسخة بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام ، حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة ، وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠ كتاب<sup>(١)</sup> في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء ، منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة ، فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة<sup>(٢)</sup> غير ادوات الهندسة والفلك .

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة ، وقد قدرها آخرون ٢٠٠٠٠٠ كتاب ، وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ، ونظن في تقديمهم التباساً من حيث المراد بمخزانة الكتب او خزائن الكتب ، لأن العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشأوا مثلها في قصورهم ، فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة ، وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب .

وكان للعزيز عناية كبيرة بمخزائنه يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين ، وقد رتب لها قima يتولى شؤونها ويحاسبه ويقرأ له الكتب ويناديه ، ومن قولى ذلك ابو الحسن الشاشقي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ<sup>(٣)</sup> .

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان ، فالقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب ، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً مما يطول شرحه . وبالأجمال فقد طرح ما بقي منها عند دخول الاكراد للبيع في اواسط القرن السادس ، وكان في جملة ما اخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني<sup>(٤)</sup> .

١ - المغربي ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ . ٢ - تراجم الحكماء .

٣ - ابن خلكان ٣٣٨ ج ١ . ٤ - ابن خلدون ٨١ ج ٤ .

## دار الحكمة

وتسمى أيضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ ، بجوار القصر الغربي بالقاهرة ، وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ، ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستائر على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون ، أي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس ، اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لفلاحتها ، فمن احب تعلم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس ، كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة ، لأن الحاكم اقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء ، واجرى لهم الارزاق وابهج الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ، ليقروا او ينسخوا ما شاءوا ، وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الخبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يقضي الجدل الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم ، فأضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً لأسباب الفتن ، فلما توفي الافضل امر الخليفة الأمر بأحكام الله وزيره المأمون ابن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية ، وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن ان عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب ، ولما افضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبنائها مدرسة للشافعية (١) .

## مكتبات الشام

لما كانت الشام مركز الخلافة في ايام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون اليها . ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام

حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ هـ فانتهبوها<sup>(١)</sup> وذكر « جين » ان عدد كتبها ٣٠٠٠٠٠٠٠ مجلداً احرقها الافرنج<sup>(٢)</sup> . فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنهم جعل فيها خزائن الكتب ، وتعرف بالخزائن النورية ، وهكذا فعل صلاح الدين .

اما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن الخبأة في الرساتيق والأزج والقباب ، مكتوبة بالحروف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام ، فلما مضت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من اكبر العوامل فيها ، وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم .

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . واما المكتبات فلم يتصل بنا من اخبارها الا القليل ، فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ترك مرو والشاهجان اشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٨ هـ وفيها عشر خزائن للوقوف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، وقد فصل اخبارها واخبار واقفيها وذكر ان واحدة منها كان فيها ١٢٠٠٠٠ مجلد وانه اخذ علمه منها<sup>(٣)</sup> .

أما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها ، وكانت لنوح بن منصور سلطان بخاري ، قال الشيخ الرئيس : « رأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس ، وما كنت رأيت من قبل الخ » . وأنشأ هولاكو التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة .

هذا ما عثرنا على خبره من المكتبات العامة التي أنشأها الخلفاء او السلاطين لمنفعة الناس ، غير خزائن الكتب التابعة للمدارس او المارستانات او الجوامع ، فانها كانت كثيرة جداً ومنها ما لا تقل كتبها عن المكتبات الكبرى ، وهي مرتبة أبواباً حسب الموضوعات وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخاصة التي كان يقتنيها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة ، فقد كانت كتب صاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جل ، وخلف افرام الطبيب المصري ٢٠٠٠٠ مجلد ، ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزائنه ١٠٠٠٠٠

مجلد غير ما استنسخه ، وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عند امين الدولة ٢٠٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ ر. مجلد ، وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرها .

ولا تتضح ضخامة تلك المكتبات إلا اذا قابلناها بمكتبات هذا العصر ، مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب ، مع مرور الأزمنة الطويلة على مكتبات هذه الايام ، وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكتبات الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقابلها بأشهر مكتبات اوربا اليوم :

### اشهر مكتبات المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات	
٥٥٥٥٥٥	بيت الحكمة في بغداد
١٠٥٥٥٥	مكتبة ساپور »
٤٥٥٥٥٥	» الحكم بقرطبة
١٥٥٥٥٥٥	خزائن القصور بالقاهرة
١٥٥٥٥٥٥	دار الحكمة »
٢٣٥٥٥٥٥٥	مكتبة طرابلس
٤٥٥٥٥٥٥	» مراغة
٤٩١٥٥٥٥٥	

### اشهر مكتبات هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

عدد المجلدات	
٢٧٥٥٥٥٥٥	مكتبة باريس الأهلية
١٦٤٨٥٥٥٥	» المتحف البريطاني في لندن
١٣٦٥٥٥٥٥	» بطرسبرج القيصرية
١٢٣٥٥٥٥٥	» برلين الأهلية
٩٢٤٥٥٥٥	» فينا الملوكية
٦٧٧٥٥٥٥	» رومية الأهلية
٨٥٣٩٥٥٥٥	

وفي الولايات المتحدة ٤٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٨٧٢ ٥١٠ ٣٣٠ مجلدات . وعلى الجملة فان المساهمين جمعوا في مكتباتهم العامة والخاصة من الكتب على اختلاف موضوعاتها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها إلا جزء صغير جداً ، وقد ضاع معظمها في أثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب التمدن .

أما الباقي من تلك الكتب فأكثره تجمع في عاصمة الاسلام في اثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفى المستشرق جوستاف فلوجل ، ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون ، الى احرار قوائم المكتبات العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة وشيوع الطباعة في الشرق . وذيل كتاب كشف الظنون بأسماء تلك الكتب بحسب موضوعاتها . فبلغ عدد تلك المكتبات بضعا وعشرين مكتبة ، منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧٤٤٥ كتاباً . وأما ما بقي ففي مصر ودمشق وحلب ورودرس ومجموع كتبها ٢٤٠٠ كتاب ، فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكتبات العامة نحو ٣٠٠٠٠ كتاب ، هاك تفصيلها باعتبار اماكنها :

### مكتبات المساهمين في اواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات	
١ ٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثاني في القسطنطينية
٨٠٣	» سليمان »
٧٥٢	» قليج علي باشا بالطبخانة »
٤١٢	» حافظ أحمد باشا »
١ ٤٤٨	» كيوبرلي اوغلو »
٢ ٩٠٦	» شهيد علي باشا »
٨٣١	» إبراهيم باشا »
٧٣٢	» والده سلطان »
٥٥٢	» بشير أغا »
١ ٣٣٦	» عاطف افندي »
١ ٤٤٥	» أيا صوفيا »

عدد المجلدات		
٥٥٦	مكتبة سراي غلطة	القسطنطينية
٢٤٢٠	» عثمان الثالث »	»
١٠٧٧	» محمد راغب باشا »	»
٩٨٠	» لعله لي دفتر أول »	»
١٩٤٧	» » » ٢ »	»
٩١٦	» سراي همايون »	»
١٧٦٩	» ولي الدين افندي »	»
١٨٧٧	» عاشر افندي »	»
١١٠٩	» دامادزاده محمد مراد افندي »	»
١٣٨٣	» مكتبة عبد الحميد »	»
٦٥٦	» حالت افندي »	»
٢٧٤٤٥	( مجموع الكتب في القسطنطينية )	
١٠٩٩	مكتبة الأزهر	في القاهرة
٤٢٢	» عبدالله باشا العظم »	بدمشق
٢٦٩	» المدرسة الأحمدية »	بجلب
٦٠٩	» رودس »	
٢٩٨٤٤	( المجموع كله )	

وبديهي ان هذه الكتب ليست كلها ما بقي من المؤلفات العربية ، فقد كانت منها شيء كثير في المكتبات الخاصة وغيرها ، ولكنها على أي حال لا تعد شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتبرنا تكرار المؤلفات بتوالي القرون ، مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ، ولكن لكل شيء اجل لا يتعداه ، سنة الله في خلقه .

وأمن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعد الاموال واخذنها ، فان النوائب غير مأسونة ، وهي من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت ، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع ... وأعد رجالا في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالا في النهار لمعرفة ما يكون في الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن ، وأسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ <sup>(١)</sup>

\* \* \*

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير في داره لهُو ولا شيء يشبه اللهُو او اللعب ، او العبث ، إلا مرة ، كان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهُن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فعاد حماد واخبر المنصور فقال : « وأي شيء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك انت ما هو الطنبور ؟ » فقال : « رأيتهُ بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأيته تفرقن خوفاً منه ، فأمر بالخدام فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه .

\* \* \*

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس ، كان يرتدي جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بجمل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله احدهم درهماً فلا يعطيه ، ويعطي الآخر ألفاً بلا سؤال .. من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافه وكان فقيراً فسأله المنصور : « ما عيالك ؟ » قال : « ثلاث بنات والمرأة وخادم لهُن » فقال له ، « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرون في بيتك .. » ولم يعطه شيئاً . ولما توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف الف دينار انفقته امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قال : « ستا » فأطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠ درهم <sup>(٢)</sup> .

## رد على القائلين بالأمومة والطوتمية

### عند العرب الجاهلية

كتب الينا صديقنا الأستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزي الكبير في أثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي الى اللغة الانجليزية كتاباً هذا نصه :

« إن بين ما جاء في كلامكم عن أنساب العرب وبين آراء المستشرقين في هذا الصدد بونا عظيماً . ولو اطلعتم على كتاب الأنساب والزواج عند العرب الجاهلية للأستاذ روبرتسن سميت<sup>(١)</sup> لرأيت بين المشهور عندنا والموضوع في كتابكم فرقاً بعيداً ، فان مسألة الأمومة مثلاً قد دونت فيها مجلدات كثيرة ذهب اكثر اصحابها الى ان العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم ، بل ترأسها أم كثيرة الرجال . وحق الأبوة امر مستحدث ادخله عند العرب لم يسبق عهد النبي ( صلعم ) بكثير . وأنساب العرب كلها اكاذيب ، فان اسماء القبائل ليست اسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون ، بل اكثرها يشبه المسمى طوتم Totem عند الأمم المتوحشة ، اعني حيواناً ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة ، فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية ، .

هذا هو نص كتاب الأستاذ ، فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلاً لمقام صاحبه ، وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميت المشار اليه ، فاذا هو يدخل في نيف وثلثمائة صفحة . فتصفحناه ملياً رغبة في الاطلاع على ذلك الرأي وتدبره ، لأن مؤلفه من كبار المستشرقين وله في الشرق وآدابه ابحاث ومؤلفات ذات شأن ، ككتابه في اديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة . فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان ، لعلنا نقتنع بصحة هذا الرأي فنرجع اليه ، اذ لا غرض لنا فيما نكتبه الا تقرير الحقيقة ، فهي ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بها وقفنا عندها صاغرين ، ولا يهمننا على يد من يكون ذلك . فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل ، وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها واديانها ،



وتوسمنا من خلال ادلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاتّاج ، ينذر مثلها بين أرباب الأقلام ، ولولا ذلك ما استطاع — مع ضعف المذهب الذي اخذ على نفسه اثباته — ان يلاقي اصغاء من جلة العلماء المستشرقين ، وفي جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث ، حتى ظهر اقتناعه بذلك في مقدمة كتابه الجليل الذي اصدره في السيرة النبوية Mohammed and the Rise of Islam على ان الاستاذ المشار اليه قد اسند الرأي الى صاحبه ولم يتكلف نقده ، اعتماداً على ما اشتهر به صاحبه من سعة العلم ، ولا نخاله لو تكلف ذلك الا شاعراً بما شعرنا به من وهم صاحبه في تصويره على ما سنبينه فيما يلي . وقد نكون واهمين مثله ، لان العصمة لله وحده . وانما اردنا ان نقول في هذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدي العلماء المستشرقين ، ولا ندعي النجاة من الزلل ، بل يكفيننا ان تربو مواضع الصواب في اقوالنا على مواضع الخطأ ، وربما كان الامر بالعكس — على ان البحث لا يخلو من فائدة على اي حال .

وبما اننا سننشر هذه الرسالة باللغة العربية ايضاً ليطلع عليها جمهور القراء ، وفيهم من لا يزال خالي الذهن من الطوتم والامومة ونحوهما من الابحاث الجديدة التي قلما طرقها كتاب العربية ، رأينا ان نصدر الكلام بتمهيد وجيز في المراد من هذه الألفاظ ، ثم نتقدم الى الموضوع .

\* \* \*

## ١ — الطوقية

### عند القبائل المتوحشة الآن

الطوتم هو لفظ دخل اللغات الافرنجية في اواخر القرن الثامن عشر من لغة الالوجيبي من هنود امريكا ، ويراد به كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من افراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيواناً او نباتاً او غير ذلك . وهو يحمي صاحبه ، وصاحبه يحترمه ويقده او يعبد ، واذا كان حيواناً لا يقدم على قتله ، او نباتاً فلا يقطعه أو يأكله . وتختلف الطوقية عن عبادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبائل المعبر عنها بالديانة الفتشية في ان هذه عبادة صنم بصورة حيوان ، وتلك تقديس نوع من انواع الحيوانات او النبات او عبادته .

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات : اولا طوتم القبيلة وهو عام يشترك في احترامه كل افرادها ويتوارثونه ، ثانياً طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه افراد احد الجنسين الذكور او الاناث فيكون خاصاً بنساء القبيلة او برجالها ، ثالثاً الطوتم الشخصي وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه ابناؤه . والاول احراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا .

### طوتم القبيلة

هو حيوان او نبات او شيء آخر يشترك في تقديسه او عبادته افراد قبيلة من القبائل ويسمون باسمه ويعتقدون انه جدم الاعلى وانهم من دم واحد مرتبطون بعهود متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم . وله عندهم اعتباران ، احدهما ديني والاخر اجتماعي . فالديني يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة : الرجل يحترم الطوتم ، والطوتم يحميه ويحفظه . واما الاجتماعي فهو الحقوق المتبادلة بين افراد تلك القبيلة التي يجمعها اسم ذلك الطوتم ، بالنظر الى القبائل الاخرى المنسوبة الى طوتمات اخرى ، وقد يختلف الاعتباران في كثير من الاحوال .

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر ايا للقبيلة وانها من نسله ، ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوتمها يتناقلونه أباً عن جد ، يغلب ان يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية او النباتية الى الانسانية . فمن قبائل الايروكوا - من هنود امريكا - قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، يعتقد اهلها انهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استنقلت صفحتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت الى انسان اولد اولاداً . ومنهم قبيلة الحلزون ( البزاقة ) يعتقدون انهم متسلسلون من الحلزون وانثى الجندبادستر - وذلك ان حازوناً ذكراً خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحول الى رجل طويل القامة جميل الصورة . فتزوج انثى الجندبادستر واولدها هذه القبيلة . وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط او الأوز او غيرها من الطيور المائية . وفي سينغمبيا قبائل تنسب الى وحيد القرن وفرس البحر او الى المقرب او الثعبان . فكل من هذه الحيوانات يعد طوتماً للقبيلة التي تسمى باسمه ، وهي تحترمه وتقدره فلا تؤذيه ولا تقتله . فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله إلا اذا عض احدها الجوع فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر ، وكذلك اذا كان الطوتم نباتاً فلهم يحترمون ويتجنبون ان يدوسوه او يأكلوه ، فمن كان طوتمه الذرة مثلاً فأكلها محرم عليه . واذا كان الطوتم شجرة حرّموا احراق عيدانها .

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم اكله او اذيتته فان بعضهم يحرم لمسه او النظر اليه . فقبيلة الايل - من قبائل الاوهاما - لا تأكل لحم الايل ولا تمس ايلا ذكراً ، وقبيلة رأس الغزال لا تمس جلد غزال قط . وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية او الاشارة . فمن هنود الدولاورس في امريكا قبيلة تنسب الى الذئب ، واخرى الى السلحفاة ، واخرى الى ديك الحبش (الديك الرومي) فاذا اضطروا الى ذكر احدها كنوا عن الاول بالقدم المستديرة ، وعن الثاني بالساحف ، وعن الثالث بغير الماضغ ، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات .

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل اهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ، فقبيلة البومة في ساموا اذا وجد احد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض افراد القبيلة . ويعتقدون ان من اهان الطوتم او اساء اليه يصاب بالمصائب ، ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل او البلاد . فبعضهم يعتقدون ان من يأكل طوتمه تصبح نساء قبيلته عواقر ، وغيرهم يعتقدون انهم يصابون بالامراض او النكبات او نحو ذلك . ويتوهم آخرون ان آكل طوتمه يحازي بالموت ، بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال ياكل منه حتى يموت .

ويؤمنون من الجهة الأخرى ان الطوتم لا يؤذي صاحبه ، فالذين طوتمهم الحية مثلاً لا يخافون لسعها ، وعندهم ان الحية لا تلسعهم . وكذلك قبائل العقرب في سينغمبيا ، فهم على ثقة ان العقرب السامة تمر على جسم احدهم ولا تؤذيهِ . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها . وكثيراً ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعي انتسابه الى احدها ، فمن زعم انه من قبيلة الثعالب اطلقوا عليه الثعالب ، فاذا لسعه قالوا انه مدع كاذب ، وعلى هذا المبدأ ينبذون كل من لا يراعي الطوتم جانبه ويتجنب اذيتته .

على انهم لا يكتفون من الطوتم ان يكف اذاه عن اصحابه او عبادته ، ولكنهم يتوقعون ان يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب ان ' تدافع عنها في ساحة القتال ، ويتوهم اكثر اصحاب الطوقمية ان الطوتم ينذر اصحابه بالخطر ' وقوعه بعلامات او رموز على نحو ما يعبر عنه بالفأل او الطيرة .

وبما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته ان يتشبهوا به ، فيقلدونه في شكله ومظهره ويلبسوا جلده او قسماً من جلده ، او يتخذوا جزءاً منه يعلقونه في اعناقهم

او اذرعهم على نحو التعاويذ في الامم الاخرى ، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوطمه .

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم انفسهم من نسل الطوتم ، ما يحرونه من الاحتفال عند الولادة او الزواج او الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيلة الغزال الاحمر مثلاً اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة ، واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعه : « قد ولد لنا ذئب صغير ! » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين النائب او قلبه ، واذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الاحمر في جاوة دهنوا العروسين برماد عظام كلب احمر ، وقس على ذلك سائر القبائل بمن ينتسبون اليه من انواع الطوتم . ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة او الزواج .

اما الطوتم الجنسي فيراد به اختصاص ذكور القبيلة او اناثها بطوتم خاص . فبعض القبائل في استراليا لذكورها طوتم ولاناثها طوتم آخر ، وكلاهما غير طوتم القبيلة . وكذلك الطوتم الشخصي ، فان الرجل قد يكون له طوتم خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسي .

اما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية ، فيراد به تعاقد اهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى . فاهل الطوتم الواحد يعدون اخوة واخوات يتعاونون في السراء والضراء بروابط هي اشد مما بين افراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوطمه ، وربما نشأ الاولاد على طوتم آخر ، فاذا انتشبت حرب تعاون اهل الطوتم الواحد على اصحاب الطوتم الآخر ، فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن ابيه او امه .

ومن شروط الطوتمية ان رجال الطوتم الواحد لا يتزوجون نساء من قبيلتهم ، ولا النساء برجال منها ، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي Exogamy . ويعتقد اصحاب الطوتم ان التزاوج في نفس القبيلة مضر بالصحة حتى ينخر العظام ، ويعاقبون من يقدم عليه بالموت او العذاب الاليم ، ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو او المراضاة او نحو ذلك ، والاولاد يرثون على الغالب طوتم امهاتهم ، فكان النسب يتصل بينهم بالامهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا .

وقد تنفرع القبيلة الى بطون وافخاذ تنسب الى آباء من الحيوان او النبات بينها نسبة تفرعية ، مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات ، او بعلاقة اخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع ، كأن يكون طوتم القبيلة حيواناً وطوتم فرعها نباتاً يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه .

والطوتمية منتشرة الآن في العالم المتوحش ، فهي عامة بين قبائل استراليا ، وكثيرة الانتشار في شمالي امريكا وفي بناما والطوتم الشائع هناك « الببغاء » ، ولا تخلو امريكا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفي جيانيا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير في افريقيا ، فانها شائعة في سينغمبيا ، وبين قبائل البقالى على خط الاستواء ، وعلى شاطئ الذهب الأشانتي ، وبين الدامارية والبكوانية في جنوبي افريقيا ، وفي اماكن كثيرة من تلك القارة . ولها آثار في مدغشقر وبعض جزر ملقا . اما في آسيا فلها اثر في اواسط الهند بين قبائل البنغال غير الآريين ، وفي سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط . واكثر هذه القبائل ادخلها العلماء في الطوتمية بالقياس التمثيلي ، لانها تقدر بعض الحيوانات او النباتات وان لم تنسب بأسمائها .

#### الخلاصة

فالطوتمية تلخص فيما يلي :

- (١) انها شائعة الآن بين اكثر الامم اعراقاً في الوحشية .
- (٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً او نباتاً او شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة ابا لها تعتقد انها متسلسلة منه وتتسمى باسمه .
- (٣) ان كل قبيلة تقدر طوتمها او تعبده .
- (٤) تعتقد كل قبيلة ان طوتمها يحميها ويدافع عنها ، او هو على الاقل لا يؤذيها وان كان الاذى طبعه .
- (٥) الزواج ممنوع بين اهل الطوتم الواحد ، واساس التناسل عندهم التزوج بينات من اصحاب الطوتمات الاخرى ( الاكسوجامي ) .
- (٦) ان الابوة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الام .

(٧) لا عبرة عندهم بالعائلة ، وانما القرابة تنتهي الى الطوتم ، واهل الطوتم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد .

### اصل هذا المذهب

ومذهب الطوقية - بالنظر الى نظام الاجتماع - حديث ، اول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعي الانجليزي المتوفي سنة ١٨٨١ ، فانه الف في هذا الموضوع كتابه الزواج عند القدماء Primitive marriage ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ، ثم كتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها اصل مذهبه والقواعد التي بنى عليها رأيه في الطوقية . ولم يكذب ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده ، وفي مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لوك العالم الاجتماعي الشهير ، ولا سيما الاول فانه افاض في نقد هذا المذهب بكتابه « اصول العمران » وكتاب « أصول التمدن » وغيرهما مما لا شأن لنا به . وانما ننظر الآن في الامر من حيث ما يهمننا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب او فساد ، ونبحث فيما أراده الاستاذ روبرتسن سميت من تطبيقه على العرب قبل الاسلام .

### رأي سميت في طوقية العرب

يرى سميت ان العرب كانوا في اقدم ازمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات او النباتات كانوا يعبدونها او يقدسونها ويتسمون بأسمائها ، وكان شأنهم في الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة في استراليا وامريكا وافريقيا ، وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه أهل الاغراض في زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة ، مبنيًا على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين في العطاء بالنظر الى القبائل وانسابها ( صفحة ٦ من كتابه ) .

ولتأييد هذا الرأي بدأ اولاً باثبات الأمومة عند العرب ، فقال ان العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب ، ولا كانت الانساب تتصل بالآباء ، بل كانت الزواج عندهم نحو ما هو في بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التبتى ، وذلك ان المرأة تتزوج برجلين فأكثر ، واولادها لا ينتسبون لأحدهم وإنما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتمها كما تقدم . فعمد اولاً الى ايراد الأدلة على إثبات الأمومة وشيوعها عند العرب القدماء ، ولما

ظن نفسه أثبتها عمد الى اثبات الطوقية ، فبذل قصارى جهده في استخراج الادلة والشواهد مما سنفصله ونبين وجه الخطأ فيه .

## ٢ - العرب القدماء وانشابهم واخبارهم

وقبل التقدم الى البحث في ادلة الاستاذ سميت ، أقول كلمة اجمالية في العرب وانشابهم ورواياتهم تمهيداً للبحث .

ان من يطالع رأي صاحب طوقية العرب ، ومن يقول قوله من المستشرقين ، يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك امران : الاول ضعف ثقتهم باقوال مؤرخي العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة ، والثاني نهوض اهل القرن الماضي لتحدي ما ثبت من مذهب الارتقاء في قواعد العمران ، لأن شيوع هذا المذهب في اواسط ذلك القرن حمل ادباء الافرنج على رد كل شيء الى اسباب طبيعية ، كما فعل سبنسر في رد العبارات واكثر العادات الى مثل هذه الاسباب . وهكذا اراد صاحب طوقية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم في القبائل المتوحشة - وهو مستشرق مطلع على اخبار العرب سيء الظن في جاهليتهم يحتقر اقوال روايتهم وانشابهم - ورأى بين اسماء آباء القبائل والبطون ما يشبه اسماء الحيوانات ، سبق الى وهمه انها من آثار الطوقية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه ، واخذ على نفسه ان يبرهنه . ولما كانت الطوقية مبنية على الامومة ، عمد الى اثبات هذه . فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حد التكلف ، واستشهد بنوادير من اخبار العرب ، فجعل الشاذ قاعدة وأغفل القواعد العامة الثابتة التي اجمع عليها النسابون والرواه ، مما يخالف اصول البحث . وهذا غريب من عالم اطلع على أخبار الامم وخرافاتهم ، وعلم ان التاريخ القديم اكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف ، يحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولاً . فان ما في الياذة هوميروس من اخبار الآلهة وخرافاتهم ، لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن اخبار الهنود القدماء ، منذ نزول جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السلسكريدية . وهكذا ينبغي ان يقال في خرافات العرب ، من اخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، واخبار سيل العرم ونحوها . فانها - مع بعدها عن مألوفنا - لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بال ، قد كشف الزمان صدق كثير منها ، فنأتي بشذرات من ذلك على سبيل المثال :

## عاد وشمود

إن أعرق خرافات العرب في القدم وأبعدها عن المؤلف أخبار القبائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدونها من الخرافات الموضوعة قبيل الاسلام ، وظنها آخرون لبعض الأمم الأخرى وقد حفظها العرب ونسبوها لأنفسهم . ثم تبين لهم أنها لا تخلو من حقيقة ثابتة ، لما وجدوه من ذكرها في كتب مؤرخي اليونان او جغرافيين القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرهما . وأهم القبائل البائدة عاد وشمود . أما عاد فقد كان المظنون أنها لم تذكر في كتب اليونان ، لأنهم لم يعثروا بين أسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ، ولكننا بينا في مقالة لنا بهذا الموضوع ( الهلال ٢٣ سنة ٦ ) أنهم ذكروها باسم «عادارم» فكتبوها Adramitae ، تميزاً لها عن حضرموت واسمها عندهم Xatramotitae ، ورجحنا هناك أنها وقبيلة هدورام المذكورة في التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة .

وأما شمود فقد ذكرت مراراً في كتب اليونان والرومان ، وعثروا على آثارها في اعالي الحجاز وحلوا بعض ما نقش على احجارها ، وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لا يتجاوز في القدم ما وراء تاريخ الميلاد الا قليلاً ، حتى عثر المنقبون على ذكرها في انقاض أشور حوالي القرن الثامن قبل الميلاد (١) في عرض اخبار الحروب والفتوح ، مما يدل على ان تلك القبيلة كانت ذات شأن في هذا العهد . وقس على ذلك سائر اخبار القبائل البائدة ، مما ضاع خبره لتقدم عهده او اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحييف او نحوه ، كما اصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب في اصلها على اعتقادنا Jodisitai بإبدال الدال لاماً وهما متشابهان في اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا Ͱ والدال هكذا ͱ وقس عليه .

ناهيك بما يؤيد اخبار العرب وأنسابهم من نصوص التوراة ، وما عثروا ويعثرون عليه في آثار اليمن وغيرها .

## النسابون العرب

إذا كان هذا شأن خرافات العرب القديمة ، فكيف بأخبارهم المدونة في الكتب مما اجمع عليه النسابون في صدر الاسلام ، والرواة يومئذ لا يقبلون رواية الا بعد تحققها بالاسناد



الصحيح ، لما تعودوه من تحقيق الأحاديث النبوية او نحوها من الأخبار الدينية في ذلك العصر ؟ فالعرب يعدون من أكثر الأمم تحقيقاً في الرواية ، وأكثرهم تدقيقاً في حفظ ما يروونه ، ولا سيما في صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة ، لأسباب بينهاها في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ التمدن الإسلامي » .

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الأمور الموضوعة او المختلف فيها او غير المعقولة ، ولكن لا يعقل ان تكون كلها موضوعة ، اذ لا يتأتى التواطؤ الى هذا الحد . وإن جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بد من السؤال عن الزمن الذي حصل فيه ، أهو قبل الاسلام او بعده ؟ فاذا قيل قبل الاسلام ، فما الذي دعا الى حصوله ؟ ولا نعلم سبباً يدعو الى ذلك ، ولا نظن صاحب طوعية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام - وهو رأيه - فقد زعم ان النسابين وضعوا الانساب في صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية ، وقسموا كلا منها الى فروع ، وان الغرض من هذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذي فرضه عمر - فكيف يجوز ذلك وهذه اشعار العرب الجاهلية واقوالهم وامثالهم واخبارهم شاهدة بحفاظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى اجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبني على النسب القحطاني والعدثاني ، والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ انسابهم والتدقيق فيها ؟ ومن اقوال عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال : من قرية كذا » <sup>(١)</sup> فهل يصح ذلك والعرب قبائل طوعية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحته وان النسابين وضعوا هذه الانساب في اول الاسلام للعطاء ، فكيف ترضى القبائل التي ابعدها النسابون عن النسب النبوي فقل عطائوها او ضعفت حقوقها ، وكيف لا تحتج على ذلك ، بل كيف لا يشتم رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على ان تواطؤ النسابين على الوضع بعيد الامكان ، لانهم لم يأتوا بشيء من عند انفسهم ، وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه ويحفظونه . وقد يجمع النسابة اخباره من اهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات في تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف ، فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

## الشعوبية وأنساب العرب

وإذا سلمنا بإمكانه ، وإن العرب لم يبدوا معارضة احتراماً للخليفة أو خوفاً منه ، فكيف سكنت الشعوبية ولا سيما الفرس عن هذا الاختلاف ، مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربي ، والشعوبية يبحثون عن حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم إلى اسماعيل وقحطان ؟ وقد تجرأ الفرس في صدر الاسلام حتى نسبوا العرب إلى الوحشية وقالوا : « انهم كالذئباب العادية والوحوش النافرة » ، يأكل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل . ولم يطعن احد منهم في نسبهم تلميحاً ولا تصريحاً ، ولو استطاعوا ذلك لكان فيه اقوى انتقام لهم . ولا يقال انهم سكتوا عنه اهماً ، او انهم لم ينتبهوا له ، فقد طعنوا في اختلاف العرب بالنسب وفي استلحاقهم الادعاء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب . قال يحيى يعير العرب باستلحاق الادعاء :

زعمتم بأن الهند اولاد خندف وبينكم قريى وبين البرابر  
وديلم من نسل ابن ضبة ياسل وبرجان من اولاد عمرو بن عامر  
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم وأولى بقربانا ملوك الاكاسر  
أتطمع في صهري دعيًا مجاهرا ولم تر سترًا من دعي مجاهر  
وتشتم لؤما رهطه وقبيله وتمدح جهلا طاهرا وابن طاهر<sup>(١)</sup>

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة انسابهم أو فسادها . وأمة الفرس بلغت أوج غدها قبل الاسلام بقرون ، وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم ، وجرى لهم معهم حروب ومنافسات قبل الاسلام ، وقد استولى الفرس على اليمن وأقاموا بين ظهرائي العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الاسلام - فهم اولى الناس بمعرفة احوالهم في جاهليتهم ، فلو وجدوا في ضبط انسابهم شكاً ما سكتوا عنه ، وقد بدأوا بالنقمة عليهم من اوائل القرن الأول للهجرة . واغرب من ذلك أن النسابين أنفسهم كان اكثرهم من العجم ، فهل يضعون شيئاً يكون سلاحاً عليهم في أيدي أعدائهم ؟

## اختلاف بعض الانساب

فكل ما لدينا من اخبار العرب يرجع إلى ترتيب النسب على ما ذكره في كتبهم أو

رووه في أشعارهم ، وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصاً ولا إشارة ، فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة في ما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين في نسبة بعض القبائل الى قحطان او عدنان او الى قيس أو كلب أو نحو ذلك ، لأن النسب كما قدمنا منقول في الاصل عن أفواه الناس على اختلاف الاصقاع ، والانسان غير معصوم من الخطأ . ولا يخلو ان يكون ديوان عمر بن الخطاب وفرض العطاء على النسب اوجب بعض التشويش ، وانتفاء بعض البطون الى غير قبائلها ، والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم . ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من اساسه ، كما ان اختلاف الرواة في تفاصيل احدى الوقائع التاريخية لا يدل على انها لم تقع . فلو اختلف جماعة في فتح عمرو بن العاص مصر ، فقال احدهم انه فتحها صلحا ، وقال آخرون انه فتحها عنوة ، وقال غيرهم انه جاءها بأربعة آلاف مقاتل ، وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف ، واختلف آخرون في هل جاءها العرب على الخيل او على الابل - فهل يدل ذلك على ان مصر لم تفتح ، واذا قال ذلك قائل ألا ننسبه الى الشذوذ في احكامه ؟

على ان اختلاف النسابين قد يكون سببه تشابه القبائل بالاسماء لفظاً واختلافها معنى ، وهذا كثير في انسابهم قد وضع له النسابون كتباً مستقلة ، ككتاب مختلف القبائل ومؤلفها لأبي جعفر محمد بن حبيب المتوفي في اواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع في جوتنجن سنة ١٨٥٠ . ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد ، بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية وبطون من القيسية . فبنو أسد بطن من الأزرد من كهلان من القحطانية ، وبنو أسد ايضاً بطن من قضاة من حير ، وبنو الأوس بطن من الأزرد من القحطانية ، وبنو الأوس بطن من العدنانية ، وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة ، وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية ، وبنو تغلب حي من وائل بن ربيعة من العدنانية ، وبنو تغلب بطن من قضاة من القحطانية ، وبنو تميم من طابجة من العدنانية ، وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية ، وبنو ثعلبة بضعة عشر بطناً من قبائل مختلفة<sup>(١)</sup> ومثلهم بنو ربيعة ، وبنو سليم ، وبنو عامر ، وبنو عدي ، وبنو كعب وغيرهم . فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع الى اصول مختلفة . قد وجدوا بطوناً كثيرة باسم بني امية ، ففي قريش امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفي اياد بن نزار امية بن حذافة ، وفي الانصار امية بن

زيد بن مالك من الأوس ، وفي طي امية بن عدي بن كنانة بن مالك ، وفي قضاة امية بن عصبه بن هيصص ، وقس عليه .

وقد تتشابه اسماء القبائل صورة وتختلف لفظاً ومعنى ، مثل جساس بسين مشددة وجساس بسين مخففة ، واكثر ما يكون الاشتباه في الاسماء المتشابهة بصور الحروف مع غرض الطرف عن النقط ، وقد كان ذلك سبباً كبيراً للالتباس قبيل الاسلام وفي صدره . ففي مذبح عنس ( بالنون ) ابن مالك بن ادد ، وفي غطفان عبس ( بالباء ) ابن بغيض ، وفي الأزدي عبس ( بالباء ) ابن هوازن بن أسلم . وقس عليه عنزة ، فانها بهذا اللفظ في ربيعة وهي عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفي خزاعة عيرة ( بالياء ) ويقال ايضاً عنز ، وفي الأزدي عنزة بن عمرو بن عوف بن عدي بن الأزدي ، وفيها ايضاً عيرة ( بالباء ) اما مضمومة العين او مفتوحها ، ومنها غيرة بالغين والياء باختلاف الحركات . ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة أيضاً ، ومثلها غبر وقس على ذلك اجرم واخزم واحرم ، وكل منها من اصل غير أصل الآخرين<sup>(١)</sup> .

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ اوجبت بعض الالتباس في انساب القبائل . ويقال نحو ذلك في قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن ، فقد يكون سببه ضياع بعض الاجداد لنسيان او غيره ، او اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلاً فرداً ، كما هو المظنون في بعض اجداد اليهود آباء التوراة . وهذا أيضاً من الأدلة على قدم الانساب من عهد الجاهلية ، اذ لو وضعها واضع بعد ذلك لاتقن صناعة التزوير واكثر من الآباء حتى لا يبقى مكان لظهور التزييف ، ولكن النسابين لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ، وانما نقلوا ما كان شائعاً على السنة العرب محفوظاً في اذهانهم على علته .

وزد على ذلك ان من القواعد الاساسية في تمييز الحقوق « ان الاصل براءة الذمة » ، فالاصل في انساب العرب ان تعتبر كما وصلت اليها ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليها او نقضها إلا بما لا يقل ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر او نحوه . اما الاعتماد على الاقوال النادرة ، او الرجوع الى شوارد الاخبار ، واتخاذ الشواذ قواعد ، فلا يصح الاعتماد عليه ، او هو استقراء ناقص ، بل هو ليس من الاستقراء في شيء ، وانما هو من قبيل التحكم على خلاف القاعدة المتبعة في البحث والنقد . والاقرب الى الصواب في

اثبات قضية ان نتدرج فيها من الجزئيات الى الكلّيات ، فمضى ثبتت الجزئيات ثبتت الكلّيات . واما صاحبنا فانه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها ، فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من اخبار العرب ما يتخذة اساساً يبني عليه بناء ضعيفاً يظهر ببرايعته كأنه صحيح .

فالاستاذ روبرتسن سميت صاحب طوقية العرب اطلع على رأي مكليمان في طوقية هنود استراليا وأمريكا ونحوهما ، ورأى لبعض قبائل العرب أسماء حيوانية ، ووجد النسابين مختلفين في أصول بعض القبائل ، فتبادر الى ذهنه انها بقايا الطوتم كما قدمنا ، فوضع القضية الكلية : « ان العرب كانوا من اصحاب الطوتم » ثم أخذ يبحث في كتبهم عما يؤيد هذا القول ، ولا يخفى عليك ما هنالك من النوادر الشاذة والحوادث المتضاربة ، فاختر ما ظنه يؤيد قوله وأغفل الباقي . فلو كان السير على هذه الحطة في الاستدلال والبرهان جائزاً لما أعجزنا اثبات اي قضية فرضناها ، مهما يكن من غرابتها فلو أردنا الذهاب الى ان المرأة في الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شأن في الهيئة الاجتماعية مثل شأنها في أمريكا اليوم ، لما عدمننا من أخبار العرب ما يسند هذا القول . وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد ما يشاكل زعمنا . ولكن القاعدة في مثل هذا البحث ان ينظر في مجمل الأدلة ويؤخذ الراجح بالاجماع او الاغلبية ، ولم يجمع العرب في اخبارهم او خرافاتهم او اشعارهم او تواريخهم او عاداتهم على شيء مثل اجماعهم على تلك الانساب ، افنكرها بمجرد الظن ؟ وهل يزال اليقين بالشك ، ثم نلتفت الى رأي ليس في اخبار العرب ولا في تواريخهم ولا تواريخ سائر الأمم السامية ما تشتم رائحته منه ؟

ثم ان تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف أماكنهم وعصورهم ، وهي مع ذلك مطابقة في اكثر رواياتها ، فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن اصلها صحيحاً ؟ وان قيل ان ذلك الاصل وضع بعد الاسلام ، فلا بد من ان يكون واضعه رجلاً ذا سلطان ، فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة اعداء العرب في ذلك العصر ؟

والصحيح ان النسب قديم عند العرب ، مثل قدمه عند سائر الامم السامية ، والعرب أشد تمسكاً به لبدائتهم وتنقلهم مع فراغ ايديهم من جامعة اخرى يرجعون اليها . وقد بالغوا في المحافظة على الانساب ، حتى حفظوا انساب خيولهم الى اجيال كثيرة ، فيلحقونها بما اشتهر منها في اللحاق او السباق من جياذ الخيل ، كأعوج والوجيه ولاحق

والغراب واليحموم<sup>(١)</sup> . ولو راجعت ما وصل إلينا من اخبار النسابين لمجبت من عنايتهم بحفظ الانساب وتدقيقهم في ضبطها . وكان احدهم اذا نسب واحداً تتبع نسب من ابيه الى رده فالفصلة حتى يصل الى القبيلة ، او بالعكس من القبيلة الى الفرد .

### الشعوب السامية

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب في مقدمة كتابه «اديان الساميين» وفي كتاب «انساب العرب» الذي نحن في صدده الى ان الساميين نشأوا اولاً في جزيرة العرب ثم تفرعوا ، فخرج العبرانيون والآراميون منها وعمرها ما حولها من البلاد وظل العرب فيها على بداوتهم ، فكان ينبغي ان تكون الطوتمية عندهما كما هي عند العرب . ولكنه لم يقل ذلك ، واذا قاله فلا نظنه يوفق الى ما يسند قوله ولو في الظاهر مثل توقيقه في طوتمية العرب ، لان اليهود قلما تسموا بأسماء الحيوانات لبعدهم عن البداوة الحشنة ، فلا يجد بين اسماء القبائل ما يساعده على هذا الزعم . وهب انه وفق الى بعض الاسماء كما وفق الاستاذ كوك في مقالة نشرها في المجلة الاسرائيلية الانجليزية سنة ١٩٠٤<sup>(٢)</sup> مثل كالب ويعقوب وعورب — فهي اسماء اشخاص لا اسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها في اثبات الطوتمية .

على انه لو ترك الافتراض والظن ونظر في الأمر على بساطته ، لرأى هذه الأمم السامية تتشابه في أمر حقيقي واضح لا التباس فيه ، وهو الانتساب الى آباء التوراة . وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء في التوراة من انساب الأمم ، اذ يظهر للمتأمل ان انساب العرب فرع من انساب الساميين ، وقد حقق ذلك واثبته جورج رولنسن في كتابه اصل الامم<sup>(٣)</sup> وادوار جلازر في كتابه تاريخ العرب وجغرافيتهم<sup>(٤)</sup> ولنا مقالة في انساب العرب منشورة في (الهلال) العشرين من السنة الخامسة ، بينا فيها انساب القبائل البائدة فضلاً عن القبائل الباقية ، بالاستناد الى التوراة ومؤرخي العرب ، والتوفيق بينهما وبين الآثار التي كشف عنها المنقبون ونصوص مؤرخي اليونان .

فالنسب العربي ثابت بثبوت انساب التوراة، مع اعتبار ما يراه اهل النقد من الباحثين ان اسماء بعض الآباء الاولين يراد بها القبائل لا الاشخاص ، فاذا نقضنا هذه لم يبق يدينا

١ — الكامل للمبرد ٤٥٤ .

The Jewish Quarterly Review

Rawlinson's Origin of Nations, 228

Glaser Gesch. & Geogr. Arabiens II. 266 & 424

— ٢

— ٣

— ٤

شيء. وهل يجوز ان نفعل هذه الأنساب الثابتة بتوالي القرون ، ونرجع الى رأي لا اساس له في كتب المشاركة ولا اشارة اليه في خرافاتهم ولا عاداتهم ولا اديانهم ولا شيء من آثارهم ؟

وبما لا يحسن الاغضاء عنه ان العرب لا يصح قياسهم في احوالهم وانسابهم بأصحاب الطوتم من الامم المتوحشة من هنود استراليا وامريكا وزنوج افريقيا ، لان العرب من ارقى الامم عقلاً ونفساً ، وهم اهل تمدن قديم مثل تمدن ارقى الشعوب القديمة ، وقد ذهب بعض الباحثين في آثار اليمن وحضرموت الى ان التمدن العربي القديم اصل التمدن المصري القديم ، اي ان الفراعنة اخذوا تمدنهم من بلاد اليمن - ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فانه يدل على اعراق العرب في المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم في تركيبها وألفاظها ، وهو يشهد بارتقاء عقول اصحابها من اقدم ازمنة التاريخ وقبله ، فهل يعقل ان يتخذوا آباء من النبات او الحيوان كما يفعل اعرق الامم وحشية اليوم ؟ على ان القول بالطوقية بجد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها في الامم المتوحشة ، ونخشى ان يكون القول بها مبنياً على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر في ادلة صاحبنا فننظر فيما يختص منها بالامومة ، ثم ما بناه عليها من الطوقية عند العرب فنقول :

### ٣ — الامومة عند العرب

#### الامومة على الاجمال

الامومة الانتساب الى الام ، ويراد بها انتساب اهل القبيلة او الامة الى اسيادهم بدلاً من آباءهم ، فيقال : فلان بن فلانة كما يقال في الابوة : فلان بن فلان . والامومة من الابحاث التي حدثت في اواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الارتقاء ، واول من استلقت الانظار اليها عالم الماني اسمه باخوفن في كتاب نشره سنة ١٨٦١ ، فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه ان الامومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوة ، فعنده ان الزواج كان عند الاقدمين فوضى بلا شرط ، وهو زواج المشاركة فاذا ولدت بعض النساء غلاماً لا يمكن تعيين والده وهو ملازم امه للرضاع فينتسب اليها

ويعرف بها ، فيصير الانتساب الى الامهات قاعدة عامة . فأصبح للمرأة المقام الاول في الهيئة الاجتماعية وهي صاحبة النفوذ ، كما هو حال الرجل اليوم .

\* \* \*

ثم ظهر كتاب مكليمان الانجليزي في الزواج عند القدماء Primitive Marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب في الامومة مذهباً جعل اساسه الزواج الخارجي ، اي تزوج الرجال بنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلّة البنات عندهم بالوآد ( على زعمه ) فنشأ عن ذلك في اعتقاده زيادة عدد الرجال ، فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الأزواج ، وانحصر النسب في الام وعلت منزلتها . وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى - كيف يمكن حفظ النسب بالامهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص ؟ على ان مذهب مكليمان في اصل العائلة ما لبث ان سقط بما كتب فيه المنتقدون ، وخصوصاً مورجن العالم الأمريكي صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء ، فقد برهن ان الزواج الداخلي لا ينافي الأمومة . وكتب في الأمومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم ، مثل باجيوت ودارجون واميرا وويلكن وستارك وبريد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعدادهم ، فنكتفي بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ ويلكن المستشرق في كلية لندن ، فانه وضع كتاباً في الامومة عند العرب على الخصوص ، كتبه بعد مطالعة كتاب الاستاذ روبرتسن سميث في طوتمية العرب ، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه ، ولكنه يرى رأيه في ان الامومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام ، وان الانساب التي يتناقل العرب اخبارها موضوعة . واستشهد بقول نولدكي المستشرق الالماني الشهير في هذا الشأن ، وخلاصة قوله ان الانساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقاً <sup>(١)</sup> وهو قول قد بينا بعده عن الامكان وستأتي تنمة الكلام .

ولو أردنا الاتيان على اقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقام ، فننقدم الى النظر في ادلة سميث التي نحن في صدها ومن قال قوله :

أدلتهم على أمومة العرب

ليس في أدلة سميث ولا غيره على الامومة عند العرب قول صريح او دليل ثابت ،



وانما هي قرائن او اشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا ان تكون هي وحدها دليلا عليها . فانتساب بعض القبائل او البطون أو العشائر الى امهاتهم ، وتأنيث اسماء القبائل ، واشتقاق لفظ الامة من الام ، واطلاق لفظ الحال على اهل الام جميعاً ، وامتلاك بعض النساء عصمتهم بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه صاحبنا في اثبات قوله على ما سنبينه . . هذه كلها - اذا فرضنا ثبوتها - لا يجوز اتخاذها دليلا على ان العرب كانوا ينتسبون الى امهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة . لان وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آباءهم ، بل هي تعد من قبيل الشواذ ، أو انها وقعت على سبيل الاتفاق . ولو جاز لنا ان نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في اقوالنا وعقائدها . فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن ، أي ان الرجل هو رأس العائلة وهو سيدها ، ويؤيد ذلك لفظ « البعل » للزوج والسيد جميعاً . ناهيك بشهادة التوراة ، فانها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الامومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين او غيرهم ، ولو على سبيل النقد او النهي او الاصلاح . ولا ورد شيء من ذلك في القرآن ، ولا شوهة منقوشة على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديماً ولا حديثاً ، بل كل ما جاءنا من هذا السبيل يؤكد سيادة الابوة عند الساميين . ولو افترضنا وجودها لاقتضى ان يكون ذلك قبل اسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها ، لان هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للامومة اثر على الاطلاق . بل ينبغي ان تكون قد احدثت آثارها قبل موسى بعدة قرون ، لان شريعة حمورابي التي اكتشفوا نصها مؤخراً دونت نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد<sup>(١)</sup> وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدل على ان نظام العائلة كان في عصر حمورابي نحو ما هو عليه الآن : الرجل رب العائلة . وليس في نص من نصوص شريعته او موادها لفظ او عبارة او قرينة تدل على وجود الامومة ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولا اطلعنا على ذكر الأمومة أو الاشارة اليها في كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات ، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها . ولا اكتشف المكتشفون نقوشاً من نقوش الاطلاع فيه اقل اشارة الى ذلك ، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد في اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة ؟

## قول استرابون

والظاهر ان القائلين بالأمومة عند العرب نبههم اليها ما طالعوه في كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود امريكا وأستراليا وفي بلاد التبت ونحوها ، وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج ، فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام ، وخصوصاً بعد ان قرأوا ما قاله الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب في عصره ، اي نحو القرن الاول قبل الميلاد . فقد جاء في الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة ، فللأخوة جميعاً امرأة واحدة ، والذي يدخل منهم اليها أولاً يترك عصاه بالباب . وأما الليل فهو خاص بكبرهم . وقد يأتون امهاتهم ، والزناة يعاقبون بالقتل ، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم » <sup>(١)</sup> فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة ان هذه الفقرة تؤيد الأمومة ، وليس الأمر كذلك . لأن هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة في الزواج بامرأة واحدة ، وليس اهل العشيرة جميعاً . فهي تدل على وجود العائلة واستقلالها ، مما يخالف شروط الأمومة . وتشير ايضاً الى تحريم الزواج الخارجي ، وهو من أسس الأمومة عند اصحابنا ، ويقول استرابون ان العرب كانوا يعاقبون مرتكبه بالقتل .

وهب أن نص هذه الحكاية لا يخالف ما يريدونه بالأمومة ، فتكون الأمومة شائعة عند العرب حوالى تاريخ الميلاد . وقد تقدم قول الاستاذ سميث ان العرب والعبران والآراميين كانوا في اقدم ازمانهم عائشين معاً في جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والآراميون وظل العرب مكانهم . وبيننا قبل ان العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الاطلاق ، ولا سمعنا بمثله عند الآراميين ، واغفال حمورابي ذكره في نصوص شريعته يدل على انه لم يكن معروفاً في عصره في بلاد ما بين النهرين أو ما يحاورها ، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ؟ فالأرجح عندنا ان يكون استرابون قد شاهد حادثة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب ، أو سمعها من بعض الرواة فصدقها لغرابتها ، فأوردها على علاقتها كما يفعل كثيرون من أمثاله ، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيقولون في وصف أهله وعاداتهم على ما يلقيه عليهم بعض التراجم او غابري السبيل ، بما فيه من المبالغة او الاختلاق ، وهم ارغب في نشر الغريب استجلاباً لاعتجاب قرائهم ، كما حدث في الأجيال الوسطى وما بعدها على اثر انتشار الاسلام .

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، واختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليطلة وغيرها ، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونه تارة مفمت Mophomet ، وآونة بفمت Bophomet ، وحيناً بافون Bafon ، وكانوا يظنون محمداً صنماً يعبد به المسلمون . حتى يولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء ، مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة ، فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا اصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم ، كقوله مثلاً ان النبي ( صلعم ) اعلن اصحابه ان الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثة ايام - زعم انه نقل ذلك من مسودات لاتينية عثر عليها في مبلونة . فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين ، كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد . حتى الذين يقيمون بين اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنا الأكاذيب التي ما انزل الله بها من سلطان، وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل او اتفاق فيعدهونها من القواعد المرعية عند سائر افراد الأمة . وبين يدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت في اثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر ، وفيها من المفتريات ما لا اصل له الا في ذهن الكاتب او ملقنه ، ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات ، لرسخ في اذهان اهل الغرب ان الشرقي يكذب امرأته للحرارة ، وأنه يزرع القوارما ( اللحم المقلي ) وهو يعتقد أنه سيستغل خرفاناً ، ويزرع الفحم ليستغل عبيداً .. فكيف في عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرناً وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا اقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك ان تنمة قوله في هذا الموضوع تدل على انه اورده على سبيل الحكاية ، ولم يغفل الاشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون On dit فلا عبرة بما ذكره استرابون فيما يختص بالامومة ، وهو بظاهره اصرح ادلة صاحب طوتية العرب . واما سائر ادلته فاتما هي قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها . وحق لا يقال أننا لم ننصفه نأتي بتلك الادلة وننظر في كل منها على حدة وهي :

#### ١ - الانتساب الى الأمهات ( صفحة ٢٧ و ٣٠ من كتابه )

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما اسم امرأة نسبت القبيلة اليها -- ولو نقبنا بين المئات من اسماء القبائل والبطون والافخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم الا بضعة قليلة . فأى غرابة في ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة في المئة ينسبون الى الامهات ، كآل ظريفة وآل تقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية ، وقس عليه اهل اللغات الاخرى ؟ فهل يجوز الذهاب الى ان هذه الاسماء من آثار الامومة عند اسلافنا ؟ ام نأتي على تحليلها

من الطريق الاقرب ، وهي ان بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هي جدتهم العليا ، لان جدهم مات وهي كفلتهم وربتهم فمرفوا باسمها . وقد يكون الاب مجهولاً لحصول الحمل من السفاح مما يحدث في الجاهلية وغيرها ، فيولد الولد لا يعرف ابوه فينسبونه الى امه ، كما وقع لزياد ابن ابيه الصحابي الداهية ، فقد كان يعرف بأمه سمية فيقال زياد بن سمية ، ولولا استلحاق معاوية اياه بنسبه لعرف اعقابه بآل سمية ، ولو تقدم عهد هذه العائلة وتنبسي خبر أمها لاضافها صاحبنا الى اسماء امهات القبائل وعددها من بقايا الامومة .

ويكثر الانتساب الى الامهات على الخصوص في الامم التي يتزوج رجالها امرأتين فأكثر ، فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميهما باسم واحد ، فينسب كل منهما الى امه فضلاً عن انتسابه لابيه تمييزاً له عن ابن الام الاخرى ، وقد يشتهر بنسبته الى امه دون أبيه ، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الاسلام وبعده . فقد كان لعلي بن أبي طالب غير امرأة ، ولد له منهم عدة أولاد من جللتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد ، فنسب أحدهم محمد الاكبر الى امه خولة بنت جعفر من بني خنيفة فسماه محمد ابن الحنفية ، فلو عاش هذا في الجاهلية لعرف اعقابه ببني الحنفية بطن من هاشم او من قريش ، كما عرف بنو العدوية نسبة الى امهم من قبيلة عدي .

وقد يشتهر الرجل باسم امه وان لم يكن له سمي من اخوته ، وانما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الامين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة ، لفضل امه على سائر امهات الخلفاء وشهرتها ، وقس عليه . فهل يجوز ان تؤخذ هذه الحوادث ادلة على الامومة ؟ وزد على ذلك ان القبائل العربية التي تنسب الى امرأة ترجع اخيراً الى النسب الابوي ، وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلاً نسبوا الى امهم ظاعنة وهم ينتسبون ايضاً الى ابيهم ، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن اد . وبنو خندف هم ايضاً بنو الياس بن مضر ، وقد نسبوا الى امهم امرأة الياس واسمها خندف ، وبنو طهية نسبوا الى امهم ، وهم بنو سود بن مالك ، وقس عليه<sup>(١)</sup> .

## ٢ - ثانيث اسماء القبائل ( صفحة ٢٨ )

أي ان العرب تقول : جاءت مضر وسطت قيس الخ ، ولا يقولون : جاء مضر ،

وسطا قيس - فلا ندري العلاقة بين تأنيث الاسم والامومة ، والتأنيث والتذكير في العربية لا قياس لها ، ولو صحت الامومة لما ضرها ان تكون اسماء القبائل مذكورة ، كما ان تأنيثها لا يثبت وجود الامومة . على ان لتأنيث القبائل سبباً مبنياً على قاعدة من قواعد اللغة ، وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبل كل اسم ، فقولنا « مضر » ، يراد به « قبيلة مضر » ، وقولنا « قيس » يراد به « قبيلة قيس » ، فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف . والحكمة في ذلك دفع الالتباس بين ان يكون المراد بالفاعل رجلاً اسمه قيس او مضر او القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثاً انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هذا المبدأ يؤثون اسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثاً ، فنقول : فتحت بغداد وعمرت مصر او الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم : روت المقطم ، وذكرت المؤيد ، وقالت الهلال - فنؤنث الفعل ، والفاعل مذكر لفظاً ومعنى ، وانما نقدر قبله كلمة الصحيفة او المجلة .

### ٣ - التعبير عن القرابة بالبطن ( صفحة ٢٨ )

فيزعم ان تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الام ، - نراهم ان البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة ، وانما جعلوا اسماءهم شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها ببعضها ببعض ، او تفرعها بعضها عن بعض . فالمجموع الأكبر عندهم « الحي » كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة النازلون بمربع وهو ينقسم الى « الشعوب » أي الفروع ، والشعبان النصفان ، كأنهم ارادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين : ايمن وايسر . ويليهما « القبائل » وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض . ثم « العنارة » كناية عن الصدر ، ثم « البطن » ، وبعده « الفخذ » ، واخيراً « الفصائل » . فتري استخدام البطن للقبيلة او بعض فروعها لا علاقة له بالامومة ، وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من اعضاء الجسد . واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلاً ، وقبلنا التعليل الذي تبادر الى ذهن حضرة ، لاقتضى ان يدلوا بالبطن على العائلة التي هي من بطن واحد ، ولكنهم يريدون به القبيل المؤلف من عدة قبائل .

### ٤ - اشتقاق لفظ الامة من الام

وهو عنده دليل على ان الأصل في النسب الام ، وخصوصاً لأن الام في العبرانية تدل

على القبيلة او الجماعة ، ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز ، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية ، كقولهم : ام القرى ، وام المدائن ، والأمهات للعناصر . وعندهم الأم الاصل ، فأم كل شيء أصله وعماده ، وكل شيء انضمت اليه اشياء فهو ام لها . والاصل في هذه المعاني اتباع الاطفال امهم ، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم ، فيتبعونها وينقادون لأمرها لأنها أصل النسب . ولهذا السبب قالوا ام الكتاب أصله ، وام القرى مكة ، وام الدنيا مصر لكثرة اهلها . واما اشتقاق الامة من الام فيعمل بنفس هذه الكيفية ، لاستعارة الامومة للرئاسة او من التوليد لظهور ذلك في النساء دون الرجال ، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق الى اذهاننا الأم ، ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن او الرحم ، وليس لأن الأم أصل القرابة . ولو تتبععت معاني ما يقابل لفظ الامة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى ، فلفظ nation في اللغات الافرنجية معناه الامة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى « ولد » ، والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الابوين مع ان اللفظ يقتضي ان تكون وطن الام فقط . فعلى تحليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلا على شيوع الامومة عند الانجليز الآن !

### ٥ - الحال والعم والكنة

وذلك ان لفظ « الحال » بالعربية لا يراد به اخو الام على الخصوص ، ولكنه يطلق على كل رجل من اهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة اصل معناها « الشعب » ، وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن . وعليه فلا تكون عند العرب غائلة خصوصية وانما الولد يكون ابن الجماعة او القبيلة على ما تقتضيه الامومة او الطوقية - وهو قول غريب اذا صح الاعتماد عليه تشوشت احكامنا في انساب الانجليز والفرنسيين وغيرهم ، لأنك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق او الاشتراك ، فلفظ Cousin في السلتهم يدل على كل قرابة عصبية ابعد من الاخوة ، فهو ابن العم ، وابنة العم ، وابن العم ، وابنة العم ، وابن الحال ، وابنة الحال ، وابن الحالة ، وابنة الحالة ، وابن ابن العم ، وابن ابن الحال الخ . . . الا مثيل له في العربية . والاصل فيه ابن الحالة ، لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي ابن أخت الأم - فهل يفيدنا اطلاقه على كل الأقرباء ان الأصل في القرابة الام ؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الانجليزية وما يقابلها في اللغات الافرنجية الاخرى ، فانها تدل على العم او الحال واصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الحال ثم اطلقت على العم . والحقيقة ان لا عبرة في هذا الاختلاف فيما يختص بالامومة ، فان اللغات تختلف في طرق

الدلالة بما لا قياس له، وخصوصاً من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة أخرى إلا بعدة الفاظ: فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في اللغة الانجليزية الا بثلاثة الفاظ brother-in-law ، وكذلك المحو فهو عندهم father-in-law ، والجد يعبر عنه في اللغة الانجليزية بلفظين grand father ، وكذلك حفيد Grandson وبمعكس ذلك لفظ Nephew في الانجليزية فلا يمكن التعبير عنه في العربية الا بلفظين : ابن الاخ او ابن الاخت ، ومثلها Niece بنت الاخ او بنت الاخت - فدلالة كل من هذين اللفظين على اولاد الأخ والأخت معاً قد يتخذها اصحاب رأي الامومة من جملة الادلة عليها !

ولفظ « الكنة » في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء ، فاستدل صاحبنا بذلك على ان الرجل كان يتزوج كنته ( أي امرأة ابنه او امرأة اخيه ) فلا رابط للزواج بين الرجل وامراته . والجواب على ذلك يدخل فيما تقدم بيانه من اختلاف معاني الالفاظ توسعاً ومجازاً . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج اخته ، ويراد بالصهر ايضاً القرابة على العموم ، والاصهار اهل بيت المرأة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحياء ، فهل يصح الاعتماد على مثل هذا التوسيع في اثبات مبدأ أو رأي ؟

## ٦ - زواج المتعة

وهو الزواج الوقي ، اي ان يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى اجل مسمى ففي انقضى الاجل بطل الزواج . فيرى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعاً عند ظهور الاسلام ، وهو يحسبه يؤيد رأيه في الأمومة ، وهي تقتضي اباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط ، والمتعة لا تكون بدون عقد فهي تناقض ما اراد اثباته . فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التي كانت شائعة في الجاهلية ، وكلها تنفي الامومة لأن الرجل فيها صاحب السيادة وصاحب العصمة .

## ٧ - الواد

يرى صاحب طوقية العرب ان شيوع الواد في الجاهلية قلته البنات فاضطروا الى الاشتراك في النساء ، فكان يشترك عدة رجال في امرأة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها . وقد بالغ بعض الباحثين في مسألة الواد وتوهموها عادة شائعة في بلاد العرب

كلها، والناقد يرى انها كانت منحصرة في مكان معين زيماني معين تحت احوال مخصوصة ، والا فلا يعقل أن يعمد الى دقن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة في الأزواج وفي طاقتهم ان يتخلصوا من ذلك الضيق . وقد ذهب بعضهم الى ان العرب كانوا يثدنون بناتهم خوف الفقر ، وهم في حل من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الأزواج عليهن بالمهر والمدايا . وقال آخرون انهم كانوا يثدونهن خوف العار ، واذا صحت الامومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء . وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الفيرة ، وهي لا تكون في زواج المشاركة ، وفي الحاليين فان دليله في الوأد ساقط .

#### ٨ - العصمة في يد المرأة

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهم في الزواج والطلاق دليلا على سيادة الامومة ، وان المرأة هي رئيسة العائلة - فما اغرب هذا الاستنتاج وما انقص هذا الاستقرار .. ان المرأة في الجاهلية لم تكن عصمتها في يدها الا في احوال مخصوصة وحوادث نادرة ، فهل نجمل الشاذ قاعدة نبني عليه ، والنادر قياساً نقيس به ؟ واما القاعدة في زواجهم فهي ان تكون العصمة في يد الرجل . وهب أنها في يد المرأة ، فلا تكون الا بعقد مقيد بشروط وقوانين ، وليس على سبيل الاباحة والاشراك كما يريدون بالامومة . وقس على ذلك سائر أدلته لاثبات الامومة ، فان مرجعها الى تأويل الالفاظ والاعتماد على الاستقرار الناقص كقوله ان الاب معناه المربي ، وكاستخراجه الحي من حواء وذكره القرابة بالرضاعة او المؤاكلة وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس في رده بما قدمناه .

#### الخلاصة

فالقول بشيوع الامومة في العرب الجاهلية لا يستطيع اثباته بالقرائن الضعيفة ، لان اليقين لا يزال بالشك ، الا اذا جاز الاعتماد على الشاذ واغفال القواعد العامة . فقد رأيت في شروط الامومة أن يكون الزواج من الخارج بالغزو او السبي ، لان بنات القبيلة في زعمهم تقل بالوأد او بغيره ، وان تكون المرأة زوجاً لعدة رجال معاً واولادها ينسبون اليها ، فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو ، وكيف يمكن الرجوع بالانساب في القبيلة الواحدة الى الام ، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة ان تغزو غيرها للحصول على النساء . والقاعدة الطبيعية في تاريخ الانسان في أدواره الاولى أن يكون النساء اكثر من الرجال ،



لتمرض هؤلاء للقتل ونحوه بالغزو والسطو ، والاولى ان يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن . على ان الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الابوي ، لان الآباء يبقون في القبيلة . ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجواري في صدر الاسلام ، فانهم تكاثروا حتى اختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن ، وظل النسب في الرجال - ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل . ولو فرض ان النساء يحاربن القبائل للحصول على الأزواج بالسبي ، لكان ذلك اقرب الى حفظ النسب فيهن ، اي الانتساب اليهن او الى قبيلتهن .

فالقول بتسلط الامومة على الاجال يفتقر الى اثبات او تعديل ، لان وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران ، او هو لا يوافقها على الاقل عند العرب ، لان القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين ان تكون داخل القبيلة ، واذا جنح احداهم الى الخارج فلسبب طارئ . هذا هو حالهم في اقدم ما نعلمه من اخبارهم في التوراة وغيرها ، والعربي يسمي امرأته ابنة عمه وان لم تكن كذلك ، لان الغالب في الزواج عندهم ان يكون بين ابناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود اكثر الامم محافظة على انسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم ، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقاباً صارماً ، واذا تزوج اسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح ، ويسمون المولود من ذلك الزواج « نغلا » كما يسميه العرب « هجيناً » اي لثيماً ، فكيف نزع مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو ، واذا فرضنا أنهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل ، وكيف انتقلت الامومة الى الابوة او البعولة ، ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها ، واصحاب مذهب الامومة انفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك ، فما اغنانا عن الذهاب اليه . ومن يطالع تاريخ الزواج من اول احوال العمران الى الآن لا يرى فيه الا ما ينقض الامومة .

#### ٤ — الطوقية عند العرب

واذا نقض القول بالامومة عند العرب نقض معه القول بالطوقية عندهم ، لانها اساسها واول شروطها . ومع ذلك فاننا ننظر في ادلة صاحبنا من حيث الطوقية على حدة ، فنذكر شروط الطوتم كما فسرهم هو ، ثم ننظر في تطبيقها على احوال العرب .

فالطوقية يشترط فيها « أن يتفق اهل القبيلة الواحدة على حيوان او نبات او كائن آخر يعتقدون أنه جدھم الاعلى يتسمون باسمه ويعبدونه او يقصدونه » ، فهل ينطبق ذلك على احوال العرب الجاهلية انطباقاً كلياً او جزئياً ؟ ولكي ينجلي الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية الى اجزائها الاصلية ، وعليه فالطوقية تقتضي :

أولاً - ان يتفق اهل القبيلة على حيوان او نبات يعتقدون انه جدھم الاعلى .

ثانياً - ان يتسموا باسمه او ينتسبوا اليه .

ثالثاً - ان يعبدوه او يقصدوه .

ولا تثبت الطوقية ما لم تجتمع هذه المقدمات عند الثلاث العرب . ولو انك بحثت في اخبارهم قديمها وحديثها ، من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت ، وفيما رواه غير العرب عن احوالهم القديمة في كتب اليونان والرومان فضلاً عن التوراة ، وما قرئ من اخبارهم على آثار آشور و آثار ثمود و آثار اليمن وحضرموت ، لما وفقت الى العثور على ما يشير الى وجودها . واذا درست احوال العرب الآن في الصحارى والمدن والادوية والجبال ، لا تجد بينهم قبيلة ولا بطناً ولا رجلاً يعتقد انه متسلسل من اسد او ثور او ثعلب او حمزة او وردة . وسها اجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد اثراً لهذا الاعتقاد على الاطلاق ، ولو على سبيل الخرافة او في معرض التكذيب او الطعن - فالمقدمة الاولى سقطت .

اما الثانية فبعضها صحيح ، اي ان بعض القبائل تسمى باسماء الحيوانات ، كبني أسد وبني النمر وبني كلب ونحوها ، ولكنها لا تعتقد ان اولئك الاجداد حيوانات ، بل هي تعدم انساباً لهم انساب متصلة بالآباء الاولين .

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد ، لان بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات ، مثل عبادة سائر الامم الوثنية القديمة في مصر واشور وفينيقية ، من كانوا يعبدون أصناماً يمثلون بها القوى العلوية - لانها تعبد حيواناً خاصاً تقدهه وتجتنب اذاه وتعتقد انه جدھا كما يفعل أصحاب الطوتم . فبنو اسد مثلاً يتسمون باسم الاسد ، ولكنهم لا يعتقدون انه جدھم ولا يقصدون الاسد او يعبدونه ، واذا عرض لهم الاسد قتلوه . وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر او فرس او غيرها من الاصنام الحيوانية . وشرط الطوقية انما هو أن يعتقد بنو اسد ان الاسد جدھم ، وان

يقدموا كل اسد او يعبدوه او لا يؤذوه. وبنو ثور يجب ان يعتقدوا ان الثور جدهم ، وان يعبدوا الثيران او يقدموها ولا يذبحوها او يؤذوها . وبنو جراد حقهم ان يعتقدوا تسلسلهم من الجراد ، ويقدموه ولا يأكلوه كما رأيت فيما تقدم من شروط الطوتمية عند الامم المتوحشة اليوم . ولا يكفي ان تسمى القبيلة باسم الثور مثلاً وتقدس الجراد ، او تسمى باسم الاسد وتقدس الفرس . ولو فرض وافق لقبيلة ان تسمى بحيوان وتقدسه او تعبده فليست من الطوتمية في شيء ، لأن الشرط الاول ان تعتقد تسلسلها عنه . وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها في قبيلة من قبائل العرب ، ولا في بطن من بطونها ، ولا في فصيلة ولا فرد من افرادها ولو على سبيل الخرافة او الاكذوبة . حتى اجتماع الشرطين الأخيرين فإنه متعذر ، اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمى باسم حيوان وتعبده ، ولا يكفي ان تعبد صنماً بشكل ذلك الحيوان ، بل الشرط ان تقدس جنس هذا الحيوان وتتجنب اذاه ، كما كان المصريون يقدمون الهر او الجعلان . والعرب لا يقدمون حيواناً إلا نادراً وفي احوال مخصوصة . على ان صاحبنا لم يتفق له ، مع ما اجهد نفسه وتوسع في برهانه من التأويل والتفسير ، أن يأتي بدليل على ان قبيلة من القبائل المسماة بأسماء حيوانية كانت تجسد صنماً بشكل الحيوان الذي تتسمى به ، وان كان توفيقه الى ذلك لا ينفعه شيئاً ، لأن المطلوب ان القبيلة التي تتسمى باسم حيوان يجب ان تقدس جنس ذلك الحيوان لا صنماً بشكله

فذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الأمومة ، ثم هو ساقط أيضاً بعد احوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت - ومع ذلك فلا ينبغي لنا الاغضاء عن الأدلة التي اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب في اثبات هذا الرأي وسبب ذهابه اليه مع غرابته فنقول :

## ٥ - أدلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الأدلة في كتابه يتضح له من مجملها انه لما اطلع على احوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكليمان وغيره - وهو مستشرق يعرف احوال العرب الجاهلية وقبائلها وأنسابها ومعبوداتها - ورأى بعض القبائل او البطون تسمى بأسماء حيوانية ، وكان العلماء يومئذ مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون برد

كل الحوادث اليه كما قدمنا، ورأى النسابين العرب مختلفين في تحقيق انساب بعض القبائل، تبادر الى ذهنه ان اسماء هذه القبائل من بقايا الطوقية عند العرب ، فأخذ يفتش عن شروطها الأخرى ، فرأى بعض القبائل تعبد اصناماً بشكل بعض الحيوانات ، فتمكن ذلك الرأي من ذهنه ونسي ان الشرط ليس عبادة صنم حيواني الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه كاسم القبيلة . او لعله انتبه لذلك وظن نفسه قادراً على الاتيان بحادثة يمكن تأويلها او قرينة يستدل بها على شيء ، واخبار العرب كثيرة وفيها الغث والسمين والناقض والمنقوض ، وهو قوي الحجة لطيف الأسلوب فوفق الى أدلة توهم غير المتأمل انه اصاب بها المرمى وهو بعيد عنه كما سترى . واليك ادلته وبيان فسادها :

#### تسمية القبائل بأسماء حيوانية ( صفحة ١٨٨ )

ليس بين أدلته على الطوقية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الا اسماء القبائل ، وإن كانت هذه الاسماء لا تكفي وحدها لاثبات رأيه لاسباب تقدم بيانها . ولكنه يحتاج بأن تسميتها بأسماء حيوانات ليست من قبيل العبث ولا بد لذلك من سبب . فعلينا ان ندفع حجته بأن هذه التسميات طبيعية لا غرابة فيها .

ان صاحبنا الاستاذ اورد من اسماء القبائل كل ما يشتم منه رائحة الحيوانية ، ولم يزد عدد ما اورده منها على ثلاثين اسماً بعضها قبائل وبعضها عمائر وبعضها بطون او فصائل وهي :

بنو أسد	بنو جمعة	بنو ضب	بنو فهد
بنو بدن	بنو جعل	بنو ضبيعة	بنو كلب
بنو بكر	بنو حداء	بنو عضل	بنو نعامه
بنو بهشة	بنو حمامة	بنو عنز	بنو نمر
بنو ثعلب	بنو حفش	بنو غراب	بنو وبر
بنو ثور	بنو دؤيل	بنو فهد	بنو هوزن
بنو جعش	بنو دب	بنو قرد	بنو يربوع
بنو جراد	بنو ذئب	بنو قنفذ	

ولو عدداً أسماء القبائل العربية وفروعها من العماز والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات ، وربما ناهزت الالف . فلو كانت التسمية طوطمية لوجب ان يزيد عدد القبائل الطوطمية على سائرها ، ثم ان بعض ما اورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ، ولكنه اختار الحيوانية ليزيد اسباب برهانه . فبكر مثلاً تفسر بولد الناقة ، ولكن لها معنى « العذراء » ، و« اول كل شيء » ، والسحابة ، والكرم اول حمله ، وغير ذلك . على اننا لو رجحنا معناها الاول ، أي ولد الناقة ، لما كانت في التسمية شيء من الطوطمية ، لأن العرب لو جاز ان يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل » أو « البعير » اولى من سواء ، نظراً لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم ، وليس من القبائل ما يسمى به إلا بكر هذا ، وهو اقرب ان يكون لقباً لقب به رجل فتي نشيط كأنه ولد الناقة . و « البهشة » البقرة الوحشية ، وابن الزنا . و « الجمعة » الانثى من اولاد الضأن ، والمرأة في شعرها جمودة ، فلماذا لا يكون المراد بها المعنى الثاني لو لم يسبق الى ذهنه الطوطمية ؟ و « العضل » الجرذ ، ولكنه أيضاً يدل بكسر العين على الداهية من الرجال او القبيح منهم ، فلماذا لا يكون احد هذين المعنيين ؟ و « القهد » نوع من ضأن الحجاز ، ولكنه يدل ايضاً على الرجل الابيض اللون نقيه . وقس على ذلك - فالقبائل التي تثبت تسميتها بأسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة او فرع قبيلة .

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لا يصح عزوه الى الطوطمية ، فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون بأسماء الحيوانات ، او يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه .

### التسمية

ان لأسماء الاعلام تاريخاً طويلاً في علم العمران ، وهي تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور وباختلاف الامم . فكل امة تختلف التسمية فيها عما في سواها ، وتختلف في الامة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها . على انها في كل حال تقتبس مما يقع في النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها ، فتختار من اسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فاذا تديننت انتسبت الى الاله او الآلهة ، سواء كانت تلك الالهة اجراماً سماوية او حيوانات او اصناماً او غير ذلك . اما قبل التدين او في حال البداوة الحشنة ، فالغالب

ان يختار الناس لابنائهم اسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الاجسام الطبيعية ، ولا سيما الحيوانات على ما يتوسمون في المولود من القوة أو الشجاعة أو الدهاء أو الدعة أو الخوف . فيختارون له اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ، فيسمون الرجل الشجاع بالاسد ، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال أو الحمامة . وقد جرى على ذلك معظم الامم القديمة في كل انحاء العالم ، ولا سيما الامم الحربية أو اهل البداوة والغزو الذين يعيشون في البراري ويرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم ، كما كان شأن العرب في ايام جاهليتهم فقد كانوا يعيئون بين الحيوانات حتى درسوا طبائنها ووصفوا كلا منها بوصف خاص ، فاذا ولد لهم ولد هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله أو طباعه ويسمونه به .

وليس هذا خاصاً بالعرب ، بل هو يتناول سائر اهل البادية أو من جرى مجراه قبل تعلقهم بالدين . فاليهود كانوا في اوائل ادوارهم يحرون في التسمية على هذا النمط ، ولذلك رأيت بين اسمائهم القديمة كثيراً من اسماء الحيوانات ، كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (أسد) ويونا (حمامة) وراهيل (نعجة) وشوان (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال) . أو اسماء الاجرام السماوية مثل حودش (الهلال) . ومن الاوصاف الطبيعية أشور (اسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) . وقس على ذلك سائر الامم القديمة ، ولا سيما قبل تدينها فقدماء الانجليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات ايضاً ، ومن اسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف أو ذئب الحرث) وقد تسماوا بالاوصاف الطبيعية كالابيض والاسمر والطويل والقصير ، ثم تدرجوا الى الصناعات كالحداد والنجار والنقاش والسروجي . وانما يهنا في هذا المقام الاسماء الحيوانية ، وهذه لم تحل امة من التسمية بها ، على تفاوت في ذلك بتفاوت احوالهم من البداوة والحضارة . ولا يزال عند الأمم المتعدنة حتى الآن عدد كبير منها أو ما يقابلها من اسماء الكائنات الطبيعية كالخجاعة والاشجار ، واليك امثلة من ذلك :

فن الاسماء اليونانية والرومانية :

Leonidas

كلاسد أو الاسد

Napoleon

أسد الغاب

Peter	صخر
Philip	حب الخيل
Darcas	غزال
Leo	أسد

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتيتونية :

Arnold	النسر او قوي كالنسر
Athelston	الحجر الشريف
Bernard	الذئب او قوي كالذئب
Bertram	العقاب او قوي كالعقاب
Everard	الخنزير البري
Giles	نعجة
Ingram	عقاب
Leonder	أسد
Leonard	كالاسد او كالعقاب
Oven	خروف
Randal	ذئب المنازل
Rodolph	الذئب المشهور
Ethelnid	الحية الشريفة

ومن الاسماء الفارسية القديمة :

اسد الجبل	شير كوه
الاسد	ببر او بابر
وجه الشمس	جمشيد
الاسد الغضوب	اردشير
نوع من النمر	بلاش
السماك الفضي	سيمورغ
الجوادر المذهب	زرسب

المزيخ  
الثعبان

بهرام  
الضحاك

فترى مما تقدم أن التسمية بالاسماء الحيوانية من القواعد الطبيعية المرعية عند سائر الأمم ، وربما كان العرب أكثر تمسكاً بها لما تقتضيه بداوتهم وخشونتهم ، ولذلك كثرت عندهم الاسماء المتعلقة بالحروب ايضاً ، كحرب ونصر وسعد وعدوان وعبس وأشجع وسهم وصخر ونحوها - قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » فقال : « انما نسمي ابناؤنا لاعداؤنا وعبيدنا لانفسنا » (١) .

على ان المتعبدين من العرب للاصنام كانوا يتسمون عبيداً لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبد تيم وغيرها . ولما اسلموا كثرت اسماؤهم المنسوبة لله او بعض صفاته ، كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم وعبد الاحد وعبد الصمد . وذلك شأن الأمم المتدينة في كل مكان وزمان ، فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثل « تغلاتنين » عبد الاله تنين ، و « متاغل نبو » عابد نبو ، وكذلك البابليون فانهم يضيفون اسماءهم الى الههم « بل » او « نبو » ، فيقولون « بل ابني » بل صنعني ، و « نبو نصر » اي نبو ينصر ، و « عبدنبو » أي عبد الاله نبو ، و « نبو بالوزور » نبو يحمي ابني (٢) وكذلك اليونان بعد تنصرهم ، ومن اسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله ، و « ثيودورس » عبد الله وغيرها .

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم بأسماء الحيوانات امر طبيعي يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبيب ، كقولهم ذؤيب واسيد وكليب ونحو ذلك ، مما لا يفسر إلا اذا كانت تلك الاسماء القاباً للناس . وظل العرب على ذلك في بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالاسماء الدينية كما تقدم . ولما تمدنوا تسموا بأسماء الصنائع كالنحاس والصيدلاني والكحال والنجار والاسطرلابي ، ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البلاد كالدمشقي والبغدادى والبصري والبخاري والنيسابوري وغيرها - فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على اسماء الحيوانات ليس أمراً غريباً .

١ - الديميري ٢٤٢ ج ٢ .



قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « والعرب انما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك. وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجر او رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك اذا سمع انساناً يقول ذئب او رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وان كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب ، ولذلك صور عبید الله بن زياد في دهليز كلباً وكبشاً واسداً وقال : كلب نابح وكبش ناطح واسد كالح ، فتطير على ذلك فطارت عليه . »

### التلقيب

هذا على فرض انها اسماء سمى بها آباء تلك القبائل ، ولكن كثيراً منها كان في الاصل لقباً الحق بالاسم الاصلي ، ثم ذهب الاسم وبقي اللقب ، مما يقع دائماً وخصوصاً عند العرب ، لأنهم مفتطورون على التلقيب والتكنية ، ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم ، فانك ترى للأسد مئات من الاسماء اكثرها القاب لقبوه بها ثم صارت اسماء ، وكذلك الديك والغراب والفرس والبعير والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم ، غير اسماء الاسلحة ، ناهيك بالمتراذفات من اسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الالقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحق ونحوها<sup>(١)</sup> ولكل منها مئة او مئات من المترادفات واكثرها القاب او كنيات تدل على ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم .

وكانوا يضربون الامثال غالباً بالبهايم ، فلا يكادون يذمون او يمدحون الا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والاحناش والحشرات ، واستعملوا التمثيل بها لما القوه من طبائعها ، وخصوصاً القبائل العدنانية لسكنائهم في صحاري نجد والحجاز ، وبلادهم اكثر وعورة وخشونة من القحطانية ، ولذلك كانت اسماء الحيوانات اكثر في قبائلهم بما في القبائل القحطانية ، وقد درسوا تلك الطبائع بالمزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليه ، كالروغان للثعلب ، والشجاعة للأسد ، والصبر للحمار ، والامانة للكلب ، والغضب للنمر ، والثقل مع الحساسة للفيث ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الالقاب

باسماء تلك الحيوانات ، فبدلاً من قولهم : « شجاع » يقولون : « اسد » ، وبدلاً من صبور يقولون : « حمار » ، ويكونون عن المراءوغ بالثعلب ، واذا ارادوا ان يقولوا غضب فلان قالوا : « تنمر » .

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات بأسماء الناس او كنياتهم ، فالفيل كنيته ابو حجاج ، والاسد ابو الحارث ، والذئب ابو جعدة ، والدب ابو رباح ، والخنزير ابو قادم ويقال ابو عقبة ، والثعلب ابو الحصين والكلب ابو خالد ، وابو ناصح عند بعضهم ، والسنور ابو خراش ويقال ابو غزوان ، والغزال ابو الحسين ، والجمل ابو صفوان ويقال ابو ايوب ، وابو مزاحم ، والثور ابو حاتم ، والكبش ابو المطرف ، والنمر ابو وثاب ، والفهد ابو قرة ، والفرس ابو طالب ، والبرذون ابو مضاء ، والبغل ابو المختار ، والحمار ابو زياد . وعندهم ام حنين الجرادة ، وام عوف الحمامة ، وام مهدي الدجاجة ، وام حفص الهدهد ، وابو الميت الجمالة ، وابو الصراة القملة ، وام عقبة الحية ، وام يقظان ، العقرب وقس عليه .

وكان التلقيب عاماً في الشعوب السامية ، اعتبر ذلك بما جاء في التوراة عن تلقيب يعقوب لاولاده لما جمعهم في آخر ايامه ، فعبر عن اوصاف بعضهم باسماء الحيوانات ، فسمى يهوذا شبل اسد ، ويساكر حماراً ، ودان ثعباناً ، ونفتالي ايلة ، وبنيامين ذئباً . وترى امثال التلقيب في اماكن كثيرة من التوراة ، ويدل ذلك على شيوع هذا التلقيب عند الساميين قديماً ، ثم قل عند العبران والسريان لما سكنوا المدن واخذوا الى السكون ، وظل عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صدر الاسلام وما بعده ، ولا تزال بعض اسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم ، وقد تنوسي معناها الاصلي كالقرم للسيد العظيم ومعناه في الاصل « الفحل » ، وكذلك « الرت » للباسل وهي اسم للخنزير ، و « الاصيد » للملك وهو البعير . على انهم كثيراً ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من القاب الشجاعة والقوة عندهم <sup>(١)</sup> ومن عادات العرب اذا مات لاحدهم اولاد وخاف انقطاع ذريته ان يسمي اولاده باسماء الحيوانات المفترسة ، كالذئب والنمر وغيرهما ، ولا تزال هذه العادة جارية في سوريا الى اليوم .

فترى ان التلقيب بالحيوانات كان شائعاً عند العرب قبل الاسلام ، على انهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبي ( صلعم ) « اسد الله » او « اسد رسول الله » ،

وكذلك علي بن ابي طالب لشجاعتها<sup>(١)</sup> وقد سموا مروان محمد بالحمار لصبره. ويكون التلقيب للمدح كما رأيت او للذم ، كتسميتهم عثمان بن عفان « نعل » وهو ذكر الضباع ، وتسمية عبد الملك بن مروان « ابا زبان » لبخره و « شح الحجر » لبخله<sup>(٢)</sup> ، وتلقيب بني عمرو بن عمر أفواه الكلاب لبخر افواههم .

ومن ادلة رغبتهم في التلقيب انهم يلقبون الرجل ببیت شعر نظمه او لفظ قاله او حادثة جرت معه مما لا ضابط له ، فالمرقش الشاعر أصل اسمه عوف بن سعد فنسي الاسم وبقي اللقب ، والمتلس اسمه جرير بن عبد المسيح ، والنابعة اسمه زياد بن معاوية ، وكذلك المخرق وتأبط شرا واعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهب اسماءهم وبقيت ألقابهم فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ ، فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحاً او ذمّاً ثم يتناسى الاسم ويبقى اللقب ؟ وفي اخبار العرب امثلة كثيرة من هذا النوع ، فقيس عيلان اصل اسمه قمقة ولكنه اشتهر بلقبه ، وكذلك قريش وغيره . وقد يكون التلقيب سبب متصل بحادثة ، فعنزة أبو القبيلة المعروفة سمي بذلك لانه قتل رجلاً بعنزة واصل اسمه عامر . والحظائر سمي بذلك لأن المنذر بن امرئ القيس كان جمع اسارى بكر في الحظائر ليحرقهم ، فكلمه فيهم فشفعه واصل اسمه كعب . والزبرقان سمي بهذا الاسم لجاله وسمي القمر ايضاً ، وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الا بهما . وقصي اصل اسمه زيد ، وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط وقد يكون اللقب اسم حيوان او لقباً من القاب ، مثل جساس اسم الرجل المشهور ، فمعناه في اللغة الاسد المؤثر في الفريسة ببرائته واصل اسمه عمرو بن مرة البكري ، وقس على ذلك القاب الخلفاء بعد الاسلام ، فان اكثرهم يعرف بلقبه كالفاروق والصديق والمنصور والرشد والمأمون وغيرهم .

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية باسماء الحيوانات او التلقيب بها ، وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية ، مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك ، فوجود بضعة وعشرين اسماً حيوانياً بين مئات من اسماء القبائل لا يعد شيئاً غريباً .

### التلقيب بصيغة الجمع

على اننا رأينا صاحب طوقية العرب يعنى اهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع

١ - والافرنج يلقبون جوستافوس اولفوس ملك السويد بأسد الشمال

٢ - المعارف ١٢١ .

اسماء الحيوانات ، مثل الانمار والكلاب والاراقم والضباب ، فعنده ان وجود هذه الاسماء بصيغة الجمع لا ينطبق على تفسيرنا من حيث تلقيب ابي القبيلة بلقب يبقى ويذهب اسمة الاصلي . ويرى ان هذه الصيغة دليل قوي على الطوتمية ، لان ابناء قبيلة النمر يعدون انماراً ، وابناء قبيلة كلب يعدون كلاباً على مقتضى شروط الطوتمية .

والجواب على ذلك ان التلقيب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعاً عند العرب مثل شيوع التلقيب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامة تشترك فيها او يغلب شيوعها بين افرادها ، كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لاهل الاقاليم اوصافاً يمتاز بها بعضهم عن بعض .

فمن أمثلة اوصاف القبائل في صدر الاسلام ان معاوية سأل دغفلا النسابة : ما تقول في بني عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء ، واعجاز نساء . وقال : فما تقول في بني اسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة . قال : فما تقول في بني تميم ؟ قال : حجر خشن ، ان صادفته آذاك وان تركته اغفأك . قال : فما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث . ومن هذا القبيل ان الحجاج سأل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلا منها بما امتازت به ، وليس في وصفه مجون . قال :

قريش : اعظم القبائل احلاماً واکرمها مقاماً .  
بنو عامر : اطولها رماحاً واکرمها صباحاً .  
بنو سليم : أعظمها مجالس واکرمها محابس .  
ثقيف : أكرمها جدوداً واکثرها وفوداً .  
بنو زبيد : ألزمها للرايات وادركها للثارات .  
قضاعة : اعظمها اخطاراً وأعظمها نجاراً وابعدها آثاراً .

وهكذا حق أتى على معظم القبائل ثم وصف الاقاليم بما لا محل له هنا .

وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم بأسماء حيوانات يغلب في طباعها الخلة التي اشتهرت تلك القبيلة بها ، وقد يذهب الاسم الاصلي ويبقى اللقب وحده وتعرف القبيلة به ، كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبته بذلك لاشتهار اهلها بالقنص كأنهم انمار في الوثوب على الفريسة ، قال النابغة من معلقته :

اهوى له قانص يسمى بأكلبه عاري الاشاجع من قناص انمار<sup>(١)</sup>

وكذلك الاراقم - قبيلة من بني تغلب - لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الاراقم فعرفوا بهذا الاسم<sup>(٢)</sup> والعنابس - اي الاسود - لقبوا بذلك لشجاعتهم. وقد يطلق لقب واحد على غير رجل او غير قبيلة ، وتعرف كل قبيلة باسمها الاصلي كالاراقم المتقدم ذكرها، فانها لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية بني بكر ابن حبيب من تغلب<sup>(٣)</sup> .

وليس تلقيب القبائل على هذه الصورة خاصاً بالعرب الجاهلية بل هو شائع في عرب هذه الايام . واشهر ما تداولته الالسن من هذا القبيل تلقيب النقاش لأهل لبنان في اواسط القرن الماضي ، اذ ارسلته الدولة العثمانية لمسح لبنان واحصاء سكانه ، وكان ظريفاً وفيه دعاية فكان اذا نزل القرية او البلد لقب اهله بأول تشبيه يتبادر الى ذهنه عند اقباله على ذلك البلد - واليك القاب بعض اهل القرى من اقاليم الغرب ، واكثرها اسماء حيوانات بصيغة الجمع .

اسم البلد	لقب أهله
أهل جباع	الشواح
أهل نيحة	النور
أهل بعذران	الثعالب
أهل المختارة	الذئاب
أهل عين قنية	الشواح
أهل عماطور	الدبوك المزهرة
أهل المزرعة	البقر
أهل عيفبال	الجحاش
أهل بعقلين	الغنم
أهل جديدة الشوف	الكلاب <sup>(٤)</sup>

١ - جمهرة أشعار العرب ٥٤ . ٢ - السكامل للمبرد .

٣ - المعارف ١٢١ . ٤ - الهلال ، صفحة ٩٥ سنة ١٣٠٣ .

وليس هذا خاصاً بالعرب بل يتناول بعض الأمم ، المتعدنة ، ففي الولايات المتحدة لأهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

لقب أهل	اسم الولاية
Luchers	Illinois
Pipers	Missouri
Webfoot	Oragon
Buckeye	Ohio
Hoosiers	Indiana
States Yankees	New England
Yellow Limnor	Alabama
Badger	Wisconsin

وجملة القول ان تسمية بعض القبائل بأسماء حيوانية أفراداً او جماعات لا اهمية لها فيما نحن فيه ، لأنه عادي وطبيعي في الأجيال القديمة والحديثة . وبالطبع لم تبق أهمية لما ذكره من عبادة الحيوانات التي كانت شائعة في الجاهلية ، وان كانت في الحقيقة ليست من قبيل عبادة الحيوانات الطرية ، بل هي عبادة اصنام اقلها بشكل بعض الحيوانات واكثرها بأشكال اخرى . فهي من قبيل عبادة الأوثان وليست من الطوقية في شيء ، لأن أهل الطوتم لا يعبدون صنماً بشكل الحيوان ، بل يعبدون الحيوان نفسه ويقدسونه ويتجنبون أذاه كما تقدم ، وليس عند العرب شيء من ذلك - على أننا نقول كلمة في اصنام العرب لا تخلو من فائدة ..

### اصنام العرب

من المشهور ان العرب وسائر الأمم السامية أهل توحيد من فطرتهم ، واذا عبدوا صنماً فيغلب ان يكون ذلك الصنم دخيلاً عندهم ، ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الأمم الوثنية القديمة ، فقد كانوا في عهد جاهليتهم محاذين بالفراغة في مصر ، والفينيقيين في الشام ، والاشوريين في العراق ، والاحباش في الحبشة . وكانت جزيرتهم طريق أهل الهند في التجارة الى مصر والشام . وكانوا اذا ذهبوا الى بلد مما يحاورهم للتجارة او للغزو ورأوا أهل ذلك البلد يعبدون صنماً يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم في رجوعهم ونصبوه في الكعبة او غيرها من مجتمعاتهم . واذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونه في أثناء اسفارهم فربما اعجب العرب فأخذوه منهم او اصطنعوا صنماً على مثاله . ولم يصل إلينا من اخبار هذه الاصنام إلا نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها .

واشهر من نقل الاصنام الى مكة في عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحي، ذكروا انه غلب على مكة واخرج منها جرهما وتولى سدانتها، وكان كاهنا فحمل اليها الاصنام من الآفاق فنقل هبل واساف وثائلة من البلقاء<sup>(١)</sup> ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدة<sup>(٢)</sup> واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها، فأصبح ود لقبيلة كلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحير، وكان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر. ولو جمعت اصنام العرب ل زاد عددها على مئة صنم، ليس منها على صور الحيوانات إلا بضعة قليلة جداً. على انها اذا كثرت فقلما تؤيد برهاناً للأسباب التي قدمناها ولأنها دخيلة كما رأيت - ولا نقول ذلك اعتماداً على رواية العرب فقط لأن صاحبنا الاستاذ لا يثق من أقوالهم إلا بما يؤيد برهانه، ولكننا ننظر في هذه الاصنام نظراً تحليلياً عسانا أن نتوصل الى نتيجة فنقول :

#### هبل

هو اكبر أصنامهم ويسمونه الصنم الاكبر، وذكروا انه كان مضموعاً من نحاس - وقيل من قوارير أي زجاج - على هيئة رجل ضخم، وكانوا يذبحون له ويستغيثونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم. ويظهر لنا ان هذا الصنم من آلهة الفينيقيين او الكنعانيين والأدلة على ذلك :

أولاً - قول العرب انه جاءهم من مواب بأرض البلقاء، حمله اليهم عمرو بن لحي الذي ذكرناه .

ثانياً - ان لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه، فهو غير مشتق من لفظ عربي، وعندنا انه عبراني او فينيقي أصله « هبل » وهو اسم اكبر أصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين . وكان للفينيقيين عشرات من الآلهة يميزون منها إلهين، أحدهما ذكر والآخر أنثى، ويسمون الذكر « هبل » والأنثى « عشروت »، ومعنى « بل » في لسانهم السيد والاله، والهاء في العبرانية أداة التعريف مثل « ال » العربية، فبإضافة هذه الأداة الى بل يردون

الاله الاكبر . والظاهر ان عمرا المذكور لما قدم مواب أعجبته عبادة الموابيين لهذا الصنم ، وكانوا يستمطرونه ويستنصرونه ، فحمله الى مكة باسمه العبراني « هبل » ، وأما العين الزائدية فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصاً في لفظ « بمل » لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسميها .

ثالثاً - ان أساليب عبادة العرب هبل تشبه أساليب عبادة الموابيين هبل . فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة او سقوف البيوت ، ويدبحون له الذبائح من الحيوانات والادميين ، ويحرقون له المحرقات ويستخيرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم ، وكذلك كان يفعل العرب لهبل . وكما ان هبل اكبر أصنام الموابيين ومن جرى مجراهم ، فهبل اكبر أصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة .

#### اساف ونائلة

ذكروا انها صنمان ، الاول على صورة رجل والثاني على صورة امرأة ، حملها عمرو بن لحي ايضاً من البلقاء فوضعها على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع احدهما على الصفا والآخر على المروة ، فربما كان هذان وهبل مثلثا وثنياً ، والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الازمنة القديمة . والغالب في هذه المثلثات ان يكون كل منها مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام . وامثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم .

#### يفوث

جاء في تفسير الزمخشري انه على صورة أسد ، وان عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوباً من الخارج فالغالب انه من الحبشة او مصر ، لأن جدة محطة المسافرين من احدهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد او لبؤة يسمونه « تغوت » ، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ يفوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط ، فاذا كتبوا « نعموت » التبس عليهم بين ان تقرأ يفوث او تغوت او تعوت ، وكثيراً ما وقع لهم ذلك حق بعد تدوين التاريخ في ابان التمدن الاسلامي ، فامبراطور الروم الذي حاربه هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور ، والبعض الآخر نعفرور ، والآخر نقفور وهو الصواب لان اسمه الروماني Nicephorus الا يعقل أن يحدث



مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيل ، وشاول الى طالوت ، وجليات الى جالوت ، وتورج الى قارون

ود

وهذا الصنم قد وصفه ياقوت في معجمه فقال . « انه على مثال رحل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر عليه - اي نقش عليه - حلتان ، متزر بحلة ومرتد بحلة . عليه سيف وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » ، فما أشبه هذا الوصف بوصف ملك من ملوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الها فينيقيا اسمه اشبو او سيس اله مصري . ولا يمكننا الجزم في ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب .

وقس على ذلك سائر الاصنام ، وان كنا لا نطمع في ردها كلها الى أصولها ، ولا ان يكون كلامنا فيها يقينياً او قطعياً ، وانما هو من قبيل الترجيح ، وهذا يكفي في هذا المقام .

### الثار والعائلة والحلف

ورأينا صاحب طوقية العرب قد علق اهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثار باسم القبيلة ، فعنده ان ذلك من بقايا الطوتمية ، لان القبيلة كانت قديماً اذا قتل احد افرادها اشتركت كلها في المطالبة بدمه ، لانها تطالب بحق الاله الذي هو جدها الاعلى وان العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر انسابهم الحي - ولا حاجة بنا الى التطويل في بيان فساد هذا التأويل بعد ان ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثار باسم القبيلة طبيعي في أمم البادية ، وضروري لحفظ جامعة النسب ، ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن صاحبنا اجهد نفسه كثيراً في التفسير والتعليل ، للتوفيق بين المطالبة بالثار عند العرب ومطالبة اصحاب الطوتم بحق جدهم الاعلى . وهيهات ان يتأتى له ذلك الا اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثار بما فسرته ، لا ان يكون هو من ادلة تلك الطوتمية يستعان به في اثباتها .

واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب ، وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيّات ، او هو انكار ضوء الشمس في رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط او التعاون بواسطة الحلف ونحوه ، فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند ارقى الأمم المتعدنة ، وانما يختلف عن الحلف عند قبائل العرب كما تختلف بدواة هؤلاء عن حضارة اولئك .



# تاريخ المذنب الإسلامي

تأليف  
عزجي زبدان

الجزء الرابع

منشورات دار مكتبة الحياة  
بيروت - لبنان

## مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ملاقاه من حفاوة اهل اللغات الاخرى في العالم الاسلامي بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين في اوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على اثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية لأنهم فضلاً عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط ، وما نشروه من التقارير في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم ، قد اخذوا يشتغلون بنقله الى السلتهم ونشره بين مواطنهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخر تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية ( الهندستانية ) مطبوعاً على الحجر في امرتسار ( الهند ) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريباً بقلم ميرزا ذكاه الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية في جامعة اكسفورد ، انه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيالوف المستشرق الروسي في موسكو انه اتم نقل الجزء الاول الى اللغة الروسية ويليه الجزء الثاني . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها .

فنشطنا ذلك في المثابة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامي وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق احكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخي الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها ، قلما نظروا في علاقاتها او عللوا

اسبابها وانما نقلوها على علائها ، وخصوصاً ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، او امة الى امة ، او طائفة الى طائفة . لأن تحليل تلك الحوادث يبعث أحياناً على الطعن في اقوال بعض الخلفاء ، او تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتعاشون ذلك احتراماً للدين ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكاً من موضوعات سائر الاجزاء الماضية ، وادعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق النتائج على المقدمات ، لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في ذلك التمدن .

### موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها ، واسباب تكون تلك الثروة واسباب تدهورها . وجعلنا الجزء الثالث خاصاً بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية ، وما أحدثه الاسلام من التغير في القرائع والعقول ، وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك .

فبعد ان نظرنا في التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها ، عمدنا الى البحث في سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمتيه ، ولعله اهم اجزاء الكتاب وأوعرها مسلكاً ، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولا سيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع اهل الدولة على الاستئثار بالسلطة ، وتأثير الاختلاف الجنسي او المذهبي في ذلك ، مما لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على اننا لم نعدم بصيصاً من خلال تلك العظمة ، تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف اسباب اكثر الحوادث ، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي ، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا .

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة اخرى لا تقل وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض اسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها ، وتعدد اوجهها من حيث الدين او الجنس او المكان او الزمان ، فرأينا بعد امعان النظر ان نقسم

الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة اطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمننا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذي نحن بصددده ، يتبدى بظهور الاسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها .

الدور الثاني : هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية و احياء الخلافة الاسلامية ، يجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايها .

وقسمننا الدور الاول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب احد العناصر الاسلامية على سائرهما . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لأسباب لا تحفى على المطلع ، فيغلب ان تحتلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه . واليك هذه العصور :

- ١ - العصر العربي الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأيوبية سنة ١٣٢ هـ .
- ٢ - العصر الفارسي الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ .

٣ - العصر التركي الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ .

٤ - العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها .

٥ - العصر المغولي : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك .

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منها الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب .

وقسمننا كلا من العصور الخمسة التي درسناها في هذا الجزء الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمننا الكلام بتمهيد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، قوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الأمم والحزوة ، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ، ثم العبيد والموالي في الجاهلية وانواعهم واحكامهم ، والنازلين من الأجانب في جزيرة العرب

قبل الاسلام وخصوصاً الأبناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب .

ثم تقدمنا الى العصر العربي الأول ، فقسمناه الى ايام الراشدين وایام بني أمية ، فبيننا اولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث أنسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين او جهادهم في سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كلهم احرار و الأَنْصار واهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل .

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في اول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبيعة العمران الى ان يأذن لقواده وأمرائه في الانسياح في الأرض ، فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير .

وختمنا العصر الاول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام .

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر الاول ، وهو ايام الأمويين ، فذكرنا اولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بني هاشم وبني أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين ان يعظم أمر بني هاشم بالنبوة وهم اقل منهم عدداً وقوة . فما زالوا حتى غلبهم على الدولة ، فأخذها معاوية بن ابي سفيان من علي بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم ، وبيننا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين احق منهم بالخلافة ، فعمدوا الى التغلب بالعصبية كما كانت في الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النبوة ، فعادوا الى عصبية النسب اولاً بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمنية والمضرية . وبأبلغ الامويون في التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين وألفوا السكنى في المدن ، فحدثت العصبية الوطنية ، اي تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في سبيل التغلب على بني هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال ، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرحهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق او بغير حق ، فضيقوا على الرعية من المسلمين واهل الذمة ، حق مل الناس ايامهم

وخضوعاً بعدما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على اهل الذمة . وبلي ذلك فصل طويل في احكام اهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر ايام الامويين .

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الاول ، فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بني امية . وكيف نصرنا بني العباس - وهم في الاصل من شيعة علي - وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لان العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل ابو مسلم الخراساني المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من اكبر دعائهم وانصارهم ، وفيهم ابو مسلم نفسه .

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم في تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك ، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لثلاثيهم ما اصاب ابا مسلم واصحابه ، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم واشهرهم البرامكة ، فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، اخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد اضمروا ارجاع البيعة الى العلويين او تسليم الدولة للفرس ، فشرع الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة واسبابها ، وبيننا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابنه الامين والمأمون ، وكان الفرس اخوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا اخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على ان يبايع بعده لعلي الرضا ، اي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم .

والثانية : سياستهم في معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول في اهل الذمة واحكامهم واسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية .



ثم تقدمنا الى العصر التركي الاول ، وذكرنا الاسباب التي دعت الى تدخل الاتراك في الدولة من ايام المعتصم ، وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا ، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء في دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والحصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرها ، واطلقوا ايدي النساء في مصالح الدولة ، فأل ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء .. فعمد اصحاب الاطراف الى الاستقلال بولايتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع : فارسية ، تركية ، وعربية ، وكردية ، وكلها تباع الخليفة العباسي . فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من اول الاسلام الى الآن .

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهلهم واسقطوهم من الديوان ، واضفنا اليها نقمة العلويين والامويين ، وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في مصر ، لمقاومة الدولة العباسية ، واوشك الفاطميون وهم علويون - ان يتغلبوا على العباسيين ، لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم . على ان الفاطميين ما لبثوا ان تضعفوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين ، فأعاد البيعة الى العباسيين ، وانقضى هذا العصر وقد تضعفت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها ، وطمع فيها اعداؤها المحيطون بها ، فجاءها المغول وهي في تلك الحال ، فاكسحوها وزادوها ضعفاً واختلالاً ، وهو العصر المغولي ، وبه ينتهي هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على اوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث واسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ، ملتزمين بالصدق والاخلاص والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وابهة الدولة وآداب الاجتماع ، وبه ينتهي الكتاب .

# العصر العربي الأول

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايدي العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربي . والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضي بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين : دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منهما أحكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها . ولا بد لنا تمهيدا لذلك ان نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمننا بيانه في هذا الباب .

## تمهيد في العرب قبل الاسلام

### البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبدو أقدم من الحضارة ، لأنها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالإنسان كان في اول ادواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة ، او ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز او النحل والدود لنتائجها واستخراج فضلاتها ، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعي للمرعى . فالتجأوا الى السهول والبراري ، وكان همهم بلوغ الضروري من القوت والسكن والدفع بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ما هو اكثر من ذلك من اسباب الغنى والرفاهية ، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا وترفوا .

فالبدو تقوم اما على الفلاحة والزرع ، او على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر والقرى والجبال ، وكانوا قليلين في بادية العرب . وانما يكثر هذا الصنف من البدو في بلاد

البربر بشمالى افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتداد المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم صنفان اهل سائمة ، واهل ابل . فاهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لقلة المراعي الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالى افريقيا ، والترك واخوانهم التركان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادي تركستان وخراسان ونحوهما .

\* \* \*

واما اهل الابل فاشهرهم بدو العرب ، وهم اكثر ظعنًا وابعد في القفار مجالاً من اهل السائمة ، لأن مسارج التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فراراً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لما خض النتاج في رماله ، لان الابل اصعب الحيوانات فصلاً ونحاضاً واحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار ، فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفتوس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وقيامهم بالدفاع عن انفسهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غرراً في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقتاب ، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين ببأسهم ، حتى صار البأس لهم خلقاً ، ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفار اشدهم بأساً واصبرهم على المشاق .

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ، ولا سيما في اواسطها . واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ، ومأرب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والأحباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية .

### العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس مبطورون على المطامع ، ودأبهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام

واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً ، وهي أيضاً تدفع غارات الأعداء بما تقيمه من الأسوار وتعدده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبرأؤهم ، بما وقر في نفوس اهل القبيلة او الحي من الوقار لهم . . واكرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتياهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

واهل البلد الواحد ، او المصلحة الواحدة ، لا بد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف احوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لا وطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لا دين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة لذلك عني العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالغوا في استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الأولين .

فأقرب اسباب العصبية عندهم الأخوة والأبوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة او الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة : كآل أبي طالب وآل العباس مثلاً ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الأفخاذ ، مثل بني هاشم وبني أمية ، وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الأفخاذ تتألف البطون ، مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العماثر ( جمع عمارة ) مثل بني قريش وبني كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العماثر تتألف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو النسب الأبعد ، مثل عدنان وقحطان .

### انساب العرب

والذي عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون في اصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت اخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثاً تحليلياً في نسب هذه القبائل وأما كنها في مقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الاسلام وهي

موجودة ، فقامت به ونشرته وانشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان ، ترجع كل منهما الى اب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع في نسبها الى قحطان وهو يقطان الذي ينتهي نسبه الى ارفكشاد ( ابو ارفخشذ ) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية في اليمن ، ولذلك عرفت أيضاً بالقبائل اليمنية او عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض اعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف أيضاً بالاسماعيلية ، ولما كان مقر اكثرها في الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، او بعرب الحجاز ونجد او عرب الشمال .

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعائير والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا نأتي بما يهمنا منها في هذا المقام فالعرب القحطانية اقدم من العدنانية ، او تمدنت قبلها على الاقل ، ومنها بنو حمير الذين انشأوا تمدناً في اليمن ، ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم في حضرموت وخرائب اليمن ، لا يزال اكثرها مدفوناً في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار . على ان بعضهم الف الكتب في هذا الموضوع ، وذهب الى ان التمدن اليمني اقدم من التمدن المصري ، وان الفراعنة اخذوا اصول تمدنهم عن اولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبأ التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه المدينة .

\* \* \*

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كانت سيل العرم او انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلاً بين جبلين ، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . بناء بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصب على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد ( تقريباً ) وكانت الدولة قد شاخت ، احسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط ، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان في الشام ، وبنو لخم في العراق ، وبنو الأوس والخزرج في المدينة ، والأرد في منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو

القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فاخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من اعمال مملكة الفرس .

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضرة وسكان المدن . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقي من القحطانية الحضرة في يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك اشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي : سبأ وحير وكهلان والأزد وموازن وغسان والأوس والحزرج وخزاعة ويحيلة وخثعم وممدان وطيه ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها .

\* \* \*

وأما القبائل العدنانية ، او عرب الحجاز ونجد او عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام إلا قليلا ، ولم ينشئوا دولة إلا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة ، مواطنهم غالباً في نجد والحجاز والعراق وتهامة ، وكلها بادية رحالة إلا قريشاً فقد كانوا حضراً يقيمون في مكة ، وبعض اهل الطائف وأعظم قبائل العدنانية قبيلة «معد» ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصراً لأرميا النبي<sup>(١)</sup> . وتفرع من معد اياد ونزار ، وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضل الاعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبي (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم اهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بني عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمار من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطناً من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبي (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها .

واشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمية وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتيم وهلال وباهلة وخزوم وامية وعبد القيس وغيرها ، وبعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة او عماره شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تمره

بها رايتها وتسم بها ابلها ، اي تنقش عليها علامة خاصة بها كياً بالنار يقال لها الميسم<sup>(١)</sup> وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويداع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مضر مثلاً تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها<sup>(٢)</sup> واشتهر بعض القبائل بالعرز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة .

### عصبية النسب

وبين القبائل ، او افخاذها او بطونها او عماثرها ، عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض - الاقرب فالاقرب الى الابد فالابعد . فتجتمع فيه الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة اخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا واخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه اوسع العصبيات ، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعماثر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة ، او الافخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو ابي طالب مثلاً تخصما ، وكلاهما من بني هاشم ، وبنو هاشم وبنو امية تخصما ، وكلاهما من بني عبد مناف ، وقس على ذلك . وكل من القبائل او البطون او الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية ( او اليمنية ) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارئ لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلاً : « انتسبت الحرب بين قيس وكنب » ولا يذكرون ان قيساً من العدنانية وكنباً من القحطانية ، لاعتقادهم ان القارئ يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، او معد واليمن ، او مضر وحمير ، او هوازن وكهلان ، او قيس ومهدان ، او نحو ذلك .

## العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم « العجم » ، ويفأخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس ، او ان العجم مشتق من المعجمة ، فالمعجمي عندهم غير العربي ، والاعجم الاخرس<sup>(١)</sup> والاخزر عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف المعجم وهو عند العرب من النقائص ، فاذا قيل للعربي يا اخزر عد ذلك القول اهانة لانه اخزره من العرب . على ان المعجمي في الاصل الفارسي ، والمعجم الفرس ، لان الفرس اقدم من خالط العرب من الامم الغريبة عن لسانهم ، ثم اطلقوا لفظ المعجم على كل اجنبي غير عربي .

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هذا قد تعمد أذى العرب واخراجهم من بلاده ، وخصوصاً قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اياد جولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن الى استنجد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جنداً اخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية ، لتمصهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ، وسيأتي بيان ذلك .

## الأمومة والخثولة

الأصل في المعصية عند العرب الأبوة او الانتساب الى الأب ، مثل سائر الأمم الراقية ،



على ان الأمومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت المزاوجة او المصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أمّاً . فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لأن الأم في اعتقاده ابقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك ان صخر بن عمرو بن الشريد - اخا الحنساء - لما حضر محاربة بني اسد ، طعنه ربعة بن ثور الأسدي فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي صخر مدة في اسد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمة قمرضانه . فضجرت زوجته منه ، فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت : « لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تملى عيادي      وملت سليمة مضجعي ومكاني  
وأبي امرئ ساوى بأم حليمة      فلا عاش الا في شقا وهوان<sup>(١)</sup>

وكانت العرب من اجل ذلك لا يعززون في المرأة الا ان تكون أمّاً<sup>(٢)</sup> ولم يكن ذلك خاصاً بمجال المرأة عند العرب ، فقد كان هذا شأنها أيضاً عند اليونان ، لأنهم كانوا يعدون المرأة أمة يحبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أمّاً علت منزلتها وصار اليها الأمر والنهي في بيتها ، ولا يزال هذا دأب اهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب ، وهي نصرة عشيرة الأم لأولادها ، وبعبارة اخرى لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ، او بالعكس .

\* \* \*

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، واقرب الشواهد عليها نصرة اهل المدينة للنبي ( صلعم ) في هجرته اليهم ، فان الخؤولة كانت من اهم اسباب نصرتهم ، لان ام النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية ، وابوه من قريش وهي قبيلة مضرية . فلما توفي والده ذهبت به أمه الى المدينة ، لكي تلتجئ الى اخواله بني النجار وهم كثيرون ، وكانوا من اقرب اهلها الى التدين ، وقد ترهب احدهم في الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم امسك عنها ، واتخذ بيته مسجداً .

فأقامت عندهم على الرحب والسعة، ثم ذهبت به الى اعمامه في مكة وماتت على الطريق، فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد اعمامه، هاجر الى اخواله في المدينة، واهلها يعرفون ذلك فيه، لان خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم اخواله، فلما نزل المدينة رحب به اهلها، وكان اول من تابعه منهم اخواله او من يمت اليهم بقرابة. وكانوا اشد اهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه<sup>(١)</sup> ثم تهافت اهل المدينة الى مبايعته. وكان في اثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار<sup>(٢)</sup> وهم يستهلكون في سبيل نصرته، ولا سيما آل النجار. وكان اعداء الانصار اذا هجؤهم خصوا بني النجار منهم بالذكر، لتصدرهم في ذلك اكثر من سائر اهل المدينة. فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم احد وهو لم يسلم بعد:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا      مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق  
تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا      لدى جنب سلع والاماني تصدق  
فما راعهم بالشر الا فجاءة      كراديس خيل في الازقة ترقق<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب حتى بعد الاسلام، وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة. فلما طلب معاوية الخلافة، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان، نصره بنو كلب وهم يمنية، لان فائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم. وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه، وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد. ولما افضت الخلافة الى يزيد، كان الكلبيية من حزبه لانهم اخواله، وامثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام، منها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم، وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية، فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرور عند اخواله، فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه. والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً، وقد جندهم فنصروه على الفرس. وقس على ذلك تأثير الام في الدولة، مما سيأتي تفصيله. وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون احزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة، فيكتسبون عصبية قبائل نسايمهم.

١ - ابن هشام ١٨٩ ج ١ .

٢ - ابن هشام ٨١ ج ٢ .

٣ - ابن هشام ١١٠ ج ٢ .

## توابع العصبية العربية

### الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على انهم كانوا يجتمعون بأسباب اخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية في هذه الأيام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان اهل وادي القرى حلفاء بني هاشم ، وسيأتي ذكرهم في الموالي .

وللتحالف او الحلف عندهم شروط واسباب ، منها ان يكون الحليف اسيراً لا يستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها<sup>(١)</sup> والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من ابناءها<sup>(٢)</sup> أما اذا قتل فديته نصف دية الصريح<sup>(٣)</sup> .

### الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو ان يدعي الرجل رجلاً يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبداً او اسيراً او مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، ان أمية جد بني أمية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه ابا عمرو ، فصار اسمه عندهم ابا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة .

وأشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية داهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ ، وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زياداً من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهوراً عند العرب ، فكانوا يعتبرون زياداً مجهول الاب فسموه « زياد بن أبيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة

العرب ومنهم زياد المذكور، واختص زياداً بالاستلحاق، فاستشهد خواراً من اهل الطائف اسمه ابو مريم السلوي، فشهد ان ابا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فأثاه بسمية فحملت منه زياد، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد، وقد تم له ما أراد. فسمي « زياد بن أبي سفيان » بعد ان كان يعرف بزياد ابن أبيه او ابن سمية<sup>(١)</sup> وما زال آل زياد معدودين من قريش، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور، وصاروا من موالى ثقيف<sup>(٢)</sup> ومثل هؤلاء آل أبي بكر، فقد كانوا من موالى النبي (صلعم) والحقوا بثقيف، فردهم المهدي الى اصلهم.

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا »، وقد يكون الرجل دعى ادعياء فيكون هو دعيا في رهطه ورهطه دعى في قبيلة مثل ابن هرمة، فقد كان دعيا في الخلج والخلج ادعياء في قريش، وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط او العشيرة دفعة واحدة، لنزولهم فيهم او لنصرتهم اياهم، كما اصاب بني العم من اهل البصرة، فانهم نزلوا ببني تميم في ايام عمر بن الخطاب، فاسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم: « انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا، وانتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب<sup>(٣)</sup>.

وكانوا يعدون الدعي من انفسهم، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح<sup>(٤)</sup> ويرثونه، وكثيراً ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليتهم، رغبة منهم في ان يرثوهم، وقد يأبى المولى ان يلحقوه اذا عرف غرضهم، كما اصاب نصيباً المغني المشهور، اذا اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم: « والله لأن اكون مولى لائقاً احب الي من ان اكون دعيا لاحقاً » وقد علمت انكم تريدون مالي<sup>(٥)</sup>.

ومن اسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة »، وقد تكون بين القبائل او بين الافراد، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن، فاذا آخيت العربي اخذ بناصرته وحماه ودافع عنك كأنك اخوه.

١ - ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ . ٢ - ابن الاثير ٢٠ ج ٦ .

٣ - الاغاني ٧٦ ج ٣ . ٤ - الاغاني ٩٤ ج ١٧ . ٥ - الاغاني ١٣٤ ج ١ .

## الخلع

و ضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحاً او دعياً خلعه ، اي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعه ما قد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة او العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعههم المراد خلعه ، ويشهدون على انفسهم انهم خلعوه ، ويبعثون منادياً بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يحرمها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحداية الشاعر الجاهلي (١) وقد يكتبون بالخلع كتاباً .

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومي واختصما في الطريق ، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر ، وعمرو من بني سهم فكتب الى ابيه ان يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا آذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وارسلوا بذلك منادياً الى مكة (٢) .

وكان الخلعاء في البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصائد من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام اصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الاحول من شعراء الدولة الاموية خليعاً ، يجمع صعاليك الأزدي وخلعاهما فيغير بهم على احياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم .

## العبيد في الجاهلية

### الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد ، والقوي يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله ، الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الارض ورعاية الماشية ، او نحو ذلك من الصناعات ،

يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر واشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالأسرى بالثبات والالوف ، ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة ، صاروا يتزوجون بالجواري ، وبعد ان كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل او جلد ، اصبح قصاصه منوطاً برأي القضاة ، واذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه .

على ان العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية ، لا يخلو منهم بيت ، واكثرهم من الاسرى أو ابنائهم ، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها ، ويبيعونهم في اسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالاً رومانياً الى اربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلاً كانوا يستعبدون الاتراك في الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون ابناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك ان ابرويز ملك الفرس اهدى موريقس Mauricius ملك الروم مائة غلام من ابناء اراكنة الترك في غاية الحسن والجمال ، في آذانهم من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، في جملة هدايا أخرى . فأهداه ملك الروم هدية فاخرة ، في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك بربان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والشكسن Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر (١) .

### العبيد عند العرب

والعرب ايضاً كانوا يستخدمون العبيد من اسرى الحرب ، او ممن يبتاعونهم من الامم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشة وما حولها من الامم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم في اسواقها في المواسم ، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل تجارها بسائر السلع . ومن اشهر النخاسين في الجاهلية عبدالله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار (٢) فاذا اشترى احدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده الى منزله (٣) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد اسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه . وكانوا يبتاعون الارقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة ، إلا اذا دبر المولى عبده اي قال له : « انت حر بعد

٢ - المسعودي ٢٨٢ ج ١ .

١ - المسعودي ١١٩ ج ١ .

٣ - المعارف لابن قتيبة ١١٢ .

موتي « فانه يكون حراً . وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس ، ومن اخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامي الشهير ، فانه كان هو وامه لرجل من الازد تزوج امرأة من بني عقيل فساق اليها بشاراً وامه في صداقها<sup>(١)</sup> .

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيما عند الامراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه الف عبد غير من كان معه من عشيرته<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله ، فعبدا لله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عددهم كثيراً وفيهم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم<sup>(٣)</sup> على انهم كانوا يستعينون بهم في القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر<sup>(٤)</sup> ، واذا شهد حرباً لا يضرب له بسهم<sup>(٥)</sup> بل يكون سهمه لسيده .

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » وهو العبد الذي يعمل في الارض ويبيع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf في المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبي لهب مع العاصي بن هشام ، فانها تقامرا على ان من قهر كان عبداً لصاحبه ، فقمرة ابو لهب فاسترقه واسترعاه ابله<sup>(٦)</sup> ، وكانوا يسترقون المدينين أيضاً .

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد منهم اولاد استعبدوهم ، فاذا انجب احدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقي عبداً . واشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسي بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلما انجب الحقه بنسبه<sup>(٧)</sup> وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقدون عبيدهم إلا لسبب هام . واذا احب العبد العتيق ، استباع اي طلب البيع ، فاذا رضي صاحبه باعه لسواه . اما بعد الاسلام فقد كثر الاعتناق لحكمة سياسية دينية سيأتي ذكرها .

- 
- ١ - الاغاني ٢٠ ج ٣ . ٢ - المسعودي ٢٨٧ ج ١ .
  - ٣ - الاغاني ٣٢ ج ١ . ٤ - الاغاني ١٢٤ ج ١٤ .
  - ٥ - المعارف لابن قتيبة ١١٠ . ٦ - الاغاني ١٠٠ ج ٣ .
  - ٧ - الاغاني ١٤٨ ج ٧ .

## الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه ان يكون عبداً معتقاً ، فكل عبد اعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد او اسير اعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه او الى قبيلته او رده . فعلى العباس مثلاً هو مولى بني هاشم ، وهو ايضاً مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى اهل المدينة ، او مولى اهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، لكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، واكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . اما عند التحقيق فالموالي ثلاثة انواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رسم .

### مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان أسيراً او عبداً واعتق ، وكانوا يعتقدون الأسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلاً اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير في صدر الاسلام ، لأن المسلمين كثيراً ما كانوا يستعينون بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعتاق . ومن امثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبي ( صلعم ) منادياً فنادى : « أيما عبد نزل فهو حر وولائه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة <sup>(١)</sup> وقد يكون الاعتاق لسبب آخر .

واذا كان العبد من امرى الحرب وارادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى لمالك تلك الناصية . ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي ( صلعم ) بعد واقعة أحد جواباً على قول هبيرة بن ابي وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت      أهل القليب ومن الفينة فيها  
كم من أسير فككناه بلا ثمن      وجز ناصية كنا موالها <sup>(٢)</sup>



## المكاتبية

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبية ، وذلك ان يكتب العبد على نفسه صكاً بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجماً ( تقسيطاً ) ، فأبو سعيد المقرئ احد كبار التابعين كان عبداً لرجل من جندع ، وكتبه على اربعين ألفاً وشاة لكل اضحى فأداها (١)

قلنا ان من اعتق عبداً كان ولاؤه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون احياناً الا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبية . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهي ان يعتق العبد ولا ولاه له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « انت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه . ويضع ماله حيث شاء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة ، واصله من اصطخر وكان مملوكاً لبثينة امرأة ابي حذيفة ، فأعتقته سائبة (٢) .

على ان الاسلام نهى ان يكون الولاء لغير المعتق ، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة ام المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها في خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « رأيت ان عدت لهم عدة واحدة ايبيعك اهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي ؟ » فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا ان يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله ( صلعم ) فذكرت ذلك له فقال : اشترها فأعتقها فانما الولاء لمن اعتق » (٣) الا ان يشتري احد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري ، كما اصاب ابا معشر احد اصحاب الحديث ، فقد كان مكاتباً لامرأة من بني مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاه (٤) .

ومن اسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك ان يقول الرجل لعبده انت حر بعد موتي فلا يرثه اهل .

## مولى العبد

ويقال له أيضاً مولى حلف او اصطناع ، وذلك ان ينتمي الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ظروفها ، او بالخالفة او المخالطة او الملازمة على ان يتعاقب ذلك اجيالاً .

١ - المعارف لابن قتيبة ١٥٤ . ٢ - المعارف ٩٢ .

٣ - البخاري ٦٠ ج ٢ . ٤ - المعارف ١٧٢ .

ومن امثلة الموالي بالمخالفة أو المخالطة اليهود في يثرب ( المدينة ) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالي الاوس والخزرج ، فولأؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته ان اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وقطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن ، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالأرض والماشية فأقاموا في ضيق ، حتى اتفق ان اميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم ، وكأنه استعانهم عليهم فاتفقوا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا دامهم احد من الاوس او الخزرج بشيء يكرهونه ، لا يمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس او الخزرج يتعززون بهم <sup>(١)</sup> ويحالفونهم على انهم مواليهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالي بني النجار اخوال النبي ( صلعم ) او موالي غيرهم من عرب المدينة .

ومن هذا القبيل اكثر موالي العرب بعد الاسلام ، فقد كانت العرب اهل السيادة والشوكة ، واهل البلاد يلازمونهم بالخدمة او المخالطة او المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاته ، وهي ان يقول شخص لآخر : « انت مولاي ترثني اذا مت ، وتمقل عني اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي ، فقد كان البرامكة مثلاً من موالي الرشيد ، ومن هم دونهم من المعجم موالي الامراء ، وهكذا .

وكان المولى في الجاهلية ربما كان نصرانياً او يهودياً او مجوسياً ، لا فرق في ذلك عندهم ، فموالي النبي ( صلعم ) كان احدهم حبشي الاصل والآخر يوناني الاصل والآخر قبطي الاصل والآخر فارسي الاصل <sup>(٢)</sup> وعدس مولى عتبة بن أبي ربيعة كان من أهالي نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية <sup>(٣)</sup> أما بعد ظهور الاسلام فاصبح الولاء خاصاً بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة .

١ - الاغاني ٩٧ ج ١٩ .

٢ - ابن الاثير ١٥١ ج ٢ .

٣ - المسعودي ٣١ ج ١ .

## مولى الرحم

واما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها . ومن امثلة ذلك سديف الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بني هاشم لأنه تزوج مولاة لآل ابي لهب ( من بني هاشم ) (١) .

وللموالي عند العرب احكام خاصة ، فاحكامهم العامة ان المولى احط منزلة من الحر وارفع من العبد ، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث . فالمولى لا يتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر (٢) كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجلد نصف حد الحر .

واما احكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، واهمها الارث ، فمولى العتاقة يرث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث ولا يرث ، ومولى الرحم يرث ويرث (٣) فمن اعتق عبداً كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم او يكتسبونه بالعمل او غيره ، واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم (٤) .

وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم في الاسلام ، حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة .

## النزلة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والخلفاء ونحوهم ، وفيها ايضاً جماعة من النزلة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند ، وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيها ، كالكلدان والسريريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود

٢ - الاغاني ١٧٦ ج ٢ .

Gibbon's Roman Empire, II. - ٤

٢٠ - تاريخ التمدن الاسلامي

١ - الاغاني ١٦٢ ج ١٤ .

٣ - العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .

والنصارى ، ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالأحباش والفرس ، والهنود ، فتضيع أصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عرباً صرفاً ، إلا بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم ، وشرذمات من من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء .

### الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس الاحرار او « الابناء » تمييزاً لهم عن الفرس الموالي . وابناء الفرس الاحرار هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل ، فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم واخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذي يزن وهرز اربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدماً ، فخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوهم جميعاً ، وتضعض امر اليمن ولم يولوا عليهم احداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس احدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فاسلما .

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طاوس بن كيسان احد اعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم .

وكان مثل هؤلاء الفرس ايضاً في الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت اسماءهم باختلاف اماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون في اليمن الابناء كما رأيت ، وفي صنعاء خاصة يسمون بني الاحرار ، وفي الكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالجزيرة الحضرمة ، وبالشام الجراجمة (١) . وكان للابناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا يميزون عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالي .

## سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم ، الا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد سياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ، مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية في الامم المتعدنة .

فالرياسة عندهم او الامارة انما يناها اهل العصية والجاه ، واذا تساوت العصية في جماعة قدموا اكبرهم سناً ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معاً ، واذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب ، واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فأنهم يقرعون بين اهل الرياسة ، فمن وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة .. ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرمهم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدي من تميم ، وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالي ثلاثة آباء منها في الرياسة على الاقل . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة : وكان اهل السياسة من رجال السامين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي : - « ولأهل البيوتات تستصلح بهم عشائهم » .

والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويفلب ان يستشير اهل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن احد ولا يمتن احداً . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم وضيعهم . وهم لا يعرفون القاب التفخيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس واباء الضيم ، او هي انفسه البداوة ، على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان ، والامير يخاطب رعاياه باللقاب الوقار كالآب والعم والحال والابن او ابن الاخ على ما تقتضيه الاسنان

والانساب . وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم .

## مناقب العرب في الجاهلية

### الوفاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء - والحكومة انما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا في خلق العربي ، ويزيد تمكنا فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء ، لان الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشامخة في ظل الحدائق الغناء .

وترى الوفاء مطبوعاً في اقوال اهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ، ويتجلى في عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم ، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة احسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء في الوقت المعين ، لا جند تقوده ولا حراس تخفروه ، مما خمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة (١) .

واغرب من ذلك وفاء السموأل ( صموئيل ) بن عادياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالا كثيراً ، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كنده يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموأل ، فلم يسلمها . ولما ألح عليه اجابه : « لا اغدر بذمتي ولا اخون امانتي ولا اترك الوفاء الواجب علي » فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموأل اسيراً عند الملك ، فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة ، فأبى التسليم وقال : « ما كنت لآخفر ذمامي وابطل وفائي

فافعل ما شئت . فذبح ولده والسموأل ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً ، واما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس .

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين ، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصاً اذا اضعفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنايا .. فهذه كلها مناقب العرب اهل البادية .

### الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضاً « الجوار » ، فان البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الأصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل : « جارك القريب ولا اخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع ان اصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق ، فاذا خاف احدهم سوءاً جاء الى رجل يحميه ، ويكفي ان يقول له : « اجرتني » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط في اهله ولا يفرط في جاره .

ومن امثلة ذلك ان الأعشى امتدح الأسود العنسي فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر ، فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرتني .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « أجرتني .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « وكيف تجبرني من الموت ؟ » ، قال : « اذا مت وأنت جاري بعثت الى اهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت انك تجبرني »<sup>(١)</sup>

وقد يحییء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته ، فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى

جانب طنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يحيره وان يطلب له بظلامته<sup>(١)</sup> .

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصاباً ميلاً في ميل على قبره ، لا يذشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته<sup>(٢)</sup> .

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام ، إلا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة ، والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه ، فاذا استجار به مظلوم قالوا : « انما يحير الرجل على عشيرته ، واما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم ، كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الأحنف خوف العزل ، وقال له : « اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت » ، فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس السبب<sup>(٣)</sup> .

### الاريجية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة « الاريجية » ، وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، او ما يجري مجراها من احوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم « Chevalerie » ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للأريجية شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقوّلها ، او فراراً من كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة في المواسم والاندية ، مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام .

ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له في موضوعنا .



# سياسة العرب في عصر الراشدين

من سنة ١١ - ٤١ هـ

## الجامعة الاسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد ان كان اليماني يفاخر الحجازي ، والمصري يفاخر الحميري ، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فججمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي : « المسلمون اخوة » ، وقال في خطبة القاها يوم فتح مكة : « يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب »<sup>(١)</sup> وقال من خطبة في حجة الوداع : « أيها الناس ، ان ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، واكمم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى »<sup>(٢)</sup> .

واقتمدى بالنبي خلفاؤه الاولون ، لا سيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة ان فزاريا وطىء إزاره فانحسل ، فرفع جبلة يده وهشم الفزاري ، فشكاه الى عمر فأراد ان يهشم انف جبلة ، فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك ؟ » فأجابه عمر : « ان الاسلام جمعك وایاه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية » ، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار<sup>(٣)</sup> .

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هي الاسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام ، واوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية

٢ - البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١ .

١ - ابن هشام ٢١٩ ج ٢ .

٣ - الاغانى ٤ ج ١٤ .

خيراً لانهم اصل العرب ومادة الاسلام<sup>(١)</sup> وقال : « اياكم واخلاق العجم » ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر اول خليفة فضل العرب وجعل لهم منزلة على سواهم ومنع من سييهم ، ومن اقواله : « قبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم » وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى ايامه<sup>(٢)</sup> عملاً بالحديث « لا سبا في الاسلام » .

وكان عمر لا يدع احداً من العجم يدخل المدينة<sup>(٣)</sup> وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين واخرج اليهود منها ، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة<sup>(٤)</sup> لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ انسابهم لئلا تضيع عصبيتهم ، ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال : من قرية كذا .. »<sup>(٥)</sup>

### الجامعة العربية

ثم ان عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها ، قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : « ليست الحجاز لكم بدار الاعلى النجعة .. سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها »<sup>(٦)</sup> لعلهم ان في العراق والشام عرباً يتحدثون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق فاقين على الفرس من ايام دولتهم ، لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد . وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية ، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصاً عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس - فأبو زيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني ، وانما حارب حية المعرب . وجاء المسلمين يرم واقعة البويب أنس بن هلال النمر في جمع عظيم من النمر - وهم نصارى - وقالوا : « نقاتل مع قومنا »<sup>(٧)</sup> وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حية للجامعة العربية ، بقطع النظر عن الدين .

- 
- |                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| ١ - ابن الاثير ٢٥ ج ٣ .  | ٢ - ابن الاثير ١٨٦ ج ٢ . |
| ٣ - المسعودي ٢٩ ج ١ .    | ٤ - ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢ . |
| ٥ - ابن خلدون ١٠٩ ج ١ .  | ٦ - ابن خلدون ١٢٢ ج ١ .  |
| ٧ - ابن الاثير ٢١٥ ج ٢ . |                          |

وكثيراً ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم ، يرشدونهم وينصحونهم .  
ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازياً للروم لقيه الروم فقاتلوه ،  
فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له : « اني لست من دينكم ولكنني انصحتكم للنسب ،  
فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم » (١)  
وقد نفعته هذه النصيحة .

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة ، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى  
ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم ، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل  
الذمة وفي جملتهم عرب تغلب وايد والنمر وهم نصارى ابى هؤلاء الجزية ، وبلغ  
عمر ذلك فاستشار اصحابه فقال له بعضهم : « انهم عرب يأنفون الجزية ، وهم قوم لهم  
نكاية فلا تمن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على  
المسلمين ، ولكنه شرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم (٢) .

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية ، وكان يعد ذلك حقاً واجباً فلما سار الوليد بن  
عقبة لفتح العراق والجزيرة ، انضمت اليه عربها النصارى ، الا قبيلة ايد ، فانهم تحملوا  
الى بلاد الروم ، فكتب الوليد الى عمر بذلك ، فكتب عمر الى ملك ائروم : « بلغني ان  
حيماً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه الينا او لتخرجن النصارى  
اليك » فأخرجهم ملك الروم (٣) .

### الانسياح في الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية ، والاستعانة بها  
على الروم والفرس ، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او  
الثامنة عشرة ، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الأرض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد  
طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر ، فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم ،  
كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر ، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية ، فلما  
فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له : « انك ان فتحتها  
كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب »

١ - الاغانى ١٨٧ ج ٤ . ٢ - المعارف ١٩٣ . ٣ - ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢ .

فلم يحبه عمر ، ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له : « سر .. اني مستخير الله في سيورك ، وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى ، فاذا ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من ارضها فانصرف ، والا ان دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . فسار عمرو يحنده مسرعاً خوفاً من ان يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر ، ففرض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً في أرضها فامض واعلم اني بمدك » فمضى حتى فتح مصر .

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون اليها ولا نصل اليهم » . ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة ( مركز الخلافة ) ماء ، حتى اذا اراد ان يأتهم اتاهم على راحلته ، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بداً من الانسياح في الارض اذن لقواده بالفتح ، ولكنه ظلم على رأيه في القرشين على الخصوص ، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال : « أخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولي عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد<sup>(١)</sup> .

فسياسة عمر بن الخطاب في اوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وان يختص قريشاً بالاقامة في المدينة لأنها مركز الاسلام وهم اساسه ومنشأه ، على انه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بداً من الاذن في الانسياح .

فالعصبية التي قام بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصاً عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا « العرب » أرادوا « المسلمين » ، وبالعكس . ولفظ « طيبونا » عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبية عديدة تختلف باختلاف الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملاً بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل .

### طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي ( صلعم ) بالدعوة الاسلامية ، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره ، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين ، وهم اقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة واقام فيها نصره اهلها وآمنوا بدعوته فسماهم « الانصار » وهم طبقة اخرى ، والطبقتان معاً تسميان « الصحابة » اي الذين صحبوا النبي او عرفوه . وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجماعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصرة الاسلام او نشره . فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الاسلام ، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا « البدرين » او « اهل بدر » ، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات او الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا اهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين .

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة او سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « اصحاب الجمل » ، وشيعة بني أمية يفضلون « أصحاب صفين » لمثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر اصحابه .

على ان الصحابة يتفاضلون ايضاً في السبق الى الهجرة او الى البيعة ، ومنهم اصحاب بيعة العقبة واصحاب الفار . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه . فاهيك بالمنصب التي اقتضتها الاحوال الدينية او الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم .

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهاباً تاماً ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح اشرف الانساب عندهم ، اقربها الى قبيلة النبي « قريش » فالنسب القرشي اشرف الانساب ، وللقريشين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء خصوصاً بعد اشتهاار الحديث : « الائمة من قريش »<sup>(١)</sup> فاعتقدوا الفضل للقريشين على الناس كافة في كل شيء ، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا : « لا تحمل لستين إلا قرشية ، ولا تحمل لخمسين إلا عربية »<sup>(٢)</sup> وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة<sup>(٣)</sup> وان القرشي لا يتزندق<sup>(٤)</sup> وانه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار<sup>(٥)</sup> وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد .

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ، ولا سيما في بني أمية ، اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية ، فاخصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر - والمهاجرون من العدنانية ( مضر ) والانصار من القحطانية ( الاوس والحزرج ) - فعادوا الى المنافسة وغلب الحيز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد ، فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية ، وعادوا الى المهاجرة والمفاخرة بالاشعار وغيرها .

وكان الانصار اهل المدينة من اشجع الناس وهم اهل الشورى ، يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر اهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا اقوى مقاوميه ، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم ، وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب - يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته ، فدخل الحاجب وقال : « هل تأذن للانصار » ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال : « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد الناس الى انسابهم » .

١ - العقد الفريد ٤٠ ج ٢ . ٢ - الاغانى ٨٨ ج ١٥ .

٣ - الاغانى ١١٠ ج ١٤ . ٤ - الاغانى ٦٠ ج ١٤ . ٥ - البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج ١ .

## سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية ، بل هي خلافة دينية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل ، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر ، بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » فان ما يروونه من اعماله واحكامه يندر اجتماعه في البشر ، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه ، لولا قصر مدة حكمه ، ويكفيه من الأثر في الاسلام قتاله أهل الردة، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبي ، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لا تزال في طفولتها ، فشر ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين ، وكذلك يقال عن علي وعثمان .

### ابو بكر

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الاسلام الذهبي ، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل . فقد اسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون الفاً ، وهي ثروة طائلة يومئذ ، انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله في السنع بضواحي المدينة يغدو اليه على رجليه ، ويندر ان يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنع . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحبي اغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : « الآن لا يحلب لنا منائح دارنا » فقال : « بلى لعمري لاحلبنها لكم ، واني لارجو ان لا يغيرني ما دخلت فيه » . وبعد خلافته بستة اشهر تحول الى المدينة وقال : « ما تصلح امور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم » . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له : ٦٠٠٠ درهم في السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة ارض كانت له ، ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما اخذه من مال المسلمين .

### عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب ، ففي ايامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم ، وانصبت خزائن

كسرى وقيصر بين يدي رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهد والتكشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع يجلد . واذا انفق عطاءه واحتاج الى مال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على ان يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على اموال المسلمين ، لا ينفقها الا في مصالحهم ، ويتولى امورهم بنفسه ديناً وسياسة ، فيسعى في نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى ، واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث اناساً من القراء يعلمون اهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضرّب (١) وكان شديداً على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم ، فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه ، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير ، فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه (٢) وقد يضرب عامله بالدرة او يوبخه ، وليس فيهم من يرد في وجهه او يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، او يطمع في اموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه ، فيقطعهم على موائد يحفن لهم فيها عشرة عشرة ، واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهّد اهلهم بما يحتاجون اليه (٣) وكان عادلاً في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في ايامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون في الاسلام او يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان قابضاً على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل ترعزعت اركانها ، ونقض كثير من اهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان (٤) وغيرهما من الاطراف البعيدة .

### عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوي قرابته من بني امية ، حتى نقم عليه سائر المسلمين ، وخصوصاً اهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو امية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم . على ان عثمان اول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا انه كان عند خازنه ١٥٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠ درهم ، وله

١ - الاغانى ٥٨ ج ١٦ . ٢ - ابن الاثير ١٧٤ ج ٢ .  
٣ - الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٤ - ابن الاثير ٦٠ ج ٣



ضياح بوادي القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠.٠٠٠ دينار ، غضلا عما خلفه من الخيل والابل ، وفي ايامه اقتنى الصحابة الضياح وابتنوا الدور واخزنوا الاموال<sup>(١)</sup> وتعودوا الغنى والترف ، ولما جاءهم علي بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه ، وساعدهم على التمتع قيام معاوية واطماعهم في الاموال ، وسيأتي بيان ذلك .

### علي بن ابي طالب

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة ، وكان شديد التمسك بالاسلام ، حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون ، وانما همه الدين وعمدته في اعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كبا ينامان عليه بالليل ويملفان عليه ناضحهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان في ايام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . وراه بعضهم يحمل قرأ في ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا امير المؤمنين ألا نحملة عنك ؟ » ، فقال : « ابو العيال احق بحمله .. » . ومن اقواله في كيف يجب ان يكون المسلمون قوله : « خمس البطون من الطوى ، يلبس الشفاه من الظمأ ، عمش العيون من البكاء<sup>(٢)</sup> . ومن أمثلة عدله انه رأى درعاً له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضي ، فوقف علي بجانب خصمه احتراماً للعدل . وكان اذا بعث رجاله في حرب اوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء .

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق ، كما كان يفعل عمر . ولو تولى امور المسلمين في زمن عمر ، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين ، لكان نصيبه من الحكم اطول ، ولما بدا في تدبيره ضعف ، لكنه تولاهما وقد فسدت النيات ، وطمع العمال في الاحكام ، واطعمهم وادهاهم معاوية بن أبي سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل ، وعلي يضيع الاحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة في المحافظة على الدين واسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عبدالله بن عباس ، وكان عاملاً له على البصرة ، فوشى به ابو الأسود الدؤلي الى علي ، فكتب علي الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي ، فأجابه : « أما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني لما تحت

يدي لضابط وله حافظ ، فلا تصدق الظنين والسلام . فكتب اليه علي : « أما بعد فأعلمني ما اخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت . فكتب اليه ابن عباس : « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، اني رزقته من أهل هذه البلاد ، فابعت الى عملك من احببت فاني ظاعن عنه والسلام ، واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هذه أرزاقنا اجتمعت » فتبعه أهل البصرة الى مكة<sup>(١)</sup> ولم ينتفع علي به ولا بأحزابه فعلي لم يفعل بأبن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعتاء ويحتذب القواد بالدهاء .

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فأكمل الاسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة .

على ان سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، او تقتضيه سياسة الملك ، وانما هي خلافة دينية وفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر ، والى احوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمة الدينية والأنفة البدوية والأريحية العربية . فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأنت بالعجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور<sup>(٢)</sup> فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد سنة الله في خلقه .

### انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب ، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعله بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منهم بما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلداً في دار الفتح ان لا يبنوه في مكان

يحول بينه وبين المدينة ماء ، خوفاً على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة ، على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز . ولهذا السبب أيضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل « السكة ( المحراث ) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل »<sup>(١)</sup> ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد ان يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصوناً او معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال<sup>(٢)</sup> ولهذا السبب أيضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي (صلم) « ان لا يترك في جزيرة العرب دينان »<sup>(٣)</sup> ، وان لا يأتي الحج احد من المشركين<sup>(٤)</sup> فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، اذ لو بقوا هنالك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك ، كما سترى .

فكانت السياسة في صدر الاسلام ان يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على اطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً ، حتى اضطر اخيراً الى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الارض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقية وغيرها . ولما تولى عثمان اطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس<sup>(٥)</sup> وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد .

### الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا

١ - ابن خلدون ١١٩ ج ١ . ٢ - الجزء الاول من هذا الكتاب .  
٣ - ابن هشام ١٩٥ ج ٢ . ٤ - ابن هشام ٥٠ ج ٣ . ٥ - ابن خلدون ١٣٦ ج ١ .  
٢١ - تاريخ التمدن الاسلامي

ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل ، وهو جيش يوم الصفقة (١) والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من ايام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه ، نذر الله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعه ويذودوا عنه ، ان ينحر احدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة اولاد فاشدد ازره بهم .

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في ايديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيّات ، استكثروا من امهات الاولاد، فضلا عن الزوجات ، فكثروا نسلهم - والترف يزيد الدولة في اولها قوة بكثرة النسل - وتسابقوا الى احراز الجوارى ، حتى ان بعضهم احصن ثمانين امرأة معا ، كالغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله اربع نسوة و٧٦ امة (٢) فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولداً او مئة ولد او اكثر . ذكروا انه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد (٣) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ انثى (٤) وخلف تميم بن نفعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ انثى (٥) وكانت لعمر بن الوليد تسعون ولداً منهم ستون يركبون الخيل (٦) وولد لابن سيرين ٣٠ ولداً من امرأة و ١١ بنتاً (٧) وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ ادلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام ، كالعباسيين والايوبيين وغيرهم .

### انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يحاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض، حتى نصبوا اعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقاً وشواطىء المحيط الاطاسي غرباً، وضفاف نهر لوار شمالاً وأواسط افريقيا جنوباً ، وملأوا الارض فتحاً ونصراً ، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف، واختلطت

- |                           |  |
|---------------------------|--|
| ١ - العقد الفريد ٧٨ ج ٣ . | ٢ - الاغانى ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠ .        |
| ٣ - ابن خلكان ١٤٧ ج ٢     | ٤ - نفح الطيب ١٦٤ ج ١ - ابن خلكان ٩٩ ج ١ . |
| ٦ - العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢  | ٧ - ابن خلكان ٤٥٣ ج ١ .                    |

انسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية ، واليك اسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من اول الاسلام :

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهاء
تميم	ذهل	يحيىة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها
سليم	تميم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الأشعريون	
سعد بن بكر وعامر		لخم وكندة	
ابن صعصعة			

على ان هذه القبائل لم تكن في اوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنيا منهم الثغور القصية واكثرهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع وضاعت اسبابهم بتوالي الاجيال حتى خرجت الدولة من ايديهم .

### انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الأرض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا ايضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة .

فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صدر الاسلام ، لأن أرضهم أجذبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى <sup>(١)</sup> وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جدد ، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها الى مصر والشام ، يسمونها أعوام الجلاء <sup>(٢)</sup> وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام : اذا أجذبت أرضهم يعموا العراق وفارس ، فيعطيهما الفرس التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم <sup>(٣)</sup> خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم .

على ان الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها ، ان يكون بايعاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصاً بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس في عهد الدولة الاموية . فكان الأمير أو الخليفة اذا تولى بلداً وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، او من ينتمي اليها بالحلف ونحوه ، يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة ، فيطلق لهم المرعى ، يفرض لهم العطاء ، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعه على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس ( العدنانية ) لأنهم نصره وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم في مصر الا بعض بطون ، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم عبید الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل الى مصر منهم أرباباً ، فأذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر ، أي أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم في الفسطاط ، فأنزلهم في الحوف الشرقي ( الشرقية والدقهلية ) ولا سيما في بلبيس وأمرهم بالزراعة <sup>(٤)</sup> ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها .

### بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبة الامير او الخليفة في التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال ، وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجمة أهل بادية ،

١ - الاغاني ٦ ج ١٣ ٢ - الاغاني ٤٧ ج ١١

٣ - ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ ٤ - المقرئ ٨٠ ج ١

محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة ، ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا في البلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم ، فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ، ونقل أشياءهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد ، في العدو شرقية من نهر النيل ، فأقاموا هناك . وكان لهم أضرار في البلاد ، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين ان المعز بن زيري عامل الفاطميين في افريقية ، شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطرز والرايات ، فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره ابو محمد الحسن بن علي اليازوري ، ان يقرب اليه احياء هلال وسليم المذكورين ، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال افريقية ويرسلهم لاستلام امورها ، فاذا فازوا كانت احدى الحسينين ، والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا براً الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعاً في الكسب ، وأصبحت افريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين ، فاقسموا البلاد فيما بينهم<sup>(١)</sup> .

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية<sup>(٢)</sup> وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان يتنقل من القبائل او البطون في اثناء الحروب في عصر لامويين للنجدة او نحوها .

### العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية ، وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه ، فلا غرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولا خاصة .

## الرق في الاسلام

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر أو الشراء ، واما في الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصاً في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الأسرى . فاذا غلبوا جنداً او فتحوا بلداً ، اسروا رجاله ، وسبوا نساءه وأطفاله ، واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم ، وهي كثيرة ربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختمون اعناقهم ويقسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مائة اسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام الف عبد أو أكثر <sup>(١)</sup> وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على ان الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد <sup>(٢)</sup> .

والغالب في الأسرى اذا كانوا كثيراً ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن اكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الأسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة اشهر <sup>(٣)</sup> وتكاثر الأسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة <sup>(٤)</sup> وكثرت الأسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالاندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم <sup>(٥)</sup> .

على أنهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكاً للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك بالغوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قریش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتنا : « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » <sup>(٦)</sup> .

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا اسراهم ويحرزوا اثمانهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقي الأسرى في حوزته عبيداً الا الامراء ، حتى يفتديهم اهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الاسباب .

ومن مصادر الرقيق في الاسلام - غير الاسر - أن بعض العمال ، وخصوصاً في افريقية

١ - ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ . ٢ - الديميري ٤٩ ج ١ . ٣ - نفح الطيب ٢١٣ ج ١ .  
٤ - ابن الاثير ١٩٩ ج ٦ . ٥ - نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ . ٦ - ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢ .



وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق <sup>(١)</sup> وكان بعض اهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من اولادهم <sup>(٢)</sup> غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الاصلي في جملة الغنائم .

أما أحكام الاسرى في الاسلام فالخليفة ( أو من يقوم مقامه ) خير بين أربعة أشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال او اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء ، فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية <sup>(٣)</sup> فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال .

ومن ملك رقيقاً بالاسر او الشراء او غير ذلك كان خيراً في استبقائه او بيعه او المن عليه بالعتق ، ومن اعتق عبداً صار مولاه . وللعرق اسباب كثيرة ، أهمها في الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين ، فاذا اسلم العبد وظهر التقوى اطلقه سيده ، فقد اعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة الفعبد <sup>(٤)</sup> واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، او وفاء لنذر ، او التماساً للثواب ، او شكرياً لله على نعمة ، او نحو ذلك . وكان بعض اهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابي ربيعة لما اسن ان لا يقول بيت شعر إلا اعتق رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة <sup>(٥)</sup> ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد ، كما فعل الجنيد ابن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب ، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح في العبيد : « اي عبد قاتل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالاً اعجب منه الناس وانهزم الاعداء <sup>(٦)</sup> وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصره الاسلام وهم عند اعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم حصار الطائف ، اذ قال : « كل عبد نزل الي فهو حر » <sup>(٧)</sup> وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم في الاسلام على نية ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما ارادوا ذلك عدتهم المسلمون مرتين فقتل حريمهم .

على ان الاسلام جاء رحمة للأرقاء ، فأوصى النبي بهم خيراً بقوله : « لا تحملوا العبيد ما

---

١ - المقرئ ٣١٣ ج ١ . ٢ - ابن الاثير ١٣ ج ٣ . ٣ - المارادي ١٢٥ .  
 ٤ - ابن خلكان ٢٤٨ ج ١ . ٥ - الاغانى ٦٤ ج ١ .  
 ٦ - ابن الاثير ٧٨ ج ٥ . ٧ - المعارف ٩٧ .

لا يطيقون ، واطعموهم مما تأكلون «<sup>(١)</sup> وقال: «لا يقل احدكم : عبدي وأمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي » .

وفي القرآن الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العباداة<sup>(٢)</sup> وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبي بقول الأئمة : « لا سبأ في الاسلام ، ولا زق على عربي في الاسلام » . ومن احكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر<sup>(٣)</sup> واذا احسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون في ايدي العرب بالفتوح من اهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم ، فهؤلاء اما ان يفترقهم اهلهم ، او يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ، او يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، او رعاية الإبل او الماشية ، او لبري القسي ورمي النبل او جمع النبال المتساقطة وقت القتال ، او لرواية الشعر او حفظ القرآن او الحديث او غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مائة دينار ، فاذا كان راعياً للإبل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسي يباع بأربعمائة دينار ، فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك اثمان العبيد في أواسط دولة بني امية<sup>(٤)</sup> .

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الارض ، وهو خاص بالقرى ، ويسمى المزارع المقيم « فلاحاً فراراً » ، فاذا أقطعت أرضه ، أو بيعت لأحد ، أو دخلت في ملك احد بالفتح او غيره ، كان الفلاح تبعاً لها وصار « عبداً قنّاً » ، الا انه لا يرجو ان يباع او يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو اراد ، بل هو قن ما بقي حياً ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيداً لمالك الارض او مقتطعها ، وقد أشرنا اليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية .

### الموالي في الاسلام

والباقون في الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالباً ، اذ يغلب ان يعتقوهم

١ - القرظي ١٣٧ ج ١

٢ - البخاري ٥٩ ج ٢

٣ - الاغانى ١٥٢ .

٤ - الاغانى ١٣٣ .

مكافأة لهم ، ومن اعتق منهم صار مولى ، ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب ، استنكافاً من استرقاق المسلم ، ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي ، فإذا قالوا « الموالي » أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الاسلام ، أو كانوا مما لازم العرب أو التجأوا اليهم ، ويسمونه « الحمراء » فإذا قالوا « الحمراء » أرادوا الموالي ، والحمراء في القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب .

وأصبح الموالي في الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، كان لها شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية ، لقول النبي (صلم) : « مولى القوم منهم » <sup>(١)</sup> وقوله : « من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » <sup>(٢)</sup> واهل الرجل عند العرب الموالي والذراري . ويشق الرجل بمولاه كما يشق بابنه ، لأنه لم يعتقه الا حباً فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى اهله وينتسب الى مولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . او ينتسب الى قبيلته فيقال مثلاً ابن مريج مولى بني نوفل ، ومحرز مولى عبد الدار ، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولى بني مخزوم ، وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصاً من يعيش من الموالي في بيت مواليهم ، ولكن الغالب ان يخرجوا للعمل يعملونه ، حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوأهم .

وللموالي فضل كبير في الاسلام ، لأن معظم الحفاظ واهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء واكثر التابعين منهم ، لا اشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة <sup>(٣)</sup> ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفتياء والغنائم في فارس وغيرها ، واكثرهم كانوا غلماناً في جملة السبي ، فربوا في الاسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم - منهم أربعون غلاماً كانوا يتعلمون الانجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبي بكر بالمدينة ففرقهم في أهل البلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين ، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه منهم ، وحران مولى عثمان بن عفان <sup>(٤)</sup> وايضاً محمد بن اسحق صاحب

١ - المقد الفريد ١١١ ج ٢ ، ٢ - ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١ .

٣ - الجزء الثالث من هذا الكتاب . ٤ - ابن الاثير ١٩٢ ج ٢ .

المغازي والسير فان جده يسار منهم <sup>(١)</sup> وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده .

فأبو صفر من سبي دبا في أيام أبي بكر، وحامد الوية أصل أبيه ديلمى من سبي مكلف ابن زيد الحليل <sup>(٢)</sup> وسائب خاثر أصله من فيء كسرى ، ومروان بن أبي حفصة الشاعر الشهير أصله يهودي من سبي اصطخر <sup>(٣)</sup> والهروي اللغوي المشهور اسير وقع في سهم عرب نشأوا في البادية <sup>(٤)</sup> وابن الاعرابي سندي الاصل ، وابو دلامة كوفي أسود كان عبداً لرجل من بني اسد فأعتقه <sup>(٥)</sup> وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم في الاسلام .

وقد يكون المولى من اصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء ، فان بعض موالي المنصور من اولاد المرازبة <sup>(٦)</sup> وأبو علي بن بذيمة الذي يروى عنه وابو زهير جند المطلب بن زياد أصلهما من ابناء الاكسرة ، وقعا في الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جندادة الصحابي فأعتقهما ابنه جابر <sup>(٧)</sup> . وانتقى ابو موسى الاشعري ستين غلاماً من اولاد الدهاقين من سبي يروذ بفارس ، وفرق بعضهم في المسلمين ، غير الذين اقتداهم أهلهم <sup>(٨)</sup> .

وكان للخلفاء والامراء ثقافة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق في أن يكون أصلهم فارسياً او ديلمياً او حبشياً او رومياً ، فموالي أبي بكر أولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة ، اشتراه ابو بكر بخمس اواق وأعتقه . وهو اول من أذن في المدينة ، وكان له مقام رفيع في الاسلام ، وكذلك عامر بن فهيرة ، وابو نافع ومرة بن ابي عثمان وغيرهم <sup>(٩)</sup> وقس على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون في سبيل مواليهم ، لاعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر - من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبى ، لما نشبت الفتنة بين الامين والمأمون ، كان هو من حزب الامين ، وأراد ان يحفظ له الاهواز من اصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر يجنده قبل ان يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبى

١ - ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨ . - المعارف ١٢٠ ج ٩ .  
 ٣ - الاغانى ٣٦ ج ٩ . ٤ - ابن خلكان ٥٠١ ج ١ . ٥ - الاغانى ١٢٠ ج ٩ .  
 ٦ - الاغانى ٨٢ ج ٢٠ . ٧ - المعارف ١٠٣ . ٨ - ابن الاثير ٢٣ ج ٣ .  
 ٩ - المعارف ٥٨ .

المذكور الى مواليه وقال لهم : « ما رأيكم ؟ . اني أرى من معي قد انهزم ، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما أحب ، فمن اراد الانصراف فليصرف ، فوالله لأن تبقوا أحب الي من ان تموتوا » . فقالوا : « والله ما انصفناك اذن . . تكون قد أعتقنا من الرق ، ورفعنا من الضعة ، وأغنيتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فحرقوا دوابهم واستقتلوا بين يديه <sup>(١)</sup> .

على ان المولى لا يزال احط مقاماً من العربي . وكان الموالي في صدر الاسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر الى امانة وثقة ، فضلاً عن العلم والدين . ولهم الرواتب السنية <sup>(٢)</sup> لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلاً ، فانه كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد ان يولي مكحولاً القضاء أبى وقال : « قال النبي : لا يقضي بين الناس الا ذو الشرف في قومه ، وانا مولى » <sup>(٣)</sup> .



٢ - الاغانى ١٦٣ ج ١٠ .

١ - ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ .

٣ - العقد الفريد ٨ ج ١ .

## سياسة الدولة في عهد الأمويين

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في ايام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية ، ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية ، واخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة ، وغايتهم نشر الدين والتاس الثواب في الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه .

### انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد افضت الى علي بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون انه احق الناس بها ، لقربته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده . فتصدى له معاوية بن ابي سفيان ، وكان ابوه واخوته من اشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وانما اقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته .

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم اهل مكة ، وقد حارب النبي في عدة اماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون في غزواتهم ، واشتد ازهرهم ومموا بفتح مكة ومشوا حتى اقبلوا عليها ، كان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقىهم العباس عم النبي ، فقال له ابو سفيان وقد اسقط في يده : « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فأشار عليه العباس ان يستأمن ، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو واولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبي بالعتاء ليثبتوا في اسلامهم <sup>(١)</sup> .

## المنافسة بين بني أمية وبني هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك ان بني عبد مناف هم اشرف بطون قريش واكثرهم عدداً وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبني هاشم ، وكان بنو أمية اكثر عدداً من بني هاشم واوفر رجالة ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد ابي سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة في الفخذين جميعاً ، فلما جاء الاسلام ، والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني أمية وكانوا من اقوى الساعين في مقاومته ، فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الأنصار هناك وهم من القحطانية حتى استتب له الأمر ، وقد مات عمه ابو طالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم اخوه حمزة ثم العباس وغيره من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم ، فخلا الجو لبني أمية في مكة ، واستغلظت رياستهم في قريش ، وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل ابو سفيان بشرف أمية بمكة والتقدم في قريش ، وكان رئيسهم في واقعة احد وقائدهم في واقعة الأحزاب وما بعدها . فلما استفحل امر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقدم ، رأى النبي من حسن السياسة ان يمن على قريش كافة بعد ان ملكهم بالفتح عنوة ، فمن عليهم واطلق سبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية ، فأسلموا جميعاً .

فلما مات النبي وتولى الخلافة ابو بكر ، جاء القرشيون ومعظمهم من بني أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه في انفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والأنصار ، فقال لهم ابو بكر : « لقد جئتم الاسلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم في الجهاد » فجاهدوا في حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب ادرك ما في نفوسهم ، فخاف بقاءهم في المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم في الشام ، فاستعمل يزيد بن ابي سفيان عليها ، فانتقل معه سائر قريش ، واستطابوا فأكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور ، فولى عمر مكانه اخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ اقر معاوية على الشام ، فاتصلت به رياسة بني أمية على قريش في الاسلام كما كانت في الجاهلية ، وبني هاشم مشغولون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا .

## معاوية وعلي

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ، ويتوقعون فرصة للقبض على ازمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية . وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة ، فاغتم الأمويون ضعفه وتولوا الأعمال واستأثروا بالأموال ، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف .

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكانت اهل المدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب ، وجمهمورهم الأنصار . فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الأنصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبي (صلعم) جرياً على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) بنو أمية في الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية . وجمهور الصحابة يرون الحق لعلي ، فلم ير معاوية سبيلاً الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان ادهى اهل زمانه بلا منازع . فنظر في الأمر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه اهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك ان خصمه علياً كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً ، وهو زاهد في الدنيا ولا مطمع له في غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ، ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فالتسعت مطامعهم . فأثرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص . إذ قال معاوية : « لو أن بني وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا امير المؤمنين ؟ » قال : « إن هم شدوا ارحيت ، واذا ارخوا شددت » .

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدم المؤرخون ادهى رجال العرب - ومعاوية ادهام جميعاً - وهم : عمرو بن العاص ، وزيايد بن أبيه ، والمغيرة ابن شعبة . ولولاهم لم يستتب له الأمر ، لأن ابن العاص احتال في نجاحه من واقعة صفين ، بعد ان كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش علي على جيوشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ، ثم اشار بالتحكيم وخدع ابا موسى الأشعري فائب



علي في ذلك التذكيم فخلع علياً وبايع معاوية. وقال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر<sup>(١)</sup> وزيايد بن ابيه رجل لا يعرف له أب ، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى انه اخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن ابي سفيان ، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحق زياد اول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية<sup>(٢)</sup> وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . اما المغيرة بن شعبة فهو اول من ضرب الزيوف في الاسلام واول من رشى<sup>(٣)</sup> وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك .

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطماع ، فأطعم ابن العاص مصر ، وأطعم المغيرة فارس ، وجعل زياداً أخاه . وكان يتساهل في محاسبة عماله ويفضي عن سيئاتهم<sup>(٤)</sup> ويبالغ في اكرامهم . ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم ، متصبلاً في رأيه لا يجحد عما يقتضيه ضميره . كذلك كان يفعل ابو بكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا في ايامها لا يزالون في ابان الحمية الدينية والاريجية العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف علي ضعفاً منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد ان كانوا معه ، وأولهم المغيرة بن شعبة ، فهذا جاء علياً يوم بويج ومعاوية واقف له بالمرصاد ، فأشار اليه ان يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله اذا شاء ، فلم يطعه علي ، فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه ان يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من اكبر انصاره .

وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو امية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة علي ، وكان الفوز دائماً لأهل الدهاء ، نقضى العلويون معظم ايامهم خائفين شاردين ، ومات اكثرهم قتلاً مع انهم اهل تقوى

٢ - ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ .

٤ - ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣ .

١ - المقرئ ٣٠٠ ج ١ .

٣ - المعارف ١٨٩ .

ودين وحق ، وأولئك على الضد من ذلك — مما يدل على ان السياسة والدين لا يلتزمان الا نادراً ، وما التحامها ايام الراشدين الا قلته قلما يتفق مثلها . على اننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وانما هي خلافة دينية .

### رغبة بني أمية في السيادة

ان المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني أمية ، والغرض الذي كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، او وخامة الاسباب التي تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم ، فانسعت المملكة الاسلامية في ايامهم واشتدت شوكتها ، ما لم تبلغ دولة العباسيين بعدها<sup>(١)</sup> وكانوا يطلبون السلطة على ان لا يشاركهم فيها احد ، وكان اشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان في اجة »<sup>(٢)</sup> .

فرغبة بني أمية في السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو احق منهم بها ، جرمهم الى ارتكاب امور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في ايامهم بشيئين : العصبية القرشية ، واصطناع العصبية او الاحزاب الاخرى ، وهما اساس كل ما ظهر من سياسة بني أمية كما سترى .

### العصبية العربية في عصر الامويين

#### العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الانساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام والجامعة الاسلامية ، وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول ايام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية في الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا

وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبية على حكومتهم وظاهرة في سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها . وانما حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش » ، واشار اهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام ، وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام ، لأن اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ( صلعم ) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقهم ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار ، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب ، فاستكثروا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة ، والازد من اليمن ، وقيم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من قريش والأنفة عليهم ، فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية .

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش ، حسداً لهم كما ذكرنا ، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم بالفيء - الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية او العدنانية . وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في ايام عثمان ، ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاء عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهل القادسية وقراء اهل الكوفة لمجالسته ، فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو امية وغيرهم من الصحابة قد اخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل ، وبنو امية اطول باعاً يومئذ في ذلك لقربانهم من الخليفة . فاتفق في احدي مسامراتهم عند سعيد ابن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جوادا ، ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » . والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة ، وهي عظيمة كثيرة الدخل اشترها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخير وعمرها فعظم دخلها (١) .

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت ان هذا الملطاط لك » . والملطاط ما كان للاكامرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من

غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر ابوه عنه وقال : « غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » اي سواد العراق فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الاشتر النخعي حاضراً ، وهو من اليمنية ، وكان شديد التعصب لعلي بن ابي طالب ، فغضب وقال لسعيد : « اتزعم ان السواد الذي اقامه الله علينا بأسيا فانا بستان لك ولقومك ؟ » فقام عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر : « اتردون على الامير مقالته ؟ » وأغلظ لهم ، فأشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأ شديداً حتى غشي عليه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : « ان الذين انتخبتمهم لمسامرتك قتلوني » . فقال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد أبداً » (١) .

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلاً فعلوا في اول الاسلام ، اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية « الانصار » وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من أنصار علي : « أيها الناس هل من رائج الى الله تحت العوالي ( أي السيوف ) ؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله ( القرآن ) كما قاتلناكم على تنزيله » ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله      واليوم نضربكم على تأويله  
ضرباً يزيل المهاب عن مقلبه      ويذهل الخليل عن خليله  
أو يرجع الحق الى سبيله (٢)

### القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار اكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره ، الا الذين تألفهم معاوية بالعتاء ، لعله ان اكتفاه بقريش ونحوهم لا يجديهم نفعا ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها يحدل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم على قتلة عثمان لأن امرأة عثمان كانت كلبية ، واستغواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لأنهم اخواله .

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد او مروان بن الحكم ( وكلاهما من أمية ) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية ، كان انصار ابن الزبير من قيس ( مضرية ) يدعون لابن الزبير ، وانصار بني أمية بنو كلب ( يمنية ) يدعون لخالد بن يزيد لأنه ابن اختهم . ونهض اناس من بني أمية فاعترضوا على صغر سن خالد ، فأجمعوا على بيعه مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين اصحاب مروان واصحاب ابن الزبير ، أي بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، او مضرية ويمنية ، او نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينها في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقية والأندلس . وفي كل بلد من هذه البلدان وغيرها حزاب : مضري ويعني ، تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الأمراء او العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية ، والعامل اليمني يقدم اليمنية ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ، وله تأثير في كل شيء من تصارييف احوالهم ، حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم ، وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى احد هذين الحزبين .

فقد رأيت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أي فرض لاهلها الرواتب والجرایات . وفي أيامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصاً مصر والشام . وفي أيام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية انصاراً لبني أمية ، ولا سيما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية <sup>(١)</sup> فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشدد أزره بهم ، فاجمع المضرية على نصره مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر أيامه ، فلما قامت شيعة بني العباس كانت اليمنية من انصارها .

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قريش ما زال في كل حال محفوظاً ومفضلاً على مقام سائر القبائل ثمرفاً ونفوذاً ، فكانوا

إذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملاً من قريش ، فيذعنون له ويجمعون على طاعته (١) .

على ان قريشاً كانوا منقسمين فيما بينهم ، واهم انقساماتهم بين بني أمية وبني هاشم ، فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر تبعاً لغرضه او وطنه ، وكثيراً ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة ، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق ، وقوة بني أمية في الشام ، ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيراً ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء . واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات ، واشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر ، الذي ينتسب بولائه الى بني هاشم ، فقد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية ، فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب ، والناس ينقسمون في التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية ، وتغير اسماهما الى الحناطين والجزارين (٢) وسديف هذا هو الذي قال شعراً بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموي .

### عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في ايام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين ، وانهم مادته وأصله ، ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب اسيادهم ويعدوا انفسهم من مواليهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم ، عملاً بالحديث المأثور : « من ابغض العرب أبغضه الله » (٣) وكثيراً ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله بن المقفع الملقب بالشهيد - وكان عريقاً في النسب الفارسي - ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من اشراف العرب ، فتصدى هو للكلام

٢ - الاغانى ١٦٢ ج ١٤ .

١ - ابن الاثير ١٧٨ ج ٥ .

٣ - المقعد الفريد ٤٢ ج ٢ .

فسأل بعض الحضور : « اي الامم اعقل ؟ » فظنوه يريد امته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا .. لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئاً بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » ، حتى سئموا فقالوا : « قل انت » ، قال : « العرب . واذا فاتني حظي من النسبة اليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت عليها ، اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، يهود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، ادبتهم انفسهم ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم والسفتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحبائهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم . »

### العرب والموالي

فكان العرب يزددون بأمثال هذه الاقوال افتخاراً على سائر الامم ، وخصوصاً على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم . ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم : « لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر ، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما في الاثر - ان قوماً يقادون الى حظوظهم بالسواخير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على اننا تعرضنا للقتال فيهم ، فمن اعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبكم . »

وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي ، واذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعاً لله . وكان نافع بن جبير التابعي الشهير اذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فاذا قالوا : « قرشي » قال : « واقوماه ! » واذا قالوا : « عربي » قال : « وابلوتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » (١) . وكانوا يقولون : « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار ، او كلب ، او مولى . » وكانوا لا يكتونهم بالكفى ، ولا يدعونهم الا بالاسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم في المواكب ، وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وان اطعموا المولى لسنه وفضله

وعلمه اجلسوه في طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب - وسيأتي الكلام على احكام الموالي في هذا العصر .

وكان العرب في ايام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة ، ويعمدون انفسهم فوقهم جبة وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحاء » كما تقدم ، وربما ارادوا بالحمراء الموالي على الخصوص . فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ، ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسوام وخصوصاً المهن والصناعات . ومن امثالهم « ان الحق في الحاكة والمعلمين والغزاليين » لانها صناعات اهل الذمة <sup>(١)</sup> وتخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لاكثر الله فينا مثلك » ، فقال العربي : « بل اكثر الله فينا مثلك » ، فقليل له : « ايدعو عليك وتدعو له ؟ » ، قال : « نعم » ، يكسحون طرقتنا ويخرزون خفافنا ويحكون ثيابنا <sup>(٢)</sup> .

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ ، لانه لازم للسيادة والفتح ، واما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالي واهل الذمة ، ولذلك كان العمال في ايام بني امية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون <sup>(٣)</sup> .

وكان الامويون في ايام معاوية يعدون الموالي اتباعاً وارقاء . فلما تكاثر الموالي ادرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته ، وفيهم الأحنف بن قيس وسمرة ابن جندب ، فقال لهما : « اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) واراها قد قطعت على السلف ، وكأني أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، قرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ » . فقال الأحنف : « ارى ان نفسي لا تطيب .. أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب » ، واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية ان الحزم في رأي الأحنف فكف

٢ - - المقد الفريد ٧٣ ج ٢ .

١ - البيان والتبيين ١٠٠ ج ١ .

٣ - المسعودي ١١٤ ج ٢ .



عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسوام ، وكيف يخطر الخليفة ان يقتل شرطاً منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام .

وكان العرب سكروا بجمرة السيادة والنصر ، بارتقايم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً ، فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم اهل هذا العصر في بعض الأمم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الأمم فتوهم العرب في انفسهم الفضل على سائر الأمم . . . حق في ابدانهم وامزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل في سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل للحسين الا عربية كما تقدم ، وان الفالج لا يصيب ابدانهم ولا بضرب احداً من ابنائهم الا ان يبدروا بذورهم في الروميات والصقلييات وما اشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه<sup>(١)</sup> ولذلك كانوا في ايام بني أمية شديدي العناية في حفظ انسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربي »<sup>(٢)</sup> وحرّموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان ابوه قرشياً ، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين ، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك : « بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن امة »<sup>(٣)</sup> مع ان امه من بنات ملوك فارس . واول من ولي الخلافة من ابناء الامام يزيد بن الوليد الأموي سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربي من ام اعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الأعجمي عربية ولو كان اميراً وكانت هي من احقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس اراد ان يتزوج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبى ، مع ان باهلة من احقر قبائل العرب . ولم يكن انقل على طباعهم من استرقاق العربي<sup>(٤)</sup> .

وكان فضل العرب على سوام قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، اخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من اعداء الأمويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعبية ، لا يعترفون بفضل العرب على سوام ، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعبية

١ - طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغاني ٨٨ ج ١٥٠ . ٢ - ابن خلكان ٢٠٠ ج ١ .

٣ - سراج الملوک علی هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨ . ٤ - ابن الاثير ٤٤ و ١٣١١ ج ٥٥ .

يستطيعون الظهور في أيام بني أمية <sup>(١)</sup> فلما افضت الخلافة الى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون ، ظهوروا وألقوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتي .

### آثار بني أمية في الاسلام

فالدولة الأموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثير العناية في حفظ الأنساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة <sup>(٢)</sup> وهي التي جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في أيام الرشدين ديناً ، فصار على عهد الأمويين عصبية وسيفاً ، ثم صار دولة أيدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية ، اصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية ، وهي تعد الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرها من اي امة كانت وتوالد فيها عد نسله عربياً .

وظل العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم <sup>(٣)</sup> وظل كثير من عادات الجاهلية شائناً في أيامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العامة ، فكان أشرف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المريد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون <sup>(٤)</sup> كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المريد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة او المريدون ، في جملتها حلقة كانت لراعي الابل والفرزدق وجلسائهما بأعلى المريد <sup>(٥)</sup> وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأهم رجعوا بمصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في أيام هذه الدولة ، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض .

٣ - العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ .

٢ - المعري ٩٤ ج ١ .

١ - الاغانى ١٢٥ ج ٤ .

٥ - الاغانى ١٦٦ ج ٢٠ .

٤ - الاغانى ١٥٣ ج ١٩ .

## العصية الوطنية في عصر الامويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها او يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون في وطن ، لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصر والامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهي ما عبرنا عنه بالعصية الوطنية .

### تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجاً ، ولم يكن ذلك مقصوداً في بادىء الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداهتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم ، واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعي لابلهم وخيلهم . وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقة تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً . وكانت عساكر الشام اربعة اجناد ، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب ، في معسكرين صاروا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب ، حيث بنيت القسطة بعد ذلك .

وكان العرب ( او المسلمون ) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم او العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين اهل بداوة وغزو ، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة .

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات ، وأفضت الخلافة إلى بني أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين اغفال أمر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام في الشام وسائر الأمصار ، واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الأرض والضياع وعرسوا المغارس ، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الأجيال إلى مدن عامرة . أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع ، وابتنوا المنازل والقصور ، واشتغلوا بالزرع وتعلموا اشغال أهل المدن من تجارة وصناعة .

تدرجوا إلى ذلك في أعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الربيع لمعاشهم لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفية أو الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق في ذلك الفية حيثما كان مقامه . فاهل المدينة مثلاً يتمتعون بفيه العراق ، وكذلك اهل الشام . فلما بدأوا بالاستيطان في اواخر عصر الراشدين ، واراد اهل كل مصر ان يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة ، لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك إلى الخليفة اذ ذاك عثمان بن عفان ، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق ، فاستبدله لهم من اهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز او اليمن او غيرها من بلاد العرب (١) .

#### تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

وبما زاد المسلمين ايغالا في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في أيام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله ، وكان اساسه الميل إلى احد طلاب الخلافة يومئذ ، وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير ، فكان اهل الشام مع معاوية لأنه اميرهم ومعظمهم من قريش ، واهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان اهل الكوفة مع الزبير ، واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق إلى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر ، وظل اهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ غلب عمرو بن العاص

بكره ، بوبع معاوية وتركت مصر لعمر بن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل اليهم ، فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية .

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الأحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من أيام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الأمصار فقال : « أهل المدينة احرص الأمة على الشر واعجزهم عنه ، وأهل الكوفة يردون جميعاً ويصدرون شقاً ، وأهل مصر أوفى الناس بشر واسرعهم الى الندامة ، وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمفاهيمهم » .

وكان لأهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه في العصبية الوطنية ، وهي غير عصبية النسب ، اذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجماعة واحدة ، كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط ، وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية ، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعه وغيرها ، يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها ، فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالأخماس ، كل خمس لقبيلة ، وهي الأزدي وتيم وبكر وعبد القيس وأهل العالية . والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة<sup>(١)</sup> وقس على ذلك سائر البلاد .

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من أهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعه الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين ، وهي بين أهل الشام وقائدهم معاوية ، وأهل العراق وقائدهم علي . فلما التحم القتال سأل علي عن أهل الشام فعرف مواقفهم ، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه ، فقال للأزد : « اكفونا الأزد » ،

وقال الخثعم : « اكفونا خثعم » ، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام .  
الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق  
منها احد<sup>(١)</sup> - فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب ، وانما غلبت لأن  
الأحوال اقتضتها قرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم .

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عدداً ونسباً باختلاف عصبية الامير او  
الحليفة ، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك  
الاحوال مما لا ضابط له ، فتنشأ الحروب بين البلدين كما تنشأ بين القبيلتين . ومن اشهر  
حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما .  
ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام اموية ، والجزيرة  
خارجية ، والحجاز سنية<sup>(٢)</sup> وتقلبت هذه الاحوال كثيراً ، واختلفت باختلاف الدول  
والمصور . فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات : اولها الجامعة العصبية او  
جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ،  
والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل  
هذه الفرق في رجلين<sup>(٣)</sup> .

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون  
المسلمين بها ، لان الاسلام لا يستغني عنها وفيها شيعة علي ولا سيما المدينة . فكان الامويون  
مع عداوتهم للعلويين . لا يرون بداً من زيارة الحرمين ورعاية اهلها ، فيقف ذلك  
حجر عثرة في سبيل سلطانهم ، وخصوصاً بعد ان احتفى ابن الزبير بالكعبة واطرح بني  
أمية واحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق .  
ولهذا السبب خطر للامويين ان ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ، ليجمعوا عندهم  
الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى  
المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصغيراً للكعبة<sup>(٤)</sup> والغرض من  
ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير امر العلويين فلم يحد ذلك نفعا .

١ - ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣ . ٢ - العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ .

٣ - ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ . ٤ - المسعودي ١٦٦ ج ٢ .

## اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

### سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو امية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب ، كما فعل معاوية بن ابي سفيان في اكتساب نصره عمرو بن العاص وزيد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو امية في تثبيت دعائم ملكهم ، والعاويون ابناؤ بنت النبي واحفادها ينازعونهم عليه على انه لم يبق في بني امية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه اهل هذا الزمان بالسياسة . واذا قسنا اعمال هذا الرجل بأعمال أعظم رجال السياسة من اهل هذا العصر وغيره ، لرأيناه يفوق اكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصاً اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من اهل بيت النبي ( صلعم ) وابناء عمه وابناء بنته ، والمسامون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحل له الخلافة <sup>(١)</sup> وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرهاً ، ومع هذا غلب عليهم جميعاً فقبض على ازمة الملك وجعله ارثاً في نسله ، ولم يسفك في سبيل ذلك دمأً كثيراً ، وانما كانت سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال .

اما سعة الصدر فانه كان يغضي عن مطاعن اهل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلاً من ان ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقرهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين امرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فيقل قلب معه ولو كان من اقرباء علي . ذكروا ان عقيلاً أخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعلي لا يزال حياً ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على اخيه ، واوسعه حلياً واحتالاً ، فقال له معاوية : « كيف تركت علياً ؟ » فقال : « تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » . ثم احب معاوية ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوؤه ، فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل واوصل اليه مالاً عظيماً . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت علياً اخاك ؟ » قال : « تركته خيراً لنفسه منك ، وانت خير لي منه » <sup>(٢)</sup> .

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي ، وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى الخادعة او البذل ، فلا يلتقي به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا . وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه ، فينخدع له ويطاوعه ويحيزه . ذكروا ان ابن الزبير - قبل قيامه بالدعوة لنفسه - هرب من عبد الرحمن بن ام الحكم الى معاوية ، وقد احرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « ان عبد الرحمن احرق داري » فقال معاوية : « وم تساوي دارك ؟ » قال : « ١٠٠٠٠٠ » ، فطلب منه شاهدا فأثاه بشاهد من اصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه : « اي الشيخين عندكم اكذب ؟ والله اني لاعرف داره ، وما هي الا خصائص قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » (٣) وكان ذلك وامثاله مما اسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في ايامه .

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله ، حتى اغضب اكثرهم وخسر نصرتهم ، وفي جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد ان كان اكبر نصير له ، فأغضبه من اجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ على حين ان معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، واذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه (٤) .

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل واهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو اطلقوا ألسنتهم عليه . فالأحنف بن قيس التميمي ، احد السادة التابعين واهل النفوذ ، كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق أنه وفد على معاوية بعد ان استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما اذكر يوم صفين الا كانت حزازة في قلبي الى يوم القيامة » ، فقال له الأحنف : « والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمارها ، وان تدن من الحرب فترأ نذن منها شبراً ، وان تمس اليها نهول لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت :



« يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ؟ » . قال : « هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة الف من تميم لا يدرون قيم غضب » <sup>(١)</sup> .

على ان معاوية كان اذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان قد عظم شأنه عند اهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار ابيه ، ولغنائيه في بلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الأثال الطبيب ان يحتال في قتله ، وضمن له ان يضع عنه خراجيه ما عاش وان يوليه خراج حصص . فدرس ابن الأثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات <sup>(٢)</sup> ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالأشتر النخعي ممالك بن الحارث ، وكان من اشد رجال علي بطشاً او هو اشدهم جميعاً ، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسناً . فلما اضطربت احوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال في حوزة علي ، بعث الأشتر والياً عليها ، فعلم معاوية أنه إن وليها امتنعت عليه ، فبعث الى المقدم على اهل الخراج في القلزم - وهي في طريق الأشتر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر - وقال له : « ان الأشتر قد ولي مصر ، فان كفيثنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت » . فخرج حتى أتى القلزم واقام به ، فلما جاء الأشتر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فأأاه بطعام فلما أكل أأاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمأ فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان علياً قد وجهه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » . فكانوا يدعون عليه كل يوم ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر ، فقام معاوية خطيباً وقال : « أما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احدهما بصفين ( يعني عمار بن ياسر ) وقطعت الأخرى اليوم ( يعني الأشتر ) <sup>(٣)</sup> فلما بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال : « ان الله جنوداً من العسل » <sup>(٤)</sup> .

#### عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الاربيحية ، وكانت اريحيته هذه مساعداً كبيراً لفوز معاوية عليهم . ففي واقعة صفين كانت كفة

١ - ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ . ٢ - ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣ .

٣ - ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ . ٤ - المقرئ ٣٠٠ ج ١ .

انصر راجحة لعللي ، ولو تم له ذلك لقضى على معاوية واغراضه ، وذهبت مساعيه ادراج الرياح ، ولذهب أمر بني أمية بذهابه واستتب الامر لعللي واهل بيته . وانما منع من فوز علي دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف في عسكره وايقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان مجارياً معه وقال له : « هلم نجبأك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لثغور الشام بعد اهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد اهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال علي بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتم ابن العاص حيلته ، فخلع علياً وباع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب امره ، ولولا اريحية ابداهها علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك ان عمرو كان قد برز للنزال ، فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : « مكره اخوك لا بطل » ، فثارت اريحية في نفس علي فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة <sup>(١)</sup> وذهب عمل عمرو هذا مثلاً وفيه يقول الشاعر :

ولا خير في صون الحياة بذلة كما صانها يوماً بذلته عمرو

وكذلك كان اصحاب علي من حيث اريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي ، الا من طمع في الدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في علي على اقوى احوالها ، ولو تساهل فيها او اغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحرب » <sup>(٢)</sup> .

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت في بني مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون اهمهم اولاد علي . على انه كان يسكتهم بالمسألة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته .

فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرها ، وكل منهم يزعم انه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ اربعة الوية في عرفات ، كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه ، احدها لبني امية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو امية ، للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التي ساعدتهم على اصطناع الاحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي في السياسة .

## بذل المال في عصر الامويين

### العطاء من بيت المال

العطاء من اكبر العوامل التي ساعدت بني امية في اصطناع الرجال وكسر شوكة اعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند او رواتب المسلمين ، وكانوا في صدر الاسلام كلهم جندا ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي ، أو سابقته في الاسلام ، أو غير ذلك مما تراه مفصلا في كلامنا عن الديوان في أيام عمر<sup>(١)</sup> وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من اموال الفياء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء يأخذون اعطيتهم من اموال الصدقة وهي الزكاة ، ولكل من الصدقة والفياء ديوان خاص وحساب خاص .

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم ان يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي ، اغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً ، وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين او غيرهم من اهل بيت النبي ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥٠٠٠ درهم في السنة

١ - الجزء الاول من هذا الكتاب .

جعلها معاوية مليون درهم ، اي انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ ايضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، وغيرهم من كبار ابناء الصحابة اهل النفوذ في الاسلام ممن يقيمون في المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرشاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة اخرى يتألف بهم اهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال في اهلها للتمتع بملاذ الحياة ، ومنهم من كان ينفق عطائه على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاء وبذلاً من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يفد على معاوية في الشام فيدفع اليه عطائه فيعود الى المدينة فيفرقه في اهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به .

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد : « كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « الف الف درهم » ، قال : « قد اضعفناها لك » ، قال : « فذاك ابي وامي ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال : « قد اضعفناها لك ثانية » فقبل ليزيد : « اتعطي رجلاً واحداً ٤٠٠٠٠ درهم ؟ » فقال : « ويحكم اني اعطيها أهل المدينة اجمعين ، فما يذه فيها الا عارية » (١) .

وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلاً ، فانه كان يتألفها بالأموال خوفاً من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي اقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى ان احد رجالها كان يأتي معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمي ، فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى ، فقال شعراً يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له	كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء - فاعلم - جناحه	وهو يقنص البازي بغير جناح ؟
وما طالب الحاجات الا مفرر	وما قال شيئاً طالب كجناح

فلم يعبأ به لأنه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضعت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية ان رجلاً من اليمن قال يوماً :

« لهمت ان لا ادع بالشام احداً من مضر ، بل همت ان لا احل جبوتي حتى اخرج كل نازري بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى ان يضربهم بالخرية ، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وانت في بلدك ، فاذا شئت ان تقيم بها او عندنا فافعل ، فان عطائك سيأتيك » . وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيساً في البر <sup>(١)</sup> ولولا دهاؤه وحسن اسلوبه لما استطاع التوفيق بينهم .

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الأمويين ، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها <sup>(٢)</sup> كما فعل عمر فيمن شهدوا القادسية . وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا احزابهم حتى فرضوا الأعطية للشعراء ، التماساً لقطع السنتهم او ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان اهل التقوى يرون ذلك مجحفاً بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفياء فانه مال الله او مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير اصحاب علي على معاوية يوم صفين <sup>(٣)</sup> فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه .

وكانوا يفرضون لأي من جاءهم ، ولو كان اعرابياً ، حتى كان اهل البادية كثيراً ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الأنفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق ، وأنه تأييد لدعوة القائمين على اهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى ان امرأة جيبها الأشجعي من اهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة لبيع ابله ويفترض في العطاء ، فأطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعته ، وتبعها الابل ، وطلبها ففاته فقال لزوجته : « هذه الابل لا تعقل ونحن الى اوطانها ، ثم قال شعراً :

قالت أنيسة : دع بلادك والتمس	داراً بطيبة ربة الاطام
تكتب عيالك في العطاء وتفترض	وكذاك يفعل حازم الأقوام
فهمت ثم ذكرت ليل لقاحنا	بذوي عنيزة او يقف بشام

اذ هن عن حسي مداود كلما  
ان المدينة لا مدينة فالزمي  
يجلب لك اللبن الغريض وينتزع  
وتجاوري النفر الذين بنبلمهم  
الباذلين اذا طلبت بلادهم  
نزل الظلام بعصبة اغنام  
حقف السناد وقبة الأرحام  
بالعيس عن يمن اليك وشام  
أرمني العدو واذا نهضت مرام  
والمانعي ظهري من الغرام<sup>(١)</sup>

ومن اقوال عبد الملك بن مروان : « انعم الناس عيشاً من له مايكفيه ، وزوجة ترضيه ، ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فنؤذيه »<sup>(٢)</sup> .

وكان هم بني أمية اهل المدينة ، لأنهم شيعة علي وفيهم الأنصار ونخبة القرشيين ، فكان عامل بني أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الأطراف اقترض من اراد من قریش منه ، وكتب بذلك صكاً عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ، وما زال هذا شأنهم الى ايام الرشيد ، فكلسه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك فحرق<sup>(٣)</sup> .

وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون بلداً برمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي ، فقطع عطاء اهل الحرمين جميعاً<sup>(٤)</sup> وحرّم الوليد آل حزم من العطاء ، لأن قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم في المدينة ، وقبض اموالهم وضياعهم ، ووظلوا كذلك الى ايام المنصورة فأفرج عنهم<sup>(٥)</sup> ، وكثيراً ما كان الأنصار يكتنون بلا عطاء<sup>(٦)</sup> ولا ذنب لهم الا انهم ينصرون اهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان اعطية آل سفيان ، مع انهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية<sup>(٧)</sup> .

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون انهم يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فأقعدته في قبة حراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد

- 
- |                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| ١ - الاغاني ١٤١ ج ١٦ .     | ٢ - ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ . |
| ٣ - الاغاني ١٠٥ ج ١٣ .     | ٤ - الاغاني ١١١ ج ٦ .     |
| ٥ - العقد الفريد ٤١ ج ٣ .  | ٦ - الاغاني ٦٢ ج ١٠ .     |
| ٧ - العقد الفريد ١٣٢ ج ١ . |                           |

بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها . وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضراً ، فقال له معاوية : « ما بالك لا تقول يا ابا بجر ؟ » فقال : « اخاف الله اذا كذبت ، واخافكم اذا صدقت » فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيراً » ، وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا ابا بجر ، اني لاعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت » (١) .

### تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ، ان مناظرهم أهل البيت وعبد الله ابن الزبير كانوا قليلي العطاء ، اما عن امساك او عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤى في الناس البخل من أهل البيت ، ولا من عبد الله بن الزبير » (٢) . وكثيراً ما كانت امساكهم سبباً في فشلهم وانحياز الناس الى بني امية ، فان امثلة ذلك ان مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملاً لعلي على ازدشيرخره ، فرأى اسرى كانت بعض رجال لعلي قد اسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم . وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة الف ، وأطلق سراحهم . فطالبه علي بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي ، فألح عليه اصحاب علي فقال مصقلة : « أما والله لو كان ابن هند ( يعني معاوية ) ما طالبني بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لي » ، فقالوا : « ان علينا لا يترك شيئاً » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية (٣) .

ومن امثلة بخل ابن الزبير الذي افسد عليه الامر ، ان اخاه مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد في العراق ، وأخضع العراق لآخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه اهل العراق ، فجاء بهم حتى اتى اخاه في مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له : « يا أمير المؤمنين ، جئتكم بوجوه اهل العراق لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب (٤) ، وكان ذلك سبباً في ذهاب دولة ابن الزبير .

١ - ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ . ٢ - الاغانى ١٠٥ ج ١٣ .

٣ - ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ . ٤ - العقد الفريد ١١٩ ج ١ .

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء ، الا لاهل التقوى او من في معناهم . على حين ان بني امية كانوا يفرضون للرجل ولأهله وأولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي ( وما هو من رجال الحرب ) الفين في العطاء ، وجعل عشرين من ولده وأهله بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه <sup>(١)</sup> وكانوا يفرضون للشعراء اعطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه الفان او اكثر او اقل . واذا مدحواهم زادوا اعطيتهم ترغيباً لهم في مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقاً في بيت المال <sup>(٢)</sup> فعمرو بن عبدالعزيز كان اذا اخرج شاعر ولم ير مناصاً منه اعطاه من ماله الخاص <sup>(٣)</sup> .

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » <sup>(٤)</sup> وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم والا يكونوا عالة على الناس <sup>(٥)</sup> فكيف بالشعراء !

### الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بني امية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعد ملكاً للمسلمين ، وليس الخليفة او عامله الا حافطاً لها ، لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رأيت ان ابا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد اشرنا الى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضاً عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع من بيت المال . اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل ، وان

١ - الاغانى ١٧١ ج ٩ .

٢ - الاغانى ٩٩ ج ١٠ .

٣ - الاغانى ١١٨ ج ١٧ .

٤ - الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٩ ج ٤ .

٥ - المقد الفريد ٢٣٦ ج ١ .



تبقى البلاد التي فتحوها فينأى يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للاتفاق على المسلمين. ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاماً لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع<sup>(١)</sup>.

### عمال بني امية

فلما اضطر بنو امية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن ، اغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوفقوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه في سبيل اغراضهم ، مثل زياد بن ابية عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسري عامل هشام ابن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم يجمع الاموال وحشدها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها. فقد كتب معاوية الى زياد يقول: «اصطف لي الصفراء والبيضاء» فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة<sup>(٢)</sup> وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون انفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد اطلق الخلفاء ايديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم<sup>(٣)</sup> وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب امية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي »<sup>(٤)</sup> فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بال عند احدهم انفذوا اليه من يقبض امواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون في الكسب لانفسهم .

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من اهل البلاد التي فتحوها عنوة ، لاعتقادهم انها فيء لهم كما تقدم. وكقول عامل بني امية في العراق: « السواد بستان قريش ، ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص ان يخبره بما عليه من الجزية فأجابته : « لو اعطيتني من الارض الى السقف ما اخبرتك بما عليك » ، انما انتم خزنة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف خففنا عنكم<sup>(٥)</sup> ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره : « الصغد بستان امير المؤمنين » .

١ - الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ - العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ .

٣ - الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢ . ٤ - الاغانى ٥٦ ج ١٣ .

٥ - المعري ٧٧ ج ١ .

## الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال بأية وسيلة كانت ، مصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها في اول الاسلام الجزية لكثرة اهل الذمة ، فكان عمال بني امية يشددون في تحصيلها ، فأخذ اهل الذمة يدخلون في الاسلام ، فلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف <sup>(١)</sup> واقتدى به غيره من عمال بني امية في افريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه ، وخصوصاً اهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا الى اواخر ايام بني امية لا يمنهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم ، فبعث اليهم رجلاً اسمه ابو الصيदा فقال الرجل : « اخرج اليهم على شريطة ان من اسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال اشرس : « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على ان توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج . فكتب عاملها الى اشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابته : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغني ان اهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام ، وانما اسلموا تعوذاً من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجك » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك الى اشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من اسلم ، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع الجزية عن اسلم ، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية <sup>(٢)</sup> .

ناهيك بما كان يرتكبه بنو امية من زيادة الخراج وضرب الضرائب <sup>(٣)</sup> والاستثثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز ، فانه لم ينفق من بيت المال درهماً على نفسه ولا أخذ منه شيئاً <sup>(٤)</sup> وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعاً . وهو الذي كتب الى عماله لما ولي الخلافة : « ضعوا الجزية عن اسلم ، ان الله بعث محمداً هادياً

١ - راجع الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ - ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١١١ ج ٥ .

٣ - الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٤ - المقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .

ولم يبعثه جابيا « ولم تطل مدة حكمه <sup>(١)</sup> » و اراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد ، فأبطلها عمر بن عبد العزيز <sup>(٢)</sup> .

### الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى اموال الصدقة ، وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم ، خلافاً لسائر اموال الدولة كالفية والغنمية والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجنود . فكان بنو امية كثيراً ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة <sup>(٣)</sup> وحققا ان تعطى من مال الخليفة الخاص ، او من مال الفية ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لأنه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضاً كثيراً ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويمدون حطة في مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجاً وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها « الصدقة » فأبى اهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم فعمدها عبد الملك ، لان اهل المدينة من انصار اهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفية » فضرب عبد الملك مثلاً كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضامن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة .

وكانوا كثيراً ما يعمدون اذا اعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة ، وخصوصاً في ايام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيباً لهم في طاعته ، فلم يجد مالا يكفيه ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من موافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان واعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات في ايامه بالرشى للخليفة واصحابه <sup>(٤)</sup> وكانت الولايات تعطى في ايام اسلافه جزاء على خدمة ، كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس احدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهوراً حتى اصبح الامير اذا ادعي لنصرة احد الخلفاء

١ - المقرئ ٧٨ ج ١ . ٢ - الاغانى ١٣ ج ١٥ .

٣ - الاغانى ١٥٦ ج ١١ . ٤ - ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ ج ٥٥ .

اشترط مالا او ولاية معينة . ومما يحكى ان عبد الملك بن مروان ، في اثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق ، بعث الى اهل الكوفة والبصرة يدعوم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشرطوا عليه شروطاً وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلاً منهم سألوه ولاية اصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحك ! ما اصبهان هذه ؟ » تعجباً ممن يطلبها<sup>(١)</sup> .

### الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون ان اهل البيت أحق بها منهم ، وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح ، كانت اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبية . اما الفقهاء وسائر اهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يفضي عن اقوالهم ، ويقطع السنتهم بالعتاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالفوافيه ، حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها انصار البيت خطب فيها خطاباً قال فيه :

« اما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف ( يعني عثمان ) ولا بالخليفة المداهن ( يعني معاوية ) ولا بالخليفة المأفون ( يعني يزيد ) . ألا واني لا اداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » . فهو اول من نهى عن المعروف<sup>(٢)</sup> فمظم ذلك على اعداء بني امية حتى تحسروا على ايام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا » .

### استهانة بعض الامويين بالمقدسات

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويحاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لأنه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوتته الدنيا . ذكروا انه لما جاءه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فاطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » او « هذا فراق بيني وبينك »<sup>(١)</sup> فلاغرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحترق رأسه بيده داخل مسجد الكعبة<sup>(٢)</sup> والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها ، فاحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً ، وهدموا الكعبة ، واوقدوا النيران بين احجارها واستارها<sup>(٣)</sup> مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقتلوا اهلها وسفكوا دماءهم ، لم يغلق لها باب الا احرق ما فيه ، حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن ويخلخلن من ارجلهن ، بسيفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهن<sup>(٤)</sup> .

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين واهل التقوى صبراً ، وانما ارادوا بذلك تحقير امر علي وشيعته تأييداً لسلطانهم . ولهذا السبب ايضاً لعنوه على المنابر ، وامروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . واول من قتل صبراً في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في ايام معاوية<sup>(٥)</sup> وظلوا يلعنون علياً على المنابر الى ايام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك .

### الخلافة والنبوة في رأي بعض العمال

وفق بنو امية الى اعمال اشداء زادوهم استبداداً وشدة ، بما توخوه من تليقهم بالتعظيم والتفجير مما يخالف احكام الدين . واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمي الخليفة « خليفة الله » ، وعظم امر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض إلا بالخلافة » وان الخليفة عند الله افضل من

١ - ابر الغداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوكة ٩٦ . ٢ - العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢ .

٣ - ابن الاثير ٣٦ ج ٥ . ٤ - ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢ .

٥ - المسعودي ٣٩ ج ٢ .

الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا . واذا حابه احد في ذلك قال : « اخليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسوله في حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به<sup>(١)</sup> واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس في مكة مرة فقال : « ايها الناس ، ايها أعظم ، اخليفة الرجل على اهله ام رسوله اليهم ؟ » يعرض ان هشاماً خير من النبي<sup>(٢)</sup> واقتدى بالعمال سائر المملكين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما اسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فساداً . وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويحرضونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا ان خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن ، فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك ايها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلاً حفظ القرآن ، وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد : « صدقت ، يرحمك الله ! »<sup>(٣)</sup> .

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد ، سكبر بني مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها ( واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد ؟      فها انا ذاك جبار عنيد !  
اذا لاقيت ربك يوم حشر      فقل لله : مزقني الوليد !<sup>(٤)</sup>

فلم يكن يهم بني امية نشر الاسلام ، وانما كان مهمهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه ، وانما نفرهم منه شدة بني امية وجشعهم ، فكانوا يسلّمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة او السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع ، وسار على خطوات

١ - العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودي ١٠٤ ج ٢ .

٢ - ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٣٠ ج ٥ والاغانى ٦٠ ج ١٩ .

٣ - الاغانى ٦٣ ج ١٩ .

٤ - الاغانى ١٢٥ ج ٦ والمسعودي ١٣٤ ج ٢ .

سميه ابن الخطاب ، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ٦٠١ هـ وعاد بنو امية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام <sup>(١)</sup> .

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء علي وصلبيه والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرا ، واكثرهم اقداماً على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف .

### الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في ايام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة او عنف ، ولا يحدون عن الحق في اعمالهم او اقوالهم . اذا اذنب احدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث او نقض او حيلة ، ولا تنفذها يفتقر الى شدة او عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ او اللوم ، واذا اخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يجبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو ايضاً وضع الحرس <sup>(٢)</sup> لقلّة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغراً ، مع علمه انه لو امتنع عن الهجي لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر يجلد الرجل منهم فيذعن مطيعاً . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفاً من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة .

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لا يزالون في اريحياتهم وأنفتهم ، وقد اطلق معاوية السفنهم بحمله وسعة صدره ، خاف العمال ان يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن ابية عامل معاوية على العراق ، زعم انه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه اسرف وتجاوز الحد . وهو اول من شدد

١ - ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥ . ٢ - المقرئ ١٨٧ ج ٢ .

بـ السلطة واكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة (١) وتولى  
عراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية ، وفي ايامه قام الحسين بن  
علي يطالب بالخلافة ، وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق ، فكتب يزيد الى ابن زياد :  
« احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير ان لا تقتل الا من قاتلك » (٢) .

ولما افضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان ( ٦٥ -  
٨٦ هـ ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، اراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف ،  
فبالغ في ذلك حتى اهلك ودمر (٣) ولم يكن الحجاج اشد وطأة من زياد او ابنه ، ولكن  
زياداً كان يزجره حلم معاوية ، وابن زياد يزجره امر يزيد ان لا يقاتل الا من قاتله . واما  
الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة ، فاكبر المسلمون ذلك ونقموا على  
تلك الدولة ، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال  
الخوارج فيهم : « ان بني امية فرقة بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون  
بالهوى ، ويقتلون على الغضب » (٤) .

### بسر بن ارساة وقتل الاطفال

على ان سياسة بني امية كانت من اول امرها مبنية على الشدة والحزم ، على ما تقتضيه  
سياسة الممالك في ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد  
دعوتهم والتغلب على اعدائهم . فكانوا يطلقون ايدي عمالهم في الاحكام ، يقتلون ويصلبون  
على ما يترامى لهم بدون مشورة الخليفة ، مع ان ذلك لم يكن جائزاً في ايام الراشدين ،  
لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في اطراف المملكة ، وهذا  
الذي اراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في ايام خلافته فلم يفسح له الاجل (٥) فلما  
مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله ان يعودوا الى ما كانوا عليه قبلاً من  
الشدة والبطش (٦) .

فكان الخلفاء من بني امية يرون في اطلاق ايدي عمالهم او قوادهم تشجيعاً لهم وتنفيذاً  
لأغراضهم . وربما حرصهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في ايام معاوية ، فانه ارسل

١ - ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣ . ٢ - ابن الاثير ١٨ ج ٤ .

٣ - ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان الجاحظ ١٧٥ ج ١ والمقد الفريد ٣ ج ٣ .

٤ - البيان والتبيين ١٩٥ ج ١ .

٥ - ابن الاثير ٢٩ ج ٥ . ٦ - المقد الفريد ٢٦٥ ج ٢ .



بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكيم وعلي بن أبي طالب يومئذ حي ، وأرسل معه جيشاً ويقال انه اوصاهم ان يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ، ولا يكفوا ايديهم عن النساء والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها اناساً من اصحاب علي وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمه ، وكان غائباً فراراً من القتل ، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وبذبحهما بيده بمديّة كانت معه<sup>(١)</sup> . وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما اراد بسر قتلها قال الكناني : تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلها فاقتلني معها « فقتله وقتلها معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين » والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت ام الصبيين شعرا في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه .

يا من أحس بابني اللذين هما كالدوتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضياً عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاء وحلمه ، ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدوداً ، وكان بسر سفاكاً للدماء فلم يستثن طفلاً ولا شيخاً . ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن ابيه بعد موت علي ، اذ خاف معاوية زياداً وكان عامله على فارس فأمر بسر ان يستقدمه اليه ، فأمسك بسر اولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتي حالاً او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرأ من قتلهم<sup>(٢)</sup> .

فاذا كان هذا حال العمال في ايام معاوية مع حلمه وطول اناته ، فكيف في ايام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبراً ولو كانوا ١٢٠.٠٠٠ وهل يستبعد ان يكون في حبسه عند موته ٥٠.٠٠٠ رجل و ٣٠.٠٠٠ امرأة ؟<sup>(٣)</sup> وكان عبد الملك اشد وطأة منه وأجراً على الغدر والفتك ، بل هو اول من غدر في الاسلام بعد ان اعطى الأمان - وذلك ان عمر بن سعيد الأشدق احد امراء عبد الملك طمع في الملك لنفسه ، فاغتم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ

١ - الاغاني ٤٤ ج ١٥ . ٢ - ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٣ .

٣ - المسعودي ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢ .

لحرب مصعب ابن الزبير في العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق ، فرجع حالاً الى دمشق وقاتل عمر أياماً فلم يقدر عليه ، فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتباً بينهما كتاباً فيه أمان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الخليفة حتى اوطأ فرسه اطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق .

وبعد دخوله بأربعة ايام ارسل الى عمرو فأجابه انه آت العشية ، واتاه في مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان ، وقد بقي مواليه خارجاً . فاستقبله عبد الملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ، ثم أمر احد الغلمان ان يأخذ سيفه وقال له : « اتطمع ان تجلس معي متقلداً سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا ابا امية ( عمرو ) انك حينما خلعتني آليت بيمين ان انا ملأت عيني منك وانا مالك لك ان اجعلك في جامعة » فقال الحضور من بني مروان : « ثم تطلقه يا امير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، وما عسيت ان افعل بأبي أمية ؟ » . فقال بنو مروان لعمرو : « أبر قسم امير المؤمنين » ، فقال قد ابر الله قسمك يا امير المؤمنين . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم فاجعه فيها » ، فقام الغلام فجعله فيها فقال عمرو : « اذكرك الله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيها على رؤوس الناس » ، فقال : « أمكر يا ابا امية عند الموت ؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبه فوق وقع واصاب فيه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين ، كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك » ، فقال عبد الملك : « والله لو اعلم انك تبقي علي لو ابقيت عليك وتصلح قريش لاطلقتك ، ولكن ما اجتمع رجلا في بلدة قط على ما نحن عليه الا اخرج احدهما صاحبه » . فلما رأى انه يريد قتله قال : « اغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك (١) .

وترى بما دار بينهما ان الذي جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين في السلطة ، ولا رادع لهم من عند انفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى ، فأصبح القوي يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهي سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد علي باشا بالمماليك ، وقد عمد بنو امية الى ذلك استعجالاً للنصر وتخلصاً من اسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعلوا

مهم قتله ، لعلمهم انه اذا قتل تفرق اصحابه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال او نحوها .

### خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلهم ارباباً لاحزابهم ، فيقطعون راس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد او يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين ، فكان العامل الاموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعي <sup>(١)</sup> احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن ابي بكر <sup>(٢)</sup> . وأول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانئاً وابن عقيل من اشياخ الحسين في الكوفة ، ثم رأس الحسين بن علي ، ارسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام ، وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه ارسلها الى محمد بن الحنفية <sup>(٣)</sup> . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس اصحابه ، فانه ارسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب ابن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها <sup>(٤)</sup>

ومن غريب ما يحكى انهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس في طاق بالكوفة ، كان ابن عمير اللخمي حاضراً عنده ، فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « اعين بالله امير المؤمنين ! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن ابي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشام عبد الملك من ذلك ، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق <sup>(٥)</sup> .

١ - المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١ .

٢ - العقد الفريد ٣٩ ج ١ . ٣ - ابن الاثير ١١٩ ج ٤ .

٤ - ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ . ٥ - ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ .

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني امية ومن جاء بعدهم من بني العباس ، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها: كل رأس في سبط خاص<sup>(١)</sup> وجرت العادة ايضاً بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج<sup>(٢)</sup> ويطوفون بها على رمح ، وكان بنو امية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه .

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب اعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب انه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبه حتى يقطع جسده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت<sup>(٣)</sup> . فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارباباً لسواهم . وكان الخوارج ايضاً يفعلون نحو ذلك بن ظفروا به من اعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تقور<sup>(٤)</sup> اما اشتفاء أو انتقاماً أو ارباباً .

## الموالي واحكامهم في عصر الامويين

### تكاثر الموالى

أفضت الخلافة الى الامويين في اواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالى آخذ في الزيادة بمؤالة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر أو الاهداء . لأن العمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو الوف من الرقيق الابيض والاسود الى بلاط الخليفة هدية أو بدلا من الخراج أو نحوه<sup>(٥)</sup> . والخليفة يفرق ذلك في اهل بطانته أو قواده ، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم أو يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمن انجب من اولئك الارقاء أو اعتق لسبب من الاسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادي يومئذ - غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره . فتزايد عدد الموالى في عصر الامويين زيادة عظيمة ، وصاروا يتقربون من مواليتهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ، فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية

١ - الفخري ٢٤٨ ج ٢ . ٢ - المقد الفريد ٢٧٢ ج ٢ .

٣ - المعارف ١١٥ . ٤ - المسعودي ١٢٣ ج ٢ .

٥ - المسعودي ٣٥٤ ج ٢ .

او الزراعية او الدينية او العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان اكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجّاب من الموالي .

وقد يثري المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه ، وهؤلاء اذا استطاع احدهم او بعض اولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه ، وهكذا حتى يتفق احياناً ان يكون الرجل مولى مولى ، او مولى مولى مولى او اكثر - فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن انس الفهري . وكذلك حماد ابن سامة ، والليث بن سعد ، وابو اسامة وغيرهم . وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن ابي بكرة ، وعبيد الله من موالي النبي (صلم) (١) . وأغرب من ذلك ان عبيد الله هذا ادعى انه عربي من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان انه عربي من قيم ، وادعى ابن مناذر انه عربي من بني جبير بن يربوع ، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعيا لمولى لمولى ، دعي مولى دعي . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار واخوته من اهل الحديث ، وكلهم من موالي آل حنين ، وآل حنين موالي مثقب ، ومثقب مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس ، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب (٢) فهو مولى مولى مولى مولى مولى . وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالي في ذلك العصر ، وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والحراساني والرومي والبربري والسندي وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب .

ناهيك بالموالي المحاربين ، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ، ربما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا في سبيل نصرتها . واختلف عدد الموالي بالنسبة الى مواليتهم باختلاف الأعصر ، ففي أيام علي كانت نسبة الموالي الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة (٣) ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار . وبنو امية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك او يفرون من سلطانهم الى اطراف المملكة . ومن فر من جور بني امية ميمون جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور (٤) .

١ - الاغاني ٩ ج ١٧ . ٢ - المعارف ١٩٧ .  
٣ - ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ . ٤ - الاغاني ٢ ج ٥ .

## نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الأمويون من التعصب للعرب على سواهم - ولا سيما الموالي ، حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئاً من الغنائم او الفبيء - عظم ذلك عليهم ، ورأوا في نفوسهم قوة فنشرت قلوبهم من بني امية ، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين او الخوارج فكل من قام لمحاربة الأمويين استعان عليهم بالموالي والعبيد ، وهم الفئة المظلومة . وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن ابي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية - فاختار المذكور اطمع موالي العراق في الغنيمة وأركبهم على الدواب ، وكانوا ناقسين على اسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من اباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني امية . فكان عدد الموالي في جند المختار اضعاف عدد الاحرار (١) وقد ابلوا في الحرب معه اكثر من بلاء الاحرار ، لنقمتهم على اسيادهم . ولذلك كان اكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي ، فقد بلغ عدد قتلهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ ، وسائرهم من الموالي (٢) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون: « انك آذيتنا بمواليك ، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيثنا » فأجابهم: « ان أنا تركت مواليكم ، وجعلت فيثكم لكم ، تقاتلون معي بني امية وابن الزبير ، وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار اول من جند الموالي وفاز بهم ، فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا اعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم ابلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠ (٣) على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق (٤) .

١ - ابن الاثير ١٢١ ج ٤ .

٢ - ابن الاثير ١٣٦ ج ٤ .

٣ - المقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ .

٤ - ابن الاثير ٢٤ ج ٥ .

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيدته ثقة فيه حتى خلفاء بني أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليتهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم ، والموالي يخلصون لهم ويستमितون في الدفاع عنهم ، كما كان موالي بني هاشم يستमितون في نصره مواليتهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين ، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها .

وقد يكون المولى من اصل رفيع ، او يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني أمية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم ، واعظم موالى العراق وأشهرهم فيروز مولى اهل الحشاش ، فانه ولى الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم » . فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه<sup>(١)</sup>

### زواج الموالى بالعربيات

على ان الموالى في ايام بني أمية كانوا على الاجمال اعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الأمويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات ، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام<sup>(٢)</sup> فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالى طلقها منه ، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء ، فأنهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليتهم احدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضهم الى والى المدينة بذلك ، ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلقت رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الوالى واسمه ابو الوليد :

حمى حداً باخوم بنات قوم	وهم تحت التراب ابو الوليد
وفي المثنين للمولى نكال	وفي سلب الخواجب والتخدد
اذا كافأتهم ببنات كسرى	فهل يجد الموالى من مزيد؟
فأي الحق أنصف للموالى	من اصهار العبيد الى العبيد؟ <sup>(٣)</sup>

وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ، ولو كانوا من اهل المنزلة الرفيعة او اهل العلم والتقوى ، فان عبدالله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبي بردة بالسياط<sup>(١)</sup> .

على ان ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره . فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم في ايام النبي ، وله فضل كبير في الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابتغى فوعده بها لأنه لم ير في زواجه بها بأساً ، اما ابنه عبدالله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له : « هنيئاً لك يا ابا عبدالله ، ان امير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته ، فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه ابداً »<sup>(٢)</sup>

فتزوج المولى بالعربية بالغ الامويون في تقبيحه تعصباً للعرب على سواهم ، وهو عندهم اقبح من زواج العربي بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرماً في الدين ولا اعتبره اهل التقوى ، فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين - وهو احد الائمة الاثني عشر ومن سادات التابعين - كانت امه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفي ابوه زوجها بثريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك ابن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، وقد اعتق رسول الله صفية بنت حبي بن اخطب وتزوجها ، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش » .

فالاسلام يرفع منزلة المولى ، واما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربي ، وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي . ومن اشعارهم في رجل من بني عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالي قول ابي يحيى يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالي ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى ان قبلتم	دعارة زراع وآخر تاجر ؟
واصهب رومي واسود فاحم	وابيض جعد من سراة الاحامر
شكولهم شتى وكل نسيبكم	لقد جثتم في الناس احدى المناكر
متى قال ابي منكم فصدق	وان كان زنجياً غليظ المشافر



وكلهم وافي النساء جدوده  
 وكلهم قد كان في اولية  
 على علمك ان سوف ينكح فيكم  
 فهلا اتيتم عفة وتكرما  
 تعيبون امراً ظاهراً في بناتكم  
 متى شاء منكم مغرمًا كان جده  
 وحسن بن بدر او زرارة دارم  
 فقد صرت لادري وان كنت ناسيا  
 وعمل رجال النرك من آل مذحج  
 وعمل رجال المعجم من آل عالج  
 زعمتم بأن الهند اولاد خندف  
 وديلم من نسل ابن ضبة باسل  
 بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم  
 أأطمع في صهري دعيا مجاهرا  
 ويشتم لؤما عرضه وعشيرته

وكلهم اوفى بصدق المعاذر  
 له نسبة معروفة في العشائر  
 فجدعا ورغما للانوف الصواغر  
 وهلا وجلتم من مقالة شاعر؟  
 وفخركم قد جاز كل مفاخر  
 عمارة عبس خير تلك العمائر  
 وزبان زبان الرئيس بن جابر  
 لعل تجارا من هلال بن عامر  
 وعمل تميما عصابة من يحامر  
 وعمل البوادي بدلت بالحواضر  
 وبينكم قربي وبين البرابر  
 وبرجان من اولاد عمرو بن عامر  
 واولى بقربان ملوك الاكاسر  
 ولم تر شرا من دعيا مجاهرا  
 ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهرا<sup>(١)</sup>

وغرس هذا الاعتقاد في اذهان الناس حتى ان الموالي انفسهم كانوا يستنكفون من  
 تزويج المولى بالعربية . ذكروا ان ابنا لنصيب المغني الشهير - وهو مولى - احب بنت  
 مولاه وكان مولاه قد مات ، فخطبها من اخيه فاجابه الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك  
 فجمع وجوه الحي فلما حضروا اقبل نصيب الى اخي مولاه وقال له : « ازوجت ابني  
 هذا من ابنة اخيك ؟ » قال : « نعم » فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا برجل ابني  
 هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً » ففعلوا ، ثم قال لأخي مولاه : « لولا اني اكره  
 اذك لألحقك به » . ثم نظر الى شاب من اشراف الحي فزوجه الفتاة ، واتفق على العقد  
 من جيبه<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل مالم يستشر  
 موله ، فاذا احب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب الى ابيها ولا الى اخيها

وانما يخطبها من مواليتها ، فان رضي رزلاها زوجت وإلا فلا . وان زوجها الاب او الاخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحاً<sup>(١)</sup> .

وجملة القول ان تعصب بني امية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوهم الموالي ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا اكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم .

## اهل الذمة واحكامهم في عصر الامويين

### عهود اهل الذمة في اول الاسلام

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان ، واهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على ارواحهم واعراضهم واموالهم ، واكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « اهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقد اثنى عليهم واوصى بهم خيراً . وفي الحديث النبوي اقوال كثيرة بحساسة اهل الذمة ، وخصوصاً قبط مصر ، فقد رووا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال : « اذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً » ، فان لهم ذمة ورحماً » اشارة الى ان ام اسماعيل ابى العرب منهم ، وقال : « الله الله في اهل الذمة ، اهل المدرة السوداء ، السحم الجماد ، فان لهم نسباً وصهرأ » .

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ، ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهل الكتاب ، ولكل شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، واذا عرض للمسلمين ما ينعج بحمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع<sup>(٢)</sup> .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدتهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل اعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) الى صاحب

ايلة ( في العقبة ) والى اهل اذرح في اثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة . وهاك كتاب النبي ( صلعم ) الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد رسول الله ليحني بن رؤبة واهل ايلة : سفنهم وسياراتهم في البحر . والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان ينعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر او بحر » (١) .

وهاك كتابه الى اهل اذرح واهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بني حبيبة واهل مقنا : سلم انتم ، فانه انزل على انكم راجعون الى قريتمكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريتمكم إلا رسول الله او رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيركم بما يحير منه نفسه ، فان لرسول الله بزيتمكم ورفيقكم والكراع والحلقة ، إلا ما عفا عنه رسول الله او رسول رسول الله ، وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن اطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم او اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب علي بن ابي طالب في السنة التاسعة » (٢) .

واقتردى بالنبي ( صلعم ) قه اذ . في اثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا اليهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية - منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق : اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء

من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بخير الا اذا اعطوا الجزية « (١) .

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك ، رومها وقرسها وعربها ، على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم ، واهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم ، وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن اسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من اقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً » (٢) .

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرها ، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها ، على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون .

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، وصلح الشام غير صلح العراق .

### العهد النبوية

وبين ايدي الناس نسخ من عهد يقولون ان النبي (صلم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهد النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصاً وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط علي بن ابي طالب . ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الاديار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طور سيناء ، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد ان عرضها على مجلس شرعي ، فنقلوها الى اللغة التركية ، وابقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد ، وحملوا النسخة

العربية الاصلية الى الاستانة<sup>(١)</sup> - واليك نص العهد النبوية نقلا عن كتاب « منشآت سلاطين » لأفريدون بك بعد البسملة : (٢) .

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين ، رسوله مبشراً ونذيراً ومؤمناً على وديعة الله في خلقه ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية ، ومن مشارق الارض ومغاربها قرييها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهداً فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما امره ، كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبدينه مستهزئاً وللعنته مستوجباً ، سلطاناً كان ام غيره من المسلمين - وان احتسب راهب او سائح في جبل او واد او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيرة ، فانا اكون من ورائهم أذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي ، لأنهم رعيي وأهل ذمتي وانا أعزل عنهم الأذى في المؤمن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك ، ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعتهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا احفظ ذمتهم اينما كانوا من بر او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال ، وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ، ولا يعاونون عند ادراك الغلة ، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام يجبرية ، ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والمقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهماً بالجملة في كل عام ، ولا يكلف احد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتي هي احسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم اذية المكروه حينما كانوا وحينما حلوا - وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ، ولا يحال بينها وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم

١ - الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة .

٢ - قاموس الادارة والقضاء ( مادة بطركخانة ) .

ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبحون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا » ا هـ .

والغالب في اعتقادنا ان النبي ( صلعم ) اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد ، او لعله كان مختصراً وطولوه ، او تنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم ، او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي ، اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى ، فضلاً عما في عباراته والفاظه مما لم يكن معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة .

### عهد عمر

ويذكرون ايضاً عهداً يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، اشار اليه غير واحد من مؤرخي المسلمين ، وقد اورده بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرري الطرطوشي المالكي المتوفي سنة ٥٢٠ هـ ، اورده في كتاب « سراج الملوك » نقلاً عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفي سنة ٧٨ هـ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام : ( بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة ( كذا ) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا واموالنا واهل ملتنا ، وشرطنا لكم على انفسنا الا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة . راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل ، وان نزل من مربنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم اولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه احداً ، والا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد ، وان نوفر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلمين ولا فرق

شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتفي بكنائهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر . وان نجزم مقام رؤوسنا ونلزم زيناً حيثما كنا ، وان نشد الزناير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبتنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائرينا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موثقنا ، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نجاورهم بموثقنا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع الى منازلهم ( فلما اتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه ) ولا نضرب احداً من المسلمين ، شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان ، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمننا على انفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من اهل المعاندة والشقاق ) فكتب اليه عمر ( امض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم : ان لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده ) اهـ<sup>(١)</sup> .

ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر ايضاً ، وذلك انه امر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وامر ان لا تظهر عليه خارجه من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه<sup>(٢)</sup> .

وترى في نص هذا العهد ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم ، خلافاً لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام ، وخلافاً لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل ، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطي من عمر بن العاص وابنه وقال لعمر : « يا عمرو مذم تعبدتم الناس وقد ولنتهم امهاتهم احراراً ؟ »<sup>(٣)</sup> .

فترى لاول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر اولاً في صحة نسبته الى عمر ، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه .

## نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا ان كتب عهداً لنصارى الشام ، ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل ، وسبب هذا الترجيح :

١ - أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصيل بطريق الاسناد ، فالطرطوشي وان كان من اهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوي الاصيل ، على عادة المؤرخين المحققين في اوائل الاسلام ، مما يدل على انه نقله من كتاب قديم

٢ - ان « سراج الملوك » الذي اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاهة ، ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس ، صحب أبا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفق على أبي بكر الشاشي وعلى ابي احمد الجرجاني ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماماً فقيهاً عالماً زاهداً ورعاً . وكان مع ذلك متعصباً على النصارى يرى تحقيرهم ، واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بمصر ويحانب الافضل رجل نصراني فوعظ الافضل حتى بكى ثم انشد :

يا ذا الذي طاعته قربي      وحقه مفترض واجب  
ان الذي شرفت من اجله      يزعم هذا انه كاذب

واشار الى النصراني فأقامه الفضل من موضعه <sup>(١)</sup> ولعل تعصبه هذا حمله على اثبات هذا العهد في كتابه ، مع رغبة اكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب .

٣ - ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من احكام اهل الذمة ، كما وردت في هذا العهد بمعناها الحرفي تقريباً <sup>(٢)</sup> واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشي . فاهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة ، وبعضها اشار الى هذا العهد اشارة



صريحة وأورد بعض نصه . فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ ( اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة ) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحوا - النصارى - على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزدون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام بما يأكلون ، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن - الى ان قال - ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، اما المستحق فسته شروط :

- ١ - ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له .
  - ٢ - ان لا يذكروا رسول الله « صلعم » بتكذيب له ولا ازدراء .
  - ٣ - ان لا يذكروا دين الاسلام بدم له ولا قدح فيه
  - ٤ - ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح .
  - ٥ - ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه .
  - ٦ - ان لا يمينوا اهل الحرب ولا يؤووا اغنياءهم .
- فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانما تشرط اشعاراً لهم وتأكيذاً لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لمعهدهم .

واما المستحب فسته اشياء :

- ١ - تمييز هياثهم بلبس الغيار وشد الزنار .
- ٢ - ان لا يعملوا على المسلمين في الابنية .
- ٣ - ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم .
- ٤ - ان لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم .
- ٥ - ان يخفوا دفن موتاهم .
- ٦ - ان يمينوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاءاً<sup>(١)</sup> .

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفياً بعد الترتيب والتبويب .  
فالعهد المذكور كان معروفاً قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير

ار اليه اشارة تدل على اعترافه بفجواه وبنسبه الى عمر، كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ :  
راخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالقيار ولبس ما شرماه عليهم امير المؤمنين  
عمر بن الخطاب ، (١) .

٤ - ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهود اهل  
الذمة ، ولا سيما النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه ،  
مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول ، واقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقي  
المشهور باقتفائه آثار سميحه وجده لاه عمر بن الخطاب ، وهو اول خليفة اموي اراد رد  
النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصاً من حيث  
اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فأمرهم ان يضعوا العمام ويلبسوا الاكسية ولا  
يتشبهون بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى ، فانهم  
كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى .

### عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولا بد في بيانه من  
انقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

#### مناقب عمر بن الخطاب

اظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الغيرة  
الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييده ونشره ، فقد كان عادلاً حتى لا يبالي ان يحكم على  
ابنه او على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه  
ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع احد منهم ان يدرك شأوه . وكانت غيخته على الاسلام  
لا مثيل لها ، فلا يعمل عملاً او يقول قولاً الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع  
مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضي عليه ان ينصف اهل الذمة ويحاسبهم ،  
ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهره من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرية  
الدين في مملكته ، وابقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقسمهم

وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يحوها والعدل قضى عليه ان يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لا ينصروا اولادهم<sup>(١)</sup> .

### فحوى عهد عمر

وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط اولية وهي :

- ١ - الا يحدث النصارى معبداً .
  - ٢ - ان ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة ايام .
  - ٣ - الا يؤووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين .
  - ٤ - الا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس او الركوب او تعلم القرآن او نقش اسمهم بالعربية على اختامهم .
- وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذرائعهم واموالهم .
- فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم .
- والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة ، والعرب اهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألفون تلك العادة ، فجعلها عمر شرطاً واجباً عليهم رحمة بالمسلمين في اسفارهم للحرب وغيرها .
- أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقها على اخلاق عمر من مقدمة صغيرة...

### نصارى الشام وقصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذ على نصارى الشام دون سائر اهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسري على قبط مصر او نبط العراق ،

١ - المعارف ١٩٣ والبلاذري ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ .

ولا على صابئة حوران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ، والا فلماذا لم يجعله عاماً على سائر بلاد الاسلام ؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من اهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا<sup>(١)</sup> آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضيق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية في اكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشايبته اكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطي عمر لأهل الذمة عهداً بهذا المعنى ، لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم .

اما العهد الذي نحن بصددده فقد أعطي لنصارى الشام على الخصوص ، وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب في اعتقادنا انه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعي اهلها النصارى ، اذ يكونون عيوناً للروم على المسلمين ، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهي اقوى الجامعات في الشرق من أقدم أزمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالماً ، على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلاً . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشاركة من التسامح الديني . فان كل طائفة من اهل تفضل ان يحكمها ابن دينها ، لا تبالي بعدله او ظلمه . النصارى يفضل حاكماً مسيحياً ، والمسلم يفضل حاكماً مسلماً ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ، ودخلوا في سلطان المسلمين ، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتهم القسس والإساقفة من القسطنطينية او انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان ان الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالاً عسكرياً ، ولم يكن المسمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا أحوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية

بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما عيس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصاً من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن ، حتى اذا استفحل امر بني امية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها بما أقره الراشدون .

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : « بيعة » فأمر يهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت ، وان تكن أصبت فقد اخطأوا » <sup>(١)</sup> ولم يجد اعتراضه نفعا . ولكن ذلك يدل على ان نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم ، او هم يعدون قيصر الروم حامياً لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن في بعض دول اوربا . فضلاً عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناكثين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادي في الأمم التي تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا هيون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يحدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على ان يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيوناً له عليهم .

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعاً في هذا السبيل ، فينقلون اخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووم في منازلهم واعانوم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئاً من القرآن ليوهم المسلمين انه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتقاضهم لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفاً من مثل ذلك اشترط على أهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس او الركوب وغيره ، وان لا يؤووا احداً من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين .

ولنحو هذا السبب ايضاً أوصى عمر أن لا يستعملوا اهل الكتاب ، لأنهم أهل رشى

ولأن بعضهم اولياء بعض . ويقال ان أصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر<sup>(١)</sup> على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة ، وخصوصاً في أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية .

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام ( او استكتبهم عهداً ) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك . ان السبب فيما حواه من الشدة خوفاً من نصارى الشام ، لأنهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . اما القبط فقد كانوا اعداء تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصباً للدين او كرهاً للنصرانية . ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة .

### الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت احكام اهل الذمة لما افضت الخلافة الى بني أمية ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على اهلها ، وصاروا يغزون الروم في البحر . غير انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعدتهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها ، وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم . واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عرباً ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني أمية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات اولها العرب ، ثم الموالي ، ثم اهل الذمة . ويؤيد ذلك رأي معاوية في اهل مصر ، قال : « وجدت اهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي ، والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة » يعني القبط<sup>(٢)</sup> . ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية او العنف في تحصيلها ، عمد بعضهم

الى التلبس بشوب الرهينة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان ، وازدادوا غيظاً منهم حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلاً عن الاحياء ، بأن يجعلوا جزية الموتى على احيائهم<sup>(١)</sup> وامثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني أمية ، ذكرنا كثيراً منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني أمية لابتزاز الاموال من اهل الذمة .

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا افضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبدالعزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله : « وأمرنا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمام ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تتركوا احداً من الكفار يستخدم احداً من المسلمين ، ولا تستخدموا احداً من اهل الذمة »<sup>(٢)</sup> ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان .

ونظراً لاهتمام بني أمية بجمع الأموال للأسباب التي قدمناها ، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم ، لاقتدارهم في الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم في هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه ديني لنشر الاسلام او حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقي ، وامه نصرانية رومية كان يراعى جانبها ويكرم النصارى من اجلها ، فاعتز النصارى في ايامه . واراد خالد امه على الاسلام فلم تسلم ، فابتقى لها بيعة في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة ، فكان المؤذن اذا اراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس<sup>(٣)</sup> وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبدالعزيز ، ويطلق ايديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابي ربيعة الشاعر المشهور كانت امه نصرانية ماتت والصليب في عنقها<sup>(٤)</sup> وكان النصارى في ايام بني أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم احد . وكان الاخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن ، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار<sup>(٥)</sup> .

١ - المقرئ ٢٩٥ ج ١ .

٢ - المقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥ . ٣ - الاغانى ٥٩ ج ١٩ .

٤ - الاغانى ٣٢ ج ١ . ٥ - الاغانى ٧٤ و ١٧٨ ج ٧ .

على ان الخلفاء من بني أمية كانوا اذا قربوا نصرانياً او يهودياً طلبوا اليه ان يدخل في الاسلام ، فلا يمنعه من الرفض مانع ، الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما اصاب شملة وكان من رهط الفرس نصرانياً ، فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له : « اسلم يا شملة » قال : « لا والله لا اسلم ابداً » ، ولا اسلم إلا طائماً اذا شئت « فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار واطعمها . اما الأخطل فان عبد الملك قال له مرة : « الا تسلم فنفرض لك في الفياء ونعطيك عشرين آلف ؟ » قال : « كيف بالخر ؟ » قال : « وما نصنع بها ؟ وان اولها لم وأخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين المنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك .

أما عمال بني أمية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الاموال ، فن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفي خطط المقرئ في فصول في انتقاض القبط فلتراجع هناك<sup>(١)</sup>

### الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب ، فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت ايضاً الى عصبية وطنية . وبالفوا في التمصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واهل الذمة . واعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال والاستكثار منها بعثهم على الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا ايديهم الى اموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالقيء ، ورأوا اعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوم غلبوهم ، فاستخفوا بالدين تحقيراً لأهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والأغضاء عن الارجحية ، وبالفوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره احد من المؤرخين حتى اهلهم من اعقابهم . فأبو الفرج صاحب الأغاني اموي<sup>(٢)</sup> واكثر ما يعرف من مساوىء بني أمية مقتبس من كتابه .

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير ، حكم

١ - المقرئ ٧٩ و ٣٠٢ و ٢٩٣ ج ١ . ٢ - ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ .



كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابي سفيان ( حكم من سنة ٤١ - ٦٠ هـ )  
وعبد الملك بن مروان ( من ٦٥ - ٨٦ هـ ) وهشام بن عبد الملك ( من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ )  
وكان المنصور العباسي لما أفضت الخلافة اليه يتتبع هشام في سياسته <sup>(١)</sup> وأما عمر بن  
عبد العزيز فقد كان احسنهم تدبيرا ، ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه ولولا  
هؤلاء السواس لذهبت الدولة من ايديهم عاجلا ، لما تداولت الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء  
اهل الترف واللهو والقصف . واولهم يزيد بن معاوية المتوفي سنة ٦٤ هـ فقد كان مفرما  
بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقروود والفهود ، وكان يحب الطرب  
والمناذمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله واظهروا الشراب ، وفي ايامه ظهر الفناء  
في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك <sup>(٢)</sup> .

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خلع بني امية ، فقد تولى  
الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه ، فشغف بجاريتين اسم احدهما  
سلامة والاخرى حبابة فقطع معها زمانه ، وغنت يوماً حبابة :

بين التراقي واللهاء حرارة      ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « اريد ان اطير » واهوى لطير فقالت : « يا امير المؤمنين لنا  
فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع الامة ؟ » قال : « عليك »  
وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما اسخفك ! » . وخرج  
يوماً ليتنزه في ناحية الاردن ومعه حبابة ، وبينما هما في الشراب وماها بجبة غيب فدخلت  
حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها ، حتى انتنت وهو يشمها  
ويقبلها وينظر اليها ويبكي ، فكلموه في امرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كثيراً  
حزيناً وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى      منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعد موتها سبعة ايام لا يظهر للناس ، اشار عليه اخوه مسلمة بذلك  
مخافة ان يظهر منه ما يسفه عند الناس <sup>(٣)</sup> ولم يحكم إلا اربع سنوات .

٢ - المسعودي ٦٨ ج ٢ .

١ - المسعودي ١٣٢ ج ٢ .

٣ - ابن الاثير ٥٧ ج ٥ .

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة ١٢٦ هـ وكان خليعاً سكيراً هه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب<sup>(١)</sup> واول شيء فعله لما ولي الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة ومكة واشخصهم اليه ، واستقدم اهل المجون والخلاعة ونادهم ، وبالغ في التهنك والمكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة .

على ان العرب اعظموا تهتك بني أمية من ايام يزيد بن معاوية ، واستغروا البيعة له ، فكيف بعد الذي شاهده من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارشدوا
لا تلحنم ذئاب الناس انفسكم	ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فثم لا حسرة تغني ولا جزع

فأين هو من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يس الخمر او يحتاج او يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء في اواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احد في حضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه<sup>(٢)</sup> .

فلما انغمس بنو امية في الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي واساءتهم الى اهل الذمة وسائر اهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في اثناء السفر - اذ كان جند المسلمين في اواخر ايام بني امية اذا مروا بقرية غضبوا من يرون بهم اموالهم<sup>(٣)</sup> - فاصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ، ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها .



٣ - ابن الاثير ١٤٦ ج ٥ .

٢ - الاغانى ١٦٧ ج ٥ .

١ - الاغانى ٩٨ ج ٣ .

## العصر الفارسي الأول

## العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسياً مع انه داخل في عصر الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهي فارسية من حيث سياستها وادارتها ، لأن الفرس نصروها وأيدوها ، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجباها . وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بني امية على غير العرب ، واحتقار الموالي وأكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناعم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على انهم كانوا اكثر رغبة في نصره الشيعة ، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ ، لأنهم يدعون الى بيعة صهر النبي او ابنه بقت النبي . فكان العلويون يبشرون دعايتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بني امية .

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبي مسلم الخراساني ، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمينية على بني امية ، ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمينية على الامويين ، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان .

### انتقال الخلافة الى العباسيين

#### الشيعة العلوية

ظهر بنو امية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن ابي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها . وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ، فغضب اشياح العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا — وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من اشياح علي ، فيهم حجر بن عدي

وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعةه نعموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن امور الخلافة - ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الفيظ حتى لو شربنا دماء بني امية ما روينا  
لقد ضاعت رعيتم وانتم تصيدون الارانب غافلين<sup>(١)</sup>

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد ابني الحسين ان يبايعه علي ان اكثر الذين بايعوه من اهل التقوى عدوا بيعتهم خرقاً لحرمه الدين<sup>(٢)</sup> . وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه ان يبايع يزيد فر الى مكة ، واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته .. وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبدالله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء ، يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ .

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسما انفسهم « التوابين » ، وامير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلاً منهم . فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو الىبيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من ابيه . فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سمى « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضياً عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته الى عبدالله بن الزبير ، وكان عبدالله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن اباة الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، واقام عبدالله في مكة يدعو الى نفسه . على ان المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد ، لأنه انما كان يريد لها نفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه ، بعث اخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ .

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احدهما تقول ان الحق في الخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية ، وهي الفرقة الكيسانية . واكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الاولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابيه حتى صار الائمة ١٢ اماماً وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضى ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضاً فرق اخر ، بايعت غير واحد من اعقاب علي ، كالزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل ابن جعفر الصادق وفرق اخر لا محل لذكرها .

وكان بنو امية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض ، الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في ايام بني امية ضنكاً شديداً ، وكادوا يهلكون جوعاً واصبح هم احدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني امية المتوفي سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة <sup>(١)</sup> وخالد هذا غريب الأخلاق ، فع كونه من عمال بني امية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل اهل الذمة كما تقدم .

### الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من اهل البيت بنو العباس عم النبي ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم ، وانما كانوا يدعون الى انفسهم سرأ . وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام - والمضطهدون يتقاربون على اي حال .

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم ، وهم مقيمون في الحيمة من اعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بني امية فهموا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبي هاشم ، وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينة الى الشام ، فيمر في اثناء الطريق بالحيمة . ففي بعض وفداته على هشام

ابن عبد الملك ، آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه في الخلافة ، فدرس اليه في اثناء رجوعه الى المدينة رجلاً سمي في لبن . فشعر ابو هشام بالسلم وهو في بعض الطريق فخرج الى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما احس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً ، فأخذ في بث الدعاة سرّاً . ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام .

فأخذ ابراهيم الامام في بث دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها اكثر من سائر اهل الامصار ، ولأن الشيعة الكيسانية اكثرهم من خراسان والعراق ، وقد نصروا العلويين مراراً . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم ، وأوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » اي أهل النبي ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية ، فهان عليهم ان يبايعوا آل محمد ، وهم يحسبون الامر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين . وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب ، فآتم امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

### بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم — العلويون والعباسيون — لما رأوا اختلال امر بني امية ، اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم ، علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين ، وفيمن يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس المعروف بالسفاح ، واخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو ابو جعفر المنصور ، وغيرها من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه ابو جعفر المنصور ، في جملتهم <sup>(١)</sup> ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها ، كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام ابراهيم او غيره من بني العباس .

اما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقال غير غيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخليل المثري الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العباس ، كظم غضبه وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة ( من اهتمته فاقتله ) وقد اطاعه النقباء فأطاعه ابو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعة<sup>(١)</sup> ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قتل ابراهيم الامام ، اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية<sup>(٢)</sup> ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور ، فأزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لآل العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد ينجارون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا ابا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على انفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين الرهطين .

وعلم العباسيون بما كان يضمه ابو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين ، فشكوه الى ابي مسلم سرّاً . فدرس اليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة ، واشاعوا ان بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم ، حتى تم الامر لهم .

اما آل الحسن بن علي ، الذين كانوا قد بايعوا احدثهم محمد بن عبدالله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع وكان في جملة القادمين اليه عبدالله بن الحسن والد صاحب البيعة فاکرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له : « احكم علي » فقال عبدالله : « بألف الف درهم ، فاني لم أرها قط . » ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صير في اسمه ابن ابي مقرن ودفعه اليه . واتفق — وعبدالله المذكور عند السفاح — ان بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد



اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبدالله ينظر اليها ويبكي ، فسأله عن السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأيت بنات عمك مثله قط .. » فحباه به ، ثم امر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين الف دينار ( نحو مليون درهم ) وأمر ابو العباس باكرام عبدالله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس بما في ضميره ، فبث عليه العيون فأنس عنده طمعا فزاده عطاء ، فعاد عبدالله الى المدينة مثقلا بالاموال ففرقها في اهل ، وكانوا اهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سرورا .

وأما عبدالله فما زال مضمرأ المطالبة بالخلافة لابنه<sup>(١)</sup> على ما تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهل الاموال كما رأيت . فلما توفي السفاح سنة ١٢٦ هـ خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديدا البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لان لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون واراد اختبارهم ، فبعث بعطاء اهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها « اعط الناس في ايديهم ولا تبعث الى احد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بجمد و ابراهيم ابني عبدالله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد و ابراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور انها ينويان القيام عليه ، وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لأنه كان يكرمها ويفدق عليها والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضيقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم ابو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق ، واحتال في استطلاع اسرارهم ، واراد استقدام ابني عبدالله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فانكر عبدالله انه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منها ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعا ، ثم امره ان ينقلهم الى العراق ، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في ارجلهم واعناقهم ، وقد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبدالله لاستتارهما فجاءوا ابني الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة

اما محمد بن عبدالله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدأ من القيام . فظهر بالدعوة ، فبايعه اهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن انس ، قافاتهم بالخروج معه فقالوا : « ان في اعناقنا بيعة لأبي جعفر » فقال : « انكم يايعتموه مكرهين ، وان بيعة محمد بن عبدالله اصح منها لأنها انعقدت قبلها » (١) وكان ابو حنيفة على هذا الرأي ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من اكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره ، وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور .

وكان لنكث المنصور ببيعة محمد بن عبدالله تأثير عظيم في اذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ان ذلك لا يصدر من اهل البيت كما صدر من بني أمية ، فتحسروا على ايام بني أمية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبدالله ، في اثناء قيامه على المنصور انه سمع شاعراً يرثي بني أمية فبكى ، فقال له عمه : « اتبكي على بني أمية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ » فقال له : « يا عم ، لقد كنا نطمح على بني أمية ما نطمحنا ، فما بنو العباس إلا اقل خوفاً لله منهم ، وان الحجة على بني العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر » (٢) .

## سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

### القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم ان بني العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الاول ان يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على احزابهم ، والثاني ان يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط ، كما قامت في عصر الراشدين وكما ارادها بنو علي ، وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدنيهم ، وان معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وان عبد الملك لم يستطع استبقاها إلا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة

من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، ووفق هذا الى ابي مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء ، جعله قائداً على نقبائه ودعائه واوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين اظهريهم ، فان الله لا يتم هذا الامر إلا بهم . واتهم ربيعة في امرهم . واما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . واما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله ... » (١)

فخرج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه او شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠ . و ٦٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٢) بدون حرب في بضع سنين ، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبي سلمة الحلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم امير آل محمد . فحالما استشار السقاح ابا مسلم في شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، اشار ابو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك ايضاً بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخاً جليلاً لم يدخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل أبي سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثل ما بلغه عن ابي سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « اتحفظ قول الامام لي : من اتهمته فاقتله ؟ » قال : « نعم » قال : « فاني قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « اناشدك الله .. » قال « لا تناشدني ، فأنت منطو على غش الامام » وامر بضرب عنقه (٣) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالفدر ، ومنهم الكرماني واولاده وكبار رجاله (٤) وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء ،

١ - ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ . ٢ - ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢ .  
٣ - ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ . ٤ - ابن الاثير ١٨٣ ج ٥ .

واصبح المسلمون -- حتى رجاله -- لا يدعى احدهم الى مقابلته إلا اوصى وتكفن وتمنط. وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد : ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق .. » فتبعه على رأيه اكثر من ٣٠٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم .

### المنصور والدولة العباسية

فهذا وامثاله مهد ابو مسلم الخلافة لبني العباس ، فساعدهم اولاً على اخراجها من بني أمية الى اهل البيت ، ولم يكتف ببعية ابني العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرصهم على قتل من بقي من بني أمية بالاغراء او التخويف على السنة الشعراء . ويقال انه هو الذي اوعز الى سديف الشاعر مولى بني هاشم ان يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه واكرمه وامن سائر بني أمية -- فيقال ان سديفا دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يفرنك ما ترى من رجال      ان تحت الضلوع داء دويا  
فضع السيف وارفع السوط حتى      لا ترى فوق ظهرها امويا

فتأثر السفاح وامر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتله وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً<sup>(١)</sup> وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وان الذي قتلهم عبدالله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف في انهم قتلوا غدرًا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر في اوائل القرن الماضي .

والغالب ان ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حباً لبني العباس بل كرهاً لبني أمية وانقائماً لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شوري بين الشيعة . فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك ، نقم على العباسيين وهجاهم باشعار بلغ خبرها المنصور ، فكاتب الى عامله ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل<sup>(٢)</sup> .

وبعد ان قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بني امية بالأندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل يجثهم ، انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالأئمة من آل علي ، وخصوصاً زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبلى ، فضر به ثمانين سوطاً ثم أحرقه (١) .

وبعد ان تخلص المنصور من الأمويين ، لم يدخر ابو مسلم وسعاً في تخليص الدولة من اقربائه آل العباس انفسهم ، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على ما في عسكره من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور ان يوجه همه الى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفاً منه على سلطانه ، بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرج للعويين ، فاتهمه بأنه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملاً بوصية الامام .

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة اخيه ابي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضر به عدويه احدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ ابو مسلم من حرب عبد الله ابن علي ، احتال المنصور في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد اكن له اثاساً بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاد وشاورهم في قتله - ولم يقل انه قتله - فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأ شريرة فاقتله ثم اقبله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق مو قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك .. » (٢)

ولما فرغ المنصور من ابي مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية ، لعله ان

ركب بقتله خطراً عظيماً ، فما عثم أن اثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعاً ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي ، فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من يتنازع عليها ، منهم عمه عبدالله ، وكان ابو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرّاً ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان والياً على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر امراً كتبه عن رجال بطانته ، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده ، واقبل عليه وقال : « يا ابن العم .. اني مطلعك على امر لا اجد غيرك من اهله ، ولا ارى سواك مساعداً لي على حمل ثقله ، فهل انت في موضع ظني بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ » فقال له عيسى : « انا عبد امير المؤمنين ، ونفسي طوع أمره ونهيه .. » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبدالله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا . فخذ اليك واقتله سرّاً .. » فاطاعه عيسى ، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . واخبر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبدالله الزمه القصاص ، وسلمه الى أعمامه اخوة عبدالله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاثنين معاً . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حياً ، فقتله في بيت جعل اساسه على الملح<sup>(١)</sup> .

وأمثله ما آتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة ، وكان يعطي الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بآبن هبيرة عامل بني أمية على واسط ، لما بويع السفاح وأرسل اخاه المنصور لمحاربته ، فجرت السفراء بينها واتفقا على أن يدخل آبن هبيرة في أمان بني العباس ، فكتب له المنصور أماناً ظل آبن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به ، فبعثه الى أبي جعفر ، فأنفذه ابو جعفر الى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان رأي أبي جعفر في بادىء الامر ان يفي

بما اعطاه ، ولكن أبا مسلم ( وكان لا يزال حياً ) اشار على السفاح ان يقتله قائلاً :  
 « ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة . »  
 فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبي جعفر مستأمناً غدر به وقتله<sup>(١)</sup> لانه اتهمه ، ثم اتهم  
 ابا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت . وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث  
 به الناس . فلما قام محمد بن عبدالله العلوي في المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه  
 يعرض عليه الأمان ويعده خيراً ، فاجابه محمد : « أي امان تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ،  
 ام امان عمك عبدالله ، ام امان ابي مسلم ؟ »<sup>(٢)</sup> .

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدهاء والفتك . على انهم لم  
 يكونوا يبطشون او يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما  
 أحكامهم فيما خلا ذلك فهي نهاية العدل والرفق ، كما سيأتي . اما من كان في نفسه مطمع في  
 الخلافة او ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين ، فكل من يطلب الخلافة لنفسه او يسعى  
 فيها لأحد كانت حياته في خطر ، فاذا دعي للمشول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط  
 استعداداً للموت .

وكان المنصور ايضاً قدوة لعبدالرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بني أمية في الاندلس ،  
 وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفاً من القتل ، فنصره رجاله وخصوصاً مولى له  
 اسمه بدر ، سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب  
 له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب  
 الذين نصره ، وسيأتي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء انفسهم  
 يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في  
 نصرة أخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأميين وكاد  
 يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قننا قائم  
 بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف ، فانظر لنفسك او دع .. »<sup>(٣)</sup> وفي الواقع ان المأمون  
 لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور  
 بقتل ابي مسلم ، فأهدى له خادماً كان رباة وامره ان يسمه ففعل<sup>(٤)</sup> .

١ - ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ . ٢ - ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥ .  
 ٣ - المسعودي ٢١٣ ج ٢ . ٤ - ابن خلكان ٢٣٧ ج ١ .

## سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

### الموالي الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالي وأهل الذمة وكانوا ناطقين على دوله بني أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاماً منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس .

### الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان . وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلاً عن الاسر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم .

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس ، وهم المناذرة في الحيرة . وكثيراً ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك - حكي ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعراً<sup>(١)</sup> وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم ، للكتابة او الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز او اليمن او نجد ، وخصوصاً بعد ان دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى انوشروان .

واشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضرية ، وكان عدي وابوه وجدته من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد ، واثانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجده حماز بن زيد بن ايوب كان كاتباً عند النعمان



في الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد فأوصى به دهقان كان صديقاً له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين ، فتقدم الدهقان الى كسرى ان يوليه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب إلا ابناء المرازبة ، فتقدم زيد في الدولة حتى صار كسرى يستشير في مهامه ، وولد لزيد ابنه عدي وثقف وتعلم مثل ابناء الاساورة ، وأتقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالة ، فقربه كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن ، وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة ، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهمات الكبرى الى ملك الروم وغيره . واذا فسد العرب على الفرس وتوردوا توسط عدي في اصلاحهم ، واذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدي . فشق ذلك على ملوك الحيرة حسداً له ، لأنهم عينية وعدي مضري ، فوشى به بعضهم الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدي في المكاتبه عن كسرى الى ملوك العرب في أمورهم وفي خواص أمور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١) .

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس في ايام دولتهم قبل الاسلام ، كما خدم الفرس العرب في ايام دولتهم بعد الاسلام ، على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانتهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون انفسهم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيداً لهم ، اي انهم أصيبوا بما اصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الامم التي توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها .

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاساورة ، كان ذلك شديداً على الفرس ، وخصوصاً بعد ما لاقوه من ضغط بني امية واحتقارهم ، فكانوا ينتفضون فيحاربهم الأمويون ، ويبالغون في اهانهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون اهاليها ، حتى افنوا اكثر البيوتات القديمة ووجوه الاساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الأموية . على انهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين ، كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزاً لأنفسهم ، تخلصاً من عصبية العرب عليهم ، وطمعاً في الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة .

## استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على ازمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق ، فأقاموا اولاً في الكوفة ثم في الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالي ، وخصوصاً اهل خراسان ، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ، ولا سيما الذين حاربوا مع أبي مسلم في طلب الخلافة لهم . واشتهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فإنه كان من قواد جند أبي مسلم ، وشهد معه الوقائع وابلى بلاء حسناً في نصرته اهل البيت ، وكان ابوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتاً من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدائته ، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل في جند أبي مسلم ، وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين محلاً للشك في صداقته ، كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة ، ثم قولاه للمنصور وخدمه بعد مقتل أبي مسلم في محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس<sup>(١)</sup> وتوالت الوزارة في اعقابها الى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره .

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم . واول من استخدمهم لذلك المنصور ، فانه استعمل مواليه وغلماؤه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب ، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة اوصى بثلاث ماله لمواليه<sup>(٢)</sup> واوصى باكرامهم . ومن اقواله في وصيته لابنه المهدي : وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك .. واوصيك بأهل خراسان ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتحلف من مات منهم في اهله وولده<sup>(٣)</sup> .

ولا غرو اذا اكرم العباسيون اهل خراسان ، بعد ان آثروهم على اهلهم وابنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويحيثون ويدخلون على الخليفة كأنهم من اهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة — ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربي وفد على

أبي جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الحراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به ، فيرون شيخاً اعرابياً جلفاً فيعشون به ، فسأله صديق له رآه في تلك الحال : « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

اكثر خلق الله من لا يدري	من اي خلق الله حين يلقي
وحلة تنشر ثم تطوى	وطيلسان يشتري فيفلى
لعبد عبد او لمولى مولى	يا ويح بيت المال ماذا يلقي <sup>(١)</sup>

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للعدالة ، وأول من يتكلم منهم الموالي<sup>(٢)</sup> وقس على ذلك في سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا احوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتّاب والحجاب كأنها دولتهم ، لأن الغالب في هذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض اولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة او الولاية ، كآل برمك وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم .

وكانت امور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعزلون ، واذا تولاهم احدهم ولى الاعمال رجالاً من اصحابه او مريديه ، ومن ناحية اخرى تغيرت الاحوال على اهل البلاد ، وأطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة او الصناعة او الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني أمية واستبدادهم ، واطلقت حرية العمل وحرية الدين ، وذهبت عصبية العرب ووقع الناس في بحبوحة الأمن .

ولما استبد الاثراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس ، بعض الامون كما سيأتي ، ظل الموالي من اصحاب النفوذ في دولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ، ولكنهم اصبحوا اخلاطاً منهم ومن سواهم ، وانما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة او الامير .

## اهل الذمة في الدولة العباسية

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام ، وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطمعهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربهم وكرمهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما آنسوه من تساعدهم واطلاق حرية الدين لهم ، فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم ولولهم خزائنهم وضياعهم .

فالجهابذة ( الصيارف ) كان اكثرهم من اليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة كبيرة من النصارى . وكثيراً ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني - حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده . ومن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصراني ، قلده اياه الناصر لدين الله . وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد امرها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المتقي بالله<sup>(١)</sup> .

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لأهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوزارة او الكتابة ( وهي كالوزارة في مصر ) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم في الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلاً نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهودياً اسمه منشا ، فعز النصارى واليهود في ايامها<sup>(٢)</sup> . ومن نافذي الكلمة في الدولة الفاطمية من اهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم في ايام الحاكم بأمر الله . فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ، ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم . وارتفع شأن النصارى في أيامه ، حتى كادت الدولة تكون في ايديهم<sup>(٣)</sup> على أن الكتابيين - أهل الذمة كانوا في ايام الحاكم هم اهل الدولة ، وكذلك في ايام الحافظ<sup>(٤)</sup> . وكتاب الجيش في اكثر الاحياء من اليهود .

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من اطباء اهل الذمة وحكامهم وتراجتهم

١ - تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ . ٢ - ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطي ١٧ ج ٢ .

٣ - المغربي ٤ و ٣١ ج ٢ . ٤ - المغربي ٤٠٦ ج ١ .

وكتابتهم ، وخصوصاً نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبينما ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديعهم ورعاية جانبهم واکرامهم ، وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم ، والكل راتعون في بحبوحة السكينة والطمانينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويحالسونهم . فلهادي كان يستدعي اليه الأسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ، ويبحث معه وينظره ، ويطرح عليه كثيراً من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد<sup>(١)</sup> وغيره ، واغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى ، كمنعهم من احداث الكنائس<sup>(٢)</sup> او الاحتفال بالاعیاد ، او منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى اصبح النصارى يهدون الخلفاء ايقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم ، وكثيراً ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء ان يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على اخصامهم او منازعيهم .

#### اضطهاد اهل الدمة في العصر العباسي

على ان ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهدم كنائسهم — فان الملوك المستبدین تختلف سياستهم باختلاف اخلاقهم واطوارهم ، فقد يترأى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب او لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس . فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لأنه أمر يهدم الكنائس المحدثه بعد الاسلام ، ونهى ان يستعان بهم في الاعمال ، او ان يظهروا الصلبان في شعائيرهم ، وأمر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب ، وان يلبسوا الطيالة العسليه ، ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج ، وأن يرقموا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون

الآخري ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل ، فانه نقم مثل هذه النعمة على سائر اهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب . وكان شديد التعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد<sup>(٢)</sup> على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة - وذلك أن اهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم ، وكان هذا من اسباب نقمته عليهم<sup>(٣)</sup>.

ويقال نحو ذلك فيما صدر في ايام الرشيد من الاوامر يهدم الكنائس في الثغور ، واخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم<sup>(٤)</sup> - فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقله ، فالظاهر أن نصارى الثغور ( الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام ) ساعدوا ابناء طائفتهم الروم في التجسس على احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاماً منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيئة المسلمين في لباسهم ، دفعاً لتنكرهم وتجسس احوال المسلمين - وإلا فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً بأهل الذمة ، وكان احد عمال اخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر بإعادة بنيانها<sup>(٥)</sup>.

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في ايام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في ايامه حتى صاروا كالوزراء ، وتعاضموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم ، فتزايدت مكائدهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله - وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه حد الجنون . فأمر

١ - ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقرئ ٤٩٤ ج ٢ .

٢ - تاريخ المشارقة ( خط ) ١٤٦ . ٣ - ابن الاثير ٢٩ ج ٧ .

٤ - ابن الاثير ٨٢ ج ٦ . ٥ - المقرئ ٥١١ ج ٢ .

بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيسار وشد الزنار في اوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه ، وقبض على ما في الكنائس وأدخله في الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف<sup>(١)</sup> مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ايام التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن الاسلامي منه ، لان مرتكبه اتاه عن حق او جنون .

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فغرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان في القسطنطينية ، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده ، وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على بناء جامع القسطنطينية ، وان يعاد بناء كنيسة القيامة ، وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون<sup>(٢)</sup> .

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً ، فعظمه تعصبه وحققه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا او من بقلة المساء بالجرجير ، او منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق ، والأمر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى ابقار ، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله . عني أننا قلما نراه أتى أمراً الا لسبب ، وان كان ضعيفاً - فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب كان يكرهه<sup>(٣)</sup> وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف او بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس<sup>(٤)</sup> وخير

١ - المقرئ ٤٩٥ ج ٢ . ٢ - المقرئ ٣٥٥ ج ١ .

٣ - المقرئ ٣٤١ ج ٢ . ٤ - ابن الاثير ٨٦ ج ٩ .

النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم - وقد تقدم ان ذلك كان في أيام ابنه الظاهر ومن أعماله القريبة انه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايع ثم قتلهم وخرّبها ، وألزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلاً ، فظل الناس على ذلك دهرأ طويلاً <sup>(١)</sup> فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد ، ولا يعمد اضطهاده عاراً على الدولة او الامة .

على ان أقطع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، انما كان في دور الاضمحلال او التقهقر في العصور الاسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لانها كانت سبباً كبيراً في اثاره التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكاهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كانت من نصرتهم الافرنج سرأ ، فبالغ امراء المسلمين في القتل بهم . فنصارى « قارا » مثلاً - بين دمشق وحمص - كانوا يسرقون المسلمين في اثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للافرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في ثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب اهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم مماليك فقتلوا بين الاتراك في الديار المصرية ، فصار منهم اجناد وأمرأ <sup>(٢)</sup> كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد .

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم ، حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم <sup>(٣)</sup> وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها . وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا <sup>(٤)</sup> واذا دخلوا بلداً اسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع <sup>(٥)</sup> ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين اجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ، ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم <sup>(٦)</sup> .

١ - السيوطي ٧ ج ٢ . ٢ - ابو الفداء ٤ ج ٤ .  
٣ - المقرئ ٨ ج ٢ و ابو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩ .  
٤ - ابن الاثير ٢٩ ج ٧ . ٥ - ابن الاثير ٦٢ ج ٨ . ٦ - نفع الطيب ١٢٦٩ ج ٢ .



## تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة ، وأغدقوا عليهم الاموال واكرمهم ورفعوا منزلتهم ، وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم او الطب او الحساب او الكتابة او غيرها مما تحتاج اليه الدولة في تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة وكان أولو الأمر من الجهة الأخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة ، كما كان الأمويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ، ولا يزال ذلك جارياً على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا .

نشأ هذا التحاسد اولا بين العامة ونحوم من اهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية ، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . وأما اهل الطبقة العليا ( الشرفاء ) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون ، وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضي الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفاً أمير المؤمنين فأننا	في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أبدأ ، كلاًنا في المعالي معرق
الا الخلافة ميزتك فأنني	أنا عاطل منها وأنت مطوق

رثى أبا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد      أرأيت كيف خبا ضياء النادي

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال له : « انما رثيت فضله » (١) .

وأما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهم على بعض المصالح أو المناصب ، فكانوا يظهرن التعصب على النصارى ، ويسعون في أذيتهم لدى ولاة الأمور ، فاذا

كان صاحب الأمر حازماً لا يصغي للوشاية ذكرُوا أن رجلاً نصرانياً من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شتم النبي (صلى الله عليه وسلم) فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه بأقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم<sup>(١)</sup> واتصل الأمر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لأنه ظلم أبناء أهل الذمة<sup>(٢)</sup> .

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسري من العامة الى الخاصة ، لرغبة الناس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتعلق التماساً للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ، ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشائيات . وأسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها ، فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى ، فاذا كان صاحب الأمر ضعيفاً انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد في الأجيال الاسلامية الوسطى على أثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين ، ويبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين ، وكل منها تحاول أذية الاخرى ، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاضم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أي منذ قرن وبعض القرن ، حتى في المعاملات الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدنية - فقد أطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر ، بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر الى مطران طائفة كفره السريان .

« ايها المكروه بالنظر والمعتقد ، إن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث ان الملعون قد فطس وهلك ، فلأجل ادخال جثته الكريمة ضمن الارض ، قد صدر

الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخذ الخراج ، وان تكن الارض لا تقبل جثته الحبيثة ، ولكي لا تكون سبباً لفساد الهواء ، قد أعطيناها الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ، ضمن مدينتكم المحصورة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٠٣ هـ . انتهى .

فأي مسلم او مسيحي من اهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره او يستغربه؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن ايضاً . وقد هون علينا تصديقه ان صديقاً آخر مقيم في القاهرة اكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطر كخانات بصر في مثل هذه العبارة . وقد اخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو ان يزول تماماً باذن الله .

### تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيراً ما كان اهل النفوذ من النصارى اشد وطأة على اهل دينهم من حكامهم المسلمين ، كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة وقال منصباً في دار الخلافة ، فاغتم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ اموالهم لنفسه ، حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن اقواله له : « الست تعلم ان امر الملك بيدي ، ان شئت امرضته وان شئت عافيته ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه .

واعتبر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين ، وذلك انه اصطنع ايقونة ( صورة ) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . واوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها ، وهو الذي

وضعها بين يدي المتوكل ، فاستحسنها المتوكل جداً ، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مراراً كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقبلها ؟ » فقال له : « يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العالمين فمن اقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصارى يفعلون كذلك ؟ » فقال : « نعم يا امير المؤمنين وافضل مني ، لأنني انا قصرت حيث انا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فأني اعرف رجلا من النصارى في خدمتك ، وافضالك وارزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويبصق عليها ، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسول » فقال له المتوكل : « من هذا الذي هذه صفته ؟ » فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « اوجه احضره ، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخذلته في المطبق ، مع ما أتقدم به في امره من التضييق عليه وتحديد العذاب » فقال : « انا احب ان يؤخر مولاي امير المؤمنين امره الى ان اخرج واقم ساعة ، ثم تأمر باحضاره » فقال : « اني افعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره : « ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسنها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : « هذا ربكم وامه مصوران . وقد سألتني امير المؤمنين عن رأيي فيها ، فقلت له : مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لانبالي به . فطلب الي ان ابصق عليها فبصقت ، فاذا دعا بك افعل مثل فعلي » فصدقه حنين . ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه ، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكي طويلا ، ثم اخذها بيده وقام قائماً ، فدعا لامير المؤمنين واطنّب في دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره ، فطلب الجاثليق اليه ان يتركها له . ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمه دخول الكنيسة ومن القربان ، وامنع النصارى من ملامسته وكلامه واضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وامر بحنين فجلد بالسياط والحبال ، وأمر بنقض منازلهم وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه<sup>(١)</sup> .

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة ، فكيف غيره من الخلفاء المعتدلين ؟ . وقد رأيت من

حديث حين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية ، فضلاً عن اعفائهم من الاسلام ، إلا من اراده باختياره . وكانوا يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعیاد الكبرى ، كالميلاد والشعانين ، ويخرجون معهم الى اماكن النزهة كأهم امة واحدة<sup>(١)</sup> ولم يكن ذلك مقصوداً على اهل العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى انفسهم ، وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ، ويفرح المصريون جميعهم معاً<sup>(٢)</sup> .

وكانت الحكومة اذا انشأت معهداً خيرياً كان حظ اهل الذمة منه مثل حظ المسلمين ، وخصوصاً المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبني لمعالجة المسلم والذمي ، فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم<sup>(٣)</sup> .

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصباً للدين ، حتى في ايام بني أمية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره . واما بنو العباس فكانوا اقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم ، فاهيك بالفرق الاسلامية وتعددتها . وكان اكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعياً ، وكان وزيره يحيى بن اكرم سنياً ، ووزيره احمد بن أبي داود معتزلياً<sup>(٤)</sup> . يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن - وأول من قال بذلك رجل يهودي اسمه لبید الاعصم ، الذي يقال انه سحر النبي ( صلعم ) . فكان لبید يقول ان التوراة مخلوقة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه اخذ طالوت ابن اخته ، وأخذه ابان بن سميان عن طالوت ، واخذه الجعد بن درهم عن ابان في ايام هشام بن عبد الملك الاموي ، وظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدررون على مثلها واحسن منها<sup>(٥)</sup> . فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسري امير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فالح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد ان صلى قال : « اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم

١ - ابن الاثير ١١٣ ج ٨ وأبو الفرج ١٥٦ ج ٣ .

٢ - المقرئ ٤٩٤ ج ١ . ٣ - طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ .

٤ - ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ . ٥ - المقرئ ٣٤٦ ج ٢ .

ذبحه<sup>(١)</sup>. ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد<sup>(٢)</sup> حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة - ولعله اخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه - وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافراً<sup>(٣)</sup> كما سموا المأمون امير الكافرين<sup>(٤)</sup> وكان ما كان من الحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين ، والحلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعناً فيهم وتكفيراً لهم ، كقول أبي خلف المعافري :

لا والذي رفع السما      ء بلا عماد للنظر  
ما قال خلق في القرآ      ن بخلقه إلا كفر  
لكن كلام منزل      من عند خلاق البشر<sup>(٥)</sup>

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور ، لا يكره الرجل على معتقده او مذهبه ، فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد ابي الجعد ستة ، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين<sup>(٦)</sup>.

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة والعدل والرفق . وقد أتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بني العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وكانوا يحاسنون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالي على الخصوص ، ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكانت الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون ايديهم في شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الزشاية فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول .

## العصبية العربية في العصر العباسي

### سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفاً الى العرب ، لأنهم اهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا

١ - ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ ر ٢٨ ج ٧ . ٢ - ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥ .

٣ - ابن الاثير ٨ ج ٧ . ٤ - ابن الاثير ١٣١ ج ٦ .

٥ - نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ . ٦ - المعارف ١٥٦ .

على الدولة وفعلوا ما ارادوه ، لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقييح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً ، وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك ، مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدائمة على اباة الضيم ولو كان فيه ما يسوؤه ، كما اتفق له وهو في بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلاً ، اذ سمع قائلاً يقول : « اللهم اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقال له : « ان الذي حال بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين » . قال المنصور : « ويحك ! وكيف يدخلي الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ » . فقال الرجل : « لأن الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم الا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعماري ولا الضعيف والفقير ، وما احد إلا وله من هذا المال حق .. الخ » .

فهذا وامثاله نبه المنصور لجرأة العرب ، فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم ، وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والحوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وانشأ فيها منازل الجند ، نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ هـ ان بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره في بغداد ، فأوجس خيفة من تكرار ذلك ، لعلمه ان دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه اخرجوها من يده ، وهو يعلم ايضاً ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين او غيرهم ، فليس امون عليهم من ردها الى دولة جديدة .

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور في ذلك قائلاً : « اما ترى ما نحن فيه من التباث الجند علينا ؟ وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من ايدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال « يا امير المؤمنين عندي رأي ان اظهرته لك فسد ، وان تركته امضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » . قال له : « اقمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟ » قال

له : « ان كنت عندك متها فلا تشاورني ، فان كنت مأمونا عليها فدعني افعل رأيي » . فقال له المنصور : « فأمضه » . فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاماً له فقال : « اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار امير المؤمنين ، فدا رأيتي قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب ، فانهض وخذ بعنان بغلتي ، واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق امير المؤمنين الا وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها ، فأني سأنتهرك عند ذلك واغلظ لك فلا تخف وعاد المسألة ، فاني سأضربك فعاد وقل لي : أي شيء أشرف ، اليمين ام مضر ؟ فاذا اجبتك فاترك البغلة وأنت حر » . ففعل الغلام كما أمره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى ان قال : « مضر اشرف ، لأن منها رسول الله ( صلعم ) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله » . فامتعضت اليمين من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئاً ، وقال بعض قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن » . ثم قال لغلام له : « قم الى بغلة الشيخ فاكبها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور واقترب الجند العربي من ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمين فرقة والخراسانية فرقة ، وقال قثم للمنصور : « قد فرقت بين جندك وجعلتهم احزاباً ، كل منهم يخاف ان يحدث حدثاً فتضربه بالآخر » (١) .

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه اهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهناؤه بتقديمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور : « قد بقي عليك بالتدبير بقية ، وهي ان تعبر بابنك « المهدي » فتزله في ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً ، فان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه ، وبني المهدي بلداً سماه الرصافة -- فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم .

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجاً ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضاً حزبين ، أحدهما ينتمي الى الفرس والآخر الى العرب ، مرجعها الى ابني الرشيد الأمين والمأمون ، لأن الأول امه عربية



هاشمية ( زبيدة ) وأم الثاني امة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امرأته زبيدة أبطأت في الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمداً الأمين<sup>(١)</sup> فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتي ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة ، وهوى بني هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربي الربيع بن يونس وابناؤه من بعده .

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجدده مولى مولى . يدخل الربيع في جملة موالي المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوماً عما يتمناه منه فقال : « أن تحب ابني الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ » . فقال : « لأنك اذا احببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع في ايام الهادي سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط في يد الفضل ابن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك اللحاق بهم ، فكان في نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم .

### ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الأمين

وكان المأمون ، فضلاً عن نسبه الفارسي من امة ، قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي ، وهو الذي سعى له في ولاية العهد<sup>(٢)</sup> ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين . ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الأمين على نقض بيعة المأمون<sup>(٣)</sup> واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند اخواله بخراسان ، والامين في أهله ببغداد ، وانتشبت القتال بين الفريقين - وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين<sup>(٤)</sup> . وقد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسي

١ - المسعودي ٢٩١ ج ٢ .

٢ - ابن الاثير ٩٤ ج ٦ .

٣ - ابن الاثير ٨٩ ج ٦ .

٤ - المقرئ ١٧٨ ج ١ .

قد انهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعاً . فلما ضاق الحال بالأميين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعايا أهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده ان يتتبعوا اصحاب الأموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم ، فلم يزد ذلك الا ضعفاً . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون ، وسيأتي تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما اخرجوها قبلاً من بني امية وسلموها الى اجداده .

فاستفحل امر الفرس في أيام المأمون وازداد العرب ضعفاً ، حتى كثيراً ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضاه عنهم ، ومن أقوالهم : « يا امير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان .. » (١)

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية ، لأنه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعبدون بالله من ذلك ، وانخط شأن العرب من ذلك الحين (٢) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ (٣) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الاطلاق ، فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٤) فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدرج الى الخدم كما سترى .

### الشعبوية والعرب

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعبوية بالطعن على العرب ، وكان المأمون يقرهم ويجعلهم من بطانته ويحيرهم ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب - وأبو عبيدة الراوية الشهير ، وعلان الشعبي . وألف الشعبوية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم .

والشعبوية يقولون بالمساواة بين بني الإنسان ، ولذلك سموهم أيضاً : « أهل التسوية » ،

١ - ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ . ٢ - المقرئ ٩٤ و ٣١١ و ٣١٣ ج ١ وابن خلدون ١٣٠ ج ١ .  
٣ - المقرئ ٢٩٤ ج ٢ . ٤ - الفخري ٢٥٣ .

ومن أقوالهم في الرد على العرب أن النبي<sup>(١)</sup> (صليهم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جلسياتهم بقوله : « المسلمون أخوة تتكافأ دماءهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله في خطبة حجة الوداع « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » . وما جاء في القرآن : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض في ذلك العهد ، إلا العرب ، فلإذا افتخروا ( أي الشعوبية ) بملوكتهم ذكروا الفراعنة والنادرة والمعلقة والأكاسرة والقيصرية ، وافتخروا بسلطان الحكيم والإسكندر الكبير وبملوك الهند . وإذا فاخروهم بالأنبياء والمرسلين ذكروا من آدم إلى أيامهم ، وأنهم جميعاً من غير العرب ، إلا أربعة هم : هود ، وصالح ، وإسماعيل ، ومحمد (صليهم) . وإذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والأسطراب ، وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده أن قال : « فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالذئب العادية والوحوش الثائرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردقات على حقائب الابل »<sup>(٢)</sup> واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا : « لا يفلح العربي إن لم يكن معه نبي ينصره »<sup>(٣)</sup> وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنًا فيهم . ومن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانئ وبشار بن برد ، وغيرهما ، على أن بشاراً كان قارة مع هؤلاء وقارة مع هؤلاء .

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية . ومن أشهر ما ألف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة ، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها . وعلى أي حال فإن السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب .

## نكبة الوزراء الفرس

### الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال، فاعتز الفرس وفاقته نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الأكامرة. وهم يعلمون أن ذلك لا يتيسر لهم في الاسلام الا بصيغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية. وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة.

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته. لم ير الفرس بداً من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه. على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشثون لأنفسهم دولة شيعية.

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر. فإذا رأوا من أحدهم ميلاً إلى التشيع عزلوه أو قتلوه، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم، والخلفاء يثنون العيون في منازلهم. كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود، وأصله من موالي العرب، وكان في بادئ أمره كاتباً عند ابراهيم بن عبدالله العلوي الحسني أخي محمد بن عبدالله الذي قام في المدينة وقتله المنصور. وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور، ثم رجع في جملة الراجعين، وكنم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيراً ووثق به، حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين، فقال سلم الخناسر في ذلك :

قل للإمام الذي جاءت خلافته	تهدى إليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به	أخوك في الله يعقوب بن داود

وأحرز يعقوب المذكور نفوذاً عظيماً، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة، وتفرغ هو للعمل، والعرب لا يعجبهم ذلك، فجعلوا يعرضون به بالأشعار ونحوها، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها - روي أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فإذا هي :

لله درك يا مهدي من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه كتبوا تحته : « على رغم أنف الكاتب لهذا وتمساً لجده » .

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « إن يعقوب يميل الى العلوية ، وإنه كان معهم عند قيامهم على أبيه ، فاشتغل خاطره ، وكان يعقوب يكتن ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنه . فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم أظهر المهدي أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضاً ، ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها - وهو أن رجلاً من العلوية يريد المهدي أن يتخلص منه ، فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الإيمان . فذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه لبيباً ، وتوسل الرجل إليه أن يحقن دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه ، وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ، ولم يخرج الا في السنة السادسة من خلافة الرشيد ، شفع له يحيى بن خالد البردعي ، لأنها من طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة حيث يشاء ، فاختر مكة فسيروه اليها وتوفي فيها سنة ١٨٧ هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة .

## الوزراء البرامكة

### مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وأفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، لأن خالداً جدهم من قواد ابي مسلم ، وقد جاهد في نصرته العباسيين جهاداً حسناً ، فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغم

أحد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والقلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأي ، وكان مقرباً من المهدي يعول عليه برأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربى الطفلان معاً فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ، وفي ذلك يقول سلم الخاسر : (١)

أصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعي لهن خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه « يا أبت » ، فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت ابيه وهم في تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأي كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورها ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في أيام أبيه ووبخ الربيع .

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على ازمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال . فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه ، وخلعوا هرون وبايعوا جعفر ابن الهادي ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فأمر الهادي الايسار بين يديه بالحربة ، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد ، فاجتبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضي هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرصه على التمسك بحقه في ذلك ، فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه ، فبعث الهادي الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالي ولك ؟ » . قال : « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بيني وبين أخي تفسده علي ؟ » فقال : « من أفا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرني المهدي معه ، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادي بهذا القول . فاغتم يحيى رضاه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » . قال : « صدقت » وصرفه .

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو في الحبس : « ان عندي نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان الأمر الذي لا نبغاه ونسال الله أن يعدنا قبله ؟ (يعني موت الهادي) أتظن الناس يسمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد ، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما أظن ذلك » قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو اليها اكابر أهلك مثل فلان ، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت له ، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ؟ ولكني أرى أن تقر الأمر على أخيك ، فاذا بلغ ( جعفر ) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبإيعه » فقبل الهادي قوله وعمل به <sup>(١)</sup> .

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة ، وأفضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى اول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو قائم ، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له : « يا أبت أنت أجلسني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وإيرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة فلما ولي هرون أشرق نورها ؟  
بيمن أمين الله هرون ذي الندى فهرون واليسا ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولاداً أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته ، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد في بعد همة ، وموهبي في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة ، وخصوصاً جعفر والفضل ، فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوم يحيى جواداً مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » أي جاد وسخا .

وأراد الرشيد إكرام يحيى ، فولى ابنه الفضل وجعفر اعظم الأعمال ، فقسم المملكة بينهما ، فجعل جعفر عاملاً على الغرب كله من الأنبار الى أفريقية ، وقلد الفضل الشرق <sup>(٢)</sup> من شيروان الى اقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ :

عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبني المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد  
الجنود ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقيم فيها إلا قليلا ، فاستخلف على عمله  
وشخص إلى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن  
ينقلها إلى جعفر فخطب أباهما قائلا : « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى  
جعفر ، وقد استحيت من مكاتبتك في هذا المعنى فاكذب أنت إليه » . فكتب يجيب إلى  
الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك » ،  
فأجاب الفضل : « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي ، وما انتقلت عني نعمة صارت  
إليه ، وما طلعت عني رتبة طلعت عليه » (١) .

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه  
سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوبا له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر في  
المملكة تصرفا مطلقا ، لم يكن يضي أمرا إلا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف  
مملكته أو تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك  
الإطلاق احسن تمثيل : كان الرشيد متغيرا على عبد الملك لأنه من بني عمه وله طمع في  
الخلافة ، فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد  
الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا إليه أن الرشيد متغير عليه ، فقال له :  
« قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : « وعلي ٥٠٠٠٠٠ درهم  
دينا » ، قال : « تقضى عنك وإنها لحاضرة » ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك  
وأدل على حسن ما عنده لك » . قال : « وإبراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من  
ولد الخلافة » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه  
على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . وخرج  
عبد الملك والحضور يعجبون من إقدام جعفر على ذلك من عند نفسه ، وخافوا أن يغضب  
الرشيد من هذه الجسارة ، فما عثم أن علموا بإمضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول :  
« أحسن أحسن » (٢) .

ناهيك بما كان من إطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فإن  
الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة ، واختلف  
المؤرخون في سببها وهو ما نذكره .



## نكبة البرامكة

### الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن أراد الخلافة للعلويين ، رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يغضي عن ذلك الأمر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من إيثار آل علي ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصاً في خلافة الرشيد ، لأنه كان شديد الرطاة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم<sup>(١)</sup> وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبين جميعاً من بغداد الى المدينة<sup>(٢)</sup> .

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يحسرون على الظهور في حياته . فلما مات ودفن في طوس ، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى اجتماع القبرين في طوس . قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

من ذي يمان ومن بكر ومن مضر  
كما تشارك ايسار على جزر  
فعل الغزاة بأرض الروم واخزر  
ولا أرى لبني العباس من عذر  
ما كنت تربع من دير الى وطر  
وقبر شرهم ، هذا من العبر !  
على الزكي بقرب الرجس من ضرر  
له يدهاء فخذ ما شئت او فذر<sup>(٣)</sup>

وليس حي من الاحياء نعلمه  
إلا وهم شركاء في دمائهم  
قتل وأسر وتحريق ومنهبة  
أرى أمية معذورين ان قتلوا  
اربع بطوس على القبر الزكي اذا  
قبران في طوس : خير الناس كلهم  
ما ينفع الرجس في قرب الزكي ولا  
هيات كل امرئ رهن بما كسبت

٢ - ابن الاثير ٤٧ ج ٦ .

١ - العقد الفريد ١٤٢ ج ١ .

٣ - الاغانى ٥٧ ج ١٨ .

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ، ويعدون عمله حراماً<sup>(١)</sup> ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سرّاً بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر ، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد ، ويدكرون أعمال الرشيد ، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه ، ولكن حساده في بلاط الخليفة - وأكثرهم من العرب أو من ينتمي اليهم - كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدهم غيظاً منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين ، لأنه فضل ابن ضرته المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه منذ كانوا في الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثاً ، فشق طلبه على امه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرص الرشيد على الايقاع به<sup>(٢)</sup> فضلاً عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب ، وخصوصاً آل الربيع وآل مزيد الشيباني ، فان البرامكة اضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم<sup>(٣)</sup> غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذهابهم<sup>(٤)</sup> .

هؤلاء جميعاً كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطوراً من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استشاره هو وأهله بالأموال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه في تنظيم دولته واحياء معالمها ، وان يكن ساء ما يبيديه جعفر أحياناً من نصرة العلويين أو استنصارهم ، فان جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلاً شيعياً<sup>(٥)</sup> فكان الرشيد صابراً على ذلك يترقب الفرص .

### الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم - قبل قيام العباسيين - من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجارة لأبي مسلم أو خوفاً منه . فلما رأوا ما حل

١ - الاغانى ٧٦ ج ٢٠ . ٢ - المسعودي ١٩٥ ج ٢ .

٣ - ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ .

٤ - ابن الاثير ٧١ ج ٦ . ٥ - السيوطي ١٠ ج ٢ .

به من القتل غدرًا ، غضبوا وتعاهدوا على الأخذ بثأره ، ثم رأوا المنصور قتل بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم . ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا وإذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي الى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب ، وأخذوا يبتشون دعائهم وينشرون دعوتهم سرًا ، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقامًا من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه .

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بني امية الى بني العباس . وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد ، فسرّح اليه الفضل بن يحيى ، فاستنزل الفضل من بلاد الديلم بالحسنى ، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطة ، فكتب له أمانًا أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقًا سنية .

ثم خطر له ان يحبس خوفًا منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر - وهز ابو البخترى القاضي : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لأنه جاء على الأمان وقد نكث الرشيد الأمان ، فحدثه نفسه ان يطلقه بما له من النفوذ والدالة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه ، فتوسل الرجل اليه وقال : « اتق الله في أمري ولا تتعرض ان يكون خصمك محمد ( صلعم ) فوالله ما احدثت حدثًا ولا آويت حدثًا » فرق له جعفر وقال : « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : « وكيف اذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه الى مأمنه<sup>(١)</sup> .

### الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصاً الفضل بن الربيع ، لأنه كان يرشح

١ - ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦ .

نفسه للوزارة بعد ابيه فسبقه اليها أولئك المعجم ، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل واطهر أن جعفر انما فعله بأمره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقيه ويحدثه ثم سأل عن يحيى فقال : « هو بحاله في الحبس » فقال : « بحياتي ! » ففطن جعفر فقال : « لا وحياتك .. » ، وقص عليه امره وقال : « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد : « نعم ما فعلت ، ما عدوت ما في نفسي » . وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال في نفسه : « قتلني الله ان لم اقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بني هاشم انفسهم .

وأراد ان يغالطه لئلا يقتبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه ، فأظهر انه يريد ان يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوماً<sup>(١)</sup> فهو اما ولاء اياها تمويها او ولاء ثم خافه .

وكان في جملة = اد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى بن يحيى اخي جعفر واتهمه في أمر خراسان ، واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعاً وظهر ذلك في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلاً يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجاناً لذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الفلماني ، فأوصى الرشيد مسروراً خادمه الا يقوموا له ، ف شعر يحيى بهذا التغيير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شراً يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون في اثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار احياناً :

ما يريد الناس منا ؟      ما تنام الناس عنا ؟  
انما هم أن      يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف انصار البرامكة اذا هو فتك بهم ، فأراد ان يستطلع افكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم ، والمفنون

أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بما يحول في خاطره . فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصللي مرة : « بأي شيء يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « ما أنت وذاك ؟ وبلك ! » فأمسك<sup>(١)</sup> .

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم انفاسهم فلا يخلو ان تبدو منهم بادرة تليحاً او تصريحاً ، والوشاة يعظمونها له .

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباها وأهداهما الى جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يومياً . وكان لجعفر مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الاسبوع ، يحضره ارباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس ، يلبسون اثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففي أحد المجالس دار الكلام على ابي مسلم وبطشه ، وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر : « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لأنه لم يدركه إلا بقتل ٦٠٠٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبراً » ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم<sup>(٢)</sup> . وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد ، وافهاه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس او العلويين ، فازداد خوف الرشيد منه .

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها ( سنة ١٨٧ هـ ) كان الرشيد قادماً من الحج وقد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان ، أراد بذلك ان يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان . ف ضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم .

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد ان يتوسط في اصلاح ما بينها ، فجاء جعفر في أثناء تأهبه للخروج الى خراسان ، وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله ، فقال له : « يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار

عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده . فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يحول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال : « والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا . اما كفى اني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت امواله مالا ، وما زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبى بعدي ، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألتني شيئا من ذلك ليكون وبالا عليه ! » كأنه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه ، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد ، لأنه صار متبها عندهما .

فسمع ذلك الحديث احد جواسيس الرشيد ونقله اليه ، فصمم على الفتك به . ولعله كان ينوي القبض عليه وحبسه فقط ، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله . وأكبر الأقدام على ذلك ، فاستشار زبيدة امرأته ، وصرح بما يحول في خاطره قائلاً : « انني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي » فحرضته على سرعة الفتك به ، ويقال انها ذكرت له اموراً ارتكبها جعفر في بيت الرشيد<sup>(١)</sup> تتعلق بالعباسة اخته . فاعتزم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه ، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد ، وبعث خادمه مسروراً ليأتيه برأسه ، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من احاط بأبيه يحيى وسائر اولاده وبأخيه الفضل ليلاً ، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم ، ولم يتعرض لمحمد بن خالد لأنه كان من جملة الساعين بهم ، واسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى<sup>(٢)</sup> ، وقد اصاب جعفر من الرشيد كما اصاب بزرجهر وزير كسرى ابرويز ، اذا اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله<sup>(٣)</sup> .

فالرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم على سلطانه ، عملاً بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم ، اذا اتهم جعفر وشك فيه فقتله ، وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم ، فانها كانت مؤسسة غالباً على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق ، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى ، واذا استعطفته عفا واذا

١ - الاتليدي ١١٣ . ٢ - الاغانى ٧٤ ج ١٧ .

٣ - المسعودي ١١٩ ج ١ .

استجديته سخا ، حتى جرى خبره مجرى الامثال . أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم<sup>(١)</sup> ولا فيمن يدعو اليهم او ينصرهم .

## الأمين والمأمون

### او العرب وانقرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب اهل خراسان وتضاعفت نفقتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الأخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة ، وتربصوا يترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية - ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم ، وانما كانت حزباً سياسياً يراد به جماعة الفرس او غيرهم من انصار العلويين . فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون . والفضل اصله من مجوس خراسان ، اسلم على يد المأمون<sup>(٢)</sup> سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعاً في نصرة الفرس في خراسان ، وكان هماماً فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرماناً له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلاً ، فتوقع ان تصير الخلافة اليه فازمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يحله ويقدمه ، ولم يكن الفضل طامعاً في أقل من الوزارة - يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل واکرامه اياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا استبعد ان يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠ درهم » فاغتاز الفضل وقال : « والله ما صحبتته لأكتسب منه مالا قل او جل ، ولكنني صحبتته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »<sup>(٣)</sup> .

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق<sup>(٤)</sup> على ان يتولى الخلافة بعد اخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة ، وفي جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون ان يبقى في

١ - الفخري ١٧ . ٢ - ابن خلکان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ .

٣ - الفخري ٢٠٣ . ٤ - ابن الاثير ٦٩ ج ٦ .

بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً ، فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرأ ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وان احسن ما يصنع بك ان يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة واموالها كما تعلم ، فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » . فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع اولاً ، ثم اجاب - ولا بد لامتناعه من سبب كان يحول في خاطره ، وهو يتوقع قرب اجله ويرى لأولاده عليه رقباء<sup>(١)</sup> يحصون أنفاسه ويستطيون بقاءه .

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد امر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، واقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد ، وله عيون مع الرشيد اشداهم غيرة عليه الفضل ابن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك المعسكر ، والمأمون غائب في مرو وحرصهم على اللحاق بالأمين . فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد ، واغفلوا المهود التي اخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وقت البيعة له . ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين ان يخلع اخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل .

### الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المأمون موت ابيه ، ورجوع رجاله الى اخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرور وشاورهم في الامر ، واظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على اخيه ، ففشطوه ووعدوه خيراً . وقال له الفضل بن سهل : « انت تازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم . اصبر وانا اضمن لك الخلافة » فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أي رياسة السيف ورياسة القلم .



فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون ، لأنه انما يعمل لنفسه ووطنه وامته ، واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاضمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وابطل كل منهما اسم اخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، اصبح آلة بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة ، وولى اخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على ان يكون مقامه في بغداد . ثم اغتم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين ، المعروف بعلي الرضا . فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده ، اي ان يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطاً لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، او انه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجاباه المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، او مجازاة له للمكر به ، او انه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع<sup>(١)</sup> فبايع لملي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضر ، وكتب بذلك الى الآفاق .

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون واتباعهم ، واعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لملي المذكور ، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا ان تلك البيعة انما هي دسيسة من الفضل بن سهل ، فأنكروا ولاية اخيه الحسن بن سهل على بغداد . واقروا اخيراً على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه .

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف ، فيندم وينكت البيعة فيخلع عليه فيذهب سعيه عبثاً . وكان علي الرضا مطلعاً على ما حدث في بغداد ، وابت نفسه ان يحدث ذلك بسببه ، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدي . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال : « بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي ، كذلك اخبرني الفضل » . فقال له : « ان

الفضل قد كذبك « فأدرك المأمون دسيمة الفضل ، وانه انما نصره لهذا الغرض ، وشك فيه فحل قتله عنده ، فدرس اليه اناساً قتلوه في الحمام بسرخص مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (١) .

وفكر في بيعة علي الرضا ، فأعظم ان يرجع عنها وخاف اذا رجع ان يشور عليه اهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدرس اليه من اطعمه عنداً مسموماً فبات (٢) فذهبت الاسباب التي اغضبت اهل بغداد ، فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأمين في تلك الثورة ، وجاء المأمون ببغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعاً للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبي طالب ، اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وامرهم بلبس السواد (٣) .

فاضطرب امر الشيعة في بغداد ، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتُمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم ، لأنه كان قد ربي من حدائته بين جماعة اهل عصبية عربية يكرهون الفرس او الشيعة ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجي ، وابو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة ، الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بني أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت اقوالهم فيه ، وهم المأمون والمعتصم والواثق (٤) كما اثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا اليه الشيعة واهلها .

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ في بغضه عليا واهل بيته حتى جعله سخرية - ذكروا انه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهاً بالامام علي ، ويرقص ويقول : « قد اقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » ( يعني علياً ) والمتوكل يشرب ويضحك (٥) وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك ،

١ - ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخري ١٩٩ والاغاني ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١ .

٢ - ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخري ١٩٩ . ٣ - ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ .

٤ - ابن الاثير ٢٢ ج ٧ . ٥ - ابو الفداء ٤٠ ج ٢ .

كما سيأتي . وبذهاب امر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافه المتوكل ينقضي العصر الفارسي الاول .

### الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليتهم ورجال بطانتهم ، ولا سيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من اول دولتهم ، وخصوصاً المنصور مع اعمامه ، وابي مسلم وغيرهم ، وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل ابن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطاً من شروط نجاحها ، كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ ان يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه . فبيث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ، ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادماً الرجل وجاريته عيناً عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على اولاده او اخوته ، او يقيم ولاية العهد الرقباء على آباءهم ، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون انفاسه<sup>(١)</sup> كما تقدم .

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي ، فألزمه رجلاً ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جدياً او هزلاً<sup>(٢)</sup> وهكذا كانت سائر الخلفاء ، وخصوصاً في اواخر الدولة ، لأن التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانست من الهرم ، كما سيحي . وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو اصحاب الاخبار ، غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الأغراض - كانوا يفعلون ذلك خوفاً على سلطانهم ، فبالفوا في التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شيء إلا القدح في الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم<sup>(٣)</sup> .

١ - ابن الاثير ٨٣ ج ٦ . ٢ - الاغانى ٨٢ ج ٢٠ .

٣ - المسعودي ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .

وبمحافظةتهم على الاسرار والتكتم في اعمالهم ، اشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في ايامهم ولم يفهموا اسبابها . فنكبة البرامكة مثلاً تكن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب ، وذهبوا في اسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب او تمر او غير ذلك ، وانما قتل مسموماً بدسياسة بعض الخلفاء او القواد او ولاية العهد الى طبيبه او صاحب داره<sup>(١)</sup> .

### اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ انسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من ابوين عربيين ، فاذا كان ابوه غير عربي سموه المذرع ، وان كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت امه أمة استعبدوه ، فاذا انجب اعترفوا به ، وإلا ظل عبداً ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم .

#### ابناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرها ، وكثرت السبايا في اثناء الفتوح ، اتخذوا من النساء اظئارا ودايات ومراضع ، واقتنوا الجواري للفراش ، وكانوا في بادىء الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون ابناءهن ، وخصوصاً في الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء ، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب الناس في السراري<sup>(٢)</sup> .

على ان بني أمية ظلوا يحتقرون ابناء الاماء ، تعصباً للعرب ، على العجم ، فبلغ عبد الملك يوماً ان علي بن الحسين تزوج جارية له واعتقها ، فكتب اليه يؤنبه فأجابه علي : « ان الله رفع بالاسلام الخسيصة واتم النقيصة واكرم به من اللؤم ، فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله ( صلع ) قد تزوج أمته وامراًة عبده » ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال :

« ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » . على ان العرب اصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء ، اعتماداً على ان النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملاً بقول الشاعر :

لا تشتمن امراً من ان تكون له      ام من الروم او سوداء عجباء  
فانما أمهات القوم أوعية      مستودعات ، وللأحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الاماء الى اواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في ايام هشام بن عبد الملك غيره هشام بقوله : « انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن أمة ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت ام اسماعيل امة لام اسحق ، فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً وجعله للعرب ابا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً » <sup>(١)</sup> فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب ، استنكافاً من شدة تعصب بني أمية للعرب ، ولذلك كان الموالي اكثرهم من شيعة العلويين .

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لا يجعل للنسب الام قيمة — ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

ألم انهم ان تحملوا هجناءكم      على خيلكم يوم الرهان فتدرك  
وما يستوي المرآن : هذا ابن حرة      وهذا ابن اخرى ظهرها متشرك  
وتضعف عضداه ويقصر سوطه      وتقصّر رجلاه فلا يتحرك  
وادركه خالاته فنزعنه      الا ان عرق السوء لا بد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائي :

وما انكحونا طائعين بناتهم      ولكن خطبناها بأسيا فنا قسرا  
فما زادها فينا السباء مذلة      ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا  
ولكن خلطناها بخير نساءنا      فجاءت بهم بيضاً وجوهم زهرا

وكائن ترى فينا من ابن سبية  
ويأخذ رايات الطعان بكفه  
كريم اذا اعتز اللثم تخاله  
اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا  
فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا  
اذا ما سرى ليل الدجى قمرها بدر (١)

على ان طبيعة العمران غلبت على ما اراده الامويون من حفظ النسب العربي ، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى في الخلفاء من بني امية ، فبايعوا في اواخر دولتهم لابناء الاماء واول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن امه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى ، سبها قتيمة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد (٢) ويقال ان بني امية حظروا مبايعة بني الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن امة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده ، فلم يلبث سبعة اشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد وامه امة كردية ، فذهب ملكهم على يده .

#### الخلفاء الهجناء

اما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي ، وقد ضعفت في ايامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لا يعتدون بالأم على الاطلاق ، وكان اكثر خلفائهم من بني الاماء من ابراهيم الامام فيما بعده ، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكرد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك اسماء بعض خلفاء بني العباس من ابناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس امه	اسم الخليفة	جنس امه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشد	حرشية	المستعين بالله	صقلبية
ابراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الأخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي أمه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الأموي أمه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الإسلام ، فان محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء .

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء ، فكيف في سائر طبقات الناس ؟ فالنسب العربي لم يكن خالصاً إلا في الجاهلية وصدر الإسلام الى اواسط الدولة الأموية ، وظل بعد ذلك محفوظاً من حيث الآباء فقط ، أما من حيث الأمهات فانه اختلط اختلاطاً عظيماً . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه ، وربما كان من حيث الاخلاق اقرب الى أمه مما الى أبيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم العربي الخالص ، الا في البادية او حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلاً عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات أهلها .

فالعرب الحضري في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الإسلام فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلاً يعدون من العرب ، وهم في الحقيقة اختلاط من العرب والترك والديلم والجر كس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادئ الرأي غريباً ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان اولاده مولدين ، فاذا توالى عليهم الاجيال سموا عرباً .



## العصر التركي الأول



## العصر التركي الأول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تساطع الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية ، وهم الاجناد ، تميزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس ، وهم الوزراء . وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر ، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره ، والآخر في اوائله .

### الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا . وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم « روملس » فيعتقدون ان برترينا اول قوادهم رضع من ثديي الذئبة ، فلما شب قادهم في الحروب والغزو نجحهم وانعامهم ، لانهم اهل بادية ، فحاربوا الامم المجاورة وخصوصاً سكان الصين . وخلف برترينا غير واحد من ابنائه ، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فأحب بعضهم ان يبني المدن فمنعه بعض امرائه ، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله : « نحن يا مولاي اقل من عشر اهل الصين عدداً وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا ، اذا رأينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا وإلا رجعنا الى البادية ، وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص » ، فأعجبه رأي الرجل وعدل عن التحضر . وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام ، فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم .

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام ، يزدادون قوة وعدداً حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠.٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة ، وظفروا في معظم حروبهم ، وقد عقدوا مع الرومان في ايام جوستينيان صلحاً ، وظلت العلاقات حسنة بينهم وبين خلفائه ، وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفي ايام خاقان ديزابول

ارسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفدأ عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليه ، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن .

### الأتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في انحاء العالم ، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك ، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في ايام بني أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق ، وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . فضلاً عن كان يقع منهم في ايدي المسلمين في اثناء الحرب بالاسر او السبي ويعبرون عنهم بالماليك ، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم .

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي ، وقلموا اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما اشار الى معرفة قتلش علم النجوم فقال : « ومن العجب ان قتلش هذا كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركي ويعلم غيره من علوم القوم » . ويعرف الاتراك في تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب .

## الجند التركي في الدولة العباسية

### المعتصم والأتراك

اول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لا شأن لها في الدولة ، وانما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلبت الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا في الدولة ، كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتوح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه ، وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لأنهم اخواله ، كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاوهم بعد قتل اخيه الامين ، حتى اصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم واخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى ان يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بدادة وبطش ، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ، او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود<sup>(١)</sup> . واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى قرغانة واشروسنة .

فلما افضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثير ، وربما اردوا الواحد بعد الواحد قتيلاً على قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : « يا ابا اسحق ! » فاراد الجند ضربه فمنعهم وقال : « يا شيخ مالك ؟ » قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم يركباً الى مثل ذلك اليوم . فخرج فصلى

بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لاجناده ، حتى اتى سامرا فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيها الخطط واقطع اترাকে القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم ، وافرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبتت المياه ، وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصصوها ، وجهازوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس ، فكثرت العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى ايام المعتمد ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو اول من عاد اليها منذ بنيت سامرا (١) .

وكان المعتصم ينظم المالك فرقا عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند في ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المالك الاتراك بالشراء او المهاداة ، ولكنه رغب امراء الاتراك واولاد ملوكهم في القدوم اليه والاقامة في ظله . ومن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلكين من اولاد ملوك فرغانة ، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من ابناء الامراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سر من رأى « او سامرا » اقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (٢) .

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين اساموا ، وفيهم من اظهر ذلك ترفلاً للخلفاء كالافشين ، وكان مجوسياً واظهر الاسلام طمعاً في الكسب من الغنائم بالحروب .

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء اترাকে على فطرتهم ، ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف مجدهم ، فابتاع لهم الجواري التركيات فأزوجهن منهن ومنعهن ان يتزوجوا او يصاهرُوا احداً من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، واجرى للجواري ارزاقاً قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها (٣) .

١ - ابن الاثير ١٨١ ج ٧ . ٢ - ابن خلكان ٤١ ج ٢ .

٣ - اليعقوبي : تقويم البلدان ٣٣ .

## الجند التركي ومصالح الدولة

فاشند ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة ، وخصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابل الحرمي وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد ان كانت امور الدولة في قبضة الوزراء الفرس اصبحت في ايدي القواد الاتراك ، او صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء في اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال ، كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيحيي .

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب واخذت في التقهقر ، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة ، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند ( الاتراك ) وهؤلاء لا يعملون عملاً إلا بالمال ، فمن استطاع استخدام الجند ملك ، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فأصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم ، فأصبح البطش والفتك اكبر عوامل السيادة .

وكانت جنود الدولة العباسية في اوائلها العرب من مضر واليمن ، والفرس - ونريد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقاً الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل في ذلك اهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها - وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاماً من بني أمية او رغبة في الملك ، ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق ، وانما سموا الموالى اشارة الى انهم ليسوا عرباً على اصطلاح ذلك العصر . واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة ، فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء ، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي .

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب او الشراء ، اصبح الجند العباسي اكثره من المماليك الاتراك واخذ الخلفاء بعد الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس ، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام . فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالى الفرس - واكثرهم من لشيعة - الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منه منذ جاهر

الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، واولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم .

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في أيام المتوكل ، لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم اغرام ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يحزّه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالا عظيما . وما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كيف يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة . . » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . . » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال : « مهما اراد الاتراك . . » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك (١) .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، واقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده (٢) . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس (٣) وبلغ من فقر القاهرة بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب (٤) - فلا غرو اذا اصبحوا آلة في ايدي الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كانت الخليفة مع الحزب الغالب (٥) وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم (٦) .

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفاء يطلبون الارتزاق بالجنديّة ، ورغبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاة الخيمة ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس ، فعند الذين اسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠٠٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين الف رأس غنم (٧) .

١ - الفخري ٢٢٠ . ٢ - ابن الاثير ٧٧ ج ٧ . ٣ - ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ .

٤ - ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ . ٥ - ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ .

٦ - ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ . ٧ - ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩ .

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian او هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء او بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالي الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى ابي الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالهما . وكثيراً ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ او على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في ايام بني بويه توالى الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء او الموالي . وما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الاتراك في جندها ، سواء كانت شيعية او سنية . فكانوا يحملون الى بغداد او غيرها من المدائن الاسلامية تبعاً ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً .

وكان للأمرء والقواد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلاً عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم احدثا فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير او السلطان ، فاذا اعجبه اشتراه وانزله في الطبقة التي يماثلها من ممالكه ، وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ اخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي الفشاب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمي الفشاب او اللعب بالرمح لا يحسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم . فاذا اتقن فنون الحرب تنقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامرء ، ولا يصل الى هذه الرتبة إلا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب<sup>(١)</sup> .

على ان اهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا جعلوا بلداً خافهم اهلها ، اذ كثيراً ما كانوا ينزلون في دور الناس<sup>(٢)</sup> ويتعرضون للحرم والغلمان ، فاصبح عامة بغداد يكرهونهم كرهاً شديداً .

## الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . واول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصيرهم مخلوقه ليله ونهاره وقوام طعامه وشرا به وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الخيشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لمحايتة او سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف . ومن اقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالفلمن ويشتمون بعضهم قولهم :

عزيبا ما تفادى بالنفوس	الا يا ايها المثنوى بطوس
يحمل منهم شؤم البسوس	لقد ابقيت للخصيان هقلا
وفي بدر فيا لك من جليس	فاما نوفل فالشأن فيه
اذا ذكروا بذى سهم خسيس	وما للمعصمي شيء لديه
لديه عند تخرق الكؤوس	وما حسن الصغير اخس حالا
يعاقر فيه شرب الخندريس	لهم من عمره شطر وشطر
سوى التقطيب والوجه العبوس	وما للغانيات لديه حظ
فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟	اذا كان الرئيس كذا سقيا
لعز على المقيم بدار طوس <sup>(١)</sup>	فلو علم المقيم بدار طوس

وكان لهوهم من أعظم أسباب سقوطه .

### سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاثراك وعلت كلمتهم في أيام المتوكل فما بعده ، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم او يقتلونهم ، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسونهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم<sup>(٢)</sup>



خوفاً من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم او قتلهم . ولا عشير لهم في اثناء الحجر إلا الخدم والخصيان ، فألفوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوا من غيرتهم عليهم ، وخصوصاً الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لاولادهم واهلهم . فأصبح ولاية العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاکرام ، التماساً لخصائيتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في امورهم ، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى اصبح الاتراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند او الامارة على الاقاليم .

### فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثرت الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومي والتركي والحشبي والارمني والسندي والبربري والصقلي ، في فرق اشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري .

والمراد في الاصل بالخدم والغلمان او العبيد او المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء او الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل ايام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . واثانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار او اقل او اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمئة غلام او الف او اكثر . فغلمان بغا الشرايبي احد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠ .

اما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقاً تعرف بأسماء خاصة ، كفرق الغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الغلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور ، وأما الغلمان فهم مختصون بالامير او الخليفة لخدمته الشخصية او حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص وقد تتحول فرق الغلمان الى فرق من الجند ، او يعملون معاً في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد

يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على اعدائه مما لا ضابط له . وكثيراً ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة او الامير حتى تغلبه على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء احياناً الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق اخرى<sup>(١)</sup> .

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم ايضاً واكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يستخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق . يا عاق يا طويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، واصاب الناس في ايام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بمحاربة من العامة ضربوا بالسياط<sup>(٢)</sup> على ان الخصيان كثيراً ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء .

### القواد والوزراء من الخدم

واول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خاد من الروم والسودان<sup>(٣)</sup> وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم ، فقدمه وكان يستشير في اموره ، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شيء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحلوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه .

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم او احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاثراك . ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لأنه كان شائعاً في معظم الدول القديمة ،

فاسطفان المعتق ( المولى ) استبد بشئون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل ، وكذلك سليمان الخصي وغيرهما .

أما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة ، تولوا القيادة او الامارة او بيت المال او غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وابلى في خدمة مولاه بلاء حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ<sup>(١)</sup> وبحكم أصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهي اعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني<sup>(٢)</sup> وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكاً رومياً ، وبلغ من تعظيمهم امره واكرامه انه لما اقلع عن المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترجل اولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بين يديه<sup>(٣)</sup> وكان كافور الاخشيدي وهو خصي اسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس الصقلي الخصي اصله خادماً مؤنس الخادم تقدم مع ذلك في أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة . وبرزوان الاستاذ كان خصياً ابيض ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزير بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو اول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية<sup>(٤)</sup> وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الايوبي بلغ ارقى مناصب الحكومة في الدولة الايوبية . وعמיד الملك احد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام ايام بني طولون . ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادماً خصياً ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني أمية بالاندلس ، وتقدم الخصيان في دوا السلاجقة وبني بويه وسائر دول الاسلام في تلك العصور .

### تأثير النساء في سياسة الدولة

للرأة تأثير في اعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفي اي عصر كان واية امة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للرأة شأن كبير في سياستها ، حتى في الاسلام مع شيوع الطعن في آرائهن

١ - ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ . ٢ - ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ .

٣ - المقرئ ٣٧٧ ج ١ . ٤ - ابن الاثير ٩٤ ج ٩ .

وقولهم ان مشاورتهم في الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد : وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهم وادخلهم في الامور. قال المنصور في وصيته لابنه المهدي : « اياك ان تدخل النساء في امرك » ، وقال النخعي : « من اقترب الساعة طاعة النساء » ، وقال ابو بكر : « ذل من اسند امره الى امرأة » ، ولعلي اقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد اثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيراً عظيماً .

### امهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الام في الابناء ، وقد بينا ذلك في باب الأمومة ، ويعظم اثره على الخصوص في تأثير امهات الخلفاء على اولادهم ، ولا سيما في اواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم .

على ان العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء ، فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً امهات الخلفاء ، واول من استبد منهن الخيزران ام الهادي والرشيد ، وهي قرشية وكانت نفوذ وقوة يخافها اولادها ، ومن خالفها منهم او اعترضها قتلته . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهي وهو يطاوعها ، فلما قولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه ، وان تسلك به مسلك ابيه ، فلم يمض اربعة اشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فسباه ذلك ، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سيلاً فقالت : « لا بد من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادي وقال : « ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت انه صاحبها والله لا اقصيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسألك حاجة » ، قال : « لا ابالي » وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك . . والله انا نفى من قرابتي من رسول الله ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي او خاصتي لاضررب عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي ! » فانصرفت وهي لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « ايما خير : انا ام انتم ، وامي أم امهاتكم ؟ » ، قالوا : « بل انت وامك خير » قال « فأياكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال : فعلت أم فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون امي فتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت انه يريد خلع

أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر امرت بعض جوارها بقتله بالغم والجلوس على وجهه<sup>(١)</sup> فقتلته .

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم ، أي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر امهات الخلفاء<sup>(٢)</sup> .

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر - وهي تركية - سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها ، وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها<sup>(٣)</sup> .

ويقال نحو ذلك في ام المستعين بالله المتوفي سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلبية الاصل ، فأطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك هما أتامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة<sup>(٤)</sup> .

على ان تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المقتدر ، لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانية ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من اصهارها ، واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخذ منها اموالاً عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة ، لأن اكثر اولئك النساء من غير العرب .

١ - ابن الاثير ٤١ ج ٦ . ٢ - الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٣ - تاريخ الوزراء ٦٧ . ٤ - ابن الاثير ٤٧ ج ٧ .

## فساد الأحكام في الدولة العباسية

### التنازع على النفوذ

وبلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأولين ، وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقاً والمحيط الاطلسي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالاً وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً . وقد بينا اقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني . فلما نكس البرامكة ثم استبد الجند التركي بالحكومة اصبحت الاحكام فوضى ، وخصوصاً بعد المتوكل ، لأنهم اقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرائهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشئون الدولة ، وهم اصحابها المسؤولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض ارباب النفوذ في بلاطهم ، من الوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة او اشدهم دهاء ومكراً يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال ، اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، او لعل بعض اعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلاً مهانئاً . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد او بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص .

ويقال بالاجمال ان النفوذ اصبحت ضائعاً بين الوزراء والقواد ، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لأنفسهم ، غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله : « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » (١) .

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا امواله ، وقد فصلنا ذلك في باب المصادرة في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى انشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة (١) فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة .

### انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالي فوجدته ١٠ ملايين دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى ( ابن الجصاص ) فكان مثل ذلك » فكانه لم يخسر شيئاً ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذ صودر احداهم على مال لم يكن في وسعه اداؤه كله معجلاً اجلوه بالباقي ، وساعدوه على تحصيله او جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التمثل في جمع الاموال من الناس (٢) .

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها ، حتى اصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها . وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على ايام الراضى بالله ، نشرها بنصها حرفياً انموذجاً لأنواع المصادرات ومقاديرها (٣) .

### دينار

من احمد بن محمد البسطامي عن النصف مما بقي عليه من مصادراته لسنة ٣٠٠ هـ	٧٣٠٠٠
من علي بن الحسين الباذينى الكاتب عما تولاه بالموصل .	١١٠٠٠
من محمد بن عبدالله الشافعي عما تصرف فيه لعلي بن عيسى .	٣٠٠٠٠
من محمد بن علي بن مقله عما تصرف فيه	٨٠٠٠٠

١ - تاريخ الوزراء ٣٠٦ . ٢ - الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ .

٣ - تاريخ الوزراء ٢٢٤ .

دينار

من محمد بن الحسين المعروف بأبي طاهر	١٠٠ر٠٠٠
من الحسن بن ابي عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلي بن عيسى	١٣ر٠٠٠
ومنه ايضاً عن نفسه	٤ر٠٠٠
من ابراهيم بن احمد المادرائي	٢٠ر٠٠٠
من عبد الواحد بن عبدالله بقية مصادرة والده	٣٦ر٣٦٠
من احمد بن يحيى عن مصلحة وجبت	١٠ر٠٠٠
من ابراهيم بن احمد الجهبذ عن صلحه	٦ر٠٠٠
من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وابراهيم المادرائي	٤ر٠٠٠
من عبد الوهاب بن احمد بن ما شاء الله عن صلحه	٤٠ر٠٠٠
من محمد بن عبدالله بن الحرث عن صلحه	١٠ر٠٠٠
من محمد بن احمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها	٢٥٠ر٠٠٠
من ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه	١٥ر٠٠٠
من ابي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد	٣ر٠٠٠
من علي بن محمد بن الحواري وقتل	٧ر٠٠٠
من هرون بن احمد الهمذاني	٧ر٠٠٠
من عبدالله بن زيد بن ابراهيم	٢ر٠٠٠
من عبدالله بن زيد صلحاً عن نفسه	١٥ر٠٠٠
من علي بن مأمون الاسكافي وقتل	٦٠ر٠٠٠
من يحيى بن عبدالله عما تصرف فيه مع حامد	٧٠ر٠٠٠
من حامد بن عباس وقتل	١٣٠٠ر٠٠٠
من محمد بن حمدون الواسطي	١٥٠ر٠٠٠
من علي بن عيسى	٤٢ر٠٠٠
من ابراهيم جهبذ حامد بن عباس	١٠ر٠٠٠
من الحسن المادرائي	١٢٠٠ر٠٠٠
ومنه ايضاً	١ر٠٠٠ر٠٠٠
من محمد المادرائي	١ر٠٠٠ر٠٠٠



دينار

ومنه ايضاً بخط آخر	١٠ر٠٠٠
من ابي الفضل محمد بن احمد بن بسطام	٢٠ر٠٠٠
من علي بن الحسن الباذيبي صلحاً عما تصرف فيه بالموصل وقتل	٥٠٠ر٠٠٠
من أبي عمر بن الصباح عن ضمانه الباقي من مصادرة ابي ياسر	١٠٠ر٠٠٠
من عبدالله بن احمد اليعقوبي	١٠٠ر٠٠٠
من الحسن بن ابراهيم الخرائطي صلحاً عما اقتطعه من مال الرئيس	١٠٠ر٠٠٠
من الحسين بن علي بن نصير	١٠٠ر٠٠٠
من علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر	٢ر٠٠٠
من ابي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى	١٠ر٠٠٠
من الحسين بن سعد القطري	٢٣٠ر٠٠٠
من محمد بن احمد . .	١ر٥٠٠ر٠٠٠
من أبي الحسن بن بسطام	٣ر٠٠٠ر٠٠٠
من احمد بن محمد بن حامد بن عباس.	٥٠ر٠٠٠
من سليمان بن الحسن بن مخلد	٣٣٠ر٠٠٠

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاماً او عامين ، ثم يعزل او يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير ، فضلاً عن الضياع والمبايع ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من اسباب المظالم . وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن اغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقاني وزير المقتدر بالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحد رشوة . واذا لم يكن للعامل او الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلاً واجل البعض الآخر الى مدة معينة او غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه او يرون فيه غرابة او ظلماً .

والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مديناً ببعضها يهون عليه ابتزاز اموال الرعية — او هو يطلب الولاية لهذه الغاية — فيأخذ العمال في حشد الاموال اما بالتلاعب في

جباية الحكومة ، فينفقون ديناراً في بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير ، او باستخراج اموال الرعية بالرشوة ، او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق في المدن<sup>(١)</sup> او بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون ، واذا تكلم الاكار ( الفلاح ) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه<sup>(٢)</sup> وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها .

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل او الوزير او غيره من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج اداه صاحبها الاول ، مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكيها في ملكيتها<sup>(٣)</sup> فيضطر المالك الى دفع الخراج اعواماً ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضي النفوذ اليهم من اهل العدالة او يتهدي الى وساطة او حيلة .

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من اموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفاً او مكرراً ، على انهم قد يرون لهم نفعاً من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه لاصحابها على ان يخدموهم في مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيراً جداً . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما<sup>(٤)</sup> ، وكثيراً ما كانوا يتركون امثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة او الدالة او النفوذ عند الخليفة او غيره .

### الجاسوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير او من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة او غيرهم مالا على وجه القرض ، على ان يسبب لهم عوضه من اهل النواحي<sup>(٥)</sup> فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق اهل الاسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضائق ابواب الرزق على الناس ، واصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة في اختلاس المال سرّاً او جهراً استخدمها ، وكثر العيارون والشطار في المدن ، وتعدد

١ - ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ . ٢ - تاريخ الوزراء ٩٢ .

٣ - الاغانى ٤٧ ج ٢٠ . ٤ - تاريخ الوزراء ٩٤ . ٥ - تاريخ الوزراء ٢٦٢ .

٣ - تاريخ التمدن الاسلامي .

للصوص في القرى ، وفيهم جماعة اصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء او القواد في ارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم اموالهم وامتنعتهم ، واذا عوتبوا اوحكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار يأخذون اموالها باعتبار انها حق لهم ، لأن أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبست المال وقد منعوها وتجردوا فقرمت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة ، والصوص في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال - وان كرم التجار اخذها - كان ذلك لهم مباحاً لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا<sup>(١)</sup> لأن الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم اهلكت في واسط الدولة العباسية فاتخذ الصوص ذلك حجة لسلب اموال التجار .

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالي وغلاء الاسعار في المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجاء النوبة ، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . واصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم ، فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة او الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يخلعون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم ، واكثر ما تكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم ، او فيمن يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة او الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت او ذهبت الحاجة اليها احرقوها<sup>(٢)</sup> .

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال في الولايات ان يحتزوا من الاستبداد في ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون .

## تفرق المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والأتراك ، و بين الوزراء والاجناد ، او بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما اصابهم من التضييق والاحتقار ، هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بحياة اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عز ، مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لأنه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها ، وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء او اختلال شؤون الدولة فخالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراة ، مثل تواليهم في التقلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك او السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ، فأنشأوا الامارات الصفري ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكراة . فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . اما العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني .



## الدول الفارسيّة في ظلّ العباسيين

### الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاثراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا ايديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم .

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء ما زالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ الطاهرية	خراسان	٢٠٥ - ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢ الصفارية	فارس	٢٥٤ - ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣ السامانية	ما وراء النهر	٢٦١ - ٣٨٩	نصر بن أحمد الساماني
٤ الساجية	اذربيجان	٢٦٦ - ٣١٨	يوسف بن أبي الساج
٥ الزيارية	جرجان	٣١٦ - ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، وقالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصره العلويين من ان يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا - كما ترى في الجدول - حتى قامت دولة آل بويه ، وهي اكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية .

## دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك ايام الرشيد ، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه في اواخر القرن الثالث فأجابوه .

وجد آل بويه الاقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه ابو شجاع ، كان له ثلاثة اولاد : علي ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، واحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم اولاده في الجندية لأنها كانت يومئذ باباً من ابواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ، ثم اتسعت احواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ان يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد ، فأجابه الراضي وبعث اليه بالخلعة . واخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدوا مع اخيهما الثالث معز الدولة في شيراز ، وساروا غرباً حتى اتوا بغداد في ايام المستكفي سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم بالألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة امير الامراء ، واستبدوا بالملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها واضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد . ولما افضت امارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو اول من خطب بهذا اللقب في الاسلام . وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ .



## الدول التركبة في ظل العباسيين

### الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهاهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس . واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها واسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ - ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ - ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣ الاخشيدي	مصر	٤٢٣ - ٣٥٨	محمد الاخشيدي
٤ الغزنوية	افغانستان والهند	٣٥١ - ٥٨٢	البتيكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم ، أي من الامارة الى السلطنة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام ، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناسر الاسلام فيها .

### الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الإمارات نشأت فروعاً للدولة العباسية ، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها .

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر ، عظم أمر الشعة

في العالم الاسلامي وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس ، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق ، فجاءت في حال الحاجة اليها ، لانها لم ت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها ( السنة ) بعد أن كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت ان تستولي على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي .

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم انه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاسلامي تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب ، والثالثة دولة بني امية في الاندلس . فشان الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها ، لان هذه أمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدي البويهيين وغيرهم من الشيعة . والدولة الايلكية نشأت مستقلة ايضاً ، لكنها قلما أثرت في المملكة الاسلامية .

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام ، وفي أيامهم تكاثر نزوح الأتراك الى المملكة الاسلامية في فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق في ظل ابناء بلدتهم ، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الاسلامية ، بأرقى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ونظام الملك فارسي الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستات باسم سلطانه ملك شاه .



والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها ن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع أقوى منها جميعاً . واليك الدول السلجوقية وممدار حكمها :

- ١ - السلاجقة العظام حكموا من سنة ٤٢٩ - ٥٥٢ هـ
- ٢ - سلاجقة كرمان » » » ٤٣٣ - ٥٨٣ هـ
- ٣ - سلاجقة الشام » » » ٤٨٧ - ٥١١ هـ
- ٤ - سلاجقة العراق وكرديستان » » » ٥١١ - ٥٩٠ هـ
- ٥ - سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى) » » » ٤٧٠ - ٥٧٠ هـ

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام .

#### انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم أتابك ، وهو لفظ تركي معناه « الاب الامير » ، واستعملوه أولاً بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، الا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة ، حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع - واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

- ١ - الدولة البورية في دمشق من سنة ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ
- ٢ - الزنكية » الجزيرة والشام » ٥٢١ - ٦٤٨ هـ
- ٣ - البكتيجينية » اربلاء وغيرها » ٥٣٩ - ٦٣٠ هـ
- ٤ - الارتقية » ديار بكر وماردين » ٤٩٥ - ٧١٢ هـ
- ٥ - دولة الشاهات » أرمينيا » ٤٩٣ - ٦٠٤ هـ
- ٦ - أتابكة أذربيجان » أذربيجان » ٥٣١ - ٦٢٢ هـ
- ٧ - الدولة السلغرية » فارس » ٥٤٣ - ٦٨٦ هـ
- ٨ - الهزارسية » لورستان » ٥٤٣ - ٧٤٠ هـ
- ٩ - الخوارزمية » خوارزم » ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ
- ١٠ - القطلغية » كرمان » ٦١٩ - ٧٠٣ هـ

وما زالت هذه الممالك في حوزة الاتابكة وغيرهم من ممالك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها .

### سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقي الذي ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الايام . على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع اسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

اسم العائلة	اسم الامارة
آل كراسي	١ - ميسيا
» حميد	٢ - بيسيديا
» كرميان	٣ - فريجيا
» تাকে	٤ - ليسيا
» سروخان وأيدين	٥ - ليديا
» منتشا	٦ - كاريا
» قزل احمدلي	٧ - بفلاغونيا
» قرمان <sup>(١)</sup>	٨ - ليكونيا

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة .

## الدول الكردية في ظل العباسيين

### الدول الصغرى

الاكراد قوم اشداء واكثرهم اهل بادية وخشونة وجفاء، يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر ويطون ، وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التي دانت للإسلام في ابان التمدن الاسلامي وقد ظلوا اهل ظمن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كملوصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن .

ونظراً لتمسكهم بالبداءة والحيثوية لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الا قليلاً ، فلم ينبغ فيهم احد من رجال الامارة المستقلة او اهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . واول من انشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنويه بن حسين البرزكاني ، زعيم بعض قبائل الاكراد في كردستان ، في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور (أو الدينور) وهذان وتهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ - ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد ابو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ .

### الدولة الايوبية :

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ - ٦٤٨ هـ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلاً وسياسة وبسالة وتديباً ، انشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر

وباع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا واثقذ بيت المقدس من ايديهم ، ومآثره اشهر من ان تذكر . وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته واولاده واولاد اخوته ، ولذلك لم يطل حكمها . ففلبهم على معظمها بماليكهم الاتراك ، كما غلب الاثابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلطين الممالك كما سيجيء .

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام قد أثر في أمم المشرق تأثيراً خاصاً وساقها الى التمدن تدريجاً ، فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فأول من اسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهم اولاً الفرس وهم اقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا اسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم اسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم اقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك اقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ما كادوا يحتكون بالعالم الاسلامي حتى اخلدوا الى النظام وانشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب ، خصوصاً قبائل البربر في شمالي افريقيا كما تقدم .



# الخِلافة والسُّلطة

او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في امور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيه وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم. وكان اذا ولى احد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم امور الرعية ، فبعت في السنة الثالثة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهم كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرهم الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » .

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لأن الأمير كثيراً ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معاً ، كما تولاهما يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبد الملك<sup>(١)</sup> ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في النبي ( صلعم ) سياسياً ودينياً تفرعت في ايام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن ( حوالي سنة ١٩١٠ ) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا .

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي ( صلعم ) وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكانوا يتولون امور المسلمين السياسية ايضاً لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها ، كإدارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ، ويدخل في ذلك ولاية الأعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، أي ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهي الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد

جاز للرياسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسية، او تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة، كما حدث في النصرانية وغيرها .

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية ، لأن النصرانية انتشرت اولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . وأما الاسلام فانه ظهر اولاً في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لأن اقدم اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وامراءهم ، نشروا الاسلام في الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء في السلطة الدينية ، كان منصب الخلافة من اكبر اسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام ، فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى الآن .

على ان اهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلاً بين الخلافة والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها اهل المطامع بالدهاء والقوة ، خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك ، لكنهم استنكفوا من ان يسموه « خليفة » او يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكاً » ، وهو يأبى الا ان يجمع الرياستين لعله ان الرياسة الدينية وحدها لا تفيده شيئاً — ذكروا ان سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد ان استقر الامر له وقال : « السلام عليك ايها الملك » فضحك معاوية وقال : « ما عليك لو قلت يا امير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب انى وليتها بما وليتها به » .

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ، ويعتقدون ان بني امية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسياف ثم الى الملك البحث .

### الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين او ما يقوم مقامه . فبا من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكته إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع البطاميين ، بأن تجعل للوكها مزية على سائر الناس . واذا اريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى ، وهي افضل الحكومات واطولها

عمراً ، وإلا فإنها تتحل سريعا ، ويكفي لانحلالها ان يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه او قواده . واذا تدبرت تاريخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها - اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في اثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك والكرد والجرس ، كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ، ولم تطل اعمارها رغم استقواها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويين في الاندلس ، مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول الاعجمية رأيت اطولها عمراً واوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بين السلطتين وهي الدولة العثمانية . وبنو أمية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على ازمة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سيلا ، فانهم انما حكموا الناس وايدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوقفوا الى اعوان عرفوا ان العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا مهمهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا : « خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله في حاجته » كما تقدم - والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه ، واما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني أمية من الشكوك .

فلما افضت الخلافة الى بني العباس ، وهم من بني هاشم ومن اولى الناس بالخلافة ، كان المسلمون اطوع لهم مما لبني أمية ، واعتقدوا ان خلافتهم تبقى ابد الدهر حتى يأتي السيد المسيح<sup>(١)</sup> وغرس في اذهان الناس بتوالي الازمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات<sup>(٢)</sup> .

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفضيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم في عصره ، فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : « فكأنه بعد الرسول رسول »<sup>(٣)</sup> فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الاضمحلال ، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي اولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟

واذ شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر ، فلا غرو اذا سموا الخليفة في ايام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه »<sup>(١)</sup> او قالوا قول ابن هاني للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شئت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار<sup>(٢)</sup>

### الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس ، والاصل في هذا التقديس انما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي ، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر - ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، فهو امير الناس في السلم ، وقائدهم في الحرب ، وامامهم في الصلاة وهو قاضيهم وفقهيهم كما كان النبي (صلم) في اول الاسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران ، عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه ، والقاضي نائبه في القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية ، وكذلك في المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية ، فهو يفتقر ايضا الى الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقرّبون اهل العلم ولا سيما في اوائل الاسلام ( وهم يومئذ الحفاظ او القراء ) وكان اليهم المرجع في حل المشكلات الدينية او القضائية او الفقهية ، وهي اساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلامية . ونظرا لتمسك العامة بالدين على الاجمال كانت للفقهاء تأثير شديد في الدولة ، فلا يقطع الناس بأمر هام إلا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء ، فاذا انكر الفقهاء بيعة احدهم انكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلّون العلماء ويقرّبونهم ويعولون على مشورتهم في عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلبسها غش ولا دهاء ، فاذا نهوا الخليفة او الامير عن عمل انتهى واخذ بنصيحتهم .



فلما طمع بنو أمية في الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش ، كان في جملة ما املوه من قواعد الراشدين الاخذ بأقوال اهل العلم ، لأنهم لو اطاعوهم ما تيسر لهم الملك . ففاسى العلماء في اوائل دولة الامويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للاقتناء بما يرضي اهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق ، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم — بدأوا بذلك من ايام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية ، وقد اخذوا يهدون السبيل لسلطانهم يجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية ابن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة اهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك . وقد فصلناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

فلما استتب الأمر لبني أمية حبست الأفكار وتقيدت الألسنة ، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملاً الا بمشورة فقهاء المدينة ، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم أيام بني أمية . فلما تسلط العباسيون واطهروا انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ، ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء وأكرمهم فعادوا الى جرأتهم في خطاب من يأنسون منه اصفاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف — وقد أشرنا اليها أيضاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب — وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه ، فكتب اليه سفيان كتاباً قال فيه : « اما بعد ، فاني كتبت اليك أعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حق كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما أنا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون ! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضي بذلك <sup>١</sup> حجة القرآن وأهل العلم ( يعني العاملين ) ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ، أم رضي <sup>٢</sup> بذلك خلق من رعيتك ؟ » (١)

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه<sup>(١)</sup> وكان اكثر الخلفاء الأولين من بني العباس اذا لقوا فقيهاً أو زاهداً طلبوا اليه ان يعظمهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشد والمعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة .

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامه ، مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعاً ، لأن عامة المسلمين ينقادون الى فقهاءهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصاري الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب او لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين ، لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين .

وكان الخلفاء يذعنون للعامه باسم الدين أيضاً . حتى انهم كثيراً ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفاً لما في نفوسهم أو مناقضاً للواقع ، كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي (صلعم) فقبلها المهدي منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وانما خاف إن كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور في الدين<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الأموي مع اشتهاره بالخلاعة وانتهاك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بشياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلي فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب<sup>(٣)</sup> .

١ - ابن خلكان ٢١٠ ج ١ . ٢ - كتاب الاذكياء ٩ . ٣ - الاغاني ١٤١ ج ٦ .

## الدول الاسلامية والخلافة

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسية لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليداً او عهداً بولاية ذلك البلد ، او ان يلقبه ويخلع عليه ، واذا أبى الخليفة ان يحسبه غضب وعد ذلك تحقيراً له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته .

فالامارات او الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية ، في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان أصحابها يخطبون للخليفة ببغداد ويبعثون اليه بال معين في العام ، مع انهم في أمن من سطوته ، وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شأن الأجناد الاتراك وامرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخبلاً لا يحسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستلح العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم ، مثل آل بويه وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه واكرموا ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهية ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعي على غير مذهب الخليفة . وكان يغالي في التشيع ويعتقد ان العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقها ، فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه واعاد من امر الخلافة ما قد نسي ، وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثر من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام<sup>(١)</sup> .

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد ، فيضطر الى استرضائهم لأن خروجهم يفضب العامة<sup>(٢)</sup> ، ويجرهم على خلع الطاعة ، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ - ولذلك

لم يكن من سبيل الى نزع سلطته او الاعتراض عليها الا من وجه ديني ، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف او يعلقون في اعناقهم المصاحف<sup>(١)</sup> او نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا اراد احد الخلفاء ان يصلح ما بينه وبين العامة اصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون اوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد<sup>(٢)</sup> ولما رأى ابو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال : « أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية يد من خليفة تباعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته إلا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعه خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله انه خطب يجمع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غاية الاضمحلال والضعف ، وهو في غنى عن بيعتها ، ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايدوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وقتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم في ايجاد خليفة يبايعونه<sup>(٣)</sup> ولو اعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به<sup>(٤)</sup> على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد ، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا في احترامهم واكرامهم<sup>(٥)</sup> مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئا ، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ، ويطلبون التأييد منه او المنشور لأثبات سلطتهم على

١ - ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ .  
٢ - كتاب الاذكياء ٢٧ .  
٣ - ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ .  
٤ - ابن الاثير ١١٩ ج ٩ .  
٥ - المقرئ ٣٠١ ج ٢ .

يد السلاطين المماليك<sup>(١)</sup> فما الذي بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في اذهان العامة ؟ ولا ننكر ان بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

### الخلافة في غير قریش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والأتراك والأكراد والبربر والجرکس وغيرهم ، مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني ، بعد تضعضه بفتوح المغول ، ولا ادعاها أحد من العرب غير قریش . وأول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني .

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن ، من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا اذا طمعوا في السيادة الدينيّة أو الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسباً في قریش ، كما فعل أبو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة ، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس<sup>(٢)</sup> .

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم في أواخر العصر العباسي ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوا بخلافة أخرى . على ان بعضهم طمع في النفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفي سنة ٣٧٢ هـ . فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ان تلب ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده ، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب<sup>(٣)</sup> ولم يوفق الى مراده .

لما أفضت السلطة الى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ، ولكن على ان يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا

١ - ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨ .

٢ - الفخري ١٢٣ .

٣ - ابن خلدون ٥٤٣ ج ٣ .

الطلب أيما انزعاج ، اذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء الا أكفأهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ في استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان الا ان يحجب وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة الى القبول - فعمد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يحجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب<sup>(١)</sup> اذ يكفي من الخليفة تنازلا أن يتزوج بنات الملوك لا أن يزوجه بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرل بك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية ، قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الحمار عن وجهها ولا قاءت له ، وظل أياما يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لاتمام ما أراده لأنه توفي في تلك السنة . أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ .



## العصر العربي الثاني

## الأمارات العربية والعصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني ، العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم ، وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة ، بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الأموية ، وتغلب الفرس في الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعض شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع أعينهم ومنهم من مصالح الدولة ، فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم ، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر ، حتى الأكراد والأعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك إلا قليلاً لتغلب الأتراك في مصالح الحكومة .

على أن بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من إنشاء إمارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الأتراك في القرن الرابع للهجرة ، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرها من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبي .

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضاً دولة عربية أخرى اسمها المرداسية ، نسبة إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية ، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ - ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية قتلوها من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩ هـ ، وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة إلى يزيد الشيباني من قبيلة أسد ، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ - ٥٤٥ هـ .

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية ،



فالأولى أن تعدا من الدول الأعجمية ، وهما الدولة الدلفية التي أنشأها أبو دلف العجلي في كردستان ، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان ، ولذا أضفنا إلى ما تقدم دولة الأغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الأدارسة الآتي ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثمانية دول ، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ - الإدريسية	مراكش	١٧٢ - ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ - الأغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ - ١٨٩	ابراهيم بن الأغلب
٣ - الدلفية	كردستان	٢١٠ - ٢٨٥	أبو دلف العجلي
٤ - العلوية	طبرستان	٢٥٠ - ٢٦١	الحسن بن زيد
٥ - الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ - ٣٩٤	بنو حمدان
٦ - المزينية	الحلة	٤٠٣ - ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ - العقيلية	الموصل	٣٨٦ - ٤٨٩	بنو عقيل
٨ - المرداسية	حلب	٤١٤ - ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن ، كالزيدية في زيد ، واليعفورونية في صنعاء ، وغيرها .

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب ، لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، إلا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة سيطرة العباسيين ، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب .

وكان الأمويون اصحاب العصبية العربية ، واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الأعاجم ، قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتي الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون في احياء العنصر العربي ، ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فيتلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا في ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية .

واكثر العرب نفوراً من تلك الدولة واشدهم بغضاً لها شيعة العلويين ، لا سيما بعد ان قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبدالله حكمت من سنة ١٧٢ ٣٧٥ هـ ولم يطمع امرأؤها في لقب الخلافة .

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي للفرس ، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما في ايديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الاثراك في الدولة ومقاومتهم الغنصرين الفارسي والعربي جميعاً ، يشسوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم الى المغرب تدريجياً ، وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفاً يبدو لهم من الدولة العباسية ، فيفتنمون الفرصة للوثوب بها لا يزالون بمن يستنصرون او على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين ، وطوراً بالاكرد او الديلم او غيرهم من الامم الناقمة على الاثراك ، او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفر احد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ، ولم يطل عمرها ، وكثيراً ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج في العراق ، فانه اقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعمالها بضعة عشر عاماً ، بما جمعه من اباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباح في ضواحي البصرة والكوفة ، واستنفض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٥٠٠٠٠ (١) وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعي وتشتت رجاله .

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب ، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية ، فجاءوا مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي اكبر دول الشيعة ، وسيأتي ذكرها .

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحة للدولة العباسية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسباً في العرب . وكانت الآمال متعلقة بأحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين ، فان اهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قريبهم من بغداد عاصمة العلويين<sup>(١)</sup> على انهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر ، لذهاب دولة آل بويه من المشرق ، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سني والثاني شيعي .

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي ، اعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجيء ، فعاد العنصر العربي الى الضياع ، إلا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقياً الى الآن ( حوالي سنة ١٩١٠ ) .

فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق ، واكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامها نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يبق للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين - إلا ما ابدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية ، كقيام العائلة الوهابية في نجد والدرأويش في السودان . ولما عزم محمد علي مؤسس العائلة الحديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر ، اراد ان يستعين على انشائها بعصبية اسلامية ، واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبية التركية للدولة العثمانية ، فاختر عصبية العرب ، فحامت الآمال حوله ، وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل ، فأحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشاء من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان

للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي ، لما حال دون مطامعه من اغراض دول  
الافرنج في المملكة الاسلامية ، ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية ،  
بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها الآن ، اما ما تتناقله الجرائد من اخبار اليمن ونجد  
وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانية سياسية لا  
محل لها هنا .

فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صده . قلما اثرت في احياء العنصر  
العربي . وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية في الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة  
في سياستهما وشؤون حكومتهما لا بأس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا في الحقيقة  
مقلدتين للدولة العباسية في اكثر احوالهما .



## سِيَّاسَةُ بَنِي أُمِيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ

من سنة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك ، نجما من مذحجة أهل في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعاً في إنقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقدون على الأمويين . فلما وصل به إلى المغرب سعى له في جمع الأحزاب ، فقطع مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل ؛ فأخبرهم بقدوم مولاة وحرصهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمينية وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم ، فدخل الأندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨ هـ ( ٧٥٦ م ) ولذلك سموه الداخل .

وقد حكم عبد الرحمن أولاً باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للنصور نحو سنة ، ولم يحسر في بادئ الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي ( صلعم ) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في إرجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرته ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما آانس منه تردد أصاح فيه : « إقطعها وإلا قتلت نفسي ! » فقطعها ولكنه لم يحسر أن يسمى نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أموي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء ، ثم سموهم الخلفاء

واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان مالك بن أنس إمام المدينة ، لما علمه من إفتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتم الأمويون نقمة مالك عليه وقربوه

منهم وأكرمهم ، فانتفع كل منها بصاحبه . فالأمويون رأوا فيه إماماً كبيراً ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بني العباس . ورأى مالك في الأمويين ملجأً كبيراً وتمزية لما ذاقه من شدة بني العباس . فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين ، وكانوا قبل على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام . وقد نقلوا الفتوى إلى رأي مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (١) .

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته ، وكان متشابهين من عدة أوجه : منها أن والده كل منها بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الأمور . فاتفقا في أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية (٢) . وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والعدو لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده ، فسخط على بدر مولاة لفرط دلالة عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ إلى مكان بقي فيه إلى أن هلك ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد بلائه في إنشاء دولته (٣) . وقتل عبد الرحمن أيضاً أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه (٤) . ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما . وقام اليمانية رجال أبي الصباح يطلبون بثأره ، فأوقع عبد الرحمن بهم وأكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم أنهم يصحبونه على غل وحقد ، فأنحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث إلى كبراء مملكته يبتاع مواليتهم ، فاقتنى موالى الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدو على شواطئ أفريقية واستوفدهم ، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا في خدمته واستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٠٠ رجل ، غلب بهم على أهل الأندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

### الصقالبة

ثم عمد الأمويون بعده إلى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كانت النخاسون

١ - نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ . ٢ - نفح الطيب ٧١٥ ج ٢ .

٣ - ابن الأثير ٥ ج ٦ . ٤ - نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢ .

يحملونهم من شمالي أوروبا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجا . والسبب في رواجه أن قبائل السلاف ( الروسين ) نزلوا في أوائل أديوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو ( السكلاف ) والسرب والنوهم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم ، فتكاثر الأسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى ، عن طريق فرنسا وإسبانيا إلى أفريقيا ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمات ، من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود - ولا يزال أهل جورجيا والجر كس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ( إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ) - فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، إلى أن يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا ( الأندلس ) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب ، والاناث للتسري . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى الجنس الصقلي ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلاب » ، ومنها « صقلي وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال .

على أن عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حنيفة الحكم بن هشام ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ ) فإنه استكثر من اقتناء الممالك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالأندلس ، فجعل الممالك من المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، ثم تدرج الأمويون في استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا في أيام عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأترار قبله . واستقل بنو أمية بملكهم هذه في أوروبا عن سائر ممالك الاسلام في آسيا وأفريقيا ، ولم يكونوا يطعمون في التغلب على الممالك الأخرى ، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج إلى الحرمين<sup>(١)</sup> مخافة أن يقيه

أحد منهم في أيدي العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيع لهم الحج إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوع مملكة الأندلس الى ملوك الطوائف غير العرب .

### ملوك الطوائف بالأندلس

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء. وكان ابنه الحكم المستنصر ، وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد ، وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفين الى أوج مجدها سطوة وأبهة وثروة ، وأخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالأحكام ، وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية .

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال اخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً ، حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة في أيام هشام بن الحكم في اواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضاً ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة ، وهو عربي الاصل من اليمنية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة وأخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجنس الصقالبة وأخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالاً من برابرة افرقيذ وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب في الأندلس من ذلك الحين .

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ، ولأن العباسيين اوسخ قديماً في الخلافة لقرابتهم من النبي ( صلعم ) فانقسمت مملكة الأندلس في اوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاها اصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر والموالي ، فتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ، ولذلك سمو ملوك الطوائف . وهاك اشهرهم مع اسماء امارتهم



اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧ - ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ - ٤٨٤
بنو زيري	غرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ - ٤٦١
بنو ذي النون	طليطلة	٤٢٧ - ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ - ٤٧٨
بنو هود التجيبين	سرقسطة	٤١٠ - ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحيدين، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك، والخصام متوالياً والافرنج يفتنمون ضعفهم وانقسامهم، ويسترجعون امارتهم واحدة بعد واحدة وبلداً بعد بلد، حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس. وآخر مدينة اقيمتها الافرنج من تلك المملكة غرناطة، وكانت في حوزة بني نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ، توألى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً، آخرهم ابو عبدالله محمد بن علي، فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر ابو عبدالله، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس.



# الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

## الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في ايام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية ، وخصوصاً في ايام المنصور والرشد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى ، اخو محمد بن عبدالله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهي في حوزة العباسيين ، فاستخفى في مكان اتاه اليه بعض الشيعة سراً ، ومنهم صاحب البريد فحملة الى المغرب في ايام الرشد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ هـ على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء .

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبي ( صلعم ) لأن اصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبت الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة .

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وامت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ، ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فإشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبيديين او لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً : « ليس هذا برأي . فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت واصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم

بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلسست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انه واصحابك صحة خلافته ، فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه<sup>(١)</sup>.

على ان الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة ، واحيا البويهيون كثيراً من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكّر مقتل الحسين<sup>(٢)</sup> وحملوا الخليفة على ان يخطب لعهد الدولة في بغداد، اي ان يذكر اسمه في الخطبة ، فخطب له وهو اول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاثراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين، والترك يمثلون السنة والديلم او الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاثراك اهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة<sup>(٣)</sup> نكاية بهم .

### الشيعة في مصر

على ان ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت قصبتها قبل مدينة المهديّة بأفريقيا وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي ، والمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم<sup>(٤)</sup> .

والمصريون كانوا يحبون علياً من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا اولاً اهل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبدالله الحسني وبعض اهل وافر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم علي بن محمد بن عبدالله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى<sup>(٥)</sup> .

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب احوال الخلفاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس ، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابي طالب ١١

١ - ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ . ٢ - ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ .

٣ - ابن الاثير ٦٥ ج ٩ . ٤ - المقرئ ٣٤٩ ج ١ . ٥ - المقرئ ٣٣٨ ج ٢ .

العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق ارسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية ، لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعه ترفاً للخليفة - يحكى ان رجلاً من الجند اقترف ذنباً اوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبدالله عامل مصريومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه . وتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فلم ير رجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه .

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك .

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لأنه تركي ولأنه على رأي الخليفة العباسي ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف أمر بني طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى . فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين ، وبني مدينة القاهرة وانتقل اليها مولا المعز لدين الله ، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم في افريقية الى انقضاءها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين .

### سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التي قلدت الدول العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من اثار العلويين وتقديهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير المعز بالله الفاطمي

كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء . وجعله مرجع القضاء في الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق ( جامع عمرو ) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى المعز بالله على ٣٥ رجلاً من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقاً تكفيهم ، فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلوات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه ، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك ، فضربوه وطافوا به في المدرسة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهودياً وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكى » (١) .

ومتشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الأوامر على الناس ان يحفظوا كتاب « دعائم الاسلام » و « مختصر الوزير » وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا (٢) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوي الارحام ، فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه (٣) تأييداً لحقهم في وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي ( صلعم ) وهي منفردة بالارث .

### أدوار الدولة الفاطمية :

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية ،

١ - ابن الاثير ٣٢ ج ٩ . ٢ - المغربي ٣٥٥ ج ١ . ٣ - المغربي ١١١ ج ١ .

فقد رأيت ان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الأتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ في أولها مشتركاً بين هذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الأتراك .

والبربر قوم أشداء ، مساكنهم في شمال أفريقية ، وقد نصرروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً ، لأنهم ارتدوا عن الاسلام اثني عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في أواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال ، وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام في أواسط افريقية ، مثل فضل الأتراك في نشره في أواسط آسيا الى الهند والصين ، لأن البربر لما ثبتت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في أفريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك .

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها ، لا سيما قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدي أول خلفائهم في أواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي ، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله « سنة ٣٢٢ هـ » ثم المنصور بنصر الله « سنة ٣٣٤ هـ » ثم المعز لدين الله « سنة ٣٤١ هـ » وساعدوهم في ثقلك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي أيام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها .

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الأتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته ، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والأتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يقدر فضل البربر ، فقدمهم وقربهم فاشتروطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي ( من البربر ) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم . فاستبد في

أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلبان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيًا وقد تأقت نفسه الى الولاية ، فأغراهم بأبن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرًا من رجال دولة أبيه وجده ، فتضعع البربر وقوي الاتراك .

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك ، فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شققت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته في الشام ، فأثاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمي الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جنوداً من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعيّة ، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهاً وأكابر أهلها (١) .

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة بماليكهم وقوادهم ( الأتابكة ) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥هـ الى العاضد بن يوسف ، وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ ، وطال تنافسهم حتى أخرجوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً .

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجد به على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة وهو ضرغام ، فاغتم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد الدين شيركوه في جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين .

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت ، فزاد تداخل نور الدين في شؤون مصر وقائمه فيها شيركوه ، ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الأيوبي الشهير . ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة .

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة ، وهي كالوزارة ، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأميره نور الدين . فلما مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على أزمة الاحكام . واستفحل أمر الصليبيين في تلك الأيام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها . وأنشأ الدولة الايوبية ، وهي كردية الجنس سنية المذهب ، فعادت مصر الى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط .

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من الممالك والأتراك والجرأكسة للجندي ، على جاري العادة في تلك الأعصر ، حتى اذا كثروا استبدوا بشؤون الحكومة وطمعوا في السلطة . فلما ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك ومما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الأولى من سنة ٦٤٨ - ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ وكانتا تبايعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة ( المستعصم ) فر من بقي من بني العباس ، والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختر واحد منهم قلده الخلافة وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتح مصر سنة ٩٢٣ هـ . وكان الخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم ، فبايع للسلطان سليم وسلم اليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين .



العصر المغولي أو التتري

## انحلال الدولة الاسلامية

من قيام جنكيز خان سنة ٦٠٣ هـ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، فتفرعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي او كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تباع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ، ثم اصابها ما اصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين .

على ان الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ، ثم اقتسمها بماليكهم الأتابكة كما تقدم .

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاهما الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بن تنازع على سلطتها من الأتراك قواد السلاجقة وماليكهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى اشرفت على الانحلال ، وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة . واصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم ، كأنهم اقتسموها فيما بينهم ، وهم : (١) الأتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراة الأيوبية في مصر والشام (ج) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ، ولكنها تحتصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي .

فلما رأى أعداء الدولة الإسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللات من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى انهم كثيراً ما كانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد احياناً على عدة آلاف غير القتلى<sup>(١)</sup> - كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحاً ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام .

وهجم عليها من الغرب أمم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد نكثوا لاكتساح المملكة الإسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حيناً ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبي ببسالته ودهائه وتدبيره ، فغلبهم على ما في ايديهم واخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم واخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أزالوهم من الشام تماماً على ايام الناصر قلاوون .

أما من الشرق فجاءها التتر او المغول بقبائلهم وبطونهم ، وهم في خشونة البداوة وقوة الأبدان ، وقد توقفوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية الى حدود العراق ، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع .

## المغول

المغول او المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالى بحيرة بيكال ( او بيكال ) في جنوبي سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم ، لأنهم لم يظهروا الا بظهور جنكيزخان في أوائل القرن السابع للهجرة ، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل ، يعيشون بالغزو والنهب والصيد

والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن ، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الأمم ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠٠٠٠ خيمة ، فإذا حسبنا في الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠٠٠٠ نفس ، فلما كانت أيام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاماً ، كما خرج بدو العرب في أول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لان المسلمين كانوا في أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على انفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام - والتاريخ يعيد نفسه .

### جنكيزخان

كان والد جنكيزخان اميراً على ١٣ قبيلة من المغول ، تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعمود متبادلة بينها . ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى . وبعد اربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ، واصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه . وكان تموجين شديد البطش من حدائته ، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائع فهايه الناس ، على انه لم يستغن عن استنجد الخان الأعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته في اماره أبيه وزوجه ابنته .

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوي البدن شجاعاً صبوراً على التعب والجوع والعطش والبرد والألم ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره .

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في اعضاء امرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الأمراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعادته الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى القى سبعين رجلاً منهم في الماء الغالي وهم أحياء .

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده ، وأدرك تموجين ذلك فسمى في اصلاح ما بينها بالحسنى فلم ينجح ، فعزم على محاربته فتحارباً فانتصر تموجين فخافه الأمراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول .

وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها ، فازداد أمراؤه تعلقاً به واحتفلوا بتهنئته احتفالاً عظيماً في سهل على ضفاف سلنكا، فاجتمع الامراء والحانات فوقف فيهم خطيباً وكان قوي العارضة فأبدع. ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك، وأصبحت تلك اللبادة أثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من اهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فاذا فرطت في سلطانك صرت اسود مثل هذه اللبادة ، ونبتك رجالك نبذ النواة » . وفي هذا القول من حرية البدواة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وأمرائهم في صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام ، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكاً على المغول . وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتي ، قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه الناري تحديق به الأرواح ، وقد أخذ في محاكمة اهل الأرض ، فحكم بأن يكون العالم كله ملولاً تموجين ، وان يسمى جنكيز خان اي الملك العام » . ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك ايها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيز خان بأمر الاله » . ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم .

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فसार أولاً نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيز خان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الابهاء اشهار الحرب . فحمل جنكيز خان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلاً ونهباً ، والصينيون يومئذ اسبق الأمم في الاختراعات الحربية ، فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيز خان زاحفاً حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة ، فتحول يحنده الجرار نحو الغرب أي غربي بلاده وهي مملكة الاسلام .

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، واقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والأتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه ، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في اواخر ايامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان

وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من افغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمي سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها ، واوغل فيها قتلا ونهباً مما تقشعر له الابدان .

وبما حمله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل يجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ما وراء النهر ( تركستان ) ليشترؤا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيز خان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب ، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم وبذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم واخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره في هذه المعاملة ان المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم .

فلما قتل نائب خوارزمشاه اصحاب جنكيز خان ، حمي غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : « تقتلون أصحابي وتأخذون اموالهم ؟ . تهبأوا للحرب . فاني قادم اليكم يجمع لا قبل لكم به » . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بخلق لحى الجماعة ، واعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « ان خوارزمشاه يقول لك : انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا ، حتى انتقم وافعل بك كما فعلت بأصحابك » - فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم في اوائل الاسلام .

وقد فعل جنكيز خان كما قال تماماً ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غرباً ، وهم ينتقلون من مدينة الى اخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم إلا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء ابقوا على البلاد التي فتحوها وأمنا اهلها وجعلوهم في ذمتهم ، واقتبسوا ثمنهم وبنوا عليه تمدناً من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن مهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا

عمل الافاضة في سيرة هذا الرجل<sup>(١)</sup> وانما يقال بالاجمال انه تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ، ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والأتراك وغيرهم .

أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ، فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب في إنشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة .

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة ، باستبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابيه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها :

إن أولاد جنكيز خان الذين أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاي وطلوي وجوجي وجقطاي ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ، ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم :

- |   |                               |                      |
|---|-------------------------------|----------------------|
| ١ | دولة أقطاي في زنقاريا وغيرها  | من سنة ٦٠٣ - ١٠٤٣ هـ |
| ٢ | » طلوي في بلاد المغول         | » » ٦٥٤ - ٧٥٠        |
| ٣ | » جوجي في بلاد القفجاق وغيرها | » » ٦٢١ - ٩٠٧        |
| ٤ | » جقطاي في ما وراء النهر      | » » ٦٢٤ - ٧٦٠        |

فالدولة الأولى ( أقطاي ) كانت لها السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمنا تاريخها في هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام ، نغني به فرع « هولاكو » وهو ابن طولوي بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ ، وعرفت دولته فيها بدولة إيلخان أو مغول الفرس ، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ،

وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه وذلك أنه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد .

### هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة في بغداد تكررت في أواخر الدولة، فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه ، وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحهم . وتهدد اليهم بتدبير شؤونها . وكان الخليفة في أيام هولاكو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٥٦٤هـ ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر . فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقائد الجند ( الدوادار ) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فجمعوا على الكرخ وهاكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبراً ، فكتب الى هولاكو سرّاً وأطمعه في ملك بغداد ، وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم ، بعث الدوادار فيمن بقي ببغداد من الجند وهم لا يزيدون على ٢٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت .

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد ، وأرسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي ، فأنفذه لخبرة هولاكو بشأن الصلح ، فكلل مكيدته وعاد وقال للخليفة : « إن هولاكو يبيئك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر » . وحسن له الخروج الى هولاكو ، فخرج اليه في جمع من أكابر أصحابه ، فأنزله في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد . فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، إلا الاطفال فأخذوهم في جملة الاسرى والسبي . ودام القتل والنهب في دار السلام اربعين يوماً ، ثم نودي بالأمان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها



المنصور والمهدي والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفاً من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماماً . بل انتقل من بقي من العباسيين بعد مذبحه هولاء الى مصر ، واقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم .

أما هولاء فاما ملك عاصمة الاسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها ، ففتح بها دخل في خوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام واورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن « ٦٥٤ - ٧٥٠ هـ » وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعف حتى اخضعها تيمور لنك .

### تيمور لنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيراً عند جغتاي بن جنكيز خان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي في ما وراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع في الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى ادوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذربيجان وكردستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاء ، ثم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند ، فغزا كشمير ودلهي ، وتحول غرباً لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لنك في فتوحه الى انقرة وحارب بايزيد واسره سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبايعه سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل ان ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدرأ فعدت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمور لنك ينقضي العصر المغولي ، وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام .

## الدور الثاني

### من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت ان المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ، ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي ، وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاءوه والدولة الاسلامية في آخر دورها الاول ، وفي منتهى التضعف والضعف بن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان ، فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد ، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار ، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على ان ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ، ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام . فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في ايدي اولئك المماليك ، وبعضها في ايدي بعض اعقاب الايوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلاً بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الایلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتميمورية وغيرهم . وما وراء النهر وافغانستان في سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر او بقايا الالابكة . وشمالى افريقيا كان منقسماً بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعاذى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال احوالها تجمعها خلافة اضعف منها ، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية .

تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعف عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يش المسلمون من فتحها بعد ان حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون اعظم ملوك اوربا وطاردهم الى بلاد البحر ،

وحاصروا فينا عاصمة النمسا وانخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطئ اسبانيا ، فارتعدت اوربا خوفاً منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق ، ثم ساروا جنوباً غربياً حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقديم ، فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان « سنة ٩٢٦- ٩٧٤ هـ » من بودابست على ضفاف الطونة الى اسوان على ضفاف النيل ، ومن الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية . حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم ، لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسماً بلا رسم .

ونفض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية .



# تاريخ المذنبين الاسلامي

تأليف  
عزجي زبدرا

الجزء الخامس

منشورات دار مكتبة الحياة  
بيروت - لبنان

## مُقَدِّمَةٌ

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لأننا وفقنا الى إتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيما بعد أن عمدنا الى ذكر المراجع في هوامش الصفحات ، مع الإشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزائه . ولكنه أعاننا من الجهة الأخرى على الإيجاز في بعض الأماكن ، اكتفاء بالإشارة الى خلاصة الموضوع وإحالة القارئ في استيفائه الى المصدر الأصلي لئلا نخرجنا إirاده الى التطويل .

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحيانا على إيراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وإنما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة وإحكام البرهان ، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتقاديا من ارجاع القارئ الى بعض الأجزاء السابقة ، وإن كنا لم نعد الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لأن وجهتنا الأولى في كتابتنا إنما هي بسط العبارة وإيضاح الموضوع ، حتى ينجلي للقارئ كأنه يحسم . على اننا كثيراً ما أحلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في أماكنه .

والجزء الذي نحن بصدد أكثر سائر الأجزاء طلاوة وأقربها الى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعتهم وتتوق النفس الى معرفته ، من الأبحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والأحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو في الحقيقة بعض ظواهرها على ما تبين لك في الأجزاء السابقة .

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب . ولو بحثت فيما كتبه اسلافنا في التاريخ والأدب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلا ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع

مثلاً أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأبهة ، إلا ما قد يرد عرضاً في أثناء النوادر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة .

وأبحاث هذا الجزء تنظم في أربعة ابواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع .

(٢) الآداب الاجتماعية .

(٣) حضارة المملكة .

(٤) أبهة الدولة .

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ، ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع في العصر العباسي . فقسّمنا الناس الى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامة ، وجعلنا الخاصة أربع طبقات : الخليفة ، وأهله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . وأضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميناهم « أتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل في طائفة الخدم : العبيد ، والجواري ، والخصيان . وبينما ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك التمدن .

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم او همهم الى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الادب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا . . وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة ، وينقسمون الى فئتين : الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم ، والثانية عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيارين والسطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها .

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب

البدو كالمصيبة والانفة والنوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجياً بتقدم القوم في معارج الحضارة ، وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً ، لأنه هو المراد في هذا الباب ، فقسنا الكلام فيه الى فصول في الغائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية . فبيننا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي ، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواني والسراري ، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلاً لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأوى ، فأجملنا تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن .

ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسنا الى قسمين : اولها العمارة او العمران ، وثانيها الثروة والرخاء . والعمارة أما في المدن أو في القصور . فأتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة فيدور الكلام فيها على ابحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعم باللباس والتزين بالأثاث والرياش والمجوهرات ونحوها . ثم القصص وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية ، والمسكر وخلاصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانفهام الخاصة فيه ، فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهلك والاسراف والفحشاء .

أما أهية الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سذاجة الراشدين . وتقسيمهم الى بذخ العباسيين وأهبتهم . وقسنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعايمهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذنان في الدخول

والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاحظتهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها .

وذيّلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الأجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلاً عن فهرس هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسننا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده .





نظام الاجتماع

## نظام الاجتماع في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي ، وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم ببعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين ، وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام ، وكيف تدرج في الارتقاء من أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي .

## طبقات الناس قبل الاسلام

ويقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في أفريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب .

### ١ - طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي ، وسكان هذه البقعة أكثر أمم الأرض اختلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالى عليها من اقدم ازمنة التاريخ . وللعلماء أبحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من أبحاثهم ان اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الأحمر غرباً وشواطئ اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً ، وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب .

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية . كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا إلا قسمًا من شواطئها .

(٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا .

(٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا .

### الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ ، اهمها امه السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان في اعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني .

والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ، ومن فروعها او اخواتها الحيرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الانباط ، وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره .

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأمم لا يعرف اصلها ، وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها ، واخذ اولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية ، اقامت بين اظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم . غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم .

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة ، كالحثيين والآشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتقاطر شعوبهم

اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد ، واوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الشبيهة بالهيلينية Hellenistic وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها ، واكثر تغلبه من سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه في الداخل تدريجاً .

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان ، ألا ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما ما بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

### الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني ، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالأنباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على أنقاض الآدوميين ، في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الأبنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الأنباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس أنهم يحتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والألبان ويحرمون الحمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالبن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والأطياب يحملونها من شواطئ البحر الأحمر وبلاد العرب ، وبالمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الى على يدهم ، والا فانهم مهاجمون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم ، فتباعدوا عن

حدود مصر ونزلوا حوران، ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون أريتاس ( الحارث ) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيافاً وأربعين سنة . ثم صار الأنباط حلفاء الرومانيين في القرن الأول للميلاد ، وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الأحمر .

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين المشرق ومصر ، حتى اكتشف الناس الطريق من القصير الى قفط على النيل فأخذت بطرا في التقيقر ، وكان الأنباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في القرف ، فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥م فخاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم وأخلدوا الى الدعة ، واختلطوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين .

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الأمة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية ، لغة أهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الأنباط والعراقيين أمية واحدة فأطلقوا عليهم جميعاً اسم « الأنباط » ، والذي اتفق عليه المحققون أن أنباط بطرا ربما يليها عرب ، وإنما تكلموا الآرامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة ان القبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة .

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق اجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية ، او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الفساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الفساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن أصحابه . فكانوا مع بدائهم وسداجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احدهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من أياذ وربيعة ولخم وتنوخ .

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان في الشمال والشرق ، واليهود والسامريون في الجنوب ، وبقايا الأنباط في

الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل أباد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا الموضوع شتات من أمم أخرى كالجرارحة في جبل اللكام<sup>(١)</sup> والجرامقة في الموصل<sup>(٢)</sup> وأخلاق من مولدي اليونان والرومان على الشواطئ ، ومولدي الفرس والأكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احدهما بالأخرى ، والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخيم في تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام في تفصيل ذلك يطول .

### نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما موقف الأهالي من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعده النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الأيام ، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً ، فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكاً لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم Serfs اي الأقتان ( جمع قن ) ، الا الذين تسمو بهم همهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامية أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون او الأكره .

فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غيرالبطريك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا اهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات

١ - البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها .

٢ - مختصر تاريخ الدول لابن العبري ، ص ١٣١ .

الشرقية وفي جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً ، على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل <sup>(١)</sup> . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناها في كلامنا عن الاهالي ، لأنهم وأهل الشام من اصل واحد كما رأيت .

## ٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطاً بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالى الهجرة الى مصر من اقدم ازمدة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا تقضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم ، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن يأتي مصر للتجار او الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء .

وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان في ايامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم ، وأكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون ، والروماني يجتهد في ان يميز نفسه عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً ، وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام .

١ - راجع تفصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب .

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان او الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الدين .

(٢) الأهالي وهم الأقباط الأصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة أو غيرهما ، من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالي فاصل آخر مذهبي ، فكانت الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردهي وهم يعاقبة .

### ٣ - طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش ، وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار اصلها وان كانت غربية في موقعها ، لأن اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطاجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ، ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنوهم وخربوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شق كالرومان والوندال وغيرهم .

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطاجنيين اقواماً من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطاجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، احدهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والاخرى تسكن الجبال والبادية ، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين. وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون الى جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح افريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية واهلها طبقتان : الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم



من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بدائنتهم وظلوا يمتنعين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ، ولهم شأن كبير في تاريخ الاسلام .

#### ٤ — طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وارمينيا وغيرها ، وهي تحوي شعوبا شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على اي حال عما يحاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين : اما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات أوروبا وهي غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام هو الزردشتية او المجوسية في حين ان ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية .

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم ، فاقسمها امراؤها وهم المعزوفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام ، وهي الدولة الساسانية .

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً<sup>(١)</sup> . ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخام الأجسام اقوياء الأبدان .

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهاجرة « شهربجان » أو الشهاجرة<sup>(١)</sup> وهم أشراف السواد وارباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين - واحدهم دهقان - وينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة ، وهم أصحاب الارض وفي ايديهم اكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمرأء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين ، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة .

وكانت مملكة فارس - عند ظهور الاسلام - في حوزة الدولة الساسانية ، تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على ان بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم ، ولا سيما في الامارات البعيدة ، وكان بعضها مستقلاً استقلالاً تاماً ويتخذ كل امير لقباً خاصاً به ، مثل « رتبيل » لقب أمير سجستان ، و « رنجان » لأمير سمنجان ، و « جيفويه » لصاحب طخارستان ، و « اصبهيد » لصاحب بلخ ، و « باذان » لمرو الروذ ، « شرك » للطالقان ، و « أخشيد » لصاحب فرغانة - وقس عليه . على ان بعض الولايات ، كمر و سرخس وطوس ، كان يتولاها المرازبة .

واكبر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ، ويسميهن المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبدان واحدهم « موبذ » ، وهم كالاساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمونه « موبذ موبدان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك<sup>(٢)</sup> ومنهم القضاة او من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس .

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة او صفة يقيمون في بلد او يتنقلون في البلاد ، كالأساورة والسيابحة والزلط والأحامرة ونحوهم<sup>(٣)</sup> .

## ٥ — طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الأراميين والعبرانيين ولكنهم لم يصيبهم ما اصاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يصدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بها الآشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي ( اليمن ) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم واخرجوا الاحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالابناء الأحرار .

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام او مصر او العراق ، فراراً من ظلم او ضغط او امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب . وأكثر الامم نزوحاً اليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى ان اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره — وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم . ويقسمون باعتبار النسب او الوطن الى : قحطانية او يمنية ، وعدنانية او حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

## نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بيننا في الجزء الرابع ما احدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام ، كالمهاجرين والأنصار واهل بدر واهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمي او القرشي من العصبية الجديدة ، ومنهم طبقات الأشراف من العلويين او العباسيين وابناء الأنصار والمهاجرين ، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات <sup>(١)</sup> وما يلحق بذلك من طبقات التابعين

وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كال الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام .

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان اول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم واهل عصبيتهم ، ولما اوغلوا في هذين البلدين استأنس اهلها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي او السرياني ، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي او الفارسي عنهم - فكان ذلك من جملة ما مهد لهم اسباب الفتح . اما طبقات الناس الاصلية في هذين القطرين فقلما اصابها تغير في عصر الراشدين ، لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من احوالهم الادارية او الدينية او السياسية ، وانما كان مهمهم اقتضاء الجزية والحراج وحماية من دخل في ذمتهم من اهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم او معاقلمهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري - الا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأمر او السبي ومن أعتقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب . وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط واحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع .

### نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بيجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في اقصى الشرق .. وركبوا بحر المحاز ( مضيق جبل طارق ) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهي ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا اعلامهم على اعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام في هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها اهل البلاد غير المسلمين جعلوها في ايدي المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من

الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية او الفارسية او العربية - فآل ذلك الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية .

وقد استمسك العرب بمصبيتهم خلال العصر الاول الذي تلا الفتح ، وفرقوا بين انفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة . وانقسموا هم انفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب في ايامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها .

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين ، والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالي . وظل غير المسلمين ، وهم اهل الذمة من القبط والأنباط والروم والفرس وغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام - الا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . هذا الى ما حدث في اثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السبائية والزط الى سواحل الشام في ايام معاوية ، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه ايام بأسافل كسكر ، وسبي عبيد الله بن زياد خلقاً من اهل بخارا وانزله ايام البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا<sup>(١)</sup> فضلاً عن كانوا يصطحبونهم احياناً في حملاتهم البعيدة للفتح او الغزو ، فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والأنباط والأقباط والجرامقة والجراجمة<sup>(٢)</sup> فمؤلاً اذا فتحوا بلداً أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله .

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في ايام الامويين كانت في بدء انتقالها الى حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذي ستكون عليه في العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي

١ - البلاذري ٣٨٤ .

٢ - البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥ .

الا في العصر العباسي ، لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة . ومع ايغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والأندلس فانهم قلما اختلطوا بأهلها او اقتبسوا منهم او قلدوهم في شيء من عاداتهم واخلاقهم ، الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسريير على ما يأتي بيانه . اما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي على الامويين فقد جعلوا مقامهم بين اشياعهم الفرس ، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، او بين الآريين والساميين ، او بين المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية .



## نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي ، عندما نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن ، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر .

كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منها طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

### طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة .

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية<sup>(١)</sup> فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء . وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أهبة الدولة من هذا الجزء .

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك<sup>(٢)</sup> فإذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي ، وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط ، الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلاً عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يترأى للخليفة في

امرهم ، فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالمعطاء - تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عوناً كبيراً في تأييدها ، يتولون الأعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة . فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به - باشر ذلك ابو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة ويسهلون عليهم اسباب القصف واللهو ليستغلوا بذلك عن طلب الملك وتمعج همهم عن النهوض .

فكان الهاشميون في الغالب من اهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون اوزاره واعباء تبعته ، فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا في الشراب والغناء وابتنوا القصور الشام والحدائق الغناء ، واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والادباء . واكثر مقامهم في البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملاً او جنداً . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان ، فقد بلغت امواله نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم في اليوم<sup>(١)</sup> وبلغت ثروة خنعة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان<sup>(٢)</sup> ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم .

وأما رجال الدولة فزريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكانت اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً ووسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعاً لأصحابها في عهد بني أمية منها في أيام بني العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين .



فلما أفضى الأمر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب ، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس .

## اتباع الخاصة

والخاصة اتباع اخروجهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم اربع طبقات : (١) الجند (٢) الأعوان (٣) الموالي (٤) الخدم .

فالجند فرق كثيرة تختلف اصلاً ونظماً على ما فصلناه في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المؤلف عندنا ان الجند رجال الخليفة يأتمرون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يخدمون رجالاً ينفقون عليهم من أموالهم وقد يبتاعون غلماناً ويبرونهم للاستعانة بهم على اعدادهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم . وقد يذهب الوزير او العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها ، كالساجية والنازوكية والبيلفية والهارونية ، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والاكراذ . ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والأخشيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة او نحوها كالشاكزية ، او مجرد حماية القصور او غير ذلك .

اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق او الاصدقاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة او الأمير ، وهم غير الندماء او الشعراء وانما هم رجال من اهل التعمق والثقة يختصهم الخليفة او الأمير او الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم في شؤونهم ويركن اليهم في مهامهم وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ اهله او بعض ذوي قرابته .

واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبيننا احوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد .

## الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والإناث ، وقد اصطلحوا ان يسموا الأرقاء البيض بماليك والسود عبيداً ، ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة اقسام : الأرقاء والخصيان والجواري .

### ١ — الأرقاء

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الاسلام ومصادره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع .

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يثنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقاء فعلا ولا سيما الأقدان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لأنهم تحولوا من الرق الى الحرية او الى العهد ، فمن اسلم صار حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية ، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم او الفرس لم يكونوا من عامة اهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في أسر المسلمين صار ملكاً لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك ان يطلقوا سراحهم او يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الاسلام ويصبحون في جملة الموالي ، وقد زعم بعض امراء بني امية استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة او اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي ، ولكن الشريعة الاسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأي فلم يلبث ان رجع عنه من اراده من القواد ورجال الدولة . وقد كانت تصرفات اولئك القواد والامراء من بين الاسباب التي دفعت الى الثورة على بني امية . فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه النزعات نهائياً .

## كثرة الأسرى والأرقاء

وتكاثر الأسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويبيعون بالعشرات - اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في ايام بني امية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في أفريقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا<sup>(١)</sup> وذكروا ان مرسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم<sup>(٢)</sup> وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها .

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس<sup>(٣)</sup> وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن اينال سبا المسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الدواب<sup>(٤)</sup> . وفي جملة غنائم الحرب ، فضلاً عن الاسرى من الرجال ، جماعات من النساء والغلمان مما يتقل نقله ، فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات ورغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة او عشرة عشرة وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم - ذكروا انه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالاندلس ان بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم<sup>(٥)</sup> والبعير بخمسة دراهم ، وقد يقضون عدة اشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم .

تلك امثلة من اسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين ، غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق ووظيفة كل سنة من تركستان<sup>(٦)</sup> وبلاد البربر وغيرها

## معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد ، بعد ارسال الخمس الى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطئ القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فاذا استرابوا

١ - نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ . ٢ - ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤ .

٣ - ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ . ٤ - ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩ .

٥ - نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ . ٦ - المقرئ ٣١٣ ج ١ .

في احد قتله ، ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه والقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل . ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك « الترابي » وقد يرتقي اولئك الصبيان الى رتب الامراء<sup>(١)</sup> .

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر ، فمن يقع من المسلمين في ايدي اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال او يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجلاً بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الاسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحداً بواحد ، حتى اذا زاد عند احدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال . وكان الامويون يفتدون اسراهم احياناً وعلى قلة ، النفر بعد النفر ، في سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسائر الثغور على الحدود . واول فداء وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة اثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك اسراهم حتى اصبح اهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم<sup>(٢)</sup> .

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك ان اولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيماً من رعاياهم او اجناداً من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم ، أما المسلمون فهم غالباً المهاجرون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيم واذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم . على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت اسيراً من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمهاليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة او مائة او ألفاً؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان احدهم لا يخلو من عبد او بضعة عبيد يخدمونه<sup>(١)</sup> وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة اتباع يخدمونه او بضعة عشرات الى مائة<sup>(٢)</sup> فكيف بالأمراء والقواد؟ حتى في صدر الاسلام، فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله<sup>(٣)</sup> فاعتبر كم يكون عددهم في ايام الثروة والترف، فقد كان الأمير في الدولة الأموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد او بضعة مئات او الف عبد<sup>(٤)</sup> وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٢٠٠٠ عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله.

### اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الارقاء عند احدهم واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ. على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند امير ان يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال. فقد كان عند الاخشيذ صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان. واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم، واصلهم من السبي والأسرى او يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند، وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار.

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم<sup>(٥)</sup> ومنهم الوصيف والمملوك، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى.

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة او الحراسة او الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم، وكان يفعل ذلك اهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء، فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل. واول من اقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجواري. ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند

١ - المسعودي ٢٢ ج ٢ . ٢ - المقرئ ٩٥ ج ١ . ٣ - النديمي ٢٩ ج ١ .

٤ - ابن الاثير ١٢٧ ج ٢ والاغانى ٣٧ ج ١ . ٥ - طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١ .

المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام او مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج اصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة في حراسة وغيرها (١) .

## ٢ الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد - وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في ازمنة مختلفة ، منهم تارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستنيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اثارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . ومن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً .

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غير عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهل استخدموا الخصيان في دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد ابن معاوية ، فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوروبا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا

ينزحون غربا جنوبيا نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف ( الصقالبة او السكلاف ) والصرب والبوهيم والدماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا ، وقد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتناعون الاسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود - ولا يزال اهل جورجيا والجرمكس الى اليوم ( حوالى ١٩١٠ ) يبيعون اولادهم بيع السلع - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا ( الاندلس ) فكان المسلمون يتناعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان - وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية و Sklave في الجرمانية و slave في الانجليزية .

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق - واكثرهم من اليهود - الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة اشهرها « معمل » الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا . وكان اليهود يخصصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية ، فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل او الاثاث او الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جعلتها الخصيان ، كما فعل امير

برشلونة وطر كونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانها اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطاراً من صوف السمرور ، الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة او نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال .

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبي الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبي الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق<sup>(١)</sup> .

### ٣ - الجوّاري

#### تكاثرهن

للجوّاري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجوّاري ما يسبي الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك او الدهاقين ، يستخدمنهن او يستولدونهن او يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه<sup>(٢)</sup> ولما أفضت احوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الخلى والجواهر . فمن احب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها - فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال اهداه وصيفة جميلة ، او علم منه ميلا الى الغناء اهدى اليه قينة رخيصة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صناعات ، وربما صارت احداهن بعد حين ام ذلك المنزل وصاحبة الامر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفة لا يبعد ان تصير من امهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس ، ذكروا ان جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحظة كانت اروي الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من اهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماح غنائها وروى لها هبات سنوية . وعلمت امرأتها زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في



ارجاعه ، فرأت ان تشغله عنها بالجواري فأهدت اليه عشر جوار منهن مارية ام المعتصم ومراجل ام المأمون وفاردة ام صالح (١) .

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢) فلا غرو اذا تكاثرت في قصور الخلفاء والامراء وأهل الوجاهة وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) وكان لجماعة من بني العباس الف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر .

### اصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن او جمالهن ، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة في البصرة او الكوفة او بغداد ممن يفصحن العربية ، ومجلوية من ارضها او سبية اخيذة على حالها تتكلم التركية او الفارسية او الرومية او الهندية او البربرية ، ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان . والمولدة اثن من الجليبية ، وتختلف اثمانهن باختلاف الصناعة او الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد او الغناء او الخدمة . وفي الجليبيات النصرانية واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجية ونحوها - ذكر احمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون (٤) .

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن ، وخلاصة ذلك قولهم :

١ - الاغاني ١٣٧ ج ١٦ . ٢ - المسعودي ٢٨٠ ج ٢ .  
٣ - المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ . ٤ - الاغاني ١٣٨ ج ١٩ .

من اراد النجاة فبنات فارس ، ومن اراد الخدمة فبنات قيصر ، ومن اراد غير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخزن المال ، والنوبة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجوه في الترك ، والأجسام في الروم ، والشعور في الخطا وفارس ، والعيون في الحجاز ، والخصور في اليمن <sup>(١)</sup> وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة . لهن ذوات الألسن العذبة ، والقودود المهففة ، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة <sup>(٢)</sup> مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على أروجها في بغداد ، فكانوا يحملون إليها أجملهن خلقاً وأذكاهن عقلاً ، لما يتوقعون من بيعهن بالآثمان الباهظة .

### تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر ، فيذهب أحداهن إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويهما الأشعار أو يلقيها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب أو النحو أو العروض أو فناً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلي وابنه اسحق ، فربما ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فإذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو ألف ديناراً <sup>(٣)</sup> وأشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها إلى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ أحدها في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الأدب فتبتاع بألوف الدنانير <sup>(٤)</sup> . فكيف إذا اتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والأخبار ، فيقصدها أهل الأدب وذوو المروءة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره ، وقد ينفغن في حفظ القرآن ، حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة <sup>(٥)</sup> .

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف في التفنن في تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات ، عمت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر .

١ - ترتيب الدول ١١٢ . ٢ - المسعودي ١٥٤ ج ٢ : ٣ - الأغاني ١٥٤ ج ٨ . ٤ - الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٥ - ابن خلكان ١٩٠ ج ١ .

والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقفية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجهيات قومها فاتخذن الجوارى الغلاميات او المطمومات وألبسنهن الأقفية والمناطق الذهب (١) .

### نفوذ الجوارى

وطبيعي في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجوارى ، إذا أهدي الى احدهم جارية لم يلتفت اليها ، ولا سيما مؤسسي الدولة كعماوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن إذا أهده أحد جارية ردها (٢) وعكس ذلك خلفاء او اسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء ، فإنهم كانوا يتادون في حب الجوارى حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبد الملك الأموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فإنها ملكت قياده حتى حلف يوماً أنها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم إلا قضاء لها، فسألته أن يولي حمويه الحرب والحراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته (٣) وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجوارى عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ، ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبار من شاء (٤) ويزداد الجوارى نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء - راجع الجزئين الثاني والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين .

### طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في إبان عمارتها ، وقد تقاطر اليها

١ - المسعودي ٣٦٦ ج ٢ . ٢ - نفع الطيب ٧٠٩ ج ٢ .  
٣ - الاغانى ٨٠ ج ١٥ . ٤ - العقد الفريد ١٤٨ ج ١ .

المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والحراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والأرمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والأندلسي وغيرهم . وفيهم اهل الحرف الراقية ، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقائق وباعة الطعام والشراب ، فضلا عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر تحصره . على أننا تسهيلا للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقربين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاغ وغيرهم .

## الطبقة الأولى

### المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلمهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع .

## ١ - أهل الفنون الجميلة

### المصورون

الفنون الجميلة - ويسمى العرب « الآداب الرفيعة » - ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه ، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . على أن التصوير أزهى وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فإن تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين ،

وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها<sup>(١)</sup> وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلويناً بديعاً أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الأدب أو العلم . وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن اشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقرظيني وغيرهما . أما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لأهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما في الأندلس .

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابها من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بها الأموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله ، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ، وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم ، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، — وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال — بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون .

## ٢ — المغنون

### القناء قبل الاسلام

القناء طبعي في الأمم ، لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف ، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وانعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء ، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو أخته .

ثم ظهر فيهم « الحداة » وهو غناء يتغنأه الحداة في سوق إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين : « القناء » وهو ترنيم الشعر ، و « التبغير » ( بالغين والباء ) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر .

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي :  
النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان ، وهو الذي  
يقال في المراثي ، ويسمى « الغناء الجنائي » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن  
عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل في العروض . و « السناد »  
اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل  
الأول وخفيفه والثقل الثاني وخفيفه . وأما « الهزج » فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى  
بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلو . وشاع الغناء قبل الاسلام في أمهات المدن من  
بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر<sup>(١)</sup> .

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو أشكال منها المستدير والمربع  
والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط أنواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف  
والمزمار وما يتفرع عنها من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الأوتار كالعبدان والطنابير  
والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام .

### الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطات العجم والروم ،  
كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك  
احوال الفراغ وما ليس نافعا في دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انغام  
الجاهلية ، ولم يكن المذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في  
ايام بني امية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة  
العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في  
سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى او السبايا فاصبحوا من موالي  
العرب ، وقد حملوا معهم العبدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فأعجبوا  
بالحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية او  
الرومية ، فنبغ في المدينة في ايام بني امية طائفة من المغنين . والمشهور ان اول من ادخل  
غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسحج ، وهو مكّي اسود كان في مكة لما حاصرها  
الامويون ، وفيها ابن الزبير في اواخر القرن الاول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض

البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسحج يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فأعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس قاتن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغنيي المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء ، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً ، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وانما همنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم .

### الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً ، واختلف الائمة في تحريمه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز اجازوه واهل العراق كرهوه ، وحجة من أحله ان اصله الشعر الذي استحسنته النبي ( ص ) وحض عليه وندب اصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الفارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » واكثر شعر حسان يغني به . وحجة من حرمه انه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من اصله <sup>(١)</sup> وحلل آخرون بعض الغناء وحرّموا بعضه ، ولكن اهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ، ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ، ولا سيما اهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على انه كان يعيب عليه استماع الغناء <sup>(٢)</sup> وان سره اشتغال هذا وسواه من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل .

ولما تولى الخلافة اصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار ، وأول من أباحه ونشط اهله يزيد بن معاوية ، ففي ايام هذا ( سنة ٦٠ - ٦٤ هـ ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهو وطرب <sup>(٣)</sup> وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولاسيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١ - العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ . ٢ - العقد الفريد ١٨٢ ج ٣ .

٣ - المسعودي ٦٨ ج ٢ .

( سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ ) وكان صاحب شراب وهو مع تهتك وخلاعة ، فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق <sup>(١)</sup> فاخذ الغناء في الانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

### مقاومة الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء والامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر <sup>(٢)</sup> وكثيراً ما كان امير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من اقتتان الناس بغنائهم <sup>(٣)</sup> وصرفهم عن امور دينهم ، ولم يكن اهل الفيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكانها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب اننى تسمع هذا الا صبت اليه » ، ثم امر به فخصي ! <sup>(٤)</sup> .

وسليمان هو الذي امر بخصي الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب - قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الامس . فلما تحقق ذلك اقبل على القوم وقال : « هدر الجمل فضبت الناقة » ونب التيس فشكرت الشاة ، وهذل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ! « ثم امر به فخصي . وسأل عن الغناء ابن اصره فقيل : « في المدينة يجاعة الخنثين وهم ائمه والحدائق فيه » فكتب الى عامله هناك : « اخص من قبلك من الخنثين المغنين » فخصاهم <sup>(٥)</sup> .

على ان المنتهكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من اسباب اللغو ، قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من استقدم المغنين اليه : « اياكم والغناء » فانه

١ - المعقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسمودي ١٣٣ ج ٢ .

٢ - المعقد الفريد ١٩٦ ج ٢ . ٣ - الاغانى ١٣٠ ج ٢ .

٤ - الكامل للبهر ٣٧٧ . ٥ - الاغانى ٦١ ج ٤ .



ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويشور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، وإني لأقول ذلك فيه على انه احب الي من كل لذة واشهى الي من الماء البارد الى ذي الغلة ، ولكن الحق احق ان يقال ا<sup>(١)</sup> .

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسي الدول او معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم ، او اهل التقوى مثل عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبدالله بن جعفر . اما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه ان يكتب باستقدامه ، فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلاً ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك ل؟ » وتمثل :

إذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

واوقف الكتاب<sup>(٢)</sup> . وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء<sup>(٣)</sup> وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبدالعزيز فبلغه ان قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله<sup>(٤)</sup> . والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاحية قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء<sup>(٥)</sup> وربما امتنعوا عنه الى اجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد اهمه تأييد خلافته ، فبقي عشرين شهراً لا يسمع غناء<sup>(٦)</sup> وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري ، فإنه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق<sup>(٧)</sup> .

#### اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا واخذوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جلستها الغناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا

- 
- |                                 |                        |
|---------------------------------|------------------------|
| ١ - الاغاني ١٣٤ ج ٦ .           | ١ - المسعودي ١٣١ ج ٢ . |
| ٣ - الاغاني ١١٥ ج ٢ .           | ٤ - المسعودي ١٢٢ ج ٢ . |
| ٥ - فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢ .      | ٦ - الاغاني ١٠٦ ج ٥ .  |
| ٧ - الاغاني ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩ . |                        |

سيا في الحكم المطلق ، فاذا احب الخليفة الفناء احبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . واول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الالحان والتلحين ، اشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد . اما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبدالله بن موسى الهادي وعبدالله بن محمد الأمين وابو عيسى بن المتوكل وعبدالله بن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفربه العباسيون بنواحي اصبهات سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطناير والمزامير<sup>(١)</sup> .

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية<sup>(٢)</sup> وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء - وسنعود الى ذكرهم .

### ٣ - العلماء والفقهاء والأدباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر ، او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية او الادبية او التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من اصحاب الاخبار ، كالاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع ابحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب .

واقتردى بالخلفاء وزرأؤهم وامراؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم اغدقوا

الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بها اصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السرياني والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي ، فانهم فئة من اهل الذمة قريتهم الخلفاء وأكرمهم من اجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

#### ٤ - التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة ، كالجواهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقائق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام اصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة .

فكانوا يحملون الباقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطاراز الوشي والاقشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعللة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن اصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية ، وكانت لهم صبغ من القرمان يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعتابي والوشي وسائر ثياب الحرير من أصفهان . والثياب المنيرة من الري ، والابريس ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الاسود وجلود الحز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس ، والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر ، وكذلك المسك ، ولكن اصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطياشة المقورة الرفيعة من كرمان . والحص والقساطي والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية السضاء

المعلمة من قومس - ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف من البصرة . والحصر من عبادان . ولديباغ والأنماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين .

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الاتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الأبيض أيضاً من الاندلس وفيه الجوارى والغلمان ، وأصلهم من سبي الافرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ، ربما يبيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب .

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر ، وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلية ، ويسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر (١) كما كان الفينيقيون ابان دولتهم .

أما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيراقيون ، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلقل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد (٢) .

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة . ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة واكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل، فنخاس وآل عمران وغيرهم .

## تجار المسلمين

فلما فضج الثمن الاسلامي واشتغل المسلمون بأنفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها ، واتقنوها علماً وعملًا حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة » فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد اليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق اثمان الأشياء ، ما لا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى اطراف المعمورة في ذلك العصر ، فقد طافوا العالم برأً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي اواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها احد .

اما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوباً الى مدغشقر وسائر شواطئ افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . اما برأً فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء ، فغربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة .

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يحوبون الاقطار برأً وبحراً ، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطئ فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحاري خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد برأً . واشتهر من تجار المسلمين من كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزننج واليمن والقلم ، وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه<sup>(١)</sup> .

## ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة - وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط او بعض اهله . فظهر في عهد ذلك التمدن، بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة، فيخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الاميركي في هذا القرن، واول من اثرى منهم الحسن بن عبدالله، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري اني كنت في دهليز ابي الجيش خارويه بن احمد بن طولون بمصر، وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه، وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت إلي قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة، لم ار قبله ولا بعده افخر ولا احسن منه، كل حبة منه تساوي مائة الف دينار، وقالت: يحتاج ان تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلاندها . فكدت اطيروا واخذتها وقلت: السمع والطاعة، وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار، ولم ازل اشترى كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته وارادته، وجئت عشياً وقلت: ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا، ودفعت اليها المجتمع وقلت: الباقي يخرط في ايام، فقنعت بذلك واعجبها الحب، فخرجت وما زلت اياما في طلب الباقي حتى اجتمع، فحملته اليها . وقامت علي المائة حبة بدون المائة الف درهم، واخذت منهم جوهرأ بمائتي الف دينار . ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني، وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١) .

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع الجواهرات، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في اوائل القرن الرابع للهجرة، كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا، وسبب ذلك ان عبدالله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل امره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور، فوشى به خادماً فصادره

المقتدر بالله على ١٦٠٠٠٠٠٠ دينار ، وبقي له بعد مصادرتة شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان احق ابله - فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار اهل النباهة والدهاء .

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والاثاث ، ولا سيما في البصرة ، فقد اشتهر جماعة من اهل اليسار واكثر غناهم من تجارة البحر ، فقد كانت سفن بعضهم تعد بالملئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم - ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة <sup>(١)</sup> . وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار <sup>(٢)</sup> . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة ، فأصعد الى بغداد في ايام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرت عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلاً <sup>(٣)</sup> .

## ٥ - الصناعة

اما الصناعة فقد اخذوا منها بنصيب كبير ، لانهم كما برعوا بالتجارة في السلع برعوا ايضاً في صناعتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال ، حتى فاقوا في بعضها البلاد الاخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم ، نقلوه من موطنه في الهند الى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل <sup>(٤)</sup> وهم اتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعندهم اهل اوربا بطريق الاندلس <sup>(٥)</sup> وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفتخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون في مرسية وشيأ مذهباً في غاية الاتقان ، وفيها ايضاً معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في مالقة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع في صناعة الزجاج

١ - ابن الاثير ٢٠ ج ٩ . ٢ - ابن حوقل ١٩٨ .

٣ - الفخري ٢١٣ . ٤ - Encycl. Brit. article Sugar .

٥ - الجزء الأول .

يؤثرونه لهم ، فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الاندلس<sup>(١)</sup> واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة - وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طابق كبير مستدير فيه طيقان صفر (اي نحاس) قد فتحت ابواباً صفاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من في بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منها ، احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيها تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويذهبانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاج مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاج ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاع فلاحته للأبصار دائرة حمراء ، ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى ينقضي الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اهـ<sup>(٢)</sup> .

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والأغال وغيرها للرفع والجبر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ، ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون



البيزنطي ، وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية قسطنطين لوقا البعلبكي ، وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الاخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد اصله اليوناني قبله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات (١) .

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند انفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير ، وهو تأليف « رئيسر ، الاء ال بديع الزمان ، ابو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، في اسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية ألفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارتق في اواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق - فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه الى كتاب بأمره .



## الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الأعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنت والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : اهل القرى وهم المزارعون ، واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاة .

### ١ - المزارعون أهل القرى

فالمزارعون او الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها ، واكثرهم من اهل الذمة يقيمون في القرى الا من اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية : السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية في بلاد فارس ، والتركية في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على السنتهم ، والاسلام يتغلب على اديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً ، وامت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلاداً عربية واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً ، وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ، ولكن السنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهم بها الى الآن .

## ٢ - العامة سكان المدن

هم نفر من يؤمون المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب ، بالتجارة او الجندية او الأدب او الشعر ، وتتعهد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم واصحاب القرائح فيضطرون الى احترام ما يعيشون به مما لا يحتاج لهمة او رأي . ولو اردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلاً لرأيناهم اخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكرد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عرباً لتغلب اللغة العربية على سنتهم .

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحذادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والحبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف ، كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضر ونحوها .

والطبقة الثانية رعا ع يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على افر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجليل تصور امثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم - إلا الذين ادركوا متشردى بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترقون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعا ع ذلك العصر ، فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواويل ونحوهم ، كثيراً ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها .

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حذر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا مهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الأجزاء الماضية ، ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجر اليه الفتن من وقوف الأعمال وغلاء الاسعار ، غير ما كان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الأقوات ، فتقل أرزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويؤلفون عصابات لمناوأة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم في المدن ، ولا سيما بغداد أم المداين الاسلامية

في ذلك العهد . فكان الرعاع يتكاثرون ويزدادون تعدياً ، والحكام في شاغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالي . وتوالى ذلك أعواماً حتى خربت مدينة السلام وام حضارة الاسلام . ولا يمكن الاثام بكل طوائف الرعاع فنذكر اشهرها :

### العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وكان لهم في الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير ، لان الامين لما حوَصِر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالخصى والرمل . ونظمهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد امير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومفهم اناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود ولجما من مكافس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ خمسين الف عيار <sup>(١)</sup> وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والخصى ، وكانوا اهل مهارة في ذلك فأبلاوا بلاء حسناً ، لكنهم لم يثبتوا امام المجانيق والجنود المنتظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا	لا لقعطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدو	ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الأب	طال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفية	ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطم	نة خذها من الفقى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفاً اسمه يبنونه وعمل لهم تراساً من البواري المقيمة واعطاهم الخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنة اهلية اغتتموا اشتغال الدولة بها وهوا

بالمنازل والحوانيت واخذوا الاموال . وكثيراً ما كانت تحدث امثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (١) .

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنارع على السلطة او الاموال ، واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ، ولأسياب بين السنة والشيعة او الحنفية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق واخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند ، واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزبيقي (٢) بطل القصة المشهورة .

وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم (٣) .

### الشطار

هم طائفة اخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم منظر يأتزون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار (٤) ، وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاء منهم ، وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتكنيات وتركيبات واخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الشكل (٥) على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون في العراق بالشطار ، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفي المغرب الصقورة ، وسمام ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في ايامه ( القرن الثامن للهجرة ) وأشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزووار ، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطاناً عليهم ، وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالا وفرساً ، واذا ظهرت منه شجاعة امره ، الى آخر ما ذكره (٦) .

- 
- ١ - ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ - ١٥٠ ج ٩ .
  - ٢ - ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩ . ٣ - ابن الاثير ٤١ ج ١١ .
  - ٤ - الاغانى ٩١ ج ٦ . ٥ - نفع الطيب ٧٦٦ ج ٢ .
  - ٦ - رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ .

ولم يكن الشطار وغيرهم من اهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وانما كانوا يعدونها صناعة ويحلونها باعتبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الأغنياء زكاة تلك الاموال التي اوصى باعطائها للفقراء<sup>(١)</sup> وكان اولئك اللصوص اذا شاخ احدهم ربما قاب فتستخذه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية ، جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » ، على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم<sup>(٢)</sup> .

### طوائف اخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة او من في معناتهم ، وتكاثروا في عصر الاضمحلال بالملكة العباسية ، كالصعاليك والزواقل والحرافيش وغيرهم ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفاً من الصعاليك<sup>(٣)</sup> :

ويدخل في معنى هذه الطوائف من تجمهروا للارتزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الاحوال وضعف اسيادهم ذهب الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة ، فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ ، فدعاهم الى النهوض معه على ان يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض ( المماليك الاتراك ) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل امرهم وضربوا اسيادهم بالسياط<sup>(٤)</sup> واجتمع منهم مئات الآلاف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في اثناها ٢٥٠٠٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال مما تقشعر له الابدان . وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفريق اطحابه . واراد البجة بمصر ان يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يعد من هذا القبيل ايضاً الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضيين ظهروا في القرن

١ - الجزء الرابع . ٢ - المسعودي ٣٣٥ ج ٢ .  
٣ - ابن الاثير ٦٩ ج ٧ . ٤ - ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبري .

الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدراً ، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام<sup>(١)</sup> .

ومن طبقات العامة « الخنثون » ، وكانوا في الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان احسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الفناء في المملكة الاسلامية انتشر الخنثون معه ، وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب . والأندلسيون اذا قالوا الخنايث قد يريدون الممالك الصقلية .

وفما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصى عدده من أهل الاحتيال للمعاش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً ، كقولهم المخطراتي والكاغاني والبانوان والقرمي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطبل والمزيدي<sup>(٢)</sup> وغيرهم .

### أخلاق العامة

فالعامية في المدن أخلاط من غوغاء ولقيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال : « هج رعاع اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأديب ، والناس بعدهم زيد جفاء وسيل غناء ، لكع لكاع وربيطه اتضاع ، هم احدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لي الناس ، فقال : « رؤوس رفعمهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، واعجاز اشهرهم المال ، وأدباء ألحقهم بهم التأديب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم .

١ - الهلال ص ٨٣ سنة ١٠ .

٢ - كتاب البغلاء ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معاني هذه الالفاظ .

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعهم الكبرى ، ولا غرو فانه اكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا اظهر التقوى ، لما في منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضداً قوياً ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعه . واكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل احدهم عن اعتقاده لما احسن الجواب ، فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الأمور .

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني في صفين ! فارتفع امرها الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقتة فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفي: « أصلحك الله ، انه جل وليس بناقة .. » فقال معاوية: « هذا حكم قد امضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن من بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحس . اليه وقال له : « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجل » .

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء ، وأعاروه رءوسهم عقد القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجته لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا لمن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير .

وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال : « انه مرجىء قدرى اباضي رافضي ، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص ! » فقال له الوالي : « ما ادري على اي شيء احسدك ، على علمك بالمقالات او على بصرك بالانساب .. »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلي ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدي اكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان ! » .



فقال له الرجل : « فما تقول انت في علي ؟ »

قال : « أليس هو ابا فاطمة ؟ »

قال : « ومن هي فاطمة ؟ »

قال : « امرأة النبي عليه السلام .. بغت عائشة اخت معاوية ! »

قال : « فما كانت قصة علي ؟ »

قال : « قتل في غزاة حنين مع النبي ، وقد كان عبدالله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر . ونزل عبدالله بن علي الشام ، ووجه الى ابي العباس السفاح اشياخاً من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة » (١) .

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لانهم معظم الرعية وبهم تجبى الاموال ومنهم تتألف الجنود ، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين ، فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكثرهم دهاء واقدروهم على استرضاء العامة بالتقوى .



الأداب الاجتماعيّة

## آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في حياتهم الاجتماعية ، وما يتبادلونه من العلاقات العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن .

### مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ظروف معاشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فلبدو مناقب غير مناقب الحضرة ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تختلف آداب أهل الاقاليم الباردة ، جرياً على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء .

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلاً أكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الحلاء وبعده عن الحماية وانتبازه عن الأسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح وينفرد في القفر واثقاً بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف أهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن اعراضهم وأموالهم وأنفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستنابوا الى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع أهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه :

## ١ - العصبية

هي اظهر طبائع البدو وأعمها ، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع .

## ٢ - الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو ، وهم دائماً في قتال أو يتأهبون لقتال ، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبية فيهم ، يكرموا مجاع ويتفاخرون بالشجمان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والاسلام ، كعمرو بن معديكرب ، وربيع بن المكدم ، ودريد بن الصمة ، وعروة الورد ، وعنزة العبسي ، وملاعب الأسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضاً ، كما سيحيى في كلامنا عن المرأة

## ٣ - الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفرداً ، وقد يبتعد عن مضربه أياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فإذا لم يجد من يقره ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة رقرى الضيفان ، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تقدمهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغلاة فيها ، حتى أوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى ، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الأسخياء يبالغون في ذلك ويكثر من النيران ، فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إيقادها ، فرقوا الكلاب حوالى الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبج ، فيهتدي الأضياف على نباها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم : « داعي الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستطيل في ظلها <sup>(١)</sup> .

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة في مدح كريم : « إنه أكرم من حاتم طي » . ومنهم كعب بن مامة الأيادي ، وهرم بن سنان ، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الإنسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم ، وربما جادوا بالإبل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى .

#### ٤ - الوفاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي ، لإمكانه الفرار من القصاص والإيفال في البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الأجيال خلقاً لهم ، وصاروا يأنفون من إخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء .

#### ٥ - الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولا سيما الرجل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقماً بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس وإباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام ، إذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لأنه كان طبعاً مألوفاً فيهم ؟

#### ٦ - النجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث إغاثة الضعيف ، فإذا استنجدت البدوي على أمر أنجذك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدهم على الخصوص في الجوار وحمل الذمار ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع .

## ٧ - الأريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفاً مختصراً في الجزء المذكور، وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الاقرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الأحداث ، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير ، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعه ، وربما تجردوا الحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم . وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً او طعناً فيبذلون ما في وسعهم التماساً لثنائهم ، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل ، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهم ، وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك .

## ٨ - الثأر

وكما ينجذك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الأخذ بثأره اذا أسأت اليه ، واذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين ، فتقوم المتوردة منها للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفء لقتيلها او يتصالحوا على الدية . ومن اشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي اثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر اخيه كليب ، فاصبح المهلهل مثلاً في ذلك، فيقولون : « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لانه حلف منذ طلب الثأر انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء الا بعد نيل مرامه .

## ٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلوها اكبرهم سناً ، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية <sup>(١)</sup> ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية ، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن ، فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوها اكبرهم سناً ، عملاً بالحديث النبوي بشأن الامامة : « يؤم القوم اقرؤهم

كتاب الله تعالى ، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنة » (١) .

### المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي ، ولا مشاحة انها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والانفة ، لان المرأة التي تشب على استقلال الفكر وابعاء الضيم ترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غير رجاءهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال ، لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته بعظم على طباعه احتال ما ييس عرضها من قول او فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كانت حال العرب في الجاهلية لقللة الجوارى يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعانته في اسفاره وأعماله .

### الوآد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم او يشدوهن ، لئلا يرتكبن ما يحرم عليهم العار . ولم يكن الوآد عاماً في قبائل العرب ، ولا كان قديماً عندهم ، وانما حدث قبيل الاسلام . وكان منحصرأ في بعض بني تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طراً عليهم - ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاة ( الجزية ) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنهوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق انعامهم وسبى ذرارهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم وأموالهم فأبى ، فقالوا : « اعطنا النساء » فقال : « اننا نخيرهن في الذهاب او البقاء » وأعلن « ان كل امرأة اختارت اباه ردت اليه وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت اباهن الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحببت عمرو بن المشرج فاخترت البقاء عنده ، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (٢) وربما اقتدى به بعض اهل او اهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا

يزوج بناته غيره عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له اربع بنات منهن الزواج ومن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد<sup>(١)</sup> ولم يطل زمن الواد عند العرب ،  
لانه مخالف لأحكام العقل ومباين لمواطف الوالدين . فما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية  
وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات<sup>(٢)</sup> حتى بطل الواد .

### شعيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة ، وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم ، فنبغ غير  
واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل  
الاسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب  
رفيعة تضرب بها الأمثال ، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد .

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ، منهن سلمى بنت  
عمر إحدى نساء بني عدي بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال إلا  
وأمرها بيدها ، إذ أرأت من الرجل شيئاً تركته . على أن الغالب في نساء الجاهلية أن  
يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها<sup>(٣)</sup> واشتهرت التميميات  
من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهن<sup>(٤)</sup> ناهيك بمن اشتهرت  
منهن بالبسالة في أثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال ، فلم  
يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا  
بها<sup>(٥)</sup> . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال ،  
فجمعت اليها نسوة أخذن في أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم  
على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها  
جثة حمزة عم النبي ، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن  
تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين<sup>(٦)</sup> .

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرجى ويحملن قرب

١ - الكامل ٣١٦ . ٢ - الف باء ٢٠ ج ٢ .

٣ - الاغاني ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨ . ٤ - الاغاني ٢٠٣ ج ١٨ .

٥ - الاغاني ١٧ ج ١٤ . ٦ - الاغاني ٢٠ ج ١٤ .



الماء ، ومن اشتهر بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ،  
والخفساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (١) .

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت  
عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال ، تلتقي من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم  
فتستأجرهم بما لها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة  
بالأمانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه ان يخرج في مالها تلجأ الى الشام وتعطيه افضل ما  
كانت تعطي غيره من الرجال ، فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها .  
وهي أول من اسلم ، وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد  
عليه او تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت  
على ذلك حتى ماتت .



# آداب العرب في صدر الاسلام

## الآداب الاجتماعية

### في العصر الاسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما الفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها ، كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها في اواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى : ايام الراشدين ، وايام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منها على حدة .

#### ١ - الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين ، إلا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام ، واصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق ، واذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال إلا لمن استحقه من اهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون

الخلفاء في هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه .

اما ما بقي من مناقب العرب فطلت على نحو ما كانت عليه ، وبعضها زاد تمكننا في نفوسهم ، كالوفاء والنجدة والعفة والانفة ، لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى ، فكان الخليفة او اميره اذا وعد وفى ، واذا عاهد انجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع او خوف . اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة ، اذ عاهدوهم على ان يحموهم مما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا<sup>(١)</sup> ولولم يردوها ما طالبهم بها احد ، وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ، ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام ، لما قواه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى اصبحوا يخاطبون الخليفة او الامير بحسرة وانفة كما يخاطبون بعض اقربائهم ، واذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه او عنفوه واصلحوه ، فاذا لم يطعمهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان . وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخضب فيهم ، اذا انكروا شيئاً من اقواله او اعماله .

### المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فانجحت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال منهن عائشة ام المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة ، حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة وروت احاديث كثيرة هامة .

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشير ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وایامها وفي مطالع الكواكب واحوالها . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يحييها النساء الشوارع وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، واحد لماشطتها وآخر

لحازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهواذج<sup>(١)</sup> .

وسكينة بنت الحسين بن علي ، وكانت معاصرة لمائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش<sup>(٢)</sup> وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذنًا عامًا حتى تقص الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتفتقد اقوالهم وتجزئهم ، وخبرها في ذلك مشهور<sup>(٣)</sup> .

واسماء بنت ابي بكر ، المعروفة بذات النطاقين وهي ام عبدالله بن الزبير ، وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يش من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتخريضا اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها<sup>(٤)</sup> .

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء ، كليلي الأخيلية والخنساء المتقدم ذكرهما والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعه واحتجبت عنه . كما اتفق لأبي دهب الجمحي مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر ، وكان ابو دهب من اشراف بني جح وكان لا يفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن ابي دهب وانه يقول انها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم<sup>(٥)</sup> .

ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

## ٢ - الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا مهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة

١ - الاغاني ٦٠ ج ١٠ . ٢ - العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢ . ٣ - الاغاني ١٧٣ ج ١٤ .

٤ - ابن الاثير ١٩١ ج ٤ . ٥ - الاغاني ١٦٥ ج ٦ .

في الجاهلية اغفلوا كل ما يخافون حيولته بينهم وبين ذلك المرمى ، واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لفرضهم - فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه ، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة ، واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء .

والشجاعة لم يكن لهم بد منها ففربوا اصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم ، فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام .

اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظرهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرّاً ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيدالله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم .

### تقييد الافكار في ايام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا اللسان بارادتهم تقييداً شديداً ، فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال افكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سرّاً - بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام ، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد ابي ذر الغفاري ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد اهل الدولة بأموال المسلمين<sup>(٢)</sup> .

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم يربداً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمر بن الحمق واصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير ان علياً لا يجوز لعنه على المنابر<sup>(٣)</sup> فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا

يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التعمويه والرياء حتى في المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة ، وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتمى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أبخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت .. » (١) .

واقتنى بمعاوية من عاصره من الأمراء او جاء بعده من الخلفاء، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام.

#### النجدة والاريجية في أيام بني امية

اما النجدة والاريجية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في العرب ، وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنها في بعض الاحيان . اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بني امية استبداداً وظلماً، وفي اخبارهم كثير من امثلة ذلك ، منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين بأسير من اهل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذي امكنني منك » .

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال : « واي نعمة اعظم من ان يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنقه يا غلام »

فقال الاسير : « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى بقتلي ، وانما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو اهله وان لم يفعل فافعل به ما انت اهل »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنه » .

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام اصفر القوم فقال له :

« يا معن ، أقتل الأسرى عطاشاً ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يا معن ، أقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن بإطلاقهم ..

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب اعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال : « والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعفو » فقال الحجاج : « اف لهذه الجيف ! أما كانت فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك <sup>(١)</sup> .

وكثيراً ما كانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الأعدوة ، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فأوعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال : « والله لا تتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت في نفسي عنك » فقال : « فاذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » قال : « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا ابني الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأمر المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا <sup>(٢)</sup> .

وظلت الاريجية مرعية في اوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنهض بها اريجيتها في العفو عنهم <sup>(٣)</sup> ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي - وكان مصمماً على قتله - شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت عنه فما لك نظير » <sup>(٤)</sup> فعفا عنه .

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الأتراك ، وتحولت الأغراض في اهل الدولة الى كسب الأموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت الأريجية والنجدة ، على أن ذهابها بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني .. فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل إلا ما يوصله الى غرضه .

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولا تزال حتى الآن .

١ - العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢ .

٢ - الاغانى ١٦٣ ج ١٧ وابن الاثير ١٥٩ ج ٤ .

٣ - الاغانى ٢٣ ج ١٢ . ٤ - ابن خلكان ٩ ج ١ .

## المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابها في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجراً الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر الخنثون في المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس. فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً<sup>(١)</sup> ولا تخامرهم فيه ريبة ، وإذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريئة طلبه للمبارزة أو المحالدة أو المصارعة<sup>(٢)</sup> (الدويلى Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني<sup>(٣)</sup> - حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون الذسب أو الغزل إلا قليلاً . ويقال أن امرأ القيس هو أول من شبب بالنساء<sup>(٤)</sup> ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيبتهم ، على أنهم قلما شببوا بعد ذلك إلا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا اتفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره ، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائحهم الشعرية . على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة<sup>(٥)</sup> .

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاطبان ويتحادثان ثم ينصرفان . واشهر الناس في ذلك بنو عذرة ، واكثر عشاق العرب منهم .

## التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشبون بغير خطيباتهم ، فاذا شبب احدهم بفتاة قبل ان يخطبها منعه منها<sup>(٦)</sup> ، وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة إلا جلد<sup>(٧)</sup>

١ - الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ . ٢ - الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦ .  
٣ - الاغاني ٧٤ ج ١٩ . ٤ - الاغاني ٦٧ ج ٢ . ٥ - المسعودي ١٢٢ ج ٢ .  
٦ - الاغاني ١٨١ ج ٢٠ . ٧ - الاغاني ٩٨ ج ٤ .



ونظراً لقلة من يحسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شرب بامرأة اشتهرت فتزوج ، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر ان يشرب ببناته ليتزوجن .

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقلبيهم وطرق معاشهم اهل عفة ، والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والأندية على غير ريبة . حتى في الكعبة ، فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لأن العفة كانت غالبية على طباعهم ، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسري والاستكثار من الجواني تغيرت تلك الطباع . فلما كانت اماره خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف      وحبذا الكعبة من مسجد  
وحبذا اللاتي يزاحمننا      عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف<sup>(١)</sup> .

وفي أيام بني أمية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء ، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال اهلها على القصص واللو . ومما زاد انكارهم للتشبيب ان الشاعر اذا نظم ابياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . واول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون ، واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق حفيد ابي بكر الصديق ، وكان من اهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبيب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي ايضاً ، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجراً الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازواره على حرام<sup>(٢)</sup> واقتدى به العرجي وهو من قريش ايضاً<sup>(٣)</sup> ونبغ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً .

ولم يكن الخلفاء في اول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على اخلاقهم ، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قوام ، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا اذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلففون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القليل ان عبد الرحمن بن

١ - المسعودي ١١٦ ج ٢ . ٢ - كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١ .

٣ - الاغانى ١٥٤ ج ١ .

حسان بن ثابت شبيب بابنة معاوية وهو خليفة في ابان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال : « يا امير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان » .

قال : « ولم ؟ » .

قال : « شبيب بأختي » .

قال : « وما قال ؟ » .

قال : « قال :

طال ليلى وبنت كالحزون وملأت الشواء في جبرون » (١)

قال معاوية : « يا بني ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله ! » .

قال : « صدق يا بني » .

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجات الظنون

قال : « يا بني ، وما علينا من أهله ؟ » .

قال : « انه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون »

قال : « صدق يا بني » .

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتهما لم تجدهما في سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يا بني ، هي هكذا ! » .

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الحفراء تمشي في مرمر مسنون »

قال : « ولا كل

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : « لا ، ولكن اداويه بغير ذلك » . واتفق ان عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس ، فاستقبله احسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » . قال : « في اي شيء ؟ » قال : « في مدحك اختها وتركك اياها » . قال : « فلها العتبي وكرامة ، انا ذاكرها وممدها » . فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى ان تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء » ، فاذا هو على رأي معاوية وأمره » . وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى ، وانه انما خدعه ليشبب بها ولا اصل لها ، فعلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبيل الجمحي ايضا بابنة معاوية فعامله بالدين وقطم لسانه بالمطاء (١) .

فقس على ذلك سائر خلفاء بني امية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الاخرى وقربهم من اسباب القصف . وكان تلك الاسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وقلمّا كان يحسر على ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجييين ويلقيان الحاج فيمرضات للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون ان تكون فيهن بنت الخليفة او امرأته .

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثنى الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت ارادت الحج فخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة ، فاستكتب الحاجج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضت حجبها خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من انت ؟ » فقال : « من اهل مكة » قالت : « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت : « حببت فدخلت مكة ومعي من الجوارى ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره أبياتا نلهو بها في الطريق من سفرنا » قال : « اني لا أراه الا قد فعل » قالت : « فأتنا بشيء ان كان قاله » ، ولك بكل بيت عشرة دنانير ، فمضى

اليه فاخبره فقال : « لقد فعلت ولكن أحب ان تكتم علي » وأنشده قصيدة قالها فيها <sup>(١)</sup>

ومن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الأحوص ، كان يشبب بفساء ذوات أخطار من اهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه <sup>(٢)</sup> . ووضاح اليمن كان يشبب بأُم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال : « ان قتلته فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس ان بينه وبين امي ريبة » فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدّها      اخت الخليفة والخليفة بعلمها  
فرحت قوابلها بها وتباشرت      وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساءنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببنائه فحفرت ودفنه بها حياً <sup>(٣)</sup> .

فكانت ايام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشارا أنشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة <sup>(٤)</sup> فظل التشبيب مستقبحاً حتى أباحه الرشيد والحق في نظمه <sup>(٥)</sup> قال ذلك طبعاً الى ضعف الغيرة .

١ - الاغاني ١٢٨ ج ٢ . ٢ - الاغاني ٤٨ ج ٤ . ٣ - الاغاني ٤٠ ج ٦ .  
٤ - الاغاني ٤١ و ٥٨ ج ٢ . ٥ - الاغاني ١٦٠ ج ٣ .

## الآداب الاجتماعية

### في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن ، فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية ، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوة وخشونتها وسذاجتها ، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب . فذهبت العصبية العربية . واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجدة إلا آثار ضعيفة

### المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجوارى وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بأمانته ، إذا هو قد تشتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرة عليها . ولما رآته مشغولاً عنها قلت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن ، وذهبت حريتها وغيبتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يههما ذلك ولا تفارمته (١) وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها (٢) .

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصي بعدم الإركان اليها ، فيعاشرها على غل وسوء رأي ، يقفل عليها الأبواب والنوافذ ، ويسد في وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس ، حتى أُلُفوا فيه الروايات والأقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا في وضع الجمل الحكيمة والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . وهذه هي قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في العصر الاسلامي الوسطي ، بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف . وأما الأشعار فإليك ما قاله أبو العلاء المعري :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً      فلا يدخل على الحرم الوليد  
وإن خالفتني وأضعت نصحي      فأنت ، وإن رزقت حجي ، يليد  
ألا إن النساء حبال غي      بهن يضيع الشرف التليد<sup>(١)</sup>

وأصبح الكاتب إذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي ، إذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه في بنته وهو قوله

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ، ونحن في زمان اذا قدم احداً فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريماً      كنعمة عورة سترت بقبر  
وقال آخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً      والموت أكرم نزال على الحرم  
وقال آخر :

وددت بنيتي وودت أني      وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر ،

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبیت<sup>(١)</sup>

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة . فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء ، لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر .

### الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه ، سواء كان ذلك بالتجارة او الزراعة او الصناعة او غيرها . وقد وضعوا لكل من ابواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعدها إلا في احوال خاصة ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث في مصر لهذا العهد ( حوالي ١٩١٠ ) . وعلى أي حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله .

أما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . وأما في الخاصة واتباعهم فكان على اسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدينين في هذا العصر ، ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارتزاق بيت المال ، وهو في قبضة الخليفة او من يقوم مقامه من الوزراء او القواد او الأمراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون

درهم في العام، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليوناً، فالباقي ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة، وأكثرها من جباية الخراج. وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلاً، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث، وذلك في نظر أهل هذا الزمان ظلم، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً، لأن العباسيين نقلوا الخراج من المساحة إلى المقاسمة، فبعد أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع، حصروا الخراج في الأرض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها<sup>(١)</sup>.

### سنة العرب في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها، ويفرق سائرهما فيمن بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب، فتتسع أحوالهم بالجاء أكثر منها بالمال، فيضطرون إلى الانفاق لحفظ مقامهم. فينفقون على من يتعلق بهم، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله إلى حواشيهم واتباعهم، ومن هؤلاء إلى الباعة وأهل الأسواق فيعود إلى العامة كأنه لم يؤخذ منهم. وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الإسلامي، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم. فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملاً ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق، وإنما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة، أو هبات في أوقات غير معينة، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلحقهم من الفنائم ونحوها. ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها<sup>(٢)</sup> ولكن ذلك كان محصوراً في أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى. أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة، لتمكن السخاء في نفس العربي، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجاهلية. فأمر القبيلة كان يغزو بقبيلته، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله، وهؤلاء يفرقونه في أهلهم واتباعهم، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق أنهم «نهابون وهابون»<sup>(٣)</sup> وكانت العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدون قبيحاً<sup>(٤)</sup>.



والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور ، وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو امية في الخلافة واستخدموا الاموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء . فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والافسد عليها حمايتها وتقردها .

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جرياً على سنة العرب او عملاً بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي ( صلعم ) : « نعم المال الأربعمون ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المثين » <sup>(١)</sup> ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً . على أن المسلمين في ايامهم كانوا مشغولين بمسألة ايديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في ايامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير ، فلما طمع الامويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا اعطيات الجند ووهبوا واجازوا ، وضاعفوا رواتب ابناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى .

كذلك كان يفعل عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص <sup>(٢)</sup> فيفقد أحدهم على معاوية او يزيد فيؤدي له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنوية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه <sup>(٣)</sup> وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة <sup>(٤)</sup> وليس ذلك خاصاً بفئة منهم بل كانت شاملاً الأكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تقدر على الخليفة وربما كانت في ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلاً ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر او الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به <sup>(٥)</sup> - حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء <sup>(٦)</sup> .

- 
- |                        |                                  |
|------------------------|----------------------------------|
| ١ - الاغاني ١٥٢ ج ١٢ . | ٢ - العقد الفريد ٨٥ ج ١ .        |
| ٣ - المسعودي ١١١ ج ٢ . | ٤ - العقد الفريد ١١٠ ج ١ .       |
| ٥ - الاغاني ٦١ ج ١٠ .  | ٦ - الاغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧ . |

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز ، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابهم يفرقونها في الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلها <sup>(١)</sup> وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما أنفقوا بهضه في حاشية الخليفة او غلمان <sup>(٢)</sup> ليسهلوا لهم الدخول عليه .

### استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء او الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم . اما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساءً . ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس <sup>(٣)</sup> واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الأجواد ممن كانوا يقبضون الأعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم .

وجرى الدهاء من عمال الامويين على هذه السنة ، فنصبوا الموائد على الطرق ، فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقددها ، يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أريزة ليس عليها سكر أمر الخباز بأن يحمي بسكرها ، فاذا ابطأ حتى اكلت الأريزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط . وكذلك كانت يفعل عمال الحجاج في سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء <sup>(٤)</sup> وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان <sup>(٥)</sup> وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس <sup>(٦)</sup> وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد

١ - ابن خلكان ١٣١ ج ٢ . ٢ - الاغانى ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢ .  
٣ - المقد الفريد ٨٣ ج ١ . ٤ - المقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١ .  
٥ - المقد الفريد ٦ ج ٣ . ٦ - ابن خلكان ٢٧١ ج ٢ .

يحضرها الخاص والعام<sup>(١)</sup> وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم ، واذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه<sup>(٢)</sup> هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب ، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر او عملاً بمقتضى الأريحية .

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين ، وانما هو ايضاً من سنن الأعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق واللحم ، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب او لبن وممكة مصنوعة<sup>(٣)</sup> والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية .

وأما الخاصة او من جرى مجرام من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم الهبات او يعينون لهم الرواتب لتقييد إرادتهم<sup>(٤)</sup> كما تقدم ، ولذلك كان اهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثرى من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر — ذكروا دويلاً غيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى ان قالت : « هذا فلان قد أخذ لأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً ، وأنت ههنا كما ترى .. » وكانت امرأته اهلية فأنشأ يقول :

١ - ابن خلكان ٥٥ ج ١ .

٢ - المقرئ ٨٥ ج ١ .

٣ - ترتيب الدول ١٢٠ .

٤ - الاغانى ١٥٤ ج ١٧ .

تَلومُ على ترك الغنى باهلية      ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد  
 رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا      مقلدة أعناقها بالقلائد  
 أسرك أني نلت ما نال جعفر      من العيش أو ما نال يحيى بن خالد ؟  
 وأن أمير المؤمنين أغصني      بغصهما بالمشرفات النوارد ؟  
 رأيت رفيعات الأمور مشوبة      بمستودعات في بطون الأسود  
 دعيني تجيء منيتي مطمئنة      ولم أنجشم هول تلك الموارد<sup>(١)</sup>

### الهبات والدين

على أن الفقهاء واهل التقوى كانوا في صدر الاسلام وأوائل دولة بني أمية يعدون  
 صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا  
 يتفاخرون بنيلها . قال ذو الرمة :

وما كان مالي من تراث ورثته      ولا دية كانت ولا كسب مأتم  
 ولكن عطاء الله من كل رحلة      الى كل محجوب السراقد خضرم<sup>(٢)</sup>

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق فبعضهم ينال  
 رزقه صلة او جائزة ، وآخرون يقبضونه راتباً معيناً ، وهؤلاء على الغالب من اهل البأساء  
 وأيتامهم وأراملهم<sup>(٣)</sup> او زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة  
 والأمير او ما يتوسم فيه الأجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار  
 والمهاجرين ، وغيره يعطي العلويين أو الطالبيين ، وغيره يعطي قريشاً او اليمن ، وقس  
 عليه . فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار<sup>(٤)</sup> وكان  
 ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء واهل البيوتات ، أكثرهم مائة دينار في الشهر  
 وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك<sup>(٥)</sup> وكان لكافور الأخشيدي بمصر مال خاص يجري منه  
 الارتزاق على من يأتيه فاقماً على الخليفة ببغداد او غيره<sup>(٦)</sup> .

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال ، لانهم

١ - الاغانى ٩ ج ١٢ . ٢ - المقد الفريد ٨٧ ج ١ .  
 ٣ - ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ . ٤ - تاريخ الوزراء ٣٢٣ .  
 ٥ - ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ . ٦ - الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢ .

يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعاً عن انفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري <sup>(١)</sup> .

### ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي ، اما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضاً ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الامير الى الصغير صلة او جائزة ، ويسمون ما يقدمه الاصغر الى الامير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فاذا تولى الامير على بلد فأول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب <sup>(٢)</sup> وهو يبعث الى الوزير الذي ولاءه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية أيضاً ، واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا لمساكه تمرداً <sup>(٣)</sup> .

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر او طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صورته واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الخيل والإبل والماشية ، فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلمحة وفحلها وراعيها ، او جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً او ورقاً . ثم صارت في أواسط الدولة نخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النقود ، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر ونخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها .

### المعاملة في المعاملة

المعاملة من الطبائع الراسخة في نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية في أصل أرومتهم ، وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لأن العرب كانوا مقطوعين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت ، وظلوا على ذلك

١ - سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ - ابن الاثير ٥١ ج ٦ . ٣ - ابن الاثير ١٢١ ج ٧ .

الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم اخذت افكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بني أمية في الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الحلفاء من الجهة الاخرى يداجون الناس ويحاملونهم ، رغبة في نصرتهم او قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلما » .

وأشهر الحكماء واقدمهم معاوية بن ابي سفيان ، فقد ذكرنا في الجزء الرابع انه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي ، وربما أحسن الى الطاعنين او تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة بن غريص . وكان في الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعوه فأثاه رسوله فقال : « أجب امير المؤمنين » .

قال : « اوليس قد مات امير المؤمنين ؟ » ( يعني عليا ) فقال له : « أجب معاوية » . فأثاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التي بتياء ؟ » قال : « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال : « اتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين الف دينار ، ولولا خلة اصابني الحي لم ابعها » قال : « لقد اغليت » قال : « اما لو كانت لبعض اصحابك لأخذتها بستمئة الف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل واذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر ابيك يرثي نفسه » .

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : « انا كنت بهذا الشعر أولى من ابيك » قال : « كذبت ولؤمت ا » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود ، وأما في الاسلام فنمت ولد رسول الله الخلافة ، وما انت وهي انت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم .

وكان معاوية اذا اعجزه اصطناع الاحزاب بالعطاء او بالحلم او بالسيف جهاراً عمد الى قتلهم غيلة ، وكان انصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانهم لينقلب بهم ، فكانوا يصانعونه طمعاً في مال او منصب ، فكانت المصانعة والمداجاة اساس سياسة معاوية . وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز ، وتحديث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم . فكثير الميل الى المصانعة في ذلك العصر ، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الاريجية كانت تحول دون تمكنها .

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والارحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقتربوا ذنباً ، فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين . فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم ، فاستخدمهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء اذاهم الى الجاسوسية ، فبشوا الارصاد على وزراءهم وعمالهم ، يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سرّاً . والارصاد نوعان : الاول اصحاب البريد في الأطراف والعمال يعملون انهم رقباء على اعمالهم ، والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والعلماء مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره او عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء او المغنين او القيان او اصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون اخباره سرّاً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء .

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغطة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة ، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الارحية وزوال الانفة وعزة النفس من العرب ، على اثر تضعف العنصر العربي وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في اواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن اقام في ممالكهم من اهل اللسان العربي ، ويسمونهم عرباً وهم اخلاط من مولدي الامم الاخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم - إلا الذين اتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفذ الكلمة اجيالا متوالية .

### العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم ، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا نطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية ، كالحيجاب وتعدد الزوجات والطلاق .

## ١ - الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه ، وظل معروفاً في أوروبا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية في أوروبا الى الآن .

وإذا اريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي ، لأنه لم يكن شائعاً قبله . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم الى الترف والرخاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منها الظن في صاحبه ، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية ، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض .

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستثثاره بالمذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامراتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت ان الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجوارى وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعمدوا تفسيراً يساعد على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن . واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يحالسها ولا يحادثها إلا نادراً ، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر .



على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها يخالف لتعاليم القرآن ، لأنه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية \* ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة \* وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله \* وعاشروهن بالمعروف \* ، ولكن الرجل أبى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم ، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما اصاب النصرانية في الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم . وكانت الأحكام قد فسدت واستبدت بالحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة .

لأن الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه ، حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه .. تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن . فالبلاذ التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم ، أما في الحكم الامدل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعاد في حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض ارباب الأقلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا اخوانهم على تركه . واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية في « الجوائب » بالآستانة ثم كتب غيره فصولاً لا تشفي غليلاً حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل .

## ٢ - تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات ، وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع ، والشرع الاسلامي يميز له ذلك بشرط اذا روعي حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط ان يعدل الرجل بينهما فاذا نفاً ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان ختم ألا تبدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به . ولذلك رأيت

الغالب في العقلاء واهل المروءة ان يكتفوا بزوجة واحدة . وكان ذلك سهلاً في عصر التسري ، إذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة الى الزواج ثانية او ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتيه بما يشتهي من النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والعقل الى اليوم ولكن على قلة . واذا احصى المتزوجون بأكثر من امرأة فلا نظنهم على خمسة في المائة او عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لأسباب قهرية .

و من أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة ، على ان كثيرين من اهل الوجاهة والشرف في العصور الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الأزواج ، والغالب ان تكون السيادة للمرأة الاولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال - ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة ، كما فعلت ام جعفر بالرشد لتشغله عن الجارية دنانير .

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بأمرأة اخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً - روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى ازواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له ، ومن جملة برها له انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمن بالخلي والملابس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك ، وكان ينزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فاعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة (١) .

## ٢ - الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما » وقوله « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وفي الحديث « ابغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثر من اكثاراً مدهشاً ، كما فعل الحسن بن علي بن ابي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان ابوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من اهلين ، وكان يقول في خطبه : « ان حسناً مطلقاً فلا تزوجه » .

ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد<sup>(١)</sup> على ان الطلاق ما زال مكروها كما رأيت من كلام الامام علي. وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة كبيرة او عذر شرعي. ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة .

وبما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب ، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه . وهذا التضييق ليس من الدين في شيء ، لورود عدة احاديث تجيز للرجل ان يرى خطيبته قبل الزواج . واحاديث تأمر برؤيتها صريحا<sup>(٢)</sup> فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها .



# المعيشة العائلية

## ١ - الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبين ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كاللثريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيذة والعصيدة ، او يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الاطعمة نحو اربعين لونا .

ذلك هو طعام اهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة ، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل او الضأن ، وإنما كانوا يقتاتون بلحم الضب او بالجراد ، واذا جاعوا اكلوا الملهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشين قريباً من ذلك<sup>(١)</sup> وربما اكلوا القرامنة ونحاتة القرون والاطلاف والمناسب من برادتها ، او القررة وهي الدقيق المختلط بالشعر . وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث او المجدوح وهو مصل دم الابل<sup>(٢)</sup> .

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على ألوان من الاطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم امرها وظفر بعضهم يجراب فيه كافور فاحضره الى اصحابه فظنوا ملحا ، فطبخوا طعاما ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو ، فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين<sup>(٣)</sup> ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها<sup>(٤)</sup> وشاهدوا

١ - ابن خلدون ١٧٠ ج ١ . ٢ - كتاب البغلاء ١٨٣ .

٣ - الفخري ٧٤ . ٤ - ابن خلدون ١٤٤ ج ١ .

الأرز فظنوه طعاماً مسموماً<sup>(١)</sup>، ثم ما لبثوا ان اقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا ما كلهم ولا سيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا اكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والآداب ، وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ما جاء النص بتحريمه .

فأخذوا بأطراف الحضارة من ايام بني امية ، وأول من قلد الإعاجم بأسباب الترف معارية ، فتنعم بما كله ومشربه<sup>(٢)</sup> واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والحل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدرج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق. والفالودج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والحشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا في معالجة اللحوم بالالبان والحضار والتوابل على اساليب شتى .

## ٢ - اللباس

### لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معاشهم ، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية<sup>(٣)</sup> وانما هي فارسية ، وكذلك النعال والخفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها. وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب<sup>(٤)</sup> .

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ( صلعم ) فقد ذكروا ان احب اللباس اليه البرود والبياض والخبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كنه قصيراً الى الرسغ ، يلبس احياناً حلة حمراء وازاراً ورداء ، والازار قصير الى اسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل<sup>(٥)</sup> وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الارض من الخيلاء ، ومن اقواله : « فضل الازار في النار »<sup>(٦)</sup> ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف .

١ - المحدثي ١٨٨ . ٢ - الديميري ٥٥ ج ١ . ٣ - البيان والتبيين ٥٣ ج ٢ .

٤ - سراج الموك . ٥ - تهذيب الاسماء ٦٠ . ٦ - الكامل للبرد ٢٦ .

على ان الذين كانوا يقدون على الشام والعراق من اغنيائهم لتجارة او زيارة كانوا يقدون اهلها بلبسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في اوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخنز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، واول من لبس الدرايع السود المختار بن أبي عبيد ، واول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم<sup>(١)</sup> وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام . والعادة ان يبدأ الامراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . واول من اقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن ابيه امير العراق اول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج<sup>(٢)</sup> وهو اول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة .

ولما اتروا بنو امية لبسوا الحرير على انواعه ، وتفننوا بأنواع الانسجة ، واحبوا الوشي واكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم ، واتخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداءة ظلوا يلبسون العمام ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لا تزال العرب عرباً ما لبست العمام وتقلدت السيوف »<sup>(٣)</sup> .

### اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس واخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من اوائل دولتهم ، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعمدان من داخلها ، بدل العمام ، او يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وان يعلقوا السيوف في اوساطهم ، وان يكون اللباس الأسود عاماً فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . واللبس المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم »<sup>(٤)</sup> وبعث الى عماله في سائر الاقطار ان يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك<sup>(٥)</sup> .

١ - المعارف لابن قتيبة ١٨٧ . ٢ - الاغانى ١٠٤ ج ١٤ . ٣ - الكامل للبهر ١٠٠

٤ - الاغانى ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والمقد الفريد ٧٤ ج ١ .

٥ - ابن تغري بردي ٤٣٧ والفريزي ٣٠٧ ج ١ .

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيايسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود<sup>(١)</sup> واول من غير لباس العلماء على هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد<sup>(٢)</sup> ، وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيايسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه .

أما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صناعاتهم واحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره ، وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبّة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن .

#### ثياب المنادمة والتطبيب والخضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » ، وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية : الاحمر او الاصفر او الاخضر ، يصفقونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمخون بالخلوق ويتطيّبون ، ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم واخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك .

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبيل عندهم ، ومن امثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدري من هم : رجل رأيت ركباً ، او سمعته يعرب كلامه ، او شممت منه طيباً » .

والخضاب كان مستحسنًا عندهم ، واصله هندي أخذته الفرس عن الهنود<sup>(٣)</sup> ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب<sup>(٤)</sup> وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالعفرا للصفرة فضلا عن الخضاب الاسود ،

١ - الاغانى ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ .

٢ - ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢ . ٣ - السعدي ١١٥ ج ١ . ٤ - لطائف المعارف ٨

وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت<sup>(١)</sup> واول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر<sup>(٢)</sup> وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على اسلوب خاص ، فيلون شاريه وعنفقته بالخناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم<sup>(٣)</sup> وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن . والا كثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالخناء ويندر الخضاب بالزعفران ، ولا نعرف احداً يبيض شعره بالكبريت .

### ٣ - المأوى

#### مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام اهل خيام وانعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ، الا من اقام منهم في مكة او المدينة او الطائف او غيرها من مدن الجاهلية ، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة اسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها او بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق ، استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة ، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « إفعلوا ، ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة »<sup>(٤)</sup> .

على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات ،

١ - الف باء ٣٤٤ ج ٢ . ٢ - المعارف لابن قتيبة ٩٩ .  
٣ - الاغاني ٣ ج ٤ . ٤ - ابن خلدون ٢٩٩ ج ١ .



فما لبثوا ان تحضروا وتحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة .

### أساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذٍ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الأجيال ، اما رأساً او اقتباساً . واهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر ، والفارسي في فارس وخراسان ، والقوطي في الأندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس ، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وادخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلئم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي او الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة اعصر كبرى :

أولاً - العصر العربي الرومي : هو أقدم أعصر البناء في الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطي في أثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة أشكال : (١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس والجامع الأموي في الشام ، (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان ، (٤) النمط الصقلي في صقلية بايطاليا ومن امثله قلاع سرقوسة وغيرها (٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد .

ثانياً - العصر العربي البحت : وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التي نقلت عنها وهي قسمان : (١) النمط المصري ومنه الأبنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الأندلسي وهو ما بني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثله أبنية أشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن .

ثالثاً - العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلي العربي

ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنائس ، (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولا سيما في أصبهان، (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١) .

فساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور، وتتفاوت سعة وقدرًا بتفاوت طبقات الناس : من الأكواخ الحفيرة الى القصور الفخيمة ، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة .



حضارة الدولة الإسلامية

## حضارة الدولة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في اسباب الترف والرغد في ارقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولا في العصر العباسي ببغداد من اواسط القرن الثاني للهجرة ( الثامن الميلادي ) الى اواسط الرابع ( العاشر الميلادي ) ، وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع ، وفي العصر الفاطمي بمصر من اواسط الرابع الى اواسط السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) .

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة اي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم اولا عن المدن ، فالمباني ، ثم تبين ما بلغت اليه الامة من الثروة واسباب الترف والرفاهية .

## عمارة المدن والقصور

ان المدن التي سكنها المسلمون وحوأها التمدن الاسلامي تعد بالآلاف ، وهي منتشرة في آسيا وافريقيا واوروبا ، ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم . قد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلاً في المدن الاسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . وأجلنا الكلام فيما بقي الى هذا الجزء فنقول :

## القطر المصري

### مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم ( حوالى سنة ١٩١٠ ) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد

استغربه الناس وخافوا رد الفعل <sup>(١)</sup> لانهم رأوا غلاء في الاسعار ، مفاجئاً لم يمهّدوا مثله ، وزادت مساحة الارض الزراعية ستة اضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في ايام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً بيع بمائة جنيه ، او مائة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض الزراعية في ايام التمدن الاسلامي زادت على ٢٥٠٠٠٠٠٠ فدان؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب نقلاً عن ثقات مؤرخي العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة او الكذب على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعثاً على هذا الاستخفاف ، والمسلمون او العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه .

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية ، لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من أشباهها ، فثروة القطر المصري اذا قيست بما الفناه من احوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة اضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين او ١٢ مليون فدان لكان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . اما لو قيل ذلك لأهل اواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلاً ، لأن مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ فدان ، وهناك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ <sup>(٢)</sup> باعتبار الفدان :

الجملة	غير مزروعة	ارض مزروعة	
٣٨٠٠٠٠٠	٢٥٥١٠٠٠	٢٢٤٩٠٠٠	مصر السفلى
١٦٢٠٠٠٠	٧٦٣١٧٤	٨٥٦٨٢٦	» الوسطى
١٥٩٤٠٠٠	٨٤٣٦٠٠	٧٥٠٤٠٠	» العليا
٧٠١٤٠٠٠	٣١٥٧٧٧٤	٣٨٥٦٢٢٦	

١ - فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال

٢ - Aperçu sur l'Égypte. 1,265

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧٠١٤ر٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، او ١٢ مليونا بعد بضع عشرة سنة .

### عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان، فلو قيل في اواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين او ١٢ مليونا لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين في المبالغة » ، لان عددهم في ايامه لم يكن يزيد على ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى اربعة اضعافه ؟ لا نقول ذلك تحكما او افتراضا ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن - فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، واما مؤرخو العرب فزعموا ان عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليونا ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم ... لاننا لو قسنا مصر بما فعله في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية - فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » ( اي نحو ٦ر٣٣٣ر٠٠٠ نفس ) - هذا هو رأيه ، وانت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ، ولن تمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليونا ، او ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه .

وقياسا على ما تقدم لا نرى مانعا من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في إبان التمدن الاسلامي - وإنما أنكر ابنه هذا الجيل ذلك استخفافا برواية العرب ، مع انها مبنية على احصاءات رسمية واقعية في ازمة معينة لأجل تعديل الجزية او الخراج ، وليست من قبيل الحدس او الرجم بالقيس . الاحصاء الأول وقع في زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقرئزي أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية

فبلغ عددهم ٨٠٠٠٠٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعه سنة ١١٠ هـ ، ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج ، فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، وسمعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك يحد وتشمير ، وثلاثة أشهر في الوجه البحري ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، في أصغر قرية منها ٥٠٠ جمعة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٠٠٠٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيخوخ يكون المجموع نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس

### مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية ما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان ، أي نحو أربعة أضعاف ما بلغت اليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكننا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة ، اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة .

فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر ، أي بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشتروا عدداً منهم فاذا نقصت غلة الأرض (١) .

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر ، فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذٍ مثل حدودها الآن ، أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية ، لحكننا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والمريش ، نحو ٤٠٠٠٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٨٢٦ ميلاً مربعاً ،

يخرج منها ٨٥٠ ميلًا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقى ١٢٩٧٦ ميلًا مربعاً ، أي نحو ٨٠٠٠٠٠٠ فدان ، وهي الأرض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد .

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ، ومما جاء من اخبارها القديمة ، ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً - ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة <sup>(١)</sup> وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المساحة هناك اليوم رمال قاحلة ، ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض بالمسبار .

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضي البجة <sup>(٢)</sup> وكانت أطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكره من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماءً وأوسع فيضاً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لا نزال نستغريها لبعدها عن ما لوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً ، بنزع ما يغطيها من الرمال وإروائها بالترع المتصلة اليها من النيل او الآبار الارتوازية ، نرى اقوالهم معقولة ولا نظن ذلك بعيداً ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات .

### مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني . وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقرئى انه كان في هاتين المدينتين - غير القاهرة - ١٠٠٠٠٠ بيت ، في بعضها مائة انسان ومئتان ، اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات او ست او سبع <sup>(٣)</sup> ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد ، فكيف تكون عمارة هذه ؟ ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط .

١ - المقرئى ١٨٢ ج ١ . ٢ - المقرئى ١٨٩ ج ١ .

٣ - المقرئى ٣٤١ ج ١ .



وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور .

## الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة ، فأقاموا في مدنها وزادوها عمراناً ، وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره .

### قرطبة

هي من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه ، وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطاجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان يحيط المدينة الأصلية ٣٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهلها . فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة أميال او ١٤٤ ميلاً مربعاً ( ومساحة لندن ١١٧ ميلاً ) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور . وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في إبان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الأبنية فيها كما يأتي :

	عدد
دور الرعايا	١١٣٠٠٠
» القصر الكبير	٤٣٠
» أهل الدولة	٦٣٠٠
المساجد	٣٨٧٣
الحمامات	٩٠٠
	١٢٤٥٠٠

وذكروا ان عدد الأبلية بلغ في أيام ابن ابي عامر ٢٠٠٠٠٠٠ دار للرعية ، و ٦٠٣٠٠٠ دار لأهل الدولة ، و ٨٠٤٥٥ حائوناً غير الحمامات والخانات <sup>(١)</sup> ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم .

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن ، وان دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة - على حين ان دور الأشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرائها على ٢٠٠٠ دار <sup>(٢)</sup> فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتي الكلام على قصورها .

### غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأعنائها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وارجائها الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية ، واشهر ملوكها ابن الأحمر ، في اواسط القرن الثامن للهجرة ، وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة . ونتقدم الى ذكر القصور والمباني .

### القصور والمباني

قال ابن خلدون : « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى ما بقي من ابنياتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان

الخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلا عن المتزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأغراس من اطراف المعمور ، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب ، ويهينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه .

## ١ - مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر الا « الجامع الأموي » الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون في نصفها الغربي ، والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك اخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢ر٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأنقوا في بنائه فغطوا جدرانها كلها بقصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الالصبغة الغريبة فثلث اشجاراً ، وفرعت اغصاناً منظومة بالقصوص ببدايع الصنعة الانيقة . فأنفق في ذلك نحو ١١ر٢٠٠ر٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عموداً . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفاً مطولاً وذكر تاريخه الى امامه مما يضيق عنه المقام <sup>(١)</sup> ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن ، ويعد من افخر ابنية المسلمين .

وبني الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط ، وكانت من افخم الأبنية وفيها يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول <sup>(١)</sup>

## ٢ — مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول اذهات الناس عن الكعبة إليها ، وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وامراؤهم ، فأقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً بأسماء بانيها ، كقصور البرامكة في الشامية ، وقصر ابن الحصب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي وهو أول قصر بناء الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بنه رجل اسمه وضاح المهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقله ، غير ما اطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ، ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة واغرقوا في الترف والرخاء . على ان بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامراً لاتراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرمًا بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث اساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الحيري والكمين ذات الاروقة . وبنى ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري ، بذل في بنائها جميعاً اكثر ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم <sup>(١)</sup> انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار <sup>(٢)</sup> او نحو ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والاغنياء ، فضلاً عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل بن علي متنزها انفق فيه ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم <sup>(٣)</sup> .

### قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة ايضاً ، فبنى قصرًا في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في ايامه فاتمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناء جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ اضاف اليه

١ - المسعودي ٢٧٩ ج ٢ .

٢ - ابن الاثير ٣٣ ج ٧ .

٣ - ابن الاثير ٢٨ ج ٦ .

ما جاوره ، فوسعه وكبره وادار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً ، واقتطع منه البرية قطعة عملها ميداناً . واخذ في بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه «قصر الثريا» طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠٠٠٠ دينار<sup>(١)</sup> وصله بالقصر الحسيني وابتنى بسين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمة وسراويه ، وما زال باقياً الى الفرق الاول الذي صار ببغداد وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر	فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنازل	فلا زال معمورا وبورك من قصر
جنان واشجار تلاقى غصونها	واورق بالثمار والورق الخضر
ترى الطير في أغصانها هواتفها	تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته	كمثل نساء قد تربعن في ازر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت	لترضع اولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كانت عالما	بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فأتم بناء قصر التاج ، وكان وج - هـ مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع<sup>(٢)</sup> .

### دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في اول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكلفة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفيير والهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثلها عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه<sup>(٣)</sup>

١ - المسمودي ٣٢٨ ج ٢ . ٢ - معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١ .

٣ - معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ .

وفي دولة آل بويه بنى مع الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، انفق في بنائه ١٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب - ذكروا انهم لما ارادوا هدمه بذلوا في حرك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار ولم يبق لهذه القصور او الدور اثر الآن .

### ٣ - مباني الأمويين بالأندلس

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم ، واكثرها في قرطبة وغرناطة فمنها في قرطبة :

#### القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من حاكم بني مروان ، وبنوا القصور في داخله . وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣ داراً ، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمحدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والبديع . وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والبحاريج والأحواض ، جلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه إليها ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها الى المصانع ( أي المنشآت ) ، هذا الى صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والبحاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الصور الجميلة على اشكال بديعة (١) .

#### مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا انه لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء ، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطروهم عليها المسلمون عند الفتح كما

فعلوا بالجامع الأموي في دمشق ، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الاجيال . واعجب ما فيه صومعته او المئذنة ، قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً ، والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً .

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته في ايام الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع ، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ ، وارضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست الباقية ١ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر ثمانى بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع . وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ١٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح .

وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الاصف ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تقافيج ، دور كل تقاحة ثلاثة اشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الا برز وواحدة من الفضة . وتحث كل تقاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج . وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان ، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه اغشة الديباج . وهو موضوع على كرسي من العود الرطب بمسامير الذهب . وقد افاد صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك <sup>(١)</sup> وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية .

### قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على اربعة اميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء اربعين سنة . وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٨٥٠٠ ، وعدد اعمدته او سواريه

٣٠٠؛ سارية، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها اهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جملتها حوض منقوش بتمثيل الانسان ، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة ، بصورة اسد يجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجري الماء من أفواهها (١) .

وكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة ، وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا انهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر ان الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً .

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فاذا حسبنا ما انفق ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفق هو بالاضافة الى المقدار السنوي المذكور — كان مجموع ما دخل في بناء هذه المدينة نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الاقل . ولا غرابة في ذلك ، لأننا اذا اعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة . واغرب من ذلك ان الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) .

١ - نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلسكان ٢٩ ج ٢ . ٢ - نفح الطيب ٢٤٨ ج ١ .



## الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرا لاقامته سماه « الزاهرة » ليكون معقلا له يحميه من اعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالع في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها اهراء ودواوين ، واقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الاسواق وتنافس الناس في النزول في اكنافها تقريبا من صاحب الدولة ، حتى اتصفت ارباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الاخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة اميال على ضوء السرج .

## قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فاعاد المسلمون بناءها على يد عبدالرحمن الغافقي ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعاً ، وارتفاعها ٦٠ ذراعاً ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وابراجها ١٩ برجاً<sup>(١)</sup> .

## قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل اسود تقذف المياه من افواهها على شكل جميل .

وبنى المنصور بن الاعلى قصراً فخماً في بحاية ، انشأ فيه بركة على حافاتها اسود يجري الماء من افواهها ، وعلى البركة اشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها في الماء ، وعلى اغصانها اطياف من اشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنية العباسيين . وقد نظم احمد بن حديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

وضراغهم سكنت عرين رياسة      تركت خريبر الماء فيه زئيرا  
فكأنما غشي النضار جسومها      وأذاب في أفواهها البلورا  
أسد كأن سكونها متحرك      في النفس لو وجدت هناك مثيرا  
وتذكرت فتكاتها فكأنما      أقعت على أدبارها لتثورا  
وتخالها والشمس تجلو لونها      نارا وألسنها اللواحس نورا  
فكأنما سلت سيوف جداول      ذابت بلا نار فعدت غديرا  
وكأنما نسج النسيم لمائه      درعا فقدر سردها تقديرا<sup>(١)</sup>

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي، فإنه اتفق في بنائه بيوت الاموال، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة، وبني في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكم المهندسون، فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء تكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها<sup>(٢)</sup>.

#### ٤. — مباني مصر

##### مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون، لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة. والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميداناً كبيراً، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين واصناف الشجر، ونقل اليه الشجر اللطيف الذي ينال ثمره القائم (أي الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل. وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم المعجيب وانواع الورد، وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة،

وجعل بين النحاس واجساد النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء الى مجار تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوبي العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص ، وزوجه بأصناف الأصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافا جداولها يجري الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقي منها الأشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه اوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيداناً ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجابو بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً .

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في احسن نقش واطرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنيه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقيل الوزن المحكمة الصنعة ، وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من اعجب مباني الدنيا .

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية مملأها زئبقاً . وذلك انه شكاً طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا اقدر على وضع يد احد علي » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً ومملأها من الزئبق فأنفق في ذلك اموالاً عظيمة . وجعل في اركان البركة سكتاً

من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زنابير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم ( اي جلد ) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنابير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج <sup>(١)</sup> تألف نور القمر بنور الزئبق <sup>(٢)</sup>

### مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر ، وهو عامر الى اليوم . وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي ، وانفقوا على الاخير منها ٢٠٠٠٠٠٠ دينار <sup>(١)</sup> فقس على ذلك ما انفقوه في سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرها . ولما استبحر عمرانهم تفتنوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة ، كالقصر الذي بناه الامر بأحكام الله لمحبوئته البدوية وسماه الهودج .

وكانوا يتأثقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأثقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيات نظمها في ذكر المنظرة ، ويجانب كل صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار امر ان يحط على كل طرف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته <sup>(٢)</sup>

### مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين الايوبي ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة الى اليوم .

١ - المقرئ ٣١٦ ج ١ . ٢ - المقرئ ٤٥٧ ج ١ . ٣ - المقرئ ٤٨٦ ج ١ .

ومعظمها في مصر الآن من الآثار «بنائية» انما هو من اعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وان نسبت الى الخلفاء بالاسم ، غير ما اذنت من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناءه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها .



# الشروة والرخاء ونشأتهما

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال ، فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالا لانه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم ، واليك امثلة من ذلك .

## ثروة الخلفاء وأهلبيهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا اكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم وأصبح الخلفاء احيانا مثل سائر الفقراء<sup>(١)</sup> والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة ، تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة اولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ، ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبقف مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس : المنصور والمهدي والمعتمد والمستعين والمكثفي وغيرهم ، وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا ما بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولا سيما الخيزران ام الرشيد وقبيصة ام المعتز وغيرهما ، فلا حاجة الى التكرار وانما ناتي ببعض التفصيل على سبيل المثال ذكرنا ان المكثفي خلف ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار هذا تفصيلها<sup>(٢)</sup> .

١ - الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ - لطائف المعارف ٧٢ .

دينار	
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من العين والورق ( أي الفضة ) والأواني المعمولة .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	» الفرش .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	» الكراع والسلاح والغلمان.
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	» الضياع والعقار والاملاك .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	» الجواهر والطيب وما يجري مجراها .

### ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن ابن الفرات والماردائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الأندلسي واليك أمثلة أخرى :

أول من أئثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم ( الأبعديات والجفالك ) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠.٦٧٦.٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش<sup>(١)</sup> ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أئثرى منهم جماعة كبيرة كآل الماردائي في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن علي الماردائي ما قيمته ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠.٠٠٠ دينار في السنة<sup>(٢)</sup> وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً .

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولا سيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاءوا وكيف شاءوا . وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء ، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهراً من الدنانير – والبحار أردبان بالمصري – ذهباً<sup>(٣)</sup> وبلغت غلة خالده القسري ١٣.٠٠٠.٠٠٠ درهم<sup>(٤)</sup> وصاروا في عهد بني العباس أوفر ثروة ، ولا سيما بعد ان طمعوا في الاستقلال ، فخلف يعقوب بن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم و٤.٠٠٠.٠٠٠

١ – العقد الفريد ٢٢ ج ٣ . ٢ – المغربي ١٥٥ ج ٢ .

٣ – المغربي ٣٠١ ج ١ . ٤ – ابن الاثير ١٠٣ ج ٥ .

دينار<sup>(١)</sup> وقس على ذلك اموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت ممتلكاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق — مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلا من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١٢٥٠ حبة لأولؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤٠٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠٠٠٠٠٠ درهم فضة ، واربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١٢٠٠٠٠٠ دينار فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم .

غير ثروة الحواشي والآتباع ، ممن أثرى بالصناعة والأدب او التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء ، فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٠٠٠٠٠ درهم<sup>(٢)</sup> وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبيه .

### نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس ان يتوسعوا في الانفاق ويتنعموا بعميلتهم ، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية ، ويتنعموا باللبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد ، كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

### ١ — التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب انها كانت ساذجة قليلة ، ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلاً عن نظام الحكومة

١ - المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ .

٢ - سير الملوك/ ١١٣ .



فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس او ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثل ذلك وقلدوهم فيه - هموا بذلك من عهد الأمويين، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التمتع اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الأشعري كان يتجافى عن أكل الدجاج لان العرب لم يعهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويعتقدون اضرارها ، نحو ما يعتقد النبطيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التمتع كان الفرس احسن مثال لهم . واراد غير واحد من امراء العراق تقليدكم في ذلك ، لكن البداوة كانت تغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « اخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت ايها الأمير بعض مرابذة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً احضر فيه صحائف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد ، وتحمله اربعة وصائف ويجلس عليه اربعة من الناس ، فاذا اطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس .. »<sup>(١)</sup>

على انهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم ، فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً ، وبعد ان اكلوا العلهن والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالها<sup>(٢)</sup> فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعيم ، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التأساً ، للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشانات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشانات الموافقة لذلك الفصل<sup>(٣)</sup> واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم ، حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام يجلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً ارزاقهم جارية .

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان الطيور والفاكهة ولو بعد مكانه ، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة<sup>(٤)</sup> وكانوا يربون الطيور الداجنة على

١ - ابن خلدون ١٤٥ ج ١ . ٢ - ابن خلدون ١٧٠ ج ١ .

٣ - طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ . ٤ - لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢ .

اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب<sup>(١)</sup> وتقنن الطهاة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير او النفع الصحي ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا امير المؤمنين هذه السنة السمك » وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم<sup>(٢)</sup> وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالودج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل .

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر<sup>(٣)</sup> فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب للحملة . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل<sup>(٤)</sup> وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة شرب عياله<sup>(٥)</sup> وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على انهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطردهم اضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها<sup>(٦)</sup> .

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية ، قوالت على اهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلطت السويداء على امزجتهم ، وتولتهم حدة المزاج فيجرهم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء ، كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة ، منهم في ايام بنى أمية معاوية بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين<sup>(٧)</sup> .

١ - طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١ . ٢ - المسعودي ١٩٩ ج ٢ .  
٣ - تاريخ الوزراء ٣٥١ . ٤ - الفخري ٢٣٢ .  
٥ - الفخري ٢٧٦ . ٦ - المقرئ ٣١٨ ج ١ .  
٧ - المسعودي ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢ .

## ٢ - البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في المطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه، او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحماثل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها<sup>(١)</sup>. وكان عمالهم في مثل حالهم، اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه<sup>(٢)</sup> واول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام. وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في أبهة الملك انكرها عليه وقال له: «أكسروية يا معاوية؟»<sup>(٣)</sup>

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين ايديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم، فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعم باللباس وأحب الأمويون الوشي كما تقدم، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قيص وشي و ١٠٠٠٠ تكة حرير. وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جل<sup>(٤)</sup> وفي ايامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي. وزاد المسلمون بذخاً في ايام بني العباس، ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب او الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها، على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد.

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخنز، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرناب<sup>(٥)</sup> والأبريسم حرير خالص، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها، والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف احريز والكتان والأوداري، والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر او الوبر او الصوف، وما يلحق ذلك من انواع السمور والقاقم وغيره - يصنعون منها الأقبية والدارايص والطيبالسة والجيب والعمايم والأبراد والفلائل والملاحف والمآزر والسراريات والشاشيات والتكك او غيرها.

١ - الفخري ٢٥ و ٦٦ . ٢ - العقد الفريد ٦ ج ١ . ٣ - ابن خلدون ١٦٩ ج ١ .

٤ - المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ . ٥ - الف باء ١٨٧ ج ٢ .

وكان الصّناع يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرّون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات او مئات او ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء - مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤٠٠٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٠٠٠	» الأثواب الخراسانية المروية
٨٠٠٠	» الملاءات
١٣٠٠٠	» العمام المروية
١٨٠٠	» الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨٠٠٠	» البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب
١٨٠٠٠	» الأبسطة الأرمنية

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سروال ديبقي بألف تكعة حرير .

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة في الخسرواني الأحمر المذهب . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع انواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على مختلف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقرئ ما تحويه تلك الدار من الألوان والأشكال <sup>(١)</sup> ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكعة ثمن الواحدة عشرة دنانير <sup>(٢)</sup> وقس عليه سائر الملابس .

## ٢ — الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ما تقدم ، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحاً لآهة الملك . فمالبت المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة من الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدين ، فأذنوا له فاتخذوه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء<sup>(١)</sup> .

### الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كانت اكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويًا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته ، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انه كان يساوي اضعاف ذلك المبلغ فلما اصحابه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عدداً اكثر من الالف لطلبته »<sup>(٢)</sup> .

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجواهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرّج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكمل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكمل بالجواهر . ووقع لهم بساط يسمونه القטיפ طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع ، والورق من الحرير

٢ - الفخري ٧٤ .

١ - ابن خلدون ٢١٧ ج ١ .

على قضبان الذهب والفضة وثمره الجواهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم<sup>(١)</sup> .

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجواهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك ابو بكر الصديق ، وله السبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي ( صلعم ) قبلها نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب<sup>(٢)</sup> ، فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في اسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر .

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من عقود الجواهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه<sup>(٣)</sup> على انهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع الروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسمة عند النصراني<sup>(٤)</sup> ، فأبدلها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة .

### الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الاسرة الذهب المرصعة بالجواهر او الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والنفارق والكراسي ، وانبسجوا منائر الذهب اوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المسكلة بالدر والياقوت<sup>(٥)</sup> ، وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعات

١ - ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢ . ٢ - الف باء ١٨٧ ج ٢ .

٣ - الاغانى ١٢٩ ج ٦ . ٤ - الديميري ٥٨ ج ١ .

٥ - ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

وإثنتها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت - على ان احسن اصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية . والطاغم الأرمي - وهو عشر مضليات ؛ بخادها ومساندها ومطارحها وبساطها - يساوي خمسة آلاف دينار<sup>(١)</sup> وكانت اطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالركة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام<sup>(٢)</sup> - اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة<sup>(٣)</sup> ويوزر كشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصوراً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أي حافته) بقصيدة<sup>(٤)</sup> وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها - يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحريز الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجواهر - كاللبساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم<sup>(٥)</sup>

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها أحد ، منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحريز الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق<sup>(٦)</sup> .

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم<sup>(٧)</sup> وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها بما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض . كما فعل أبو العتاهية

- 
- ١ - الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ . ٢ - لطائف المعارف ٩٥ .
  - ٣ - الاتليدي ٩٨ . ٤ - الاغانى ٤١ ج ١٥ .
  - ٥ - المستطرف ١٣٤ ج ١ . ٦ - المسعودي ٣٦٦ ج ١ .
  - ٧ - الاغانى ٨١ ج ١٢ .

في طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى إليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي      فإذا لها من راحتيه شميم  
أعلقت نفسي من رجائك ماله      عنق يحث اليك بي ورسم  
ولربما استأسيت ثم أقول لا      إن الذي ضمن النجاح كريم<sup>(١)</sup>  
على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية<sup>(٢)</sup> .

### المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات، ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القاني ويسمى البهرماني ، ويتلوه الأحمر المشرقي الرماني ثم الأزرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني ، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابي، اترب توبه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة - هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرة .

وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها ، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سफطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً<sup>(٣)</sup> .

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية ، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار وكان قديماً ويعرف بالجلبل والملوك تصونه ، فنقش عليه الرشيد اسمه<sup>(٤)</sup> واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم<sup>(٥)</sup> وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفت جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم<sup>(٦)</sup> .

١ - المسعودي ١٩٦ ج ٢ . ٢ - المقد الفريد ١٨٤ ج ٣ .

٣ - ابن الاثير ٢٤ ج ٣ . ٤ - المسعودي ٣٠٠ ج ٢ .

٥ - الاتليدي ١٤١ . ٦ - الطبري ١٨٩ ج ٢ .



و كثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فإذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً ، فبدلاً من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدله بجمهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فإذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحويل المصارف المالية أو البنكنوت ( العملة الورقية ) .

وكان الأمويون يرغبون في المجوهرات أيضاً ، وقد رصعوا بها الحلى وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسم ولبس نساءهم وجواربهم . أما العباسيون فبالقوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نساءهم كما فعلت أخت الرشيد <sup>(١)</sup> ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته <sup>(٢)</sup> .

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره الا الله ، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجه من خزائهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جلته ٧٥٠٠٠ قطعة دباج و ١١٠٠٠ كراغند و ٣٠٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان في دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى .

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة <sup>(٣)</sup> واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجواهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى . والطبري أورد أخباراً كثيرة ، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغاني والمقد الفريد والكمال والمعارف وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه : « ان المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها أنف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت » <sup>(٤)</sup> ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون

١ - الاغاني ٨٣ ج ٩ . ٢ - المسعودي ٣٦٦ ج ٢ .

٣ - ابن خلدون ١٥ ج ١ . ٤ - ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله <sup>(١)</sup> فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه .

### بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الإسلامية في صر والشام والمغرب والأندلس ، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة ، وكان التمدن الإسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر ، ففاقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والسياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجواهر ، وكللوا المزينة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب ، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكمل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلفة الفيل وثابه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، في كل منها مسار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عود بتمكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش ، واصناف تشد من المرسين المكمل باللؤلؤ شبه الفاكهة <sup>(٢)</sup> .

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها ادوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرر أو الدرق أو الكسوات أو الأدم أو الشراب أو التوابل أو الحميم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزنة . وقد توسع المقريري في

وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق هذا المقام فليراجع في مكانه<sup>(١)</sup> ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

### الحلى والجواهر عند الفاطميين

فما اخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧هـ صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وبة جوهر قال الصياغ ان قيمته لا تقدر واصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجروح وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير ، وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من ذهب المجرة بالميناء وغير المجرة المنقوشة بأنواع النقوش ، و ١٧٠٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحزير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر واشباهها على اكثرها اسم هرون الرشيد .

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى ( جمع دواة ) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جاجم عنبر ونوافج المسك التيبقي وشجر العود وغيره .

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠٠ من الثياب المصمت الوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعميات بجواهر من ايام المعز ، وبيت هرون الرشيد الحز الاسود الذي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زقت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله .

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس ، وعدداً كبيراً من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحصى . والكلوتة ( أي الطاقية للرأس ) المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكحلة بالجواهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيشته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة اوطال ومزيرة مكحلة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله .

#### الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار ، واجلة معمولة للقبيلة من الخسرواني الاحمر المذهب ، و ٣٠٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هديها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ونخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر انواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها واطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله ، و ٤٠٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعزدين الله امر بعمله ، وفيه صورة اقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير ، وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعزدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ » .

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدينة والحضارة ، وكما تكون قيمته وجدت الآن وكما يدفع الممولون من المبالغ في الحصول عليها .

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق ، ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور ، والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكّي والارمني والبهنسايزي والكردياني ، وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مائة رجل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها .

ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بأمر الله اهدت اخاها هذا هدايأ من جملتها ثلاثون فرساً براكبها ذهباً، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وقاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر .

وقد يتبادر الى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الأحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في إبان حضارتها ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق<sup>(١)</sup> ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الأمر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره - قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين ، وكان من كثرتة يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم ، فمنه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر

درهماً أو ١٧ مثقالاً أنا لا أشك ، لأنني رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير ، (١) .

### بذخ الأندلسيين

واقتردى بالعباسيين في الترف والبذخ الأندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيها ، على أن بعضهم تفان بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم . فأراد المنصور أن يبعثه بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صفاراً قدر ما تسع النيلوفرة ، وملاً بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الأقبية والمناطق من الذهب والفضة ، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واضطلع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على رءوس الرجال استجلاباً لجنبها (٢) .

وأغرب منه ما فعله المعتمد الأندلسي لأم اولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « يا سيدي أشتي ان أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر ، وجعل لها قريباً وحبالاً من الأبريسم وخرجت هي وجواريتها تخوض في ذلك الطين (٣) .

٢ - نفع الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢ .

١ - ابن الاثير ١٦٥ ج ١١ .

٣ - نفع الطيب ٢٠٨ ج ١ .

وفس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ، فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الأضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر <sup>(١)</sup> واشتهر محمد الأمين بكبر شمع . ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء والملوك والأمراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق - راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

#### ٤ - التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن. وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر ، وتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري الزوج ، فاذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها . وكانت العرب يكرهون الزوج بالجواري ، فمع كثرتهم في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية <sup>(٢)</sup> ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الإمام علي عن ١٤ نسوة و ١٧ سرية <sup>(٣)</sup> وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري ، فنهى عمر عن بيع أمهات الأولاد <sup>(٤)</sup> وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجواري ، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد <sup>(٥)</sup> فرغب الناس في التسري .

وليس المسلمون اول من اقتنى السراري ، فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين ، والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية. وكانوا في اول امرهم كالعرب يكرهون التسري ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امراءهم فعكفوا عليه <sup>(٦)</sup> .

وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة ، حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري <sup>(٧)</sup> واكثر نساء اهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء .

١ - ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢ . ٢ - ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣ .

٣ - الف باه ٣٤٧ ج ٢ . ٤ - ابن الاثير ٢٩ ج ٣ .

٥ - ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ . ٦ - Gibbon, 11. 205 .

٧ - الجزء الرابع من هذا الكتاب .

فعمدوا الى اقتناء السراري ، ومن ولدت له تزوجها او اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطئن جميعاً <sup>(١)</sup> وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبدالله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة <sup>(٢)</sup> . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد ايام السنة <sup>(٣)</sup> غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية <sup>(٤)</sup> منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب <sup>(٥)</sup> .

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند ام جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمها <sup>(٦)</sup> وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيها من اهل اليسار ، فاتخذن الجواري المطمومات او الغلاميات ، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك ، حتى الف القاهرة بالله العباسي جوقاً من الجواري بقدر واحد البسمن القراطق والاقبية والطرر والاقبية والمناطق من الذهب او الفضة كأنهن الغلمان <sup>(٧)</sup> .

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً ، فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم <sup>(٨)</sup> وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الابكار <sup>(٩)</sup> ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة واهله واولاده ، غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف ، واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين <sup>(١٠)</sup> ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني أمية في الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم ( قبل الحرب العالمية الاولى ) .

- 
- |                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| ١ - المسعودي ٢٧٩ ج ٢ . | ٢ - الاغاني ١٣٣ ج ١٩ . |
| ٣ - ابن خلكان ٥٧ ج ١ . | ٤ - الاغاني ٨٨ ج ٩ .   |
| ٥ - الاتليدي ٦٧ .      | ٦ - المسعودي ٢٠٨ ج ٢ . |
| ٧ - المسعودي ٣٦٦ ج ٢ . | ٨ - ٣٦ ج ١ .           |
| ٩ - المقرئ ٤٨٥ ج ٢ .   | ١٠ - المقرئ ٤٩٧ ج ١ .  |



## اثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويفالون في رفع اثمانهن ، وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف او مائة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الذلفاء » الجارية الشهيرة بليون درهم<sup>(١)</sup> ( نحو ٧٠٠٠٠ دينار ) .

وابتاع الرشيد جارية بمائة الف دينار<sup>(٢)</sup> وجارية اخرى اشتراها من ابراهيم الموصلبي بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل وطلب محمد الامين الى جعفر ابن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فأوقروا قاريه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم<sup>(٣)</sup> اي اكثر من مليون دينار -- وهذا اذا صح كان اعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري .

واما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي « سلامة » المغنية بعشرين لف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين الف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين الف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه ، واعتبر ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهن .

## ٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى اصبح من قواعيد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة ، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ

١ — المقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ .

٢ — الطبري ١٣٣٢ ج ٢ .

٣ — المقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغانى ١٤٥ ج ١٥ .

الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحذوثة ، وهم أهل أريحية يستفزههم الاطراء والاستنجاد ، فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك الملاذ ، فبدلوا الأموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر.

### مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة ، والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالآلاف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الألوف أو مائة ألف أو مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ، ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام<sup>(١)</sup> .

واقتردى معاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية<sup>(٢)</sup> ، ومن أسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة إلى السخاء . فالحجاج اعطى الذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك<sup>(٣)</sup> وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها<sup>(٤)</sup> .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور<sup>(٥)</sup> ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو

١ - الاغاني ٧١ ج ١١ . ٢ - ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ .

٣ - الاغاني ١٣٠ ج ١ . ٤ - الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ .

٥ - لطائف المعارف ١٦ .

يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، او يولون الولايات والاعمال ، وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب او استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلاً الاهواز بقصيدة (١) والغالب ان يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور إذ اعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها على أعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومتهم . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٢) وأعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء (٣) وفرق الرشيد في يوم واحد ١٠٣٥٠٠٠٠ دينار (٤) وطرب يوماً فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم (٥) وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (٧) واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً او فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهباً او فضة » . وكلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب ان يعوضوا عليه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالا فقال : « نعم يا سيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم (٨) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والى كرخ حنطة (٩) وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين الف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وإنما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في إبان التمدن .

- 
- ١ - قوات الوفيات ٢٠ ج ١ . ٢ - سير الملوك ٦٥ و ٦٦ .
  - ٣ - الاغانى ٩٨ ج ١٨ . ٤ - المستطرف ١٣٥ ج ١ .
  - ٥ - الاغانى ٨٨ ج ١٢٤ و ١٢٥ ج ١٧ . ٦ - ابن الاثير ٤٢ ج ٦ .
  - ٧ - المستطرف ١٣٣ ج ١ . ٨ - الاغانى ١١٨ ج ١٨ .
  - ٩ - طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١ . ١٠ - قوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ .
  - ١١ - الاغانى ٣ ج ١١ .

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها. وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكنى ومن الألقاب ابوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم	ما كان يرضى به للحبس بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا	هذا فانفق في الاقوام القابا

### سخاء البرامكة

على ان العصر العباسي الاول نما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء ، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج في أيامه ، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال ، فقال خالد : « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير ، وارفع قدر الكريم عن ان يسمى به امثال هؤلاء المؤمنين ، لأنت فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وافضل ادبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك	فجد له مستطرف واصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله	بلفظ على الاعداء فيه دليل
يسمون بـ «السؤال» في كل موطن	وان كان فيهم قابله وجليل
فسماهم « الزوار » سترأ عليهم	فأستاره في المهتدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت الف درهم<sup>(١)</sup> .

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم<sup>(٢)</sup> ، ويروون من اخبار سخائه ما هو اشبه بالخرافات منه بالحقائق . نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب ، وهي تمثل سخاء يحيى احسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سراً . وظلوا على ذلك في ايام الامين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلاً ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف ، فبعث في طلبه فلما حضره انتهره الخليفة وسأله من

هو وهم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب : « للبرامكة عندي اياك خضر ، فان امر امير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال : « مات » . فقال : « انا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزال حق وصلت الى بيع داري وأملت الى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعني نيف وعشرون امرأة وصبياء ، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهن جياعاً لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم احسن زي ، فجلست معهم اردد في صدري ما اخاطبهم به فتجيد نفسي عن ذل المسألة ، واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمتم معهم ، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحمرة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا واقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح واخذنا النشار من فتات المسك وبنادق العنبر ومائيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت ابطه ويخرج ، فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت امشي والتفت خوفاً من ان تؤخذ مني ، ويحیی يلاحظني من حيث لا افطن فلما قاربت السور رددت ، فبيست من الصينية ، فحجته فأمرني بالجلوس فجلست ، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال : علي بموسى . فجاءه ، فقال : يا بني ، هذا رجل من اولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذ اليك فاخبطه بنفسك . فأخذني وخلع علي وامرني بحفظ الصينية لي ، فكنت في الذعش يومي وليلي ، ثم استدعى اخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الي هذا واريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل امس . فأقبلوا يتداولوني وانا قلق بأمر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فاقبت عنده يومي وليلي ، فلما أصبحت جاءني الخادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهبت الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من اول يوم ! وقمت والخادم بين يدي ، فأخرجني من الدار فازداد ما بي ، ثم ادخلني الى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الي الخادم صكاً باسم ضيعتين

جليلتين وقال هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الآن . ثم قصدي عمرو بن مسعدة في الضيعة والزمني من خراجها ما لا يفي به دخلها ، فكلما لحقتني فائبة قصدت دورهم فبكيت .

فاستدعى المأمون عمر بن مسعدة وأمره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خراجه على ما كان في ايام البرامكة . فبكى الشيخ بكاء شديداً ، فقال له المأمون : « ألم استأنف بك جيلاً ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحباً ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١) .

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم ان غلتهم بلغت ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب او الايصالات او نحو ذلك (٢) . ومن فنون سخائهم ان الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فجواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يحريه الله على يده ، ويركب في الليل او في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « اردت ان يصل بري الى من لا يصل الي ولا اعرفه ولا يعرفني » ، فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها ، وعند الصيرفي امين جالس لئلا يصلح على بعضها . ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصيرفي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها (٣) .

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء واهل الفاقة ، وقد نكبوا كما نكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فأصبحوا مضرب الامثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون اخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم ، حتى ظننا بعضهم موضوعاً لهذه الغاية . ولا يبعد ان تكون رغبة الناس في الاستحاث بعثت على المبالغة في بعضها ، ولكنها صحيحة على

١ - الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والالتلدي ١٣٢

٢ - العقد الفريد ٢٢ ج ٣ . ٣ - ترتيب الدول ٢٢

اجمالها -- قال السلطان العادل الايوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم من الكرماء: « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك ان يجر كوا هم الملوك والا كابر للسخاء وتبذير الاموال » .

فقال بعض الحضور : « يا خوند ، ولأي شيء يكذبون عليك ؟ » (١) .

### السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من اوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها او تأخذ بيدها في نشر مبدأ او رأي . وتعودوا ان يسموا ما يعطى للشاعر جائزة او صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة او راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة او مسانحة ، وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة او الامير في يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر احواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة .

اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية ، واسخاهم الوليد بن يزيد وهو اول من عد ابيات الشعر وأعطى على كل بيت الف درهم (٢) واقتدى به من جاء بعده منهم . اما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٠٠ درهم ، واول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابى حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحي خيالها » (٣) ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج » .

فأراد ان ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ إلا مائة الف الف درهم ، ويقال انه اعطاه اياها (٤) والغالب انه اعطاه مائة الف فقط ، وانما اضيفت الالف الاخرى خطأ من النساخ .

١ - نفح الطيب ٤٧٢ ج ١ .

٢ -- ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغانى ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩ .

٣ - ابن خلكان ١١٢ ج ٢ . ٤ - ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء ، اذا احب ان يعطي شاعره ابا دلالة فرض على الهاشمين دينارين ليعطيها له <sup>(١)</sup> .

اما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي ، اي مائة الف درهم <sup>(٢)</sup> واعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون <sup>(٣)</sup> وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه اعطى حسين بن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو اول من اعطى ذلك <sup>(٤)</sup> وكان اذا اعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك <sup>(٥)</sup> .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويحيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأغطية والجوائز <sup>(٦)</sup> .

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء <sup>(٧)</sup>

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته <sup>(٨)</sup> وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره <sup>(٩)</sup> وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر <sup>(١٠)</sup> .

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠ دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠ درهم لأنه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مائة فراش <sup>(١١)</sup> وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد

١ - الاغاني ١٢٨ و ١٣١ ج ٩ . ٢ - الاغاني ١٩ ج ١٢ .

٣ - الاغاني ١٥٧ ج ٣ . ٤ - الاغاني ١٨٤ ج ٦ .

٥ - الاغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١ .

٦ - الاغاني ١٦٤ ج ١١ . ٧ - ابن خلكان ٤١١ ج ١ .

٨ - الاغاني ٨ ج ٥ . ٩ - الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .

١٠ - ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ . ١١ - الاغاني ١٤٢ و ٩٩ ج ٥ .



حقى ولى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائته<sup>(١)</sup> وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها .

واقتمدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدولة الاسلامية ، وإن لم يبلغوا شأوهم .

## ٦ - المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال أن الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه ، وأقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء ، وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيهم ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أمية ، حتى عنف عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خر ، وقال له : « إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم أياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة<sup>(٢)</sup> ثم عوقب غير واحد منهم ومن أبنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عتبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله بن عباس ، وقدامة ابن مظعون ، وعبد العزيز بن مروان ، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي ، وأبي محجن الثقفي وغيرهم<sup>(٣)</sup> .

ومما ساعد على إقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها ، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد<sup>(٤)</sup> .

١ - حلبة الكميث ٦٣ و ٦٤ . ٢ - المعارف لابن قتيبة ١١٢ . ٣ - العقد الفريد ٣١٤ ج ٣ . ٤ - الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣ .

والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم. وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى<sup>(١)</sup> على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه<sup>(٢)</sup> وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشاراً باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري حتى صاروا يشربونها جهاراً. واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين إلى انتحال بعض المسوغات لشربها ، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ ، وفي أي أنواعه حلال وأياها حرام ، ويقال بالاجمال أن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه<sup>(٣)</sup> .

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم ( الحشاف ) وقد يضيفون إليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار<sup>(٤)</sup> وكانوا إذا قبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . وإذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاق العسل<sup>(٥)</sup> فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ ، فإذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا إذا ادت إلى السكر<sup>(٦)</sup> ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها ، ولهم في ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسطة في كتب الشرع .

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ ، وهو حلو منعش فيكثر من شربه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطال ،

١ - ابن الأثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ . ٢ - المعريزي ٢٩٧ ج ٢ .

٣ - ابن الأثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ .

٤ - كتاب البخل ٥١ . ٥ - الاغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥٥ ج ٢ .

٦ - المقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والذبا ٨١ ج ١ .

واذا طال مكث النبذ قبل شربه دب فيه الاختار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما اتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين . وافظع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول : « اشتهي ان ارى غلامي فلاناً طائراً في الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق ، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « اشتهي ان اشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى <sup>(١)</sup> . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهي في الغالب مجالس الغناء ، ويندر ان يترفع خليفة او وزير عنها . ومن اكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، واكثرهم نفوراً منها المنصور والمهتدي . واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر <sup>(٢)</sup> واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيراً ما امر بإراقة الخمر واراقة العسل حتى لا تصنع منه .

اما العامة فانغمس الكثيرون منهم في المسكر وشربوه على انواعه ، شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكاهم ، فكيف اذا كانوا يشربون ؟ والغالب في شاربى النبذ ان ينبذوه في بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند اخوانه ، وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة ، واكثر اصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر في الاديان وخرها مشهورة بجودتها .

## ٧ — التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتورها شيء من التهتك والفحشاء ، وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مها بلع من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر اسباب الرغد والتنعم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا هن رايات ينتحيا الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون امامهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا <sup>(٣)</sup> ولكن ذلك شأن الحضرة منهم ، لان البدو اقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون اسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى ، حيث تتراحم الاقدام وتتوفر

١ - فوات الوفيات ١٥٧ ج ١ . ٢ - المقرئ ١٥٤ ج ٢ . ٣ - العقد الفريد ٢ ج ٣ .

الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الغناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تقشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الاحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغايون عند الحاجة<sup>(١)</sup> وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات<sup>(٢)</sup> واصبح اهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم<sup>(٣)</sup> ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات<sup>(٤)</sup> .

واقبح ما ظهر من التهلك في اثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المعتصم وفيهم الأرقاء بالاسر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيينهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نساءهم وجوارىهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء<sup>(٥)</sup> حتى غارت النساء من ذلك فعمدوا الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال<sup>(٦)</sup> .

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرتهن الى التفان في اساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزواج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر<sup>(٧)</sup> حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء او لاسباب اخرى كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج<sup>(٨)</sup> ذكرنا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك - وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال : هذا دليل السقوط « وجند على مصر وقتحها ، والعفاف سياج العمران .

- 
- ١ - الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ . ٢ - ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفع الطيب ٨٦٠ ج ٢ .
  - ٣ - ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقرئزي ٣١٦ ج ١ .
  - ٤ - المقرئزي ٨٩ ج ١ . ٥ - تزيين الاسواق ١٦٣ .
  - ٦ - المقرئزي ١٠٤ ج ٢ . ٧ - ابن الاثير ٨٨ ج ٧ .
  - ٨ - الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢ .

أُبْهَتِ الدَّوْلَةُ

## أبهة الدولة

الأبهة: « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ، ونريد بها مظاهر الدولة في أبهى أحوالها وأفخم أطوارها، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعايمهم وملاهيهم وملابسهم ، وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الإسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها، رأينا أن نحصر كلامنا عن الأبهة في العصر العباسي ، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

### مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وأبهة باختلاف الدول ، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها، وفي كل طور باختلاف المراد منها. فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل ، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها ، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل . وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك، على أن العمال - نظراً لإقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين - كانوا أقرب الى مظاهر الأبهة ، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك أنبؤهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرأ وجعل عليه باباً ، فأرسل اليه رجلاً من خاصته وأمره ان يحرق الباب عليه ففعل .

ثم إن طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة ، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب - بدأ ذلك معاوية بن أبي سفيان ، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر ، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد

قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قربهم من الفرس ، فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة ومرتبة .

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة ، فمعاوية ابن أبي سفيان<sup>(١)</sup> وأبو جعفر المنصور<sup>(٢)</sup> كانا يوزعان ساعات النهار على ما لدهما من الأعمال من إدارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالأكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة .

### شكل المجلس وفرشه

قلنا أن الراشدين وعملهم كانوا يجلسون في المساجد ، لأن الاسلام كان لا يزال غرضاً ، فلهذا جعله الأمويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصوراً لأنفسهم نصبوا بها الأسرة والكراسي ، واقتروشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالأسرة أول من اتخذها معاوية ، قلدها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسي فيظهر أنه قلدها مرازية الفرس لأن أول من استخدمها من الأمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس<sup>(٣)</sup> فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً - وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الأشعار في صدور المجلس ، وفرش الديباج والحز واصطناع الأسرة من الأبنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها .

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بإدارة . وأصبح لبعض كبار الرجال إدارات خاصة بأعمال تشبه ما للخلفاء من إدارات الكتاب والحساب والأطباء وغيرهم<sup>(٤)</sup> وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران ، دار خاصة ودار عامة ،

١ - المسعودي ٥١ ج ٢ . ٢ - ابن الاثير ١١ ج ٦ .  
٣ - المعقد الفريد ٤ ج ٣ . ٤ - طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .

يجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الأمراء أو الملوك. وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية .

والمجلس في إبان الحضارة كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير، على جدرانها صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه ، وفي أطراف البهو مناور من ذهب أو فضة توضع عليها الشموع <sup>(١)</sup> ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة <sup>(٢)</sup> يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠.٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص <sup>(٣)</sup> وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فلمعتمد الأندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جبل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلى بنفائس الدر <sup>(٤)</sup> . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء <sup>(٥)</sup> أو يستترون عنهم وراء شباك محرم . على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف ، فيضاف إليه في الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللاتقة بالوقت على أشكالها <sup>(٦)</sup> .

### مجالسة الخلفاء

#### الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول : « السلام عليكم » أأدخل ؟ يكرر ذلك ثلاثاً ، فإن لم يؤذن له لم يعدها <sup>(٧)</sup> وربما أقام الراشدون

- 
- |                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| ١ - المقد الفريد ١٠٨ ج ٣ . | ٢ - طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ . |
| ٣ - المقرئ ٣٨٥ ج ١ .       | ٤ - نفع الطيب ١١٢٨ ج ٢ .    |
| ٥ - الاغانى ٩٩ ج ٢ .       | ٦ - ترتيب الدول ١٢٣ .       |
| ٧ - المقد الفريد ٢١ ج ١ .  |                             |



الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الأحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الأذنون والحجاب يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلوساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم<sup>(١)</sup> أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الإذن للناس على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب<sup>(٢)</sup> وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الأمويين ، فإذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولاً لأشرفهم نسباً ، وإذا تساوا في النسب قدموا أكبرهم سناً ، فإذا تساوا في السن قدموا أكثرهم أدباً ، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الإسلامية .

وكانوا في أيام بني أمية وفي أوائل الدولة العباسية إذا وفد الناس على الخليفة أو الأمير وقفوا ببابه يلتمسون الإذن ، فاما ان يأذن لهم او يصرفهم ، فإذا صرفهم عادوا ثانية وإذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الإذن الاول والثاني والثالث الخ<sup>(٣)</sup> ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل يجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد ، فاتخذ في قصره بيوتاً للإذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية<sup>(٤)</sup> فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون ادناً لدخول القصر وآخر لدخول المجلس .

### الدخول على الخليفة والسلام عليه

فإذا اذن لاحد بالدخول تقدم والقي التحية . وكانوا في اول الاسلام يحيون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او الوالي : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى<sup>(٥)</sup> وقد يضاف الى التحية كنية الامير او الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس ، هوا

١ - الاغانى ٦٠ ج ٥ . ٢ - العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١ .

٣ - الاغانى ٧٠ ج ٦ . ٤ - لطائف المعارف ١٤ .

٥ - العقد الفريد ٢٠٩ ج ٢ .

بتقليدهم . واول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » ، والزم اهل عمله ان يؤمروه اي يحيوه تحية الامراء وهي : « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته » <sup>(١)</sup> او « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا واقتدى بهم سائر المسلمين ، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة ، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » او « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله » <sup>(٢)</sup> وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم ، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له والخدمة تختلف بين ان تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله .

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا في اوائل الاسلام يقبلونها عند البيعة او تجديد العطاء ، وعند العفو او الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي ( صلعم ) وظل متبعاً مع اكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكفهم ، فصار التقبيل للأكام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا اراد الخليفة تشريف احد قواده منعه من تقبيل يده او كفه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة ، فجذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » <sup>(٣)</sup> وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولا المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر انزل المعز اولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه <sup>(٤)</sup> . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لأنه سبه قبل خلافته ، فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتألك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته <sup>(٥)</sup> وكذلك فعل ابراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لأنه تنازل لزيارته <sup>(٦)</sup> وكان اهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بل يدخلون عليهم السكينة والوقار .

١ - الاغانى ٣٥ ج ١٢ . ٢ - المقرئى ٢٨٨ ج ٢ .  
٣ - ترتيب الدول ٦٠ و ٩ . ٤ - ابن خلكان ١١٩ ج ١ .  
٥ - ابن الاثير ٤٢ ج ٦ . ٦ - الاغانى ٩١ ج ٩ .

والداخلون على الخليفة يجلسون بالماضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية ، يجلسون على الاسرة وينو هاشم على الكراسي . وأما في الدولة العباسية فصارت الافضلية لبني هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف ، فيجلس الخليفة على السرير او السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، ويقعد بنو أمية اذا حضروا على الوسائد تثني لهم <sup>(١)</sup> لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس ، بعد ان نكبهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٢٥٠ هـ <sup>(٢)</sup> وبلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتباین على مقتضى الاحوال مما لا حد له .

### الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سذاجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه او كنيته ، فيقولون : يا عمر او يا معاوية او يا علي ، لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب . لأسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الأمويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » <sup>(٣)</sup> ثم منعوا الكلام في حضرة الخليفة على الاطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « وإني أعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلقت نفسه ، فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بني مرة يوماً : « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطيء حتى مات ، فاعتظ الناس وهابوه <sup>(٤)</sup> وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه أو يكاتبون بعضهم بعضاً .

١ - الاغانى ٩٢ ج ٤ . ٢ - ابن الاثير ٥١ ج ٧ .

٣ - العقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج ٢ .

٤ - لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤ .

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يدعى لأحد في حضرته<sup>(١)</sup> ولا ينهض لداخل إلا اذا نهض الخليفة - ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم<sup>(٢)</sup> فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء إلا اذا كلموه ، أي لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوafd عليهم بقولهم : « ما أنعمنا بك يا أبا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب<sup>(٣)</sup> فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكناً .

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه<sup>(٤)</sup> واستمر ذلك بعده مع مراعاة الأحوال . أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم<sup>(٥)</sup> . ولما استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم ، حتى أصبح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة<sup>(٦)</sup> .

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة<sup>(٧)</sup> واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغي المجلس الى كلامه بكلية فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً ، وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسير على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابه : « إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاءه<sup>(٨)</sup> .

والخلفاء لا يعززون ، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا افعاله ، ولا يستعاد منه الكلام او يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم<sup>(٩)</sup> ولا يليق ان يرد على الخليفة

- 
- ١ - البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ .
  - ٢ - الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١ .
  - ٣ - ترتيب الدول ٩٢ .
  - ٤ - الاغانى ٣٦ ج ١٤ والمسمودي ٢٥٧ ج ٢ .
  - ٥ - ابن خلكان ٢٢ ج ١ .
  - ٦ - المسمودي ٢٦١ ج ٢ .
  - ٧ - المقعد الفريد ١١١ ج ٣ .
  - ٨ - المسمودي ١٥٧ ج ٢ .
  - ٩ - ترتيب الدول ٦١ .

بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها <sup>(١)</sup> . وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس » <sup>(٢)</sup> ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فأكهة في اطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدني به . إني دخلت الى بستان لي أفادني كرمك وعمرته لي نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في أطباق القضب ، ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكتيته عن الخيزران بالقضب ، لأنه اسم أمه <sup>(٣)</sup> .

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الاسلام باللغة العربية الفصحى ، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الألفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحناً . فكان الأمويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحناً ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤله ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بني امية . وللوليد اخبار في اللحن مضحكة <sup>(٤)</sup> . وكان عمال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب إلا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحياناً <sup>(٥)</sup> فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم ، كأبي حنيفة النعمان وأبي عبيدة وغيرهما .

### احتجاج الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يحالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الأمويون وجعلوا بينهم وبين الجلوساء حجاباً ، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم .

٢ - ترتيب الدول ٩٨ .

٤ - المقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ .

١ - ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ .

٣ - فوات الوفيات ١٣ ج ٢ .

٥ - ابن خلكان ٢٤٤ ج ١ .

وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ قتله غيلة ، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفي 'بتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك، واحتجب عن الناس إلا من اختصهم بالجمالة ، واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم وكذلك الأوائل من بني العباس<sup>(١)</sup>.

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد اردشير ، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الأحوال ، فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر إلى ثلاثة أو أربعة ، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضاً<sup>(٢)</sup> وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر<sup>(٣)</sup>.

كذلك كان شأن العباسيين ، من أبي العباس السفاح إلى المتوكل ومن بعده ، إلا الهادي فإنه لم يحتجب عن أحد<sup>(٤)</sup> ، على أنهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة إلا أحياناً . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة ، تنقل ما يريد الخليفة إبلاغه إلى جلسائه أو ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الإسلامية بمصر والاندلس .

### علامة الصرف

وإذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى إشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان ، فكان إذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجليه فينصرفون . وتابعه ملوكهم على ذلك ، فكان فيروز يدلك عينيه ، وبهرام يرفع رأسه إلى السماء<sup>(٥)</sup> وقلدهم فيها المسلمون من أيام بني أمية ، فكان معاوية إذا أراد صرف الناس قال : « إذا شئتم » أو « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل خيزرانة فإذا القاهها من يده عرف جلسائه أنه يريد انصرفهم<sup>(٦)</sup>.

١ - المسعودي ١٠٦ ج ١ .

٢ - الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدي ١٢٣ .

٣ - الاتليدي ١١٥ . ٤ - الأغاني ١٦ ج ٥ .

٥ - حلية الكميته ٢٦ .

٦ - البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والمقد الفريد ٢١٩ ج ١ .

وقس عليه سائر الخلفاء من بني أمية وامرائهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا اراد صرف جلسائه دعا بمندبل فيقومون .

اما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم ان يتشاءب ويلقي المروحة من يده <sup>(١)</sup> وكانت علامة المأمون ان يعقد اصبعه الوسطى بابهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى .

## مجالس الأدب والشعر

### رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونوادرهم واشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة <sup>(٢)</sup> يقيمون اناساً يتلون عليهم اعمال القواد والملوك من الرزم والفرس ، واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي ، يلتمسون بذلك التوسع في اسباب الدهاء وافانين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء .

على انهم كانوا يعقدون مجالس الأدب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم ، فاخص بكل خليفة جماعة ممن غاصروه من اصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه في اوقات معينة او اذا دعاهم في ساعة قلقه او ارقه . وقد يكون ذلك في واسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل يقتل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل ان ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه يبنها على نكتة او حكمة مما يعلم اوتباح الخليفة له <sup>(٣)</sup> .

١ - الاغاني ٢٠٦ ج ١٨ .

٢ - ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسمودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ .

٣ - المسمودي ١٦٣ ج ٢ .

## احترام الخلفاء لأهل العلم

وكانوا يحلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للأصمعي والإجلال له ، فإذا خلا به سأل واستفاد منه علماً وأدباً ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا وقرنا في الملا وعلما في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل أبو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الأبريق وصب عليها والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدري من يصب الماء على يديك ؟ » قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، اجلالاً للعلم »<sup>(١)</sup>.

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي ، وكيف انتصر الأمين للكسائي والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدل في ذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث .

ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الأشعار والأخبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالنصور ضم الشريقي بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءه الأشعار<sup>(٢)</sup> ، والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين الى الأحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال أنه أوصى بها الأحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الأمين وهي :

« يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، ورواه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتيمت ذهنه ، ولا تمن في مساعدته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »<sup>(٣)</sup>.

١ - سير الملوك ٧٩ . ٢ - المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٤٢ .

٣ - ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢ .



وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدهاها له ، فتنازعا أيها يقدمها ثم اصطالحا على أن يقدم كل منهما واحدة . فبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس ؟ » قال : « لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منها أن يقدم له فرداً » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعها عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعها عن مكرمة سبقا اليها او كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها <sup>(١)</sup> . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت <sup>(٢)</sup> وتعلم عبد الله بن المعتز الأدب والعربية على المبرد وثعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي <sup>(٣)</sup> .

### تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الأعطية ، وعينوا لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد <sup>(٤)</sup> . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء ورعاً لاعتقاده أنه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتغلاً عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في أيامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون أيامهم في الشام <sup>(٥)</sup> على عهد بني أمية .

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الأمراء بالمديح ، وقد يرتكبون أقبح الأكاذيب في هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ،

١ - طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢ .

٢ - طبقات الادباء ٢٣٨ . ٣ - فوات الوفيات ٢٤١ ج ١ .

٤ - الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠ .

٥ - الاغانى ٩١ و ١٠٢ ج ١٢ .

وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة <sup>(١)</sup> وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء . وقيل للحطيئة : « إياك وهجاء الناس » فقال : « إذا يموت عيالي جوعاً . هذا مكسي ومنه معاشي » <sup>(٢)</sup> وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب ، كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً <sup>(٣)</sup> .

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عال وهو قائم واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى انهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت او الكلمة ، واذا استبطأوا الشاعر او الراوية بمنوا في استقدامه من العراق او الحجاز ، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت او قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته <sup>(٤)</sup> او لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعراً <sup>(٥)</sup> وقد يحيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ، كما اجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانه اتاه بابن جامع <sup>(٦)</sup> .

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون في طلبهم الى الانحاء ، وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد <sup>(٧)</sup> فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز ، فمهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي <sup>(٨)</sup> واصبح الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يثق به ليختار له احسنهم <sup>(٩)</sup> او اذا عن له بيت او قصيدة خرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء : « من منكم يقدر يقول قول فلان او يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا » <sup>(١٠)</sup> وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه ، وربما تراحفوا عن مجالسهم اعجاباً وطرباً <sup>(١١)</sup> .

- 
- |                       |                                    |
|-----------------------|------------------------------------|
| ١ - الاغاني ٧٩ ج ٢٠ . | ٢ - الاغاني ٥٥ ج ٢ .               |
| ٣ - الاغاني ١٣٩ ج ٤ . | ٤ - الاغاني ٦٥ ج ٢ .               |
| ٥ - الاغاني ١٧٨ ج ٦ . | ٦ - الاغاني ٨٣ ج ٦ .               |
| ٧ - الاغاني ٧٤ ج ١٧ . | ٨ - الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .              |
| ٩ - الاغاني ٢ ج ١٢ .  | ١٠ - الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ . |
| ١١ - سير الملوك ٩٣ .  |                                    |

## مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل ، يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام<sup>(١)</sup> .

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ، ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون ، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا اخفافكم » ثم احضرت الموائد وقيل لهم : « اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء » ومن كان خفه ضيقاً فليزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فاذا فرغوا اتوا بالمحارم فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظرهم احسن مناظرة والطفاها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون<sup>(٢)</sup> . وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي او مذهب جديد .

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى لبرمكي وزير العباسيين ، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره ، وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه . فأخذ الحاكم بأمر الله بفاوض العلماء ويحيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشاها في القاهرة<sup>(٣)</sup> وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع او غيرها .

١ - المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١ .

٢ - المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج اللطفي ٢٣٦ .

٣ - الجزء الثالث من هذا الكتاب .

وصارت تلك المجالس عامة في الدولة التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها ، واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك، والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة - كذلك فعل صلاح الدين الايوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم والوجهاء والاطباء ، واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم<sup>(١)</sup> ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليها مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي<sup>(٢)</sup> .

## مجالس الغناء والأنس

### منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم<sup>(٣)</sup> وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في أمورهم<sup>(٤)</sup> . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويحيزونهم<sup>(٥)</sup> الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء ، لأنهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب ، فاذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب كما تقدم .

ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلاً للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذي

١ - طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملقب ٢٢٧ .

٢ - ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ .

٣ - الاغانى ٩ ج ١٣ . ٤ - ابن الاثير ٦٦ ج ٨ .

٥ - الاغانى ١١١ ج ٥ .

استخفه الطرب من غناء جاريته حباية حتى قال: «أريد أن أطير!». فقالت له حباية: «على من تدع الأمة وتدعنا؟»<sup>(١)</sup> وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد. ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء.

على أنهم كانوا إذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان<sup>(٢)</sup>. وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كما إبراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر، ذكروا عن إبراهيم المذكور أنه غنى للأمين بشعر أبي نواس:

رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على إبراهيم وجعل يقبل رأسه! فنهض إبراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الأمين وما وطئت من البساط، فأمر له بثلاثة آلاف درهم، فقال إبراهيم: «يا سيدي قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف درهم»، فقال الأمين: «وهل ذلك إلاخراج بعض الكور؟»<sup>(٣)</sup> فأعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره. فلاغرو إذا توفي عن ثروة طائلة. واشتهر في الأندلس علي بن نافع المعروف بزرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة إلى الأندلس، فقد أثمرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق<sup>(٤)</sup>.

### المضحكون والمجانون

ومن توابع مجلس الغناء المضحكون والمجانون، أشهرهم أشعب في دولة بني أمية وأبو الحسن الخليلي الدمشقي في أيام الرشيد وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون. فكانوا إذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأفراح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة

١ - المسعودي ١٢٦ ج ٢ . ٢ - الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١ .

٣ - المعقد الفريد ١٩٥ ج ٣ . ٤ - الاغانى ١٣٢ ج ١ .

يقلدون بها الدب أو القرد ، يغلقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الشكلى ، وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بمذايبهم ، فالتوكل كان اذا طرب أمر بأبي العبر المجان ان يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع في الماء فيخرجه السباح . وكان يجلس أحيانا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك <sup>(١)</sup> وكان الأمين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حاري ؟ » فكل واحد يقول : « أنا ! » فيركب لواحد ويصله <sup>(٢)</sup> وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتعاشى ذكره . وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا نصار الأعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة .



## مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بمخروج الخليفة او السلطان او الامير في عيد او غير عيد، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فكان لمعد يركب عبيد من الأحباش يمشون بين يديه بالحرا ب<sup>(١)</sup> فلما جاء الاسلام تزهد اصحابه من التقوى ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان ابو بكر في اول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع ، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وامراؤه ركوب الفرس والروم . وقد على الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس ، وفي الثانية على بعير ، وفي الثالثة على بغل ، وفي الرابعة على حمار . وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية ، فكان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد على الحبول عليهم الديباج والحريز ، فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها<sup>(٢)</sup> فقس على ذلك سائر الراشدين .

### مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار ، لقرهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة واسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراساً يرفعون الحرا ب بين يديه ، او يقفون بالسيوف

١ - المسعودي ١٩٧ ج ١ .

٢ - ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والمقد الفريد ٢٣٦ ج ٢ .

عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال <sup>(١)</sup> واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن ابية رجالا يمشون بين يديه بالاعمد <sup>(٢)</sup> او بالحربة . واصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون <sup>(٣)</sup> .

وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي (صلم) تسمى العنزة واصلها للنجاشي ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي (صلم) وكانت تركب بين يديه في العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل ، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه <sup>(٤)</sup> اذا خرج في موكبه .

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدنية واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل او القباب او الحفلات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين ايديهم . واقدام من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه <sup>(٥)</sup> ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح ، واول من فعل ذلك الهادي العباسي ، فكان اذا ركب مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرفعة والاعمد المشهورة والقسي الموقورة <sup>(٦)</sup> فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس <sup>(٧)</sup> ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، واول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه رجاله الحسن بن علي وزير المسترشد <sup>(٨)</sup> وكانوا الى ذلك الحين يركبون بالخليصة الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديناج ، ثم ركبوا في حلية الذهب ، واول من ركب بها المعتز العباسي المتوفي سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك .

لما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر اسباب المدنية ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلمهم نقلوا هذه العادة

- 
- ١ - الفخري ٩٧ . ٢ - لطائف المعارف ١٢ والمقد الفريد ٤ ج ٣ .
  - ٣ - البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقرئ ٣٠٧ ج ١ .
  - ٤ - ابن الاثير ٣٢ ج ٧ . ٥ - لطائف المعارف ١٢ .
  - ٦ - المسمودي ٣٦٥ ج ٢ . ٧ - الاغانى ٩٤ ج ٢٠ .
  - ٨ - الفخري ٢٧٢ .



من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس<sup>(١)</sup> فاتخذها الفاطميون من الديباج او الخز الحلى بالذهب والمرصع بالجواهر وحوّلها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الأحوال .

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رؤوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظله من الشمس ، ويتخذونه من الديباج او الحرير المذهب<sup>(٢)</sup> .

على ان تلك المراكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، أهمها موكب الخروج الى الحج او الى بلد آخر . ومراكب الأعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . واول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الأموي ، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح<sup>(٣)</sup> .

وللخلفاء مراكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول او في القباب ، وحوّلهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة ، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون الذهب او يحملون المقارع او الطبرزينات الحلاة بالذهب ، ويقف الناس او الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترجل فيها الناس بين يديه<sup>(٤)</sup> ، واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق<sup>(٥)</sup> يستظل الخليفة بها او يقيم فيها .

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الأزهر بالمظلة المذهبة وبسبين ايديهم نحو ٥٠٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف ويده قضيب الخلافة ، حتى يأتي الجامع ويصلي ، ولهم رسوم كثيرة يحرونها قبل الصلاة . واذا خرجوا للمباينة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجواهر<sup>(٦)</sup> وثوب يقال له البدنة كله

١ - الاغانى ٥٩ ج ٦ . ١ - ترتيب الدول ١٠٣ .

٣ - ابن الاثير ١٤٧ ج ٥ .

٤ - ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغانى ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢ .

٥ - فوات الوفيات ٤ ج ٢ . ٦ - المقرئى ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢ .

ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلي ، والعسكر على أزيائه من الاتراك والديلم والعزيرية والاششيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبية ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة ، وقوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجواهر وبيده قضيب الخلافة ، ويمشي امامه اصحاب الابواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس ، واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة ، والاولوية تخفق فوق ذلك الموكب .

## احتفالاتهم

### الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين ، كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين . ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين . واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون . منها : يوم عاشوراء ، والمولد النبوي ، ومولد علي وفاطمة ، الحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة اول رجب ، وعيد النحر ، وعيد الفطر ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقرئ في خطه<sup>(١)</sup> ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبدلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه .

ومن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية في الابهة ، والمشهور انه اول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم<sup>(٢)</sup> وكذلك السلطان ابو حو موسى صاحب تلمسان<sup>(٣)</sup> - هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع ، فنذكر امثلة منها فيما يلي :

١ - المقرئ ٤٩٠ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ .

٣ - نفع الطيب ٦٠٤ ج ٤ .

## احتفالات الاعراس ونحوها

فلاحتفال بالاعراس تقلب على احوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في « قم الصلح » احتفالاً لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جارية او مملوكاً . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما انفق على المأمون وقواده واصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه ، وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على المحالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ونفذ الخطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجلت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وقين زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئاً . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد واكرمنه » فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هاشم » ، وكأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقتها      حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شجرة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم وأقطعهم قم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده واصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وجاء المأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صنية ذهب<sup>(١)</sup> وغير ذلك مما يفوق طور التصديق .

والاحتفال الثاني أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا، وما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور، وجعلت بساطاً ممدوداً. وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأنصاف الجواهر من الجانبين وبين السامطين فرجة. وجاء الفراشون بزناويل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده، وكلما خف موضع صب عليه من الزناويل حتى يرد إلى حالته. ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء!» فدنا الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه. ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة، وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة وأعتق الف نسمة<sup>(١)</sup>.

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة<sup>(٢)</sup>، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

### الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الأبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين، وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير، وأمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد<sup>(٣)</sup>، وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعماهم خلعاً تختلف شكلاً وقدرًا باختلاف الأحوال، ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه الخلويع عليه يقال له الخلعة. فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولي السلطان صلاح الدين الأيوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلي بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج

١ - لطائف المعارف ٧٤. ٢ - ابن الأثير ٦٥ ج ١٠. ٣ - المعري ٩٩ ج ٢.

ذهب وسر سار ذهب مجوهر ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائنها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض (١) .

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه اياها باحتفال ، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب (٢) . وقس على ذلك .

### استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهر فيه عز الإسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم او الفرس او الهند او الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في « دار الشجرة » التي تقدم ذكرها وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين ألفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم ابيض و ٣٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة اعظم زينة . وزينت دار الخلافة ، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٠٥٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبعة مائة سبع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت اغصانها تتأيل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (٣) .

١ - السيوطي ٢٥ ج ٢ . ٢ - السيوطي ٥٨ ج ١ .

٣ - ابو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥ .

## الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع واهله في خمول ، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضعة عشرة سنة على اسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا ارادوا ردهم فمجزوا عنه ، ومسا لبشوا ان شاهدوا تقدمهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم واخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ، ثم اصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى اعالي آسيا واواسط اوربا شمالا الى اقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من اقاصي البحور .

### الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير اصحابه ، ولم يدون اخباره غير اهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيته يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام او المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان ابا جعفر ارسل سنة ٧٥٦ م وفداً الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوي هو » من مغول الشمال فاختمهم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفد من باب - ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في اثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ . قالوا : « ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه ( سنة ٧٨٥ - ٨٠٤ ) جرد العرب اصحاب الجبة السوداء على توفان ( تيببت ) ثم صار اهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي ( ٧٩٨ م ) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور » (١) .

ووقفوا في تاريخ الصين ايضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من اواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة ، فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يقدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الأخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الأهمية ، لأنها منقولة عن مصدر صيني مستقل .

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لا يكثرثون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات ، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرها . على أن هذه الاقاصيص منقولة في الأصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم . وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا .

على أننا لا نلوم المنكرين ، لأنهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم والمخطاط مهمهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا ان يكون لهم مثل تلك الهمم الشباء في عهد ذلك التمدن ، فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير قواطع أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه .

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة الغرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطئ خليج فارس الى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب للمسعودي » وهو مشهور ومتداول ، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني

على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم ، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك .

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين ، وأن المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة<sup>(١)</sup> ولا بد أيضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين .

### الاسلام وملوك أوروبا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوروبا - وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان - كانت أوثق من سواها . أما الروم ، وهم ملوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات بينهم وبين المسلمين من أيام بني أمية إما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة<sup>(٢)</sup> . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الأمويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من أوروبا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس<sup>(٣)</sup> فان الرشيد أخذ الجزية من إيريني صاحبة القسطنطينية .

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا أشهر من ان تذكر . على ان هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة كانت متواصلة ، واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم ( ربما ميخائيل الثاني ) إلى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور<sup>(٤)</sup> .

واهدت ثريا بنت الاوباري ( كذا ) ملكة الافرنج إلى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و٥٠ رمحاً و٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و٢٠ خادماً صقلياً و٢٠ جارية و١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها<sup>(٥)</sup> .

١ - المقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسدودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦ .

٢ - المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ . ٣ - ابن الاثير ٧٤ ج ٦ .

٤ - فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ . ٥ - المستطرف ٤٦ ج ٢ .



وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخابرة ، ومن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انقذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فائز في بلاط القيصر انفة زادت مقام المسلمين عندهم<sup>(١)</sup> .

### الاندلسيون وملوك الفرنج

على ان العلاقات كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس ، لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبدالرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراحل وابن ماردة ، تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجوارى . فكافأه عبدالرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره واحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما<sup>(٢)</sup> فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث واطماً عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطاءه احد من اسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرها على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتأخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليه من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه<sup>(٣)</sup> .

وتوالت الهدايا على عبدالرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملك برشلونة وطر كونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح<sup>(٤)</sup> وملك الصقالية وهو يومئذ « ذو فوة » ( كذا ) اوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان ( ربما اوتوا الأعظم ) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كدة » ( ربما كونراد ) واحتفل الناصر لقدمهم احتفالاً شائقاً . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالية ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخماً عزيزاً ،

١ - ابن الاثير ٦ ج ٩ . ٢ - نفح الطيب ١٦٣ ج ١ .

٣ - نفح الطيب ١٦٧ ج ١ . ٤ - نفح الطيب ١٨١ ج ١ .

لم يبق ملك من ملوك اوروبا الا خطب مودته، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كانت يحريه من الاحتفال في استقبالهم<sup>(١)</sup> تعظيما للدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » اهداه اولئك الملوك من اصناف الحجارة والرخام على اختلاف الوانه واشكاله شيئا كثيرا<sup>(٢)</sup> وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخم .

وقس على ما تقدم علاقات ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم ، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد ان ضخمت دولتهم ، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر ، كل قنطار عشرة آلاف دينار ، المجلة ٣٠٠٠٠٠ دينار<sup>(٣)</sup> وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ، وهو لا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة<sup>(٤)</sup> .



٢ - نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ .  
٤ - المقرئ ١٠٧ ج ٢ .

١ - نفح الطيب ١٧٢ ج ١ .  
٣ - المستطرف ٤٦ ج ٢ .

## العباخ الخلفاء وملاهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهمون في ساعات الفراغ بالعباء يروضون بها عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة العباء ثلاث عاداتها وتشاكل اخلاق أهلها، ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها . والعباء الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق، وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في أيام الرشيد ، فإنه أول من لعب بالصولجان والكرة ، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق<sup>(١)</sup> واليك وصف أهم العباء في أبان تمدنهم :

### ١ — الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ، ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ ، فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذة للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الأساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه<sup>(٢)</sup> . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك .

حتى اذا أفضى الأمر الى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقاها وبذلوا الأموال في اقتنائها وتربيتها ، وأقاموا عليها أناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجلية وأقطعهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها<sup>(١)</sup> وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتباً عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطاردة<sup>(٢)</sup> .

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنائير فضلاً عن الغزلان والطيور وحرر الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنائير<sup>(٣)</sup> وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبايد<sup>(٤)</sup> وكان المعتصم ألهمهم به، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونها بنحيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الأعشاب والأدغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته، ويتألقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي<sup>(٥)</sup> .

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة<sup>(٦)</sup> وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الأطلس الموشاة وسورها بالأساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بنساحية بنزرت في بقعة ببسيط من الأرض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراعى فيه حمر الوحش ، فاذا ركب

١ - ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبي نواس والاغاني ١١٦ ج ٩ .

٢ - ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١ .

٣ - الاغاني ٩٧ ج ٩ . ٤ - المسعودي ٢١٣ ج ٢ .

٥ - الفخري ٤٧ . ٦ - ابن خلكان ١٢٤ ج ٢ .

للصيد تخطى السباج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السباج<sup>(١)</sup> وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه<sup>(٢)</sup> .

## ٢ — الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض<sup>(٣)</sup> .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالقوا في اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتقننوا في تضييرها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق اجازوه - وقصب السبق قصبه يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكروه ان يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس ، يحضره مجلس منادمته وي طرح له متكأ ، وكان نبيها خبيثاً يحمله على اتان وحشية قد رiest وذلت بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقاً ودخل الحجره قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش<sup>(٤)</sup> .

وكان هشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبدل في اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرمًا بخيل السباق ، فجمع منها الف فرس اسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه او جاء مصليا ( أي جاء الثاني ) . وكان

١ - ابن خلدون ٢٨١ ج ٦ .  
٢ - كتاب الاعتبار ١٥٠ .  
٣ - المسعودي ٣٨٠ ج ٢ .  
٤ - المسعودي ٦٨ ج ٢ .

ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة<sup>(١)</sup> ولمحمد بن يزيد بن عبدالله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هي احسن ما نظم في هذا الموضوع <sup>(٢)</sup> .

اما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشامية ، وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق <sup>(٣)</sup> وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ، ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر <sup>(٤)</sup> وميادين الحكم في الاندلس .

### ٣ - الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها ، واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقاطها بعضا عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ، يرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم اصحابه يوماً للعب بها ، فجعل الافشين في جهة وهو في جهة ، فقال الافشين : « يعني امير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لاني ما ارى ان اكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه <sup>(٥)</sup> .

### ٤ - البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها ، وهي فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها ايضا الجلاهقات جمع جلاحق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن

١ - المسعودي ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢ . ٢ - المسعودي ٢٨١ ج ٢ .

٣ - المقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ .

٤ - المقرئزي ١١١ ج ٢ . ٥ - ترتيب الدول ١٣٠ .

الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في اواخر ايام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً<sup>(١)</sup> ثم الفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه<sup>(٢)</sup> ويمدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشتغلوا بتطهير الحمام . ولهم زي خاص ، يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من اهل بغداد يلبسونها في اواخر الدولة . حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفي سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأنًا ، لانه كان ولعاً به وباللعب بالحمام المناسب ( أي المنسوب ذي الاصل المعروف ) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك ان جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على ان يكون بينهم ررابط وثيقة فحوا عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن اراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه .. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب اليه . فأجابه الناس في العراق وغيره إلا انساناً اسمه ابن السف من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال : « يكفيني فخراً انه ليس في الدنيا احد لا يرمي للخليفة إلا انا »<sup>(٣)</sup> .

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقواس البندق<sup>(٤)</sup> ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأتابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أتابيب البندق .. فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأتابيب سمو هذه الآلة

١ - ابن الاثير ٩٠ ج ٣ . ٢ - الاغانى ٩٣ ج ٢٠ .

٣ - ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣ .

٤ - المقرئى ٣١ ج ٢ .

بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس ، وهو غرض في الهواء ، أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب ، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد .

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج ، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم ، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم .

## ٥ - ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس ، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها ، وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها (١) وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها - ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونهم السيف ، وإذا ركب ركبوا في خدمته وإذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمره أن يقبل يده ، فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : « يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القردة ؟ لا والله أبداً » فعفا عنه (٢) .

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهدي ، وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز في التقوى والزهد ، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهدي عادوا الى المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت

١ - العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .

٢ - تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٤٥ .



الاسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعاً لهم<sup>(١)</sup> .

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرها ، فقد كان لخمارويه ابن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، وعمل فيها بيوتاً بأزاج كل بيت يسع سبعة ولبؤته ، وعلى تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بمحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا اراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، او وضع وظيفة اللحم لغذائه ، رفع الباب بحيلة من اعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويغلاه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هبى له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهاش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره .

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبؤة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفتن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن

ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه ودرب عليه ، وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام قائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه<sup>(١)</sup> .

تطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات ، فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يحري هذا المجري ، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها ، وكان كل حاو بمصر يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها والكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبدل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه<sup>(٢)</sup> .

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضاً كالغزلان والقماري وأشباهها ، يعملونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها<sup>(٣)</sup> .

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء (?) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه ، له غيب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة »<sup>(٤)</sup> .

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء بالأندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك كالأقفاص الكبيرة<sup>(٥)</sup> .

وهناك ألعاب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيها حبنا در ، وكلعب الحمام وتطييره ، واللعب بالكباش والدبوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره .

١ - المقرئ ٣١٧ ج ١ . ٢ - فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ .

٣ - المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨ .

٤ - ابن خلكان ٢٦٧ ج ١ . ٥ - نفح الطيب ٢٧٤ ج ١ .

## الكتب التي وردت في هوامش الكتاب

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسني طبعتها وأماكنه ، وهي غير ما رجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية :

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعة وسنته
الآثار الباقية من القرون الخالية	لبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية ( الفخري )	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧ هـ
أيجد العلوم ، ٣ أجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الأثير ، تاريخ	أنظر : الكامل	
» الجوزي ، »	» : كتاب الأذكياء	
» حوقل ، جغرافية	» : المسالك والممالك	
» خرداذبة ، »	» : »	
» خلدون ، تاريخ	» : المعبر والمبتدأ والخبر	
» خلكان ، معجم	» : وفيات الأعيان	
» الساعي ، تاريخ	» : مختصر أخبار الخلفاء	
» عساكر ، »	» : تاريخ دمشق	
» الفقيه ، جغرافية	» : كتاب البلدان	
» هشام ، تاريخ	» : السيرة النبوية	
أبو الفرج الملقبي ، تاريخ	» : مختصر الدول	
» المحاسن ، تاريخ	» : النجوم الزاهرة	
الأثليدي ، معجم	» : أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	لیدن ١٨٧٦ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الأحكام السلطانية	لماوردي	مصر ١٢٩٨ هـ
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلي بن يوسف الدمشقي القرماني	بغداد ١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	لماوردي	بهاشم الكشكول
الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوي	مصر سنة ١٣١٢ هـ
أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر سنة ١٢٨٦ هـ
الاصطخري ، جغرافية	انظر : المسالك والممالك	
أعلام الناس	الاتليدي	مصر ١٣١٨ هـ
الاغاني ٢٠ جزءاً	لأبي الفرج الأصفهاني	بولاق ١٢٨٥ هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر ١٢٨٦ هـ
ألف باء ، جزآن	يوسف البلوي	مصر ١٢٨٧ هـ
البخاري ، صحيح	انظر : صحيح البخاري	
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال	بولاق ١٣٠٩ هـ
البلاذري ، تاريخ	انظر : فتوح البلدان	
بلوغ الأرب في احوال العرب ٣ أجزاء	للألوسي	بغداد ١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر ١٣١٣ هـ
البيروني ، تاريخ	انظر : الآثار الباقية	
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد	الاستانة ١٢٨٦ هـ
» الامم والملوك ١١ جزءاً	للطبري	ليدن ١٨٨٥ م
» دمشق	لابن عساكر	خط
» المشاركة	لصليبا بن يوحنا	خط
» الوزراء	للهلال الصابي	بيروت ١٩٠٤ م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر ١٩٠٤
تراجم الحكماء	لابن القفطي	خط
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق ١٢٩٥ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعة وسنة
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكي	مصر ١٣٠٨ هـ
تهذيب الأسماء	للنووي	جوتنجن ١٨٣٢ م
الجبرتي ، تاريخ	انظر : عجائب الآثار	
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	للسيوطي	مصر ١٢٩٩ هـ
حلبة الكيت	لشمس الدين النواجي	مصر ١٢٩٩ هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	للدميمري	مصر سنة ١٣٠٩ هـ
الخراج - كتاب	لأبي يوسف	بولاق ١٣٠٢ هـ
»	لقدامة بن جعفر	ليدن ١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	لعلي باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ
خطط مصر ( جزآن )	للمقريري	بولاق ١٢٧٠ هـ
الخمس (جزآن)	للديار بكري	مصر ١٨٢٣ م
الدميري ، كتاب	انظر : حياة الحيوان	
ديوان أبي نواس	للحسن بن هاني	مصر ١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزآن	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن ١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لابي بكر الخوارزمي	الاستانة ١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	لأطرطوشي	ط. هامش مقدمة ابن خلدون بمصر سنة ١٣١١
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس ١٨١١ هـ
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لعلي بن برهان الملقب نور الدين الحلبي القاهري	مصر ١٣٠٢ هـ
سيرة الملوك	لعبدالرحمن الاربلي	بيروت ١٨٨٥ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطي ، تاريخ	أنظر : حسن المحاضرة	
شعراء السريان	للقرطاجي	رومية ١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن ١٩٠٢ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكبري زاده	على هامش ابن خلكان
الشهرستاني ، كتاب	أنظر : الملل والنحل	
صحيح البخاري ٤ أجزاء	للإمام البخاري	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الأطباء - جزآن	لابن أبي أصيبعة	مصر ١٨٨٢ م
» الأدباء	لعبد الرحمن الأنباري	مصر ١٢٩٤ هـ
» ابن	لابن سعد	( خط )
تاريخ تغري بردي	أنظر : النجوم الزاهرة	
العبر والمبتدأ والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق سنة ١٣٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ أجزاء	للجبرتي	على هامش ابن الأثير
» المخلوقات	للغزويني	على هامش الدميري
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥ هـ
» »	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن ١٨٦٦ م
الفخري في الآداب السلطانية ، تاريخ	أنظر : الآداب السلطانية	
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوشي	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	( خط )
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزآن	لابن شاعر الكتي	مصر ١٢٨٢ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء	لفيليب جلاذ	مصر ١٨٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣ م
القبة الزرقاء	للككتور فانديك	بيروت ١٨٩٣ م
قدامة ، كتاب	أنظر : الخراج	
القرماني ، تاريخ	أنظر : أخبار الدول	
القزويني ، كتاب	أنظر : عجائب المخلوقات	
القوانين العقارية للحكومة المصرية		مصر ١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الأثير	مصر ١٣٠٢ هـ
الكامل	للبرد	مصر ١٢٨٦ هـ
كتاب الأذكياء	لابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين)	مصر ١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن ١٨٨٤ م
كتاب البغلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الحمذاني	ليدن ١٨٨٥ م
» »	لليعقوبي	» » »
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر سنة ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جلبي	الاستانة ١٣١١ هـ
الكشكول	للعامي	مصر ١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للتعالي	ليدن ١٨٦٧ م
اللغة الشبيهة في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
إلماوردي ، كتاب	أنظر : الأحكام السلطانية	

<u>اسم الكتاب</u>	<u>اسم مؤلفه</u>	<u>مكان طبعه وسنته</u>
مجمع الأمثال جزآن	الميداني	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي (محمد بن أنجب البغدادي)	بولاق ١٣٠٩ هـ
» » الدول	لأبي الفرج بن هرون الملطي المعروف بابن العسيري	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	للمسعودي	مصر ١٣٠٤ هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣ م
» »	لابن خرداذبة	» ١٨٨٠ م
المسالك والممالك	للاصطخري	ليدن ١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للابشيبي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي ، كتاب	انظر : مروج الذهب	
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك ١٨٧٠ م
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	( خط )
المقدسي ، جغرافية	انظر : أحسن التقاسيم	
المقري ، تاريخ	» : نفع الطيب	
المقريزي ، تاريخ	» : خطط مصر	
الملل والنحل جزآن	لشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م
الموطأ	للإمام مالك	( خط )



<u>اسم الكتاب</u>	<u>اسم مؤلفه</u>	<u>مكان طببعه وسنته</u>
الميداني ، كتاب	انظر : جمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠١ م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبي المحاسن	لیدن ١٨٥١ م
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ هـ
نهاية الأرب في قبائل العرب	للقلقشندي	( خط )
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمداني ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ
اليعقوبي ، جغرافية	انظر كتاب البلدان	



## فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	مقدمة	٥	مقدمة
	علم العرب قبل الاسلام		
٥٣	العجم	١١	تمهيد في جزيرة العرب وأهلها
٥٥	تدوين العلم في الاسلام	١٢	علم النجوم عند العرب
٥٨	الخط العربي	١٥	الانواء ومهاب الرياح
	العلوم الشرعية الاسلامية	١٧	الميثولوجيا
٦٥	الحديث	١٨	الكهانة والعرافة
٧٢	الفقه	٢٢	الطب في الجاهلية
٧٧	العلوم اللسانية	٢٤	الشعر في الجاهلية
٨٢	الادب واللغة	٣٣	الخطابة في الجاهلية
٨٥	بلاغة الانشاء	٣٦	مجالس الادب وسوق عكاظ
٨٩	التاريخ والجغرافية	٣٩	الانساب في الجاهلية
٩٥	مصادر التاريخ الاسلامي	٤١	التاريخ
٩٧	الجغرافية او تقويم البلدان		
١٠٤			علوم العرب بعد الاسلام
	الآداب العربية الجاهلية		
	الخطابة بعد الاسلام	٤٢	الاسلام والعلوم الاسلامية
١٠٩	الشعر بعد الاسلام	٤٤	العرب والقرآن والاسلام
١١٣	طبقات الشعراء	٤٥	احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها
١١٨		٥٢	الرومان والاسلام والعلم

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
العلوم الدخيلة		الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية	
آداب اللغة اليونانية	١٢٨	الكتب المنقولة عن اليونانية	١٦٧
الآداب اليونانية القديمة	١٣٠	الكتب المنقولة عن الفارسية	١٧٣
الشعر اليوناني	١٣٠	الكتب المنقولة عن اللغة الهندية	١٧٤
الادب والعلم والفلسفة		الكتب المنقولة عن النبطية	١٧٧
عند اليونان	١٣١	الكتب المنقولة عن العبرانية	
الدور الاسكندري	١٣٧	واللاتينية والقبطية	١٧٨
آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام	١٤٣	محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين	١٨٠
آداب اللغة السريانية قبل الاسلام	١٤٥	انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية	١٨٤
آداب اللغة الهندية قبل الاسلام	١٤٧	الخلفاء والامراء والعلم	١٨٧
نقل العلوم في العصر العباسي		تأليف الكتب للخلفاء والامراء	١٨٩
التنجيم	١٥١	المؤلفون والمؤلفات	١٩١
الطب	١٥٢	تأثير الاسلام في العلوم الدخيلة	
المهدي والرشد	١٥٣	الفلسفة في الاسلام	١٩٤
المأمون والفلسفة والمنطق	١٥٤	جمعية اخوان الصفا	١٩٧
المأمون والاعتزال	١٥٥	فلاسفة الاندلس	١٩٨
المأمون ونقل الكتب	١٥٦	الطب في الاسلام	١٩٩
نقلة العلم في العصر العباسي	١٥٧	التنجيم والنجوم او الفلك	٢٠٧
السوريون ونقل العلم	١٦٣	الحساب والجبر والهندسة	٢١٤
نقل العلم لغير الخلفاء	١٦٤	الفنون الجميلة	٢١٥
		المدارس في الاسلام	٢١٩

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المكتبات أو خزائن الكتب	٢٢٤	الطوقية عند القبائل المتوحشة الآن	٢٣٧
انساب العرب القدماء	٢٣٥	العرب القدماء وانسابهم	
رد على القائلين بالامومة والطوتمية		واخبارهم	٢٤٣
عند العرب الجاهلية	٢٣٦	الامومة عند العرب	٢٥١
		الطوقية عند العرب	٢٦١
		أصنام العرب	٢٧٤

### الجزء الرابع

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٢٨١	الخلع	٢٩٩
موضوع هذا الجزء	٢٨٢	العبيد في الجاهلية	٢٩٩
العصر العربي الاول	٢٨٧	العبيد عند العرب	٣٠٠
تمهيد في العرب قبل الاسلام	٢٨٨	الموالي في الجاهلية	٣٠٢
البدو والحضر	٢٨٨	النزلة الاجانب في الجاهلية	٣٠٥
المصيبة العربية قبل الاسلام	٢٨٩	الابناء	٣٠٦
أنساب العرب	٢٩٠	سياسة الدولة في الجاهلية	٣٠٧
عصبية النسب	٢٩٣	مناقب العرب في الجاهلية	٣٠٨
العرب والمعجم قبل الاسلام	٢٩٤	الوفاء	٣٠٨
الأمومة والحقولة	٢٩٤	الجوار	٣٠٩
توابيع العصبية العربية : الحلف	٢٩٧	الاريجية	٣١٠
الاستحقاق	٢٩٧	سياسة العرب في عصر الراشدين	٣١١
		الجامعة الاسلامية	٣١١

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الجامعة العربية	٣١٢	آثار بني أمية في الاسلام	٣٤٤
الانسياس في الارض	٣١٣	العصبة الوطنية في عصر الأمويين	٣٤٥
طبقات عربية اسلامية	٣١٥	تحضر العرب بعد الفتح	٣٤٥
سياسة الخلفاء الراشدين	٣١٧	تعصب المدن الاسلامية بعضها	
ابو بكر	٣١٧	على بعض	٣٤٦
عمر بن الخطاب	٣١٧	اصطناع الاحزاب في عصر الأمويين	٣٤٩
عثمان بن عفان	٣١٨	سياسة معاوية	٣٤٩
علي بن ابي طالب	٣١٩	عمرو بن العاص	٣٥١
انتشار العرب في الارض	٣٢٠	بذل المال في عصر الأمويين	٣٥٣
الاستكثار بالتناسل	٣٢١	المطاء من بيت المال	٣٥٣
انتشار العرب بالفتح	٣٢٢	تدقيق علي وبخل ابن الزبير	٣٥١
انتشار العرب بالمهاجرة	٣٢٣	الاستكثار من الأموال في عصر	
بنو سليم وبنو هلال	٣٢٤	الأمويين	٣٥٨
العبيد والموالي في الاسلام	٣٢٥	عمال بني أمية	٣٥٩
الرق في الاسلام	٣٢٦	الاسلام والجزية	٣٦٠
الموالي في الاسلام	٣٢٨	الصدقة والرشوة	٣٦١
سياسة الدولة في عهد الامويين	٣٣٢	الاستخفاف بالدين وأهله	٣٦٢
انتقال الخلافة الى الامويين	٣٣٢	استهانة بعض الأمويين بالمقدسات	٣٦٣
معاوية وعلي	٣٣٤	الخلافة والنبوة في رأي بعض العمال	٣٦٣
رغبة بني أمية في السيادة	٣٣٦	الفتك والبطش في عصر الأمويين	٣٦٥
العصبة العربية في عصر الأمويين	٣٣٦	بسر بن اوطاة وقتل الأطفال	٣٦٦
العرب وقریش	٣٣٦	خزانة الرؤوس	٣٦٩
لقبائل اليمنية والمضرية	٣٣٨	الموالي وأحكامهم في عصر الامويين	٣٧٠
عصبة العرب على المعجم	٣٤٠	نقمة الموالى على العرب	٣٧٢
العرب والموالى	٣٤١		



الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الدولة السلجوقية وفروعها ٤٧٠	٤٤٩	الأتراك بعد الإسلام	٤٤٩
انتقال المملكة السلجوقية الى	٤٥٠	الجند التركي في الدولة العباسية	٤٥٠
الأتابكة ٤٧٢	٤٥٠	المتنم والأتراك	٤٥٠
سلاجقة الروم ٤٧٣	٤٥٢	الجند التركي ومصالح الدولة	٤٥٢
الدول الكردية في ظل العباسيين ٤٧٤	٤٥٥	الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية	٤٥٥
الدول الصغرى ٤٧٤	٤٥٥	سبب نفوذهم	٤٥٥
الدول الأيوبية ٤٧٤	٤٥٦	فرق الخدم وطبقاتهم	٤٥٦
الخلافة والسلطة ٤٧٦	٤٥٧	القواد والوزراء من الخدم	٤٥٧
الخلافة لازمة للسلطة المطلقة ٤٧٧	٤٥٨	تأثير النساء في سياسة الدولة	٤٥٨
الخلفاء والفقهاء ٤٧٩	٤٥٩	أمهات الخلفاء	٤٥٩
الدولة الإسلامية والخلافة ٤٨٢	٤٦١	فساد الاحكام في الدولة العباسية	٤٦١
الخلافة في غير قریش ٤٨٤	٤٦١	التنازع على النفوذ	٤٦١
العصر العربي الثاني	٤٦٢	أنواع المصادرة ومقاديرها	٤٦٢
الامارات العربية والعنصر العربي ٤٨٨	٤٦٤	اقتزاز الأموال	٤٦٤
سياسة بني أمية في الاندلس ٤٩٣	٤٦٥	الجانوسية واللصوصية	٤٦٥
الصقالبة ٤٩٤	٤٦٧	تفرق المملكة العباسية	٤٦٧
ملوك الطوائف بالاندلس ٤٩٦		الدول الفارسية في ظل العباسيين	
		الدول الصغرى ٤٦٨	٤٦٨
		دولة آل بويه ٤٦٩	٤٦٩
		الدول التركية في ظل العباسيين	
		الدول الصغرى ٤٧٠	٤٧٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الدولة الفاطمية		أنعصر المغولي او التتري	
الشيعة في المغرب	٤٩٨	تحلال المملكة الاسلامية	٥٠٦
الشيعة في مصر	٤٩٩	المغول	٥٠٧
سياسة الدولة الفاطمية	٥٠٠	جنكيز خان	٥٠٨
أدوار الدولة الفاطمية	٥٠١	هولاكو وسقوط بغداد	٥١٢
		تيمور لنك	٥١٣
		الدور الثاني من ظهور الدولة	
		العثمانية ولا يزال	٥١٤

### الجزء الخامس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥١٩	طبقات الناس في بلاد فارس	٥٣١
نظام الاجتماع		طبقات الناس عند العرب الجاهلية	٥٣٣
نظام الاجتماع في المملكة الاسلامية	٥٢٤	نظام الاجتماع في عصر الراشدين	٥٣٣
		نظام الاجتماع في عصر الأمويين	٥٣٤
طبقات الناس قبل الاسلام	٥٢٤	نظام الاجتماع في العصر العباسي	٥٣٧
طبقات الناس في الشام والعراق	٥٢٤	طبقات الخاصة	٥٣٧
نظام الاجتماع في الشام والعراق	٥٢٨	أقباة الخاصة	٥٣٩
طبقات الناس في مصر	٥٢٩	الخدم	٥٤٠
طبقات الناس في افريقية	٥٣٠	الأرقاء	٥٤٠
		الحصيان	٥٤٤



الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الجواري	٥٤٦	الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين	٥٨٣
طبقات العامة	٥٤٩	الآداب الاجتماعية في العصر العباسي	٥٩٢
الطبقة الأولى	٥٥٠	المرأة في العصر العباسي	٥٩٢
أهل الفنون الجميلة	٥٥٠	الارتقاء بالسجاء	٥٩٤
المغنون	٥٥١	المجاملة في المعاملة	٦٠٠
العلماء والفقهاء والأدباء	٥٥٦	العائلة في التمدن الاسلامي	٦٠٢
التجار	٥٥٧		
الصناع	٥٦١	المعيشة العائلية	٦٠٧
الطبقة الثانية من العامة	٥٦٤	الطعام	٦٠٧
المزارعون أهل القرى	٥٦٤	اللباس	٦٠٨
العامة سكان المدن	٥٦٥	المأوى	٦١١
أخلاق العامة	٥٦٩		
الآداب الاجتماعية		حضارة الدولة الاسلامية	
آداب العرب في الجاهلية	٥٧٦	عمارة المدن والقصور	٦١٦
مناقب العرب الجاهلية	٥٧٦	القطر المصري	٦١٦
المرأة في الجاهلية	٥٧٨	الأندلس	٦٢١
آداب العرب في صدر الاسلام	٥٨١	القصور والمباني	٦٢٢
الآداب الاجتماعية في عصر		مباني الأمويين في الشام	٦٢٣
الراشدين	٥٨١	مباني العباسيين بالعراق	٦٢٤
		مباني الأمويين بالأندلس	٦٢٦
		مباني مصر	٦٣٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الثروة والرخاء ونتائجها	٦٣٤	مواكب الخلفاء	٦٨٣
فروة الخلفاء وأهلهم	٦٣٤	مواكب الخلفاء في ابان التمدن	٦٨٣
فروة رجال الدولة وغيرهم	٦٣٥	احتفالاتهم	٦٨٦
نتائج الفروة	٦٣٦	الخلفاء والدول المعاصرة	٦٩٠
التألق في الطعام	٦٣٦	العاب الخلفاء وملاهيهم	٦٩٥
البذخ في الألبسة	٦٣٩	الصيد والقنص	٦٩٥
الأثاث والرياش والمجوهرات	٦٤١	الحلبة أو السباق	٦٩٧
التسري	٦٥١	الكرة والصولجان	٦٩٨
السخاء	٦٥٣	البندق	٦٩٩
التهنك	٦٦٢	ارتباط السباع	٧٠٠
		الكتب التي وردت في هوامش	
ابهة الدولة		الكتاب	٧٠٣
مجالس الخلفاء	٦٦٦	فهرس	٧١١
شكل المجلس وفرشه	٦٦٧		
مجالسة الخلفاء	٦٦٨		
مجالس الأدب والشعر	٦٧٥		
مجالس المناظرة والعلم	٦٧٩		
مجالس الغناء والانس	٦٨٠		

